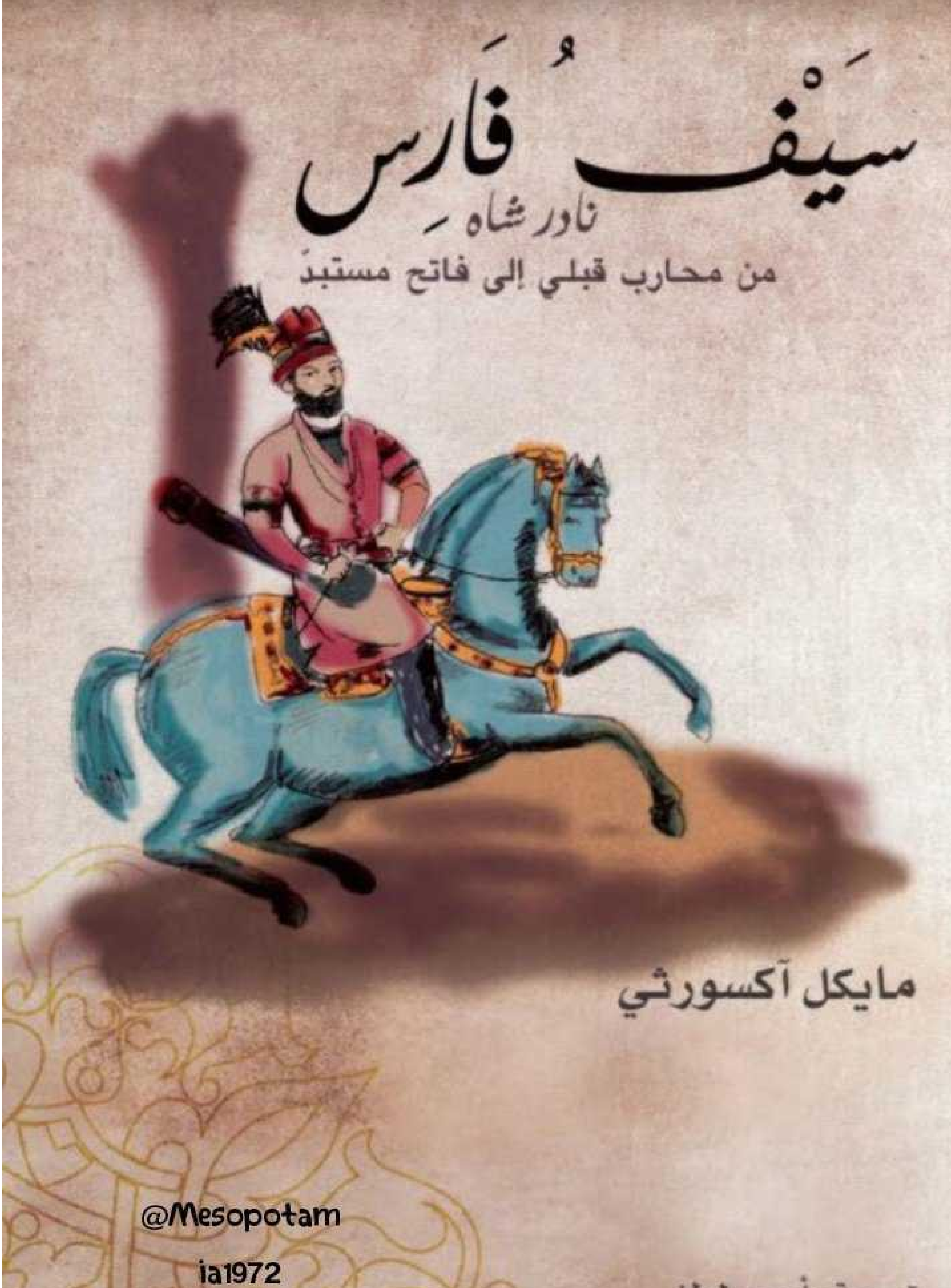


سَيْفُ فَارِس

نادر شاه

من محارب قبلي إلى فاتح مستبدّ

مايكل آكسورثي

ترجمة : أحمد لطفي

سَيْفُ فَارِس

نادر شاه
من محارب قبلي إلي فاتح مستبدّ

تأليف:
مايكل أكسورثي

ترجمة:
أحمد لطفي علي
مراجعة: عمر الأيوبي

الطبعة الأولى 1431هـ 2010م

سَيْفُ فَارس

مايكل أكسوُرْثي

DS294 A9912 2009
Axworthy, Michael
سيف فارس : نادر شاه : من محارب قبلي إلى فاتح مستبدّ / تأليف مايكل أكسورث ؛ ترجمة
أحمد لطفي علي - أبوظبي : المجمع الثقافي، كلمة، 2010
440 ص ؛ 24X17 سم
ترجمة كتاب The sword of Persia
تدمك 0-500-01-9948-978
.Nader Shah, from tribal warrior to conquering tyrant
نادر شاه، شاه ايران - 1747-1688
إيران - الحكام و الملوك - السيرة الذاتية.
ايران - تاريخ - القرن -16القرن 18
أ- علي، أحمد لطفي

يتضمن هذا الكتاب ترجمة الأصل الإنجليزي:

The Sword of Persia Nader Shah
from Tribal Warrior to Conquering Tyrant
Michael Axworthy
First Published in 2006 by I.B. Tauris & Co Ltd



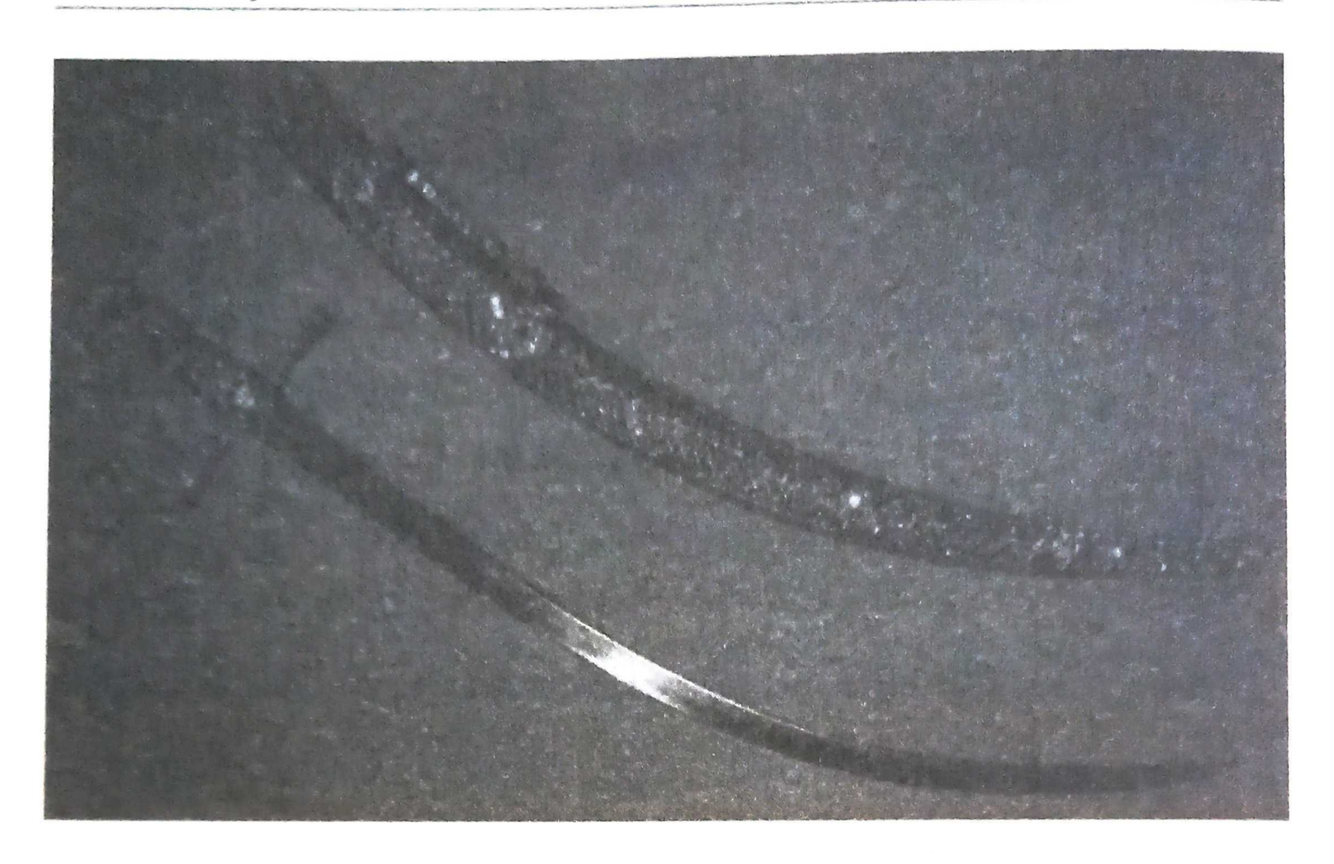
www.kalima.ae

ص.ب 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف 468 6314 2 971+ فاكس 462 6314 2 971+



أبوظبي للثقافة والتراث
ABU DHABI CULTURE & HERITAGE
www.cultural.org.ae

ص.ب 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف 300 6215 2 971+ فاكس 059 6336 2 971+



1– ابن السيف

هذا هو السيف الذي يعتقد أن نادر شاه كان يحمله في حملاته. وهو الآن موجود في طهران. زيّن بالنقوش والرسوم في عهد فتح علي شاه بعد مرور خمسين عاما أو أكثر، ورُصّع الغمد بالماس. وقد استخدم نادر الصور المجازية للسيف في وصف نفسه في غير مناسبة.

(الصورة من متحف أنتاريو الملكي)

إلى والدي..

صدر هذا الكتاب في عام 2006 عن دار نشر آي بي توريس آند كومباني لمتد B.Tauris.I & Co Ltd

6 طريق سالم، لندن

175 فيفث آفينيو، نيويورك 10010

العنوان الإلكتروني: www.ibtauris.com

يتم توزيعه في الولايات المتحدة الأمريكية وكندا من جانب قسم بالجريف ماكميلان التابع لدار نشر سينت مارتين

175 فيفث آفينيو، نيويورك، 10010

ISBN 10: 1 85043 706 8

ISBN 13: 978 1 85043 706 2

يمكن الحصول على نسخة إلكترونية كاملة من هذا الكتاب من «المكتبة البريطانية»

ويمكن الحصول على نسخة إلكترونية كاملة من هذا الكتاب من «مكتبة الكونجرس»

بطاقة كتالوج محتويات مكتبة الكونجرس: متوافرة

تمت طباعته في بريطانيا العظمى لدى شركة تي جيه إنترناشيونال لمتد، بادستو

المحتويات

الخرائط
والأشكال التوضيحية

الأشكال التوضيحية

شكر وعرفان

في إطار جهودي لإعداد هذا العمل، استفدت أيما استفادة من العون الكريم والمشورة السخية لعدد كبير من الأشخاص، يأتي على رأسهم كريس وهوما روندل، ونرجس مجد، وكريستوس نيفادوبولوس، وليو درولاس، الذين بدون ترجماتهم للنصوص الأصلية وإعادة دراستهم وتدقيقهم للنقاط والاستفسارات الفردية دون كلل أو ملل، لما كان باستطاعتي أن أخرج بالعمل على هذه الصورة الحالية. كان بيتر آفري مصدر تشجيع وإلهام لي، وعوناً كبيراً في عدد من النقاط الخاصة والترجمات. وقد ساعدتني كريس روندل في قراءة المخطوطات وكذلك فعلت ساندي مورتون وتشارلز ملفيل، ووويليام فلور، وعلي الأنصاري، وجيل بودن، حيث ساهمت ملاحظاتهم ومقترحاتهم في تحسين هذا العمل كثيرا (رغم أنه لم يتم قبول جميع الملاحظات)، وكذلك ملاحظات أندرو نيومان الذي درس أجزاءً من المخطوطة في مرحلة متقدمة من العمل. وقد أتاح لي ويليام فلور مراجعة عدد من أبحاثه التي لم يسبق نشرها وتبين أنها مهمة جداً في إعداد هذا الكتاب. وكان بول لوفت، إلى جانب علي الأنصاري وأنوش احتشامي، فعّالاً في تأمين «منحة بحثية» لي من جامعة دورهام لغرض إنجاز هذا المشروع، وأفادني بطرق عديدة أخرى. وكان علي الأنصاري بمثابة حافز لي وموجّها في المراحل الأولية من اهتمامي بنادر شاه، ومن دونه لم يكن ممكنا أن يخرج هذا العمل إلى النور.

وقد وفر لي كثيرون غيرهم التوجيه والتشجيع والدعم، سواء في اقتراح اتجاهات جديدة للبحث أو التحليل أو الإجابة عن تساؤلات معينة، أو من خلال مساعدتي في العثور على المواد التي وجدت صعوبة في الوصول إليها. ومن هؤلاء إرني تاكر وجون أبلبي، وكاثرين بابايان وجون جورني، ومنصور صفاتجول وهايدي هوفستتر (على وجه الخصوص)، وآارون دوني، وحنا كارتر، وجون كارتر، وسيرجي توركين، وأدريان ستيل، وسانجاي سوبراهمانيام، وميشيل برنارديني، وجنيفر سكارس، وإيان هيث، وستيفن بليك، وروبرت هيلنبرند، وبرنارد أوكين، وإيان مادوك، وبوبي هامبسون، وبيلا برينجل،

وإيونا مولسورث. كما أشعر بالامتنان لأختي هيلين آكسورثي لدعمها من خلال تقديم الخرائط ومساعدتها لي بوجه عام.

وأشكر إنيز لين وجوسيا لاويك وإديث جراي وغيرهم من فريق العمل بمكتبة لندن على كرمهم وتسامحهم الذي تجاوز الحدود العادية في تيسير حصولي على الكتب وإعارتها لي، ذلك الجهد الحميد الذي شاركهم فيه فريق العمل بمكتبة جامعة كمبردج، وخاصة كلير ولفورد وآخرون في قاعة الكتب النادرة، ولس جودي.

ولا يفوتني أيضاً أن أتقدم بخالص الشكر إلى إيرادج باقرزده لمنحي فرصة إعداد هذا الكتاب في المقام الأول، وكيت شيرات وكلير دوبوا في دار نشر «آي بي توروس»، وزوجتي سالي التي ترجمت لي نصاً محوريا عن اللغة الروسية، والتي من دون دعمها وصبرها ما تمكّنت من الانتهاء من هذا العمل.

بسم الله الرحمن الرحيم

ألا إن أولي الألباب الذين أوتوا أسباب الحكمة والعقل ليعلمون أنه عندما تسود الزمان النوازل والمُلمات وتختلط الأمور، وعندما تحابي التقادير رغبات الظالم، فإن الحاكم الأعلى للكون ومدبر الأمر كله يستخلف رجلاً يحقّق الرحمة الإلهية الأبدية...

ميرزا مهدي أسترأبادي

مقدمة

في جوف ليلة ظلماء يحفها الخوف من الأمواج المتلاطمة وشراسة الدوامات،
تُرى كيف يشعر هؤلاء الناس السعداء- هناك على البر- بما نحن فيه من مأساة؟

حافظ

تتبع قصة نادر شاه منحنى مأسوياً- من بدايات غامضة إلى مؤامرات شرسة وانتصارات عسكرية مظفرة وجلال وثراء وجاه، إلى الخطأ والإرهاب والإحباط وفرط القسوة والخلل العقلي والوفاة- وتجري كل هذه الأحداث في حقبة تاريخية وأماكن يجهلها معظم القراء في الغرب. بدأت أولى صفحات قصة نادر في الربع الأول من القرن الثامن عشر، كقائد عسكريّ مغمور ذي أصول غامضة، فحرّر فارس من احتلال الأفغان وأخرج الأتراك العثمانيين وتغلّب على الروس وأخرجهم من البلاد، وغزا الأراضي العثمانية، وألحق الهزيمة بالعثمانيين في عقر دارهم، وأعلن نفسه شاهاً وهاجم الأفغان في أراضيهم، وأنزل بهم الهزيمة من جديد، ثم غزا الهند وفتح دلهي، ثم انطلق نحو آسيا الوسطى، فاسترضى فيها التركمان والأوزبك قبل أن يعود إلى الغرب ويشن ثانية حرباً ظافرة على العثمانيين. وفي بداية أربعينيات القرن الثامن عشر، ربما كان الجيش الذي بناه نادر أقوى قوة عسكرية في العالم، ما جعله مدرسة تخرج فيها زعماء أقاموا فيما بعد دولاً مستقلة في أفغانستان وجورجيا. لكن نادر لم يلبث بعد غزو دلهي أن فقد توازنه، واصطلحت عليه الأمراض، واستبدت به روح الجشع والغضب والقسوة ليلقى مصرعه في نهاية المطاف علي أيدي ضباطه.

لا شك أنه لولا نادر شاه لآلت إيران (كان يعرفها الغرب في ذلك الوقت باسم فارس) إلى نفس مصير بولندا في القرن الثامن عشر- اقتسامها كلياً أو جزئياً بين الدول المجاورة: الأفغان والروس والأتراك العثمانيين.[1] وكانت بوادر هذه القسمة قد ظهرت بالفعل عند ظهور نادر على الساحة. ولو ابتُلعت فارس، لتغيرت علاقات القوة بين الإمبراطورية

العثمانية وروسيا وآسيا الوسطى وأفغانستان والهند، واتخذت طابعا مختلفا كل الاختلاف في العقود والقرون التي تلت.

بعدما فتح نادر دلهي، تنبّهت شركة الهند الشرقية إلى ضعف دولة المغول في الهند، وإمكانية توسيع مشروعات الشركة هناك على نطاق أوسع وأكثر تحقيقاً للربح بتغاضي الحكام الهنود المحليين. ولولا نادر شاه لجاء الحكم البريطاني متأخراً وفي صورة مختلفة، وربما لم يأتِ على الإطلاق— مع ما يستتبعه ذلك تأثيرات عالمية هامة.2

ولا شك أن قصة حياة نادر مليئة بالصخب والأحداث، ولكن بعيداً عن أهميتها وأحداثها الشيقة، فإن هذه الاعتبارات وحدها تجعل من المستغرب أن لا يكون نادر شاه شخصية تاريخية معروفة خارج إيران. لماذا لا يتمتع نادر بتلك الشهرة؟ يبدو أن السبب، من منظور بريطاني على الأقل، يكمن في أثر التأريخ الخاص بالعصر الفيكتوري.3 فمع أننا نرفض أو نراجع النماذج الفيكتورية، فإننا لا نزال نلتزم بالأجندة الفيكتورية، وتلك النماذج غير الواردة في الأجندة لا تسترعي الانتباه حتى يومنا هذا.

كانت الفكرة السائدة في العصر الفيكتوري4 عن شعب فارس وبلاد المشرق بوجه عام أنه شعب سلبي يستشري فيه الفساد والانحطاط وفريسة سهلة للاستعمار وجهود الإصلاح الخارجية. ولما كان نادر حاكماً قويّاً شديد الكفاءة لا يتماشى مع تلك الصورة فقد تم تهميشه. ويبدو أن التفوق العسكري لنادر كان خليقا به أن يقلل من عظمة كلايف وغيره من المستعمرين الغربيين وأن يحمل البعض على التشكيك في التفوق الملازم للجيوش الغربية– وهي أمور ضرورية لتكريس أسطورة الإمبراطورية. ولذلك كان يُنظر إليه على أنه مجرد ومضة ظهرت واختفت في تاريخ الهند.5

وقد ضاعت فرصة كبيرة من نادر بغيابه وغياب سمعته وسيرته عن الكتابات التاريخية في أثناء العصر الفيكتوري. فمنذ ستالين وهتلر لم يعد الأوروبيون ينظرون إلى من كانوا يُعرفون بعظماء التاريخ نظرة الإعجاب نفسها التي كانت في أعين أجدادنا خلال القرن التاسع عشر. إلا أننا لا يمكن أن نتجاهلهم وهنا تكمن المشكلة. فنحن ننفر من عدم اكتراثهم بمعاناة البشر، لكننا في النهاية لا نملك سوى أن نُعجب بطاقاتهم وذكائهم الشديد

وانتصاراتهم العظيمة، ومن أمثال هؤلاء الرجال الإسكندر ونابليون. ولو لم تخدعنا هذه الصفات فإننا سنبهر من الطريقة التي أدت بها هذه الصفات ذاتها إلى تحطيم هؤلاء الرجال العظماء من الداخل. ولا شك أن الأحداث الدامية التي صاحبت حكم نادر، ولاسيما في آخر مراحل حكمه، حين تحوّل إلى وحش طاغية، من أكبر الأمثلة على ذلك. لكن الأوقات الصعبة هي التي تصنع الرجال، ولن يكون من العدل أن نحكم على نادر شاه بمعايير الأوقات السعيدة والأماكن الهادئة التي لم يعرفها أي من معاصريه. وقد قال أحد المؤرخين الموصوفين بالعدل والموضوعية عن اعتلاء نادر العرش إن «نادر أمسك بالصولجان الذي أنقذه بفضل بسالته والذي ما كانت تستطيع يد أضعف منه أن تقبض عليه».6

وقد كتب روسو ذات مرة أنه كي يفهم المرء كتاباً فهماً صحيحاً، عليه أولاً أن يُنحّي النقد جانباً، حتى يصل إلى لب الموضوع. وعندئذ يستطيع أن يطبق عليه معايير الحكم السديد، وهو النهج الذي اتبعته عندما شرعت في الكتابة عن هذه الشخصية الخارقة.

لا تزال تظهر مصادر معلومات جديدة عن تاريخ فارس خلال القرن الثامن عشر حتى الآن. حيث يكشف كل من فيليم فلور (Willem Floor) ومنصور صفاتجول (Se-fatgol) وإرنست تاكر (Ernst Tucker)، على وجه الخصوص، عن معلومات جديدة مهمة في هذا الصدد، ويستعرضون اهميتها بأساليب من شأنها أن تعزز فهمنا للأحداث وتأخذه إلى اتجاهات جديدة. ولا شك أن كمية المعلومات والمواد المأخوذة عن سجلات شركة «شركة الهند الشرقية الهولندية»، والتي ترجمها ونشرها فيليم فلور مؤخراً، تقف على جانب كبير من الأهمية. وكذلك فإن تاريخ باسيل فاتاتزي (Basile Vatatzes)، الذي ظن يوماً أنه قد ضاع، والذي قمت بمراجعته واستخدامه في هذا الكتاب للمرة الأولى، يعد مصدراً ذا أهمية خاصة ويستحق المزيد من البحث والدرس.7 أما الاطلاع على المادة غير المنشورة في سجلات الأرشيف الروسية فيمكن أن يغير تفسير علاقة نادر بروسيا والأحداث في القوقاز على الأخص. وحين نأتي إلى هذا التفسير، يدور شعوري الشخصي حول حقيقة واحدة تقول إن الحروب خارج أوروبا في تلك الفترة لا تزال غير مفهومة بشكل واضح، وتحتاج إلى الكثير من الشرح المفصل على شاكلة ما قدمه جوس

جومانز (Gos Gommans). لا يزال تاريخ ميلاد نادر وتفاصيل المراحل الأولى من حياته في حاجة إلى مزيد من الدراسة. ولا بد أن سجلات الأرشيف العثمانية القديمة تزخر بالمواد القيمة التي تستحق المزيد من التنقيب والبحث. فخلافاً لبعض الفترات التاريخية الأخرى التي قتل فيها الدارسون المادة ذاتها بحثاً، فإن هناك الكثير في تاريخ فارس في القرن الثامن عشر (والمنطقة بشكل عام) مما يحتاج إلى دراسة.

حاولت في أثناء اطلاعي على المادة الأصلية وأنا بصدد الوقوف على الأحداث الحقيقية لحياة نادر أن أتوخى الاجتهاد والتمييز بقدر الإمكان. لكن إضافة إلى المادة التي تناولت الحقائق بشكل مباشر فقد كان للكثير من القصص والحكايات المشكوك في أصلها والتي لا يمكن توثيقها إطلاقا، إسهام متفاوت الأهمية من موضع لآخر. وحتى إن كانت تلك القصص مجرد خرافات فإنها تكشف جوانب عن رأي المعاصرين لنادر فيه. وكنت أستطيع أن أجعل هذا العمل مجرد سرد جاف يستبعد كل ما هو موضع شك، لكني فضلت استعمال تلك المادة مع التحذير من عدم مصداقيتها في بعض الأحيان، كي أسمح للقارئ أن يصدر حكمه الشخصي عليها. هناك زاوية مختلفة لكل رواية تاريخية، وقد توخيت الحذر كي أنظر إلى كل المصادر بعين الناقد، إلا أنني كنت يقظاً في ذات الوقت حتى لا أقع في خطأ المبالغة في تفسير دوافع كتّاب القرن الثامن عشر. فهذه الحقبة من تاريخ فارس هي فترة ما قبل الاستعمار، وكثير من الاتجاهات والأفكار التي تسيطر على نظرتنا للشرق الأوسط اليوم تعد غير لائقة بالمرة ومنطوية على الكثير من المفارقات التاريخية. لذلك فضلت أن أبحث عن المادة القيّمة حتى في المصادر المشكوك فيها بدلاً من استبعادها لأنها متحيزة أو موالية أو حافلة بالطُرف والنوادر.

لو أن نادر استطاع أن يعزز تفوقه العسكري وأن يورّث أبناءه دولة متماسكة وجيشاً قويّاً، فلربما استطاعت أسرته القوية أن تحافظ على وحدة الأراضي الإيرانية وأن تحقق تنمية اقتصادية وإدارية داخلية على شاكلة التنمية التي تحققت في دول أوروبا في تلك الفترة بفضل التنافس العسكري بين هذه الدول.8 كذلك فإنه من المعقول الاعتقاد بأن دولة فارسية قوية كهذه تتوسع في الفراغ الذي تركه المغول والعثمانيون الأضعف منها تحت

حكم أسرة (مثل أسرة نادر) تسعى للتغلب على الشقاق بين السنة والشيعة، كان بإمكانها أن تجنب العالم الإسلامي الانهيار أمام الغرب، وهو الأمر الذي أصبح يثير الجدل والخلاف مؤخراً.9 لذلك فإن هذا الكتاب يشرح ما كان من الممكن أن تؤول إليه الأمور ويفسّر السبب الذي جعل الأحداث تسير خلافاً لذلك.

في مطلع القرن الحادي والعشرين، عادت قندهار وكابل وبغداد والنجف والبصرة والموصل وكركوك إلى البروز من جديد، ما ألقى مزيداً من الضوء على أهمية المنطقة ومغزى فهم تاريخها. فإيران تتمتّع حالياً بأهمية خاصة- سواء على المستوى الفكري أو الجغرافي- بالنسبة للمنطقة مثلما كانت في عهد الشاه نادر. ولو استطاع هذا الكتاب أن يحفز الاهتمام بنادر وبتاريخ إيران، فسيكون قد نجح في تحقيق الفائدة المرجوة منه. غير أن هذا العمل لا يسعى إلى تقديم جميع الأبحاث الحديثة التي تتناول حياة نادر شاه، والتي ظهرت مع كتاب لورنس لوكهارت (Laurence Lockhart) الصادر في عام 1938. ورغم أنه يعرض لأغلب المادة الجديدة ويفسر الأحداث من منظور جديد، فإنه يقدم تحليلات جديدة لعدد من الأحداث الهامة في هذا الإطار. ويرمي هذا العمل إلى طرح رواية تاريخية لقصة نادر على جمهور جديد من القراء، ذلك أن قصة حياة نادر شاه وتاريخ إيران يعتبران ملكا لنا جميعاً، شأنهما شأن حياة هنري الثامن أو تاريخ روما تحت حكم أباطرة أسرة كلوديان. أضف إلى ذلك أن قصة نادر شاه رواية شيقة وصادمة في آن، مثل قصة ماكبث أو ريتشارد الثالث، وهي قصة جديدة قادرة على توسيع دائرة مداركنا وفهمنا للأمور.

ومن الضروري هنا الإشارة إلى نقطة واضحة في الحديث عن علاقة نادر بالعالم الحديث. فبالنسبة لهؤلاء الذين ينظرون لإيران اليوم على أنها مصدر تهديد فقد يجدون في هذا الكتاب دليلاً على أن إيران كانت قوة طاغية تشكل تهديداً دائماً لجيرانها. لكن ذلك غير صحيح تماماً. فأهم ما يميز نادر في خضم التاريخ الإيراني هو أنه مختلف تمام الاختلاف عن سابقيه ولاحقيه على السواء، فهو شخصية استثنائية، يُختلَف في شخصه وفي أفعاله. وقد يشير آخرون إلى القسوة والبشاعة التي يصفها هذا الكتاب، ملوّحين بأن

تلك القسوة هي من خواص إيران أو الإسلام أو الشرق الأوسط أو استبداد طغاة الشرق.. إلخ. وهذا غير صحيح أيضاً. فممارسة الأعمال الوحشية، مثلها مثل رسم اللوحات أو طبخ الوجبات، تختلف من ثقافة لأخرى وتعكس خواص مميزة لكل ثقافة. لكن النزوع إلى العنف واستخدام القسوة أمر عام وشامل إلى حد ما مع الأسف. ولو أن هذا الكتاب يحمل رسالة فهي عن هشاشة التقاليد والمؤسسات والقيم التي رسَّخها الإنسان في مختلف الأماكن والأزمنة، كي يحصِّن نفسه من العنف والقسوة، وكذلك أهمية الحفاظ على تلك التقاليد والقيم وحمايتها.



2- منظر من الشرق

نادر شاه في حوار مهذب مع الإمبراطور المغولي محمد شاه رسمها أحد رسامي البلاط المغولي. ولعل هذه الصورة أدق تصوير لنادر. أما الشخص الذي يقف خلفه فيبدو أنه سعدات خان. أما الهالة المضيئة التي تحيط برأس نادر (والتي تستخدم في الرسم المغولي لتشير إلى الملكية) فتبدو أكبر بقليل من الهالة المحيطة برأس محمد شاه، كما أن نادر يجلس على ارتفاع أعلى منه لإظهار من هو السيد.

(صورة 12)

تمهيد

الأوج
سوف نقودكم إلى خيمة الحرب
وهناك تستمعون إلى تيمورلنك
يهدد العالم أجمع بألفاظه التي تقطر رعباً
ويذيق الممالك عذاباً من سيفه البتار
انظروا إلى صورته في هذه البلورة المأسوية
ثم صفقوا لمقاديره ما شئتم.

مارلو

قاد نادر شاه الجيش الفارسي إلى دلهي في 20 مارس/آذار 1739. فاصطف الجنود الفرس على جانبي مسار نادر من حدائق شاليمار خارج المدينة إلى قلعة شاه جاهان المبنية من الحجر الرملي الأحمر، لكن المواطنين قد التزموا منازلهم. وكان في صحبة نادر عشرون ألف فارس، وتقدم الموكب مئة فيل يحملون العديد من الجنود المسلحين المخضرمين[1]. عندما وصل نادر إلى القصر، ترجّل من فوق فرسه الرمادي ودخل سيراً على قدميه. وأطلقت المدافع الضخمة المنتشرة حول القلعة نيرانها تحية لنادر، وأحدثت دويّاً رهيباً حتى إن المدينة «بدت على وشك أن تنهار».1

وقبل ذلك بعشر سنوات في ربيع 1729، كانت فارس2 تعاني حالة من الانقسام والارتباك والذل. وكان الغزاة الأفغان قد احتلوا العاصمة أصفهان قبل ذلك بست سنوات، وكذلك استولى الأتراك والروس على أغلب المقاطعات الشمالية والغربية. وخلال عشر سنوات، في واحدة من أهم التغيّرات المقادير في العصر الحديث، هزم نادر كل أعدائه وجعل من فارس القوة المسيطرة من جبال القوقاز وحتى نهر يامونا. ومنذ بداية تحرك القوات من

(1) الجزايرجيون ـ جنود راجلون مسلّحون ببنادق ذات عيار ثقيل تدعى جزاير.

أصفهان قبل عامين وأربعة أشهر، قطع نادر ورجاله أكثر من 1750 ميلاً وفتحوا في طريقهم أغلب ما يُعرف الآن باسم أفغانستان. في عام 1739، كان نادر في بداية حياته، وبدا أنه حقّق منجزات تيمور أو ربما تجاوزها، وهو الذي غزا دلهي قبل ثلاثمئة وأربعين سنة. ورغم أن الكثير من ابتكارات نادر تشير إلى المستقبل ولا ترجع إلى الماضي، فإن أفكاره كانت كثيراً ما تحمله على الاحتذاء بتيمور. فقد قرّر، مثل تيمور، أن ينهب ثروات دلهي بدلاً من أن يحاول ضمّ إمبراطورية الهند.

كانت دلهي في ذلك الوقت واحدة من أعظم عواصم العالم. وكانت تتلألأ فيها آثار تعود إلى مختلف عصور التاريخ، لاسيما إلى عصر شاه جاهان قبل قرن. كما كانت المدينة تعرف باسم شاه جاهان آباد وكان تعدادها حوالي 400 ألف نسمة.3 ومن بين أعظم الإمبراطوريات المسلمة في العالم في ذلك الوقت: العثمانية والفارسية والمغولية، كان المغول هم الأعظم والأكثر ثراءً ودلهي فخر هذه الإمبراطورية.

عند وصول نادر إلى القلعة، كان الإمبراطور المغولي محمد شاه في استقباله، فأقام له مراسم مهيبة وأغدق عليه الهدايا الثمينة. وقد سُمح لمحمد شاه في اليوم السابق بالعودة إلى المدينة بصحبة بعض الفرسان الفرس لكي يعدّ لاستقبال الفاتح بما يليق به من أبهة وفخامة. لم يكن أمام محمد شاه خيار آخر بعد الهزيمة التي مني بها في معركة كارنال في 24 فبراير/شباط، وما تلا ذلك من تشرذم جيش إمبراطورية المغول. كان من المقرر عقد الاجتماع الأول في قاعة كبار الزوار الفخمة[1]، وهي أفخم القاعات الرائعة التي بناها شاه جاهان. حيث كانت واجهة المبنى مكسوة بالرخام الأبيض الذي تغطيه مظلة من القماش الأحمر كي تحجب الشمس. أما الأعمدة والجدران والأسقف في داخل المبنى فمغطاة بأوراق عليها نقوش غنية من الذهب والفضة (انتزعها الفرس وصهروها فيما بعد). كما أمر محمد شاه بمد السجاد الفخم والأقمشة المصنوعة من الذهب على الأرض، وكذلك بفرش جميع أنواع الأثاث الثمين.4 كان أهم ما في المبنى عرش الطاووس الفخم. وهو أشبه بمنصّة مرتفعة منه بكرسي، يبلغ طوله ستة أقدام وعرضه أربعة أقدام. ويقف على

(1) دولة خان خاص، أو ديوان الخاصّة.

أربعة قوائم مصنوعة من الذهب، وكل جانب من جوانبه مرصع بالجواهر، بعضها كبير جداً. بلغ حجم بعض اللآلئ حجم بيض الحمام. أما القبة التي كانت تعلو العرش فكانت محمولة على اثني عشر عموداً، تغطيها الجواهر واللآلئ ويتدلى المزيد من اللآلئ من الحوافّ والأهداب. وكان يوجد على القبة طاووس من الذهب زُيِّن ريشه الملون بالزفير (الياقوت الأزرق) وغيره من الأحجار الكريمة. أما جوهرة كوي نور الضخمة فقد تم تركيبها في واجهة العرش يحيط بها الياقوت والزمرد.5 وكتبت عبارة باللغة الفارسية بشكل متكرر على جدران القاعة: «لو أن هناك جنة على الأرض، فهي هذه، فهي هذه، فهي هذه».

أعدّ حفل الاستقبال بطريقة تظهر أن محمد شاه لا يزال يتمتع ببعض العظمة، لكن بدت أيضاً كأن ولداً ينتظر زيارة والده. أكد نادر أن محمد شاه سيستمر في حكم الهند في ظل صداقة معه وبدعم من الحكومة الفارسية، لأن كليهما يعود إلى الأصول التركمانية نفسها. وانحنى الإمبراطور في تعبير عن العرفان، وكان عليه ذلك- فقد كان محظوظاً بالإبقاء على حياته والآن يحتفظ بعرشه أيضاً. وفي مقابل ذلك، قدم محمد شاه لنادر جميع كنوز الإمبراطورية- من ذهب وأكوام من الأحجار الكريمة غير المصقولة وعرش الطاووس طبعاً- كل الثروات الضخمة التي تجمعت على مدار قرنين من الحكم المغولي في الهند. رفض نادر الهدايا فأصرّ محمد شاه على أن يأخذها، فرفض نادر، فعرضها محمد شاه عليه مرة ثانية. وفي النهاية قبلها نادر. لقد أُجبِر الإمبراطور المهزوم في مشهد مسرحي هزلي على أن يقنع عدوه بأن يتقبل منه أثمن ما لديه من ممتلكات.6

شهد حفل الاستقبال موقفاً ذا مغزى مهم. فقد أدى تآمر سعدات خان، حاكم العوض، مع كبار النبلاء في بلاط الإمبراطور بمن فيهم ناظم الملك (حاكم الديكان) إلى إضعاف الدولة المغولية قبل الغزو الفارسي. وقد تسبب تهوّر سعدات خان في هزيمة المغول الكارثية وأسره في معركة كارنال في 24 من فبراير/شباط. ومنذ أن تم أسره حاول سعدات أن يكسب ثقة نادر بأن يصبح مستشاره بعد أن تخلى عن ولائه لمحمد شاه. وقد تم تعيينه بالفعل لجمع الجزية من سكان دلهي عندما دخل المدينة مع نادر. وحين وصل سعدات خان إلى القصر طلب مقابلة نادر على انفراد، لكن نادر كان قاسياً حيث تساءل

لماذا لم يبدأ في جمع الجزية. شعر سعدات خان بالإهانة.7 فضلا عن شعوره بالإذلال (خاصة بعد كارنال وشعوره بأن نادراً فضل عليه منافسه نظام الملك) لدرجة أنه شعر باليأس فتجرّع السمّ ومات. وقد احتل نادر ورجاله أماكن إقامة شاه جاهان في القلعة، وانتقل محمد شاه إلى قسم الحريم.8

بعد إحكام سيطرة القوات الفارسية على المدينة، أقيمت صلاة الجمعة في المساجد وذُكر فيها اسم نادر على أنه الحاكم الجديد. وتم صك العملات النقدية كتب عليها عبارة فارسية مفادها: «نادر أمير أمراء الأرض وملك الملوك وصاحب الاقتران السعيد». وهذه الصيغة الأخيرة («صاحب قران») تشير نظرياً على الأقل إلى حاكم وُلد في يوم حدث فيه اقتران فلكي مواتٍ بين الكواكب، لكن كان نادر يقدّر هذا اللقب بشكل خاص، لأنه أحد ألقاب تيمور.9 وكان لقب نادر في أثناء وجوده في دلهي هو «شاهنشاه» (ملك الملوك)- وهو اللقب التقليدي للأباطرة المغول. أياً تكن نوايا نادر الحقيقية وغموض وضع محمد شاه، فقد أوضح نادر جليّاً منذ بداية حكمه في دلهي أنه الإمبراطور الأوحد.

رغم الهزيمة التي حدثت في كارنال ودخول الفرس منتصرين، فإن سكان دلهي لم يشعروا بالرهبة من دخول الغزاة في البداية. وسخر الناس في السوق من جنود القزلباش[1]، الذين كانوا في الأغلب من البسطاء الذين يسكنون القرى والتلال في فارس.10

وقد أصدر نادر أوامره للنسقجيين (الشرطة العسكرية في صفوف الجيش) بأن كل من يتسبب في جرح أو أذى أي من المواطنين فسيكون جزاؤه قطع أنفه أو أذنيه أو الضرب حتى الموت.11 وكان نادر عازماً على تجنب قيام جنوده بأي مخالفات قانونية بفضل النظام الصارم الذي وضعه. فهو يعرف أن قوات تيمور خرجت عن السيطرة في المدينة، قبل ثلاثة قرون ونصف القرن، وأقدمت على أعمال السرقة والنهب والقتل وحرق الممتلكات على مدى عدة أيام. وكان الجنود الفرس يجوبون المدينة في مجموعات صغيرة وقتما يشاؤون من فرط ثقتهم بقوتهم الجماعية وشعورهم بالأمان.

(1) كانت كلمة «قزلباش» في ذلك الوقت تُستخدم للإشارة إلى الجنود الفرس بوجه عام، أما معناها الحرفي فهو «القبعات الحمراء».

لقد نزلت الهزيمة بمجموعة صغيرة من الجيش المغولي في كارنال، واستطاع نادر بسط سيطرته على دلهي منذ ذلك الحين بفضل دهائه في التلاعب بمحمد شاه وكبار نبلاء المغول، وبفضل التهديدات الضمنية واستخدامه المباشر للقوة. أما البقية الباقية من الجيش فتلاشت شيئاً فشيئاً، واستطاع نادر بالدهاء والحيلة أن يأخذ ما يريد من القادة المغول. وما سهّل مهمته هو تلك الثقافة التركمانية الفارسية التي يشترك فيها المغول والغزاة. فقد كانت الأسْرة الحاكمة المغولية تعود لأصول تركية أو تركية مغولية، تتحدّر مباشرة من تيمور نفسه، وتنعم بثقافة فارسية راقية داخل البلاط على مدار قرنين كاملين من الزمان. وقد أصر نادر على أن يتحدث هو ومحمد شاه باللغة التركية التي تنطق بها شعوب آسيا الوسطى، تأكيداً منه على الأصول المشتركة فيما بينهما.

ومما سهل مهمة نادر أيضاً الانقسامُ بين النبلاء داخل البلاط المغولي. فالعديد من كبار النبلاء المغول هم من المغامرين الذين أتوا إلى الهند قادمين من الأراضي الشمالية، وهو عامل آخر من العوامل التي حدّت من ولائهم للحكم المغولي.12 جاءت أسرة نظام الملك من سمرقند في ما جاءت أسرة سعدات خان من خراسان، شمال شرق فارس. وكان البلاط المغولي مخلخلاً ومصطنعاً مقارنة بالطبيعة العملية القاسية لحاشية نادر. واتضح هذا الفارق الكبير أكثر وأكثر مع استمرار إقامة الفرس في دلهي. وكان لدى النبلاء المغوليون شعور بالفخر والكرامة، وهو الأمر الذي ازدراه نادر، كما أنه كان يزدري الرقي والتكلف الذي كان يميز البلاط المغولي. وفي إحدى المناسبات سأل نادر عن عدد النساء الموجودات في جناح الوزير المغولي وأجابه الوزير بأن لديه ثمانمئة وخمسين امرأة. فردّ نادر بأنه سيضيف مئة وخمسين امرأة من الأسرى إلى ذلك العدد حتى يترقى الوزير إلى مِنباشي (أي قائد ألف).13

مع ذلك فإن الثقافة الفارسية- التركية التي يشتركون فيها جعلت الكثير من النبلاء لا يشعرون بالارتياح بين رعاياهم الهنود بقدر ما يشعرون به في التعامل مع الغزاة الفرس. وهذا ما يفسر الحميمية الغريبة التي بدت بين نبلاء المغول والفرس في الأحداث التالية. وقد سهل على نادر كسب طاعة البلاط المغولي وإذعانه. كان نادر يستخدم دائماً سياسة

المكر والخديعة للتغلب على المقاومة، لكنه يستخدم القوة عند الضرورة. وشعر بالثقة بعد أن ثبت قدميه في قصر شاه جاهان العظيم. ولكن الأحداث قد تقلب مواقف أكثر الأمراء طاعة وإذعاناً.

خارج أسوار قصر شاه جاهان المبني بالحجر الأحمر والرخام، لم تكن مهمة تهدئة مدينة دلهي سهلة. فبحلول مساء 21 مارس/آذار، بات معروفاً في أنحاء المدينة أن على جميع سكانها دفع جزية ضخمة. فقد كان الكثير من الجنود الذين لقوا حتفهم في كارنال من أهل دلهي، كما وَجَد فيها آخرون ممن لحقت بهم الهزيمة في المعركة ملجأ لهم هناك. وكان أغلب سكان دلهي في حالة من الخوف والسلبية لكن بعضهم شعر بالغضب وبخيانة قادتهم. كما كان هناك شباب في الأسواق ممن يختلقون المشاكل لأي سبب كان. فتجمع هؤلاء الشباب في مجموعات على أهبة الاستعداد لخدمة بعض النبلاء المتهوّرين الذين حسبوا أن زعزعة الاستقرار قد تنقذ أوضاعهم، أو لمساعدة هؤلاء الذين لا يريدون سوى الثأر.14

كان موعد الاحتفال بالسنة الفارسية الجديدة (النوروز) هو 21 مارس/آذار، وكالعادة أقام نادر لرجاله حفلاً وأهداهم فيه الخلعات أو عباءات التشريف. وقد حدد موعد وصوله للمدينة بحيث يستطيع أن يحتفل بالنوروز هناك. ولكن انتشرت في ذلك المساء شائعات حول مقتل نادر برصاص أحد حراس جناح حريم محمد شاة كما أشيع أيضاً أنه مات مسموماً أو سجن.15 كما حدثت بعض المشاكل في مخازن القمح الموجودة في مقاطعة بهارجانج. وذهبت بعض القوات الفارسية إلى هناك بهدف تثبيت أسعار الذرة، وبحلول المساء تجمهر بعض تجار الذرة ممن لم تعجبهم الأسعار المتدنية التي تم تحديدها. وقامت تلك المجموعة الغاضبة بقتل الجنود الموجودين في المخزن، ثم اندفعوا إلى المناطق المجاورة في المدينة يقتلون من يجدونه في طريقهم من الفرس. حيث كان الجنود الفرس يجوبون الشوارع والأسواق فرادى، وكان الهنود يفاجئونهم ويقتلونهم حتى قبل أن يدركوا ما يحدث لهم.16

تردد الخدم داخل القصر في إيقاظ نادر لإبلاغه عما حدث من شغب. وفي النهاية

أبلغوه وهم «يرتعدون خوفاً»، لكنه لم يصدقهم. قال نادر إن «هناك شخصاً خسيساً من بين رجالي قد اتهم أهل هندوستان بالباطل حتى يتسنى له قتلهم ونهب ثرواتهم».17 وأرسل نادر أحد حراس البلاط لكي يتأكد مما حدث، وأرسل وراءه حارساً آخر، لكن الاثنين لقيا حتفهما تباعاً على أيدي المتجمهرين الثائرين على مسافة بضع ياردات من بوابات القصر. ثم أرسل ألف جندي لاستعادة النظام إلا أنه حذرهم من إطلاق النار على أي شخص غير متورط في أحداث الشغب بشكل مباشر. وقد نفذ الجنود أوامره إلا أنهم لم يتمكنوا من تهدئة الثوار الذين بدأوا بإطلاق النار والسهام على الفرس.18

بات واضحاً أن ألف جندي لا يكفون وأن أنصاف الحلول لن تهدئ من الوضع. استمرّ إطلاق الرصاص والأحجار وغيرها من القذائف طوال الليل، واحتمى الفرس داخل القصر وبعض المباني المحصنة الأخرى. وفي صباح 22 مارس/آذار امتطى نادر جواده وخرج من القصر متجهاً إلى مسجد روشن الدولة[1] وحين وصل إلى هناك محاطاً برجاله، قذفهم بعض الناس بالحجارة من الشرفات والنوافذ التي تطل على المسجد، وأطلقت رصاصة واحدة أودت بحياة ضباط يقف بجانبه.19 كان نادر قد اتخذ قراره بالفعل، لكن تلك الإهانة الأخيرة أججت حالة الغضب والإحباط التي ألَّمت به. فصعد نادر إلى سطح المسجد ووقف بجوار القباب الذهبية ينظر على البيوت والمحال والأسطح في ناحية تشاندي تشوك. وأصدر أوامره بألا يبقى أحد على قيد الحياة في المناطق التي قتل فيها جنوده، ثم أشهر سيفه علامة على بدء المجزرة. وأوكل نادر تلك المهمة لثلاثة آلاف من جنوده وبقي هو هناك حاملاً سيفه «وكان يملؤه الوجوم والصمت الذي لم يجرؤ أحد على مقاطعته».20 لقد بذل كل جهده لتجنب حدوث المجزرة التي ارتكبتها قوات مثله الأعلى تيمور في دلهي، إلا أن الأحداث هي التي أجبرته على ذلك. وأخذ يراقب بعينيه السوداوين أنحاء المدينة، فيما يتصاعد الدخان والصرخات من شتى جنباتها.21

بدأت المجزرة في التاسعة صباحاً حيث اقتحم الفرس البيوت والمحال وقتلوا كل من قابلوا في المناطق المحددة. حدث قليل من المقاومة هنا وهناك، لكن الناس قتلوا في

(1) يعرف اليوم باسم سونهري أو المسجد الذهبي.

أغلب الأماكن دون مقاومة. وفي باهارجانج، ألقى رجال نادر القبض على من اشتبه في علاقتهم بأحداث الشغب وقطعت رؤوسهم على ضفة نهر يامونا (جمنا). لكن مجموعة البائعين الذين تسبّبوا في الاضطرابات اختفت ليصب الفرس غضبهم وانتقامهم على قلة من النبلاء والسكان في بيوتهم وأصحاب الحرف وأرباب الأسر المحترمين. ونفذ الجنود مهمتهم فنهبوا البيوت وحرقوها ولقي بعض الناس حتفهم (لاسيما النساء والأطفال) في الحرائق لا في الطرقات. كما دفع الخوف من الاغتصاب والعار بعض الناس إلى اليأس، حيث قتل الرجال زوجاتهم وأسرهم ثم أقدموا على الانتحار كما ألقت بعض النساء بأنفسهن في الآبار هرباً من الفرس.22

يبدو أن اثنين من النبلاء هما اللذان ساعدا في نشر الشائعات وتشجيع أعمال الشغب التي أدت إلى المذبحة– سيد نياز خان وشاه نواز خان. فقد قام الأول باحتجاز بعض الجنود الفرس الذين تم إرسالهم لحماية بيته– في غرفة وأحرقهم وهم أحياء. ثم أغار الاثنان على الإسطبلات حيث يحتفظ نادر بالأفيال وقتلوا الحراس ثم نقلوا الحيوانات إلى قلعة خارج المدينة. ولكن بعد قليل من المقاومة داخل القلعة، ألقت القوات الفارسية القبض عليهما وحملتهما إلى نادر ومعهما المئات من رجالهما حيث أمر بإعدامهم جميعاً.23 إلا أن نادر كان أكثر رحمة بالمسجونات، حيث أُحضِر له آلاف من الأسرى أغلبهم نساء هتكت أعراضهن، فأمر بإعادتهن إلى بيوتهن «حيث عدن والأسى يعتصر قلوبهن».24

استمرت المجزرة في الصباح وأشعلت النيران في البيوت والمحال، ليحترق بداخلها الأحياء والأموات. وقام الجنود الفرس بنهب الكثير من الملابس الغالية والمجوهرات والسلع الأخرى.25 وقد حل الدمار بشكل خاص على التجار في السوق القديم ومنطقة الصاغة. وبلغت الشمس منتصف السماء والمجزرة مستمرّة، وتراكمت الأشلاء في الشوارع وتدفّقت الدماء في المزاريب. وأخيراً أرسل محمد شاه نظام الملك26 لتوسّل وقف هذه المذبحة. ووفقاً لأحد مرافقي نظام، كان نادر يتناول الحلوى ي ذلك الوقت. ويبدو أن نظاماً أعرب عن استعداده لأنْ يقتل كي توقف المجزرة، وسأل نادر بجرأة ما إذا كان لا يخاف أن ينهار القصر فوق رأسه انتقاماً من الله لذنب الأبرياء الذين راحوا ضحايا

المجزرة[1]. وفي تمام الساعة الثالثة عصراً، بعد مرور ست ساعات على المذبحة، أصدر نادر أوامره بوقف المذبحة وأعلن هذا الأمر الكوتوال[2] وفرقة من النسقجيين الفرس.27 وقد أعجب الهنود المعاصرون لتلك الأحداث– بصرامة نظام الجيش الفارسي الذي استطاع أن يكبح رغبة النهب والقتل في نفوس الجنود بتلك السرعة.

كان ما يميز جنود القزلباش الطاعة العمياء والالتزام بالنظام وخوفهم من الأمير لدرجة أنه بمجرد سماعهم كلمة «السلم»، أوقفوا المذبحة ولم يرتكبوا المزيد من السرقات والنهب. ومن أروع الأشياء في هذه الحياة أن يتحول الجند المتوحشون المتعطشون للدماء الذين يُحكمون قبضتهم على كبار العائلات والمواطنين الأثرياء بكلمة واحدة إلى جنود مطيعين خاضعين كفّوا أيديهم عن كل أعمال القتل والنهب.28

تتفاوت تقديرات أعداد القتلى بشكل كبير، لكن نادراً عيّن حدود تلك المذابح بتقييد تنفيذها في مناطق معينة داخل المدينة، وبإعلان إيقافها بعد ست ساعات وكذلك بإسناد المهمة لنسبة صغيرة جدّاً من قواته. ومن المرجح أن يكون تقدير الكوتوال المعاصر الذي أفاد بأن القتلى وصل عددهم إلى 20– 30 ألف قتيل دقيق إلى حد كبير.29 ولا يعرف عدد قتلى الفرس في أحداث الشغب الأولى على وجه التحديد، لكنه ربما لم يتخطَّ بضع مئات.30 وقد تركت الجثث عمداً في أماكنها عدة أيام. و«ظلت الشوارع مغطاة بالجثث عدة أيام كما تغطي الأزهار وأوراق الشجر الميتة الممرّات في الحديقة».31 وقد جاء على لسان نادر أن ذلك العمل الوحشي قد حقق نجاحاً– إذ لم تحدث أية مشاكل أخرى من سكان دلهي. وحين فاحت رائحة النتن المنبعثة من الجثث المتناثرة ولم تعد تطاق، تم التخلص من تلك الجثث بطرق شتى– فبعضها ألقي به في النهر، وتم حرق البعض في أكوام مع حطام المباني التي تم تدميرها.32

كان أحد دوافع نادر لعدم الإقدام على القتل ثم محاولة السيطرة عليه هو أنه أراد أن

(1) يعتقد أن كلمات نظام الملك كانت أكثر حذراً مما أفيد عنه (Lockhart 1962 p. 238، انظر أيضاً Père Saignes، p. 255)

(2) كبير المسؤولين المغول في المدينة وهو الذي يعهد بحفظ القانون والنظام.

يستولي على أكبر قدر من ثروات المدينة لا أن ينهبها رجاله. وقد تحقق له الآن الغرض الرئيسي من بقائه في دلهي- وهو فرض الجزية. ووضع حراساً على جميع بوابات المدينة، يسمحون لأي شخص بالدخول ولا يسمحون لأحد بمغادرة المدينة.

كانت ممتلكات كبار النبلاء الذين لقوا حتفهم في كارنال أو بعدها أولَ ما تم الاستيلاء عليه بعد إنهاء المذبحة بقليل. وأُرسِل الجنود إلى المدن والأراضي خارج دلهي، لجمع ثروات النبلاء الموجودة خارج العاصمة. ثم قدّرت ثروات النبلاء الذين لا يزالون على قيد الحياة وأرسلت الطلبات إلى كل منهم على حدة. وكان هؤلاء الأمراء في ذلك الحين شبه مستقلين حيث إنهم يسيطرون على مساحات كبيرة من الأراضي بموجب مناصبهم داخل البلاط، ويتعاملون معها على أنها ملكية خاصة، ولهذا جاء التقدير مرتفعاً. ويبدو أنه سمح لنظام الملك أن يتهرب من هذا التقدير، حيث ادعى أن ابنه- الذي كان يتحكم في أراضيه في ديكان في أثناء غيابه ويسيطر على كامل ثروته- يأبى أن يطيعه.33 وعومل آخرون بقسوة- ولا شك أن جامعي الضرائب في عصرنا الحديث يتمنون أن يسلكوا نفس المنهج. حاول كبير ضباط محمد شاه:

> أن يتهرب من سداد مبلغ كبير يتوجّب عليه دفعه، فأمر نادر أن يتم تعريضه للشمس المباشرة، وهو عقاب معروف، فيه إهانة وألم فضلاً عن خطورته على الصحة. وفي النهاية استطاع أن يحصل منه على مبلغ ضخم (كرور روبية)[1] وكمية كبيرة من الأحجار الكريمة وعدد من الأفيال.34

حين قيل لممثل حاكم البنجال في البلاط إنه قد تم تحديد جزية المقاطعة بمبلغ سبع كرورات قال ساخراً: إن مثل هذا المبلغ يحتاج لأن تحمله قافلة من العربات من البنجال إلى دلهي. وتلقى الرجل حينئذ ضرباً مبرحاً جراء سخريته وكانت تلك المعاملة مهينة جدّاً بالنسبة له، لدرجة أنه سمّ نفسه وعائلته.35

(1) في الهند، كان الكرور يساوي 10 مليون روبية أو 1,25 مليون جنيه إسترليني في هذا الوقت— لذلك فإن 7 كرورات تساوي حوالي 8,75 مليون إسترليني. وكانت الكرور في فارس تساوي 500 ألف وليس 10 مليون روبية. لكن في هذا الكتاب أستخدم الروبية بالمعنى الهندي.

شعر نادر بقوة استمدها من الأموال التي جمعها حتى ذلك الحين، وتلك التي من المتوقع أن يجمعها، فأرسل منشوراً في 27 مارس/آذار يطالب فيه أن تعفى جميع أراضيه وممتلكاته في فارس من الضرائب لمدة ثلاث سنوات «تخفيفاً للضغوط التي فرضت عليها». وفي الوقت نفسه قام بسداد جميع متأخرات جنوده ودفع لهم رواتب عام مقدماً ودفع لهم كذلك منحة إضافية تساوي راتب ستة أشهر.36

وأخيراً تم تحديد التقدير الضريبي للمواطنين العاديين في دلهي بكرورين،37 وتلقى العديد من كبار النبلاء المغول الأوامر بجمع هذه الضرائب. ولهذا الغرض تم تقسيم المدينة إلى خمسة أجزاء، وكلّف ألف فارس فارسي بتقديم المساعدة في حال تطلب الأمر استخدام القوة. وقد تسبب جمع المال في ضغوط كبيرة حتى إن الكثير من الناس هربوا من المدينة.38

جمع نادر من دلهي كمّاً ضخماً من الهدايا والعطايا (الجواهر والأموال) أخذها من محمد شاه وكبار النبلاء، وكذا الأموال التي جمعها من عامة الشعب والأموال والأمتعة الثمينة التي تم الاستيلاء عليها من الخزينة الملكية والبضائع التي صُودرت (من أثاث وأقمشة وأسلحة مختلفة).

وقد اتفق عدد من المصادر المرجعية المعاصرة على أن القيمة الإجمالية لهذه الثروات بلغت سبعين كروراً (ما يساوي 87,5 مليون جنيه إسترلينيّ في ذلك الوقت أو حوالي تسعين مليارا في يومنا هذا). وتقول مصادر أخرى إن جنود نادر استولوا على عشرة كرورات أخرى.39 تشكّل قيمة المجوهرات، وتعدّ بالآلاف، جزءاً كبيراً من هذا المبلغ (ربما بلغت حوالي 34 كرورا)، سواء أكانت مركّبة على أشياء أخرى أو مصقولة أو غير مصقولة. ونظراً لصعوبة تقييم المجوهرات، سواء في ذلك الوقت أو حالياً، فمن الصعب تحديد قيمة الغنيمة بدقة. وحين نأتي نحن لتقييم هذا الكم الكبير من النفائس فإن معايير القيمة ذاتها تهتز وتنهار.

كان أهم ما في تلك الكنوز هو عرش الطاووس وجوهرة «كوهي نور». أما العرش فقد تم تحطيمه لاحقاً، وأما الجوهرة فلم تستقر في فارس، وتشتتت بعض الكنوز الأخرى

وضاعت بعد وفاة نادر، إلا أن جواهر التاج التي لا تزال معروضة حتى الآن في طهران، فقد كانت تمثل أهم جزء من الكنوز التي أخذها نادر شاه من الهند عام 1739. وتشمل تلك الكنوز جوهرة «داريا يا نو« (بحر النور)- وهي في الغالب أكبر جوهرة وردية في العالم[1]. وكان حكام الفرس في القرن التاسع عشر يتفننون في اختيار أماكن جديدة لوضع الجواهر، منها السيوف المرصعة والخناجر والدروع والتيجان والكؤوس بل وفي نموذج الكرة الأرضية أيضاً- إلا أن هناك أطباقاً كاملة من الزمرد والجواهر واللآلئ والياقوت لم يتم تركيبها حتى يومنا هذا (فالكثير منها غير مصقول).

لحق الدمار بدلهي، وبالإضافة إلى القتل الجماعي والنهب والحرق، انهار الاقتصاد وأصيبت التجارة بحالة من الشلل ووصلت أسعار السلع الغذائية إلى نفس معدلات فترات المجاعة، أما قيمة السلع الأخرى- خاصة سلع الرفاهية- فانخفضت بشكل كبير، وأصبح من الصعب، بل من المستحيل، أن يوفر الناس المال المطلوب مقابلها. ووجدت الكثير من العائلات أنهم لم يفقدوا أموالهم فحسب بل نكبوا تماماً فأقدم بعضهم على الانتحار.40

فيما كان المال يجمع، زوَّج نادر ابنه نصر الله من أميرة مغولية، هي إحدى حفيدات الإمبراطور أورانجزيب، وابنة أخي محمد شاه. حيث أهدى محمد شاه العريس رداء الشرف وعقداً من اللؤلؤ و«جيك»[2]، وخنجراً مرصعاً باللآلئ وفيلاً عليه زخارف من الذهب. كما أهدى هو ونادر العروسين هدايا قيمة سواء مالية ومجوهرات، وأطلقت الألعاب النارية على ضفاف نهر يامونا.41 ووفقاً للبروتوكول فقد كان مسؤولو البلاط يقومون قبل الزفاف بالتحري عن جذور العريس وتقفي أثره حتى سبعة أجيال. وحين سمع نادر شاه بذلك قال:

قل لهم إنه ابن نادر شاه.. ابن السيف وحفيد السيف.. إلخ، حتى يعودوا

---

(1) قدّر حجمها بما بين 175 و195 قيراطاً.

(2) حلية للقبّعة تشير إلى النبالة: وهي تقليدياً مجموعة من ريش مالك الحزين يرتديها الشاه على يمين عمامته. ويرتدي النبلاء الأدنى مرتبة الجيك على اليسار.

إلى سبعين جيلاً لا سبعة أجيال وحسب.42

وفي ليلة الزفاف (يوم 6 أبريل/نيسان) خرقت بعض قوات القزلباش مراسيم نادر المناهضة للشيعية وأنشدوا جزءاً من رثاء للحسين، كما درجت العادة في شهر محرم الذي يوشك أن يبدأ. وقد غضب نادر لأنهم لم يخرجوا فقط على تعليماته الدينية، وإنما لم يبدوا احتراماً لزفاف ابنه، ومن ثم استغل ذلك الموقف ليضرب مثلاً على صرامة نظام حكمه، فأمر بإلقاء القبض على الجنود الضالعين وأعدمهم خارج أسوار المدينة وترك جثثهم هناك لتكون عبرة لغيرهم.43

بعد جمع الجزية وإتمام الزواج، صار بوسع نادر أن يستريح. فقد أصبح الآن سيد دلهي وثرواتها دون منازع. ووصل نفوذه إلى عنان السماء- فلم يحقق أي شاه فارسي مثل ما حقق نادر من تفوق عسكري على مدار ألف عام أو أكثر. ولم يبق أمامه الآن سوى اتخاذ الترتيبات اللازمة لحكم الأراضي المغولية في المستقبل ثم الانسحاب. فلا يوجد دليل على أنه قد تراجع عن القرار الذي اتخذه في البداية بأن ينهب ثروات دلهي وأن يرحل. ولو أنه فكر في ضمّ الإمبراطورية المغولية، لبدا له الأمر أكثر جاذبية في ذلك الوقت على الأرجح.44 ولا بد أن محمد شاه كان متوتراً، لكن دلهي على مسافة بعيدة من مقر نادر وسلطته في خراسان في شمال شرق فارس ولم تكن مذبحة النوروز بداية جيدة لحكم الفرس في الهند. كما أن حكمه لا يزال في بدايته- فقد أصبح شاهاً منذ ثلاث سنوات فقط. وقامت الكثير من الثورات ضد حكمه ولا يزال هناك المزيد. وكان يدرك أنه رغم موقفه العسكري القوي إلا أن الكثير من الفرس يعتبرون حكمه غير شرعي ولا يزالون يتمنون عودة الحكم الصفوي السابق. كما لم يكن بوسع نادر تحمّل البقاء بعيداً عن فارس مدة تكفيه كي يؤمن الأراضي المغولية. لكن التسوية التي فرضها قبل رحيله تركت له الفرصه للتدخل من جديد في شؤون الهند إذا ما وجد ضرورة لذلك.

أعلن عن تلك التسوية في اجتماع دربار في يوم 12 مايو/أيار، وحضره محمد شاه وكبار النبلاء المغول. قدم نادر العديد من الهدايا للإمبراطور المغولي، وكان منها سيوف مرصعة بالجواهر وأشياء أخرى ثمينة. إلا أن أهم تلك الهدايا كان «الجيك» الذي وضعه بنفسه

فوق رأس محمد شاه مشيراً إلى أنه قد منح السيادة الكاملة من جديد. فشكر محمد شاه نادر على كرمه والذي بفضله «وجد نفسه أحد ملوك الأرض من جديد»، وفي مقابل ذلك توسّل إليه أن يقبل كل أراضي المغول في غرب نهر الإندوس من التبت وكشمير حتى البحر.45 كان ذلك الاتفاق معروضاً بحرص شديد حيث كان يمثل مقطعاً من المسرح السياسي الممزوج بالسخرية الذي يميز حياة نادر السياسية. فمثلما حدث في أثناء استقبال نادر عند وصوله إلى دلهي، أجبر محمد شاه على تقديم هدية بلا مقابل. أما بنود الوثيقة الرسمية للانسحاب من الأراضي، والتي كان نادر قد أملاها بنفسه فكانت تشير مرة ثانية للأصول التركمانية التي يشترك فيها الحاكمان. وتبجّل ذكرى الغزاة الآسيويين السابقين: تيمور وجنكيز خان وذلك في معرض ذكرها لأسرة جوركان[1]. ورد في الوثيقة أن محمد شاه قال عن نادر:

> كان عظيم النفس، شديد الإنسانية ومثالاً بحق لأسرة جوركان وشرف الانتماء لأصول شجرة التركمان، لذا فقد كان يشعر بالفخر والسعادة عندما أعاد إليَّ التاج وجوهرة هندوستان.46

وفي النهاية قدم نادر إلى محمد شاه بعض النصائح حول كيفية حكم الإمبراطورية، وأمره بأن يصادر الأراضي التي استولى عليها النبلاء المغول بحكم مناصبهم، وأن يدفع لهم بدلاً من ذلك نقداً من خزينة الإمبراطورية. وكشفت هذه النصيحة عن عقلية نادر العسكرية، حيث أخبر محمد شاه أن من الواجب عليه أن يحتفظ بجيش قوامه ستين ألف فارس وأن يدفع لهم رواتبهم وأن يحفظ أسماءهم وأسماء أفراد أسرهم بدءاً من أعلى رتبة نزولاً إلى أقل رتبة. وحين تأتي المناسبة، فعليه أن يوكل مهام معينة لضباط بعينهم وأن يضع تحت تصرفهم عدداً كافياً من الرجال، ولكن على أن تنتهي سلطاتهم ويعود الجنود إلى مواقعهم الأساسية بمجرد إتمام المهمة. ويجب أن لا تظل السلطة والقيادة في

(1) استخدم تيمور كلمة «جوركان» للإشارة إلى زوج الابنة. فقد تزوج تيمور من امرأة تعود أصولها إلى جنكيز خان، حيث كان يعتبر نفسه زوج ابنة جنكيز خان كي يستفيد من تبجيل قبائل آسيا الوسطى لذكرى جنكيز خان. وتنحدر الأسرة المالكة المغولية من تيمور عبر بابر، مغامر آسيا الوسطى ومؤسس الأسرة المغولية التي غزت شمال الهند في مطلع القرن السادس عشر.

يد أي منهم مدة طويلة.47

حذر نادر محمد شاه من الثقة في نظام الملك، وأخبره أنه في حال قيام النبلاء بثورة فإن نادر بإمكانه إرسال جيش على الفور أو الحضور بنفسه لو كانت هناك ضرورة- «في أية حال لا تتخيل أني بعيد عنك». وقد نقل عن إيركل، وهو أمير جورجيا الذي رافق نادر إلى دلهي، أن نادراً أمر النبلاء بأن يخلصوا لمحمد شاه، لأنهم لو لم يفعلوا فإنه سيعود لينقض عليهم ويذبحهم جميعاً خلال ستة أشهر.48

كانت طبيعة تلك التسوية تحمل روح السيطرة الأبوية. فقد أعيد محمد شاه للحكم، لكنه أصبح تابعاً لنادر؛ وذكرت صراحة إمكانية العودة للهند مرة ثانية. يذكر أحد المؤرخين أنه بعد ذلك بوقت قليل أخبر نادر بعض النبلاء ممن يثق فيهم أن محمد شاه لم يكن مؤهلاً للحكم. فلماذا، إذن، أعاده نادر للحكم؟ إن في إعادة ذلك الإمبراطور الضعيف (خاصة مع وجود رعايا شديدي القوة مثل نظام الملك) يضمن أن تظل الدولة المغولية ضعيفة وأن تعطيه فرصة كي يتدخل فيها إذا أراد ذلك. ولو استمر نادر في الحكم فترة أطول بعد أن ترك الهند، لعاد إلى هناك على الأرجح ليضم إلى إمبراطوريته الأراضي التي نهبها فقط عام 1739. 49

جمع نادر قبل رحيله مجموعة من الحرفيين ذوي الفائدة (خاصة البنائين والنجارين والنحاتين) كي يعودوا معه، حيث كان ينوي أن يجمل مشروعات البناء التي خطط لها في قندهار الجديدة (نادر آباد) وفي كالات في خراسان وغيرهما من الأماكن. دفع نادر تكاليف الرحلة لهؤلاء الرجال واحتفظ بهم شريطة أن يعملوا لديه لمدة ثلاث سنوات، حيث يعطي لهم مطلق الحرية، ليختاروا بعد ذلك بين البقاء في خدمته والعودة لديارهم. إلا أن الكثير منهم عاد حتى قبل وصول الجيش الفارسي إلى لاهور.

ومن بين الأشخاص الذين وجد نادر فيهم فائدة له كبيرُ أطباء البلاط، علوي خان، الذي اصطحبه كي يعالج مرضه الذي ظهر لأول مرة قبل ذهابه للهند: داء الاستسقاء (تجمع غير طبيعي للسوائل في خلايا الجسم). ولسوف يصبح علوي خان شخصية هامة خلال السنوات التالية حيث قام بدور في تخفيف المعاناة الجسدية والعقلية التي عاشها

نادر في الفترة الأخيرة من حكمه، والتي بدا أنها أبرزت أبشع تجاوزاته.50

منع نادر إخراج أي امرأة من دلهي إلا برغبتها الشخصية الحرة. وكان يضع الضوابط التي تضمن احترام رغباته حيث أبدى الاهتمام نفسه الذي أبداه حيال النساء اللاتي أسرهن جنوده بعد المذبحة. وعندما توقف الجيش عند حدائق شاليمار بعد خروجه من دلهي، أذيع أمر في أنحاء المعسكر بأن يطلق سراح الأسرى سواء من الرجال أو النساء ليعودوا إلى المدينة، وبأن كل من يخالف هذا الأمر سيخسر حياته وأملاكه. وقد كان أغلب هؤلاء الأسرى من النساء. فحتى الزوجات اللاتي تزوجن زواجاً قانونيّاً في دلهي والجواري اللاتي تم شراؤهن وبيعهن بسند مكتوب لم يكن مسموحاً ببقائهن مع الجيش إلا إذا كان واضحاً أن ذلك بمحض إرادتهن الخاصة. وهنا عادت معظم الزوجات والنساء إلى دلهي، حتى القلة التي حاول أزواجهن إقناعهن بالبقاء «بالوسائل اللطيفة والتوسل»، أمرهن نادر بالعودة إلى المدينة بعد ذلك بعدة أيام.51

وهنا يبحث المرء عن دوافع أخرى للطريقة التي عامل بها نادر هؤلاء النساء فيما عدا الدوافع الإنسانية الطيبة، فعلى سبيل المثال لم يرد نادر أن تتسبب هذه الصحبة في المعسكرات في إعاقة الجيش أو لم يرغب في أن يصبحن أداة توصيل ونقل المعلومات بين الهند وفارس.52 إلا أن الجيش الفارسي كان يضم أعداداً كبيرة من النساء وغير المحاربين، ولا يوجد دليل على أن نادراً حاول تقنين هذه الأعداد كجزء من سياسته كما أن النساء الهنود لم يكنَّ ليؤثرن في العدد الكلي. وكذلك كان هناك العديد من القنوات الاستخبارية بين الهند وفارس- ومنهم الحرفيون ممن أحضرهم نادر نفسه. ومن الممكن أن يرجع السبب إلى أنه لم يكن يرغب في أن يكون لتلك النساء تأثير على رجاله نتيجة معرفتهم بنظام البلاط المغولي. كانت تصرفات نادر في دلهي قاسية إلا أنه رغم خلفيته الوحشية فقد كان يظهر تعاطفاً في معاملته للمرأة. وتدخَّل في مواقف أخرى لإنقاذ نساء سقطن في أيدي قواته، وأشار بعض معاصريه إلى أن رفقه بالنساء كان من شيمه. وقد يكون تعاطفه مجرد انعكاس لنفاد صبره إزاء عواقب أفعاله.53

تحكي إحدى الروايات المعاصرة54 قصة حدثت قبيل رحيل نادر مباشرة. فبعدما حلّت

جميع المسائل المتعلقة بالممتلكات والأراضي، ذهب الضباط الفرس للراحة وأحضروا الراقصات وبدؤوا في الاستمتاع بوقتهم. وغنت المطربة الشهيرة نور باي الأبيات التالية أمام نادر ورجاله:

ماذا تركت في قلبي

حتى تعود من جديد!

لتملأ كأسك وتصفق وترقص

فلا تأتِ إلى دار المتعة كي تقيم الصلاة

أعجب نادر بغناء نور باي وبجمالها وأمر خدمه أن يعطوها أربع آلاف روبية، وقال إنه سيأخذها معه حين يغادر دلهي. لكن المطربة مرضت حين علمت بما ينويه الشاه: «كاد قلبها يتوقف في صدرها». وسواء كان مرضها حقيقة أو أنها كانت تتظاهر فإنها نجحت في إحباط نوايا نادر. وما يتضح هنا أن نادر حين علم بعدم رغبتها في الرحيل معه أبى أن يأخذها بالقوة، وهو ما يتفق مع السياسة التي فرضها على رجاله وجنوده. وقد سأل أحد النبلاء الهنود نور باي كيف كانت ستشعر لو أن نادر نجح في تنفيذ رغبته. ويبدو أن إجابتها كانت على شاكلة:

سوف أشعر أن جسدي نفسه55 قد شارك في مذبحة

أعدّت قافلة من الخيول والبغال والجمال[1]، وخرج نادر على رأس جيشه من دلهي في يوم 16 مايو/أيار 1739. ويذكر شاهد عيان أن نادراً كان يعتمر قبعة حمراء ملفوفاً حولها شال من الكشمير الأبيض وكان يضع أيضاً (جيك) مرصعاً. وبدا نادر شاباً منتشياً قوي البنية، وقد صبغ لحيته وشاربه باللون الأسود. ومر في الشوارع مرفوع الرأس عالياً، ينظر أمامه ويلقي بالروبيات على جموع المهللين بتحيته وتبجيله.56

(1) حُمل الكنز على 30 ألف جمل و24 ألف بغل (AAN p. 739; Floor 1998, p. 308).



3– مجموعة من النخاسين يصطحبون أسراهم

في هذه الحالة، الأسرى هم تركمان أيضاً ولكن من قبيلة أخرى. تعود هذه اللوحة إلى القرن التاسع عشر، ولو تم التقاط هذه الصورة قبل مئة عام من تاريخها الفعلي، لبدا هؤلاء النخاسون في صورة مختلفة، حاملين الأقواس بدلاً من البنادق. لاحظ أسلوب امتطاء الخيل (لا يزال موجوداً في آسيا الوسطى والقوقاز) اليد على المؤخرة والجلوس بشكل ثابت عند الخبب، ما يوحي بالكبرياء والقسوة.

(مكتبة جامعة كامبريدج)

الفصل الأول

سقوط الحكم الصفوي

أسفي على فارس.. كانت في أيام خلت
عرشاً لعتاة الغزاة والفاتحين..
الذين بفعل ذكائهم وبحنكة السياسة
بلغوا المدى وظفروا بتخوم أوروبا التي
قلما تجرأت الشمس أن تطل عليها بوجهها
على أجواء الصقيع والجليد الصلد
والآن يسود عرشها رجل
في يوم ميلاده
باقتران الربة سينثيا والإله ساتورن
ورفض المشتري والشمس وعطارد
أن يبثوا في ذهنه المتقلب أثرهم الخارق
الآن أصبح أهل الترك وبات التتار
يلوحون بسيوفهم في وجهك
يريدون أن يهدّموا أركان مُلكك..

مارلو

وُلد الرجل الذي سيغزو الهند في المستقبل القريب في منطقة برية خطيرة في شمالي شرق فارس: الجزء الشمالي من إقليم خراسان البعيد عن أبهة بلاط الشاه وفراهة القصور المشيدة. ولم يستقر المؤرخون والمهتمون على تاريخ محدد لميلاد نادر شاه، غير أن يوم 6

أغسطس/آب 1698 هو التاريخ المرجّح.1

كان والد نادر يتمتع بمكانة اجتماعية متواضعة، لكنه حظي بتقدير واحترام بوصفه راعياً للإبل والأغنام في قبيلة الأفشار، ويُقال أيضاً إنه كان حاذقاً في صناعة الملابس من فرو الخراف، وكان اسمه الأصلي الإمام قولي. اكتنف ميلاد نادرٍ قدراً من الغموض، مقارنة بكثير من كبار الأعيان والشخصيات ممن أصبح هو نفسه واحداً منهم فيما بعد. لكن أباه كان يتمتع بمكانة طيبة بين أبناء قبيلة أفشر على مستوى منطقة شمال خراسان وذلك بوصفه كبيراً للقرية التي عاش فيها2. غير أن المؤرخ الرسمي لنادر، والذي لم يحاول أبداً التركيز على ميلاده، وصف أصول نادر قائلاً: «السيف يستمد ميزته من القوة الطبيعية لصلادته ومرونته، وليس من المنجم الذي أُخذ منه الصلب المستخدم في صناعته».3

كان الأفشار القريقلو الذين ينحدر منها والد نادر قبيلة تركمانية شبه بدوية استقرت في خراسان شمالي شرق فارس. وقد وُلد نادر في قرية داستجرد الحصينة التي تقوم على الجانب الشمالي من جبال الله أكبر الواقعة في منطقة «دارا جاز»، شمال غرب مدينة مشهد عاصمة خراسان. وأسماه أهله عند مولده نادر قولي4، ومعناه «عبد البديع» وهو ما يعكس رغبة تقية من أهله في هبة الوليد لخدمة ربه. وبعد عدة سنوات، حينما عيّن ابن الإمام قولي نفسه شاهاً، قام بتغيير اسمه إلى نادر— وربما كان «نادر» مجرد اسم تدليل لذلك الطفل الذي تبدت على جسمه قدرات غير عادية خلال مراحل نموه.

وبالنسبة للقراء في الغرب، ربما يكون لدينا مجموعة كافية من العناصر التي تساعد في رسم صورة عن أصول نادر. فقد ولد في قرية داخل إقليم تجاوره مدينة كبيرة تعد المركز الإداري لهذا الإقليم. وكان أبوه راعيا للأغنام والإبل وغيرها من الحيوانات. ولا ينسحب هذا التصور عن نشأة نادر بالضرورة على أي نموذج غربي أوروبي معاصر له، فقد كان سكان أوروبا يفضلون الاستقرار في بلد واحد وغالبيتهم من

الفلاحين، في مقابل أقلية من النبلاء تملك جميع الأراضي، مع تناثر مجموعة قليلة من المدن والحواضر التي تؤدي دور أسواق المناطق الريفية المنتجة. فكان هناك فلاحون وأسواق، وأراضٍ زراعية آهلة ومنتجة[1].

إلا أنه كان ثمة مساحات أكبر من الأراضي غير المنتجة في خراسان ترعى فيها قطعان حيوانات القبائل البدوية وشبه البدوية المسلحة، والتي منها قبائل الأفشار والأكراد وغيرهم. وكثير من هؤلاء النفر، بمن فيهم الأفشار التي كانت عائلة نادر تنتمي إليها، انتقلوا إلى هذا المكان قبل عدة قرون، قادمين من المناطق الغربية لفارس، لكسر التكتلات القبلية الجبارة التي ربما هددت بنشوء تمرد وثورة من جانب، ومن الجانب الآخر الدفاع عن المنطقة الحدودية المكشوفة. فغالباً ما كان البدو التركمان[2] يشنّون هجمات عنيفة على منطقة السهوب الواقعة خلف هذه المنطقة باتجاه الشمال والشرق، وكانوا يعودون بغنائم تتنوع ما بين العبيد والحيوانات التي كانت تطرح للبيع في المدن والبلدات على طول طريق الحرير القديم بآسيا الوسطى5. وبالنظر إلى أن التركمان من السُنة وضحاياهم من الفارسيين الشيعة، لم تكن الأخلاقيات الدينية تُلتزم فيما يخص اتخاذ العبيد من الفرس المنكسرين. كما أن نمط حياة هؤلاء الناس، القائم في الأساس على الزراعة والإغارة والغزوات، قد تغير قليلاً قبيل تلك الحقبة. فصار الخوف من تجار العبيد التركمان حاضراً دائماً في واعية نادر الطفل. كانت قبائل خراسان في الغالب متمايزة إثنياً عن السكان الناطقين بالفارسية، فضلاً عن كونها تتحدث اللغة التركمانية أو الكردية. وكانت أم نادر تتحدث لهجة هجيناً من مجموعة اللغات التي تتحدث بها القبائل التركمانية في إيران وآسيا الوسطى، وسرعان ما تعلم نادر الفارسية مع تقدم العمر به فهي لغة المدن والثقافة الرفيعة. لكن التركمانية ظلت لغته المفضلة في حديثه اليومي، ما لم يكن يتعامل مع شخص لا يجيد سوى الفارسية6. ونحن نعرف أن نادر قد تعلم القراءة والكتابة في مرحلة متقدمة

(1) بعض الأراضي التي كانت زراعية ذات يوم، لم تعد كذلك البتة في فترة الغزوات المغولية في القرن الثالث عشر، التي لم تتعافَ منها فارس الريفية قطّ.

(2) منهم قبائل اليوموت وتقي وسالور وإرساري، وإمرلّي وآلي إلي.

من حياته، ربما بعد أن كبر.

في بدايات القرن الثامن عشر شكّلت نسبة السكان العاملين بالزراعة من البدو وأشباه البدو حوالي ثلث أهل فارس، وقد بلغ عددهم آنذاك ثلاثة ملايين نسمة أو أكثر قليلا7. وكان أبناء القبائل يرتبطون معاً ارتباطاً وثيقاً بفضل صلة القرابة وبفعل التقاليد التي تحض على التعاون العسكري والاقتصادي فيما بينهم. أما على المستوى الثقافي فرغم أن هذه القبائل كانت مندمجة بدرجات متفاوتة في الثقافة الفارسية الغنية والمتحضرة، إلا أن كثيراً منها قد تعايش مع التقاليد التركمانية المغولية التي توارثوها منذ عصر تيمور وجانكيز خان. وكانت هذه القبائل ترى أنها تنتمي إلى طبقة أعلى من طبقة الشعوب المستقرة في هذه المنطقة التي غزاها هؤلاء القادة العظام8.

وعندما ضعفت قدرة السلطة المركزية، كما حدث في القرن الثامن عشر، ونظراً لقدرة هذه القبائل على الحراك والاندماج والتذمر من السلطة المركزية فقد أوشكت هذه القبائل على أن تجعل من زعمائها سادة على هذه الأراضي. وحتى في فترات قوة السلطة المركزية، غالباً ما كان الشاه يُعيّن قادة القبائل حكاماً على المناطق المحلية والأقاليم اعترافاً منه بالسلطات الطبيعية التي يتمتعون بها. واستمر الأمر على نفس المنوال في الفترات التي تلت ذلك، وفي عصور السلام، كان الفلاحون المستقرون يقدمون نصيباً معلوماً من محاصيلهم إلى قادة القبائل المحلية مقابل ما يُمكن أن يُطلق عليه «الحماية»، ولم يكن البدو يدفعون سوى القليل من الضرائب إلى الحكومة المركزية، وأحيانا لا يدفعون.

ترعرع نادر في وسط هذا المحيط المتسم بالتناقض الظاهري: مواطن فارسي يتحدث اللغة التركمانية، وعلى دراية بثقافة الحضر في فارس التي كان يفهمها ويجلّها الجميع من أسطنبول إلى سمرقند ودلهي وما ورائها، لكن نادر كان يشعر بعدم الراحة نظراً لأنه غريب عن المدن فراح ينظر بازدراء إلى سكان المدن الذين لا يستطيعون ركوب الخيل9. وكانت عائلة نادر شأنها شأن غيرها من العائلات تأخذ الأغنام وغيرها من الماشية إلى

المراعي المرتفعة الأكثر برودة حول منطقة كوبكان في فصل الربيع حيث ينصهر الثلج وتظهر الباكورة الأولى لنباتات الجديدة، ثم يعودون إلى الجو الشتوي الأكثر اعتدالاً في داستجرد في الخريف.

وكان إمام قولي شديد الحب والفخر بابنه الذي رُزق به بعد طول انتظار. وهو الأمر الذي جعل من نادر أباً حانياً، ربما توقاً منه لطفولته السعيدة، وأبيه إمام قولي. ويُقال إن نادر أبلى بلاء حسنا في فنون الفروسية والصيد وفي سباقات الخيول، وهو لا يزال في العاشرة من عمره، وبرع في استخدام القوس والرمح. وكان أحد كتاب سيرته الذاتية القدماء قد سار على النهج الشائع في وصف حياة الأبطال في الأدب الفارسي، ليؤكد على النبوغ المبكر لنادر، قائلاً إنه عندما كان عمره سنة واحدة بدا وكأنه في الثالثة، وفي العاشرة من عمره ركب الخيل وخرج في قنص الأسود والنمور والخنازير البرية[1]. وتقول قصة أخرى إن نادر عندما كان يلهو مع غيره من الأطفال، كان يجعل من نفسه ملكاً، ويعين بقية الأطفال حكاماً على أجزاء صغيرة من مملكته. وفي إحدى المرات، جعل نادر هؤلاء الأمراء الصغار يحارب بعضهم بعضاً وفي النهاية، يخرج طفل واحد منتصراً، فأعطاه نادر ملابسه وعاد إلى بيته مجرداً من الثياب. وذات مرة رأته أمه على هذه الحال، وغضبت منه فانصرف نادر إلى والده فاراً منها، فأخذه أبوه إلى البيت وطلب منها أن تتركه يفعل ما يشاء10.

لكن أبا نادر مات فيما لا يزال نادر يافعاً، مما زج بالأسرة في أتون فقر مدقع. فالسنوات التي تلت وفاته كانت شاقة عجافاً. وقد تبدى ذلك من سلوك نادر فيما بعد، إذ بدا متعاطفاً مع النساء، لأنه رأى أمه تصارع الحياة وهي أرملة فقيرة في مجتمع كانت المرأة تصبح فيه لقمة سائغة إن فقدت حماية الرجل. ولم يكن من الممكن لامرأة فقيرة لديها طفلان أن تتزوج مرة أخرى، فكانت بعض النساء في مثل هذه الظروف تهرب إلى أقرب

(1) هناك قصة مماثلة في شهنامة الفردوسي التي يروي فيها طفولة سهراب: في شهر واحد كان يكبر ما يكبره الأطفال في سنة كاملة، صدره كان كصدر رستم ابن زال. في الثالثة من عمره تعلم لعبة البولو وفي الخامسة أتقن الرمح والقوس (Trans. Jerome W. Clinton The Tragedy of Sohrab and Rostam p. 21).

مدينة لتنغمس في الدعارة لسد حاجاتها. لكن أم نادر كانت امرأة حازمة وصلبة.

ربما افتقد الفتى أباه إمام قولي كثيراً. فقد نشأ فقيراً تعوزه الحماية والأمان يلاحقه الازدراء والإهانة بعد فقدان أبيه. وقد يظن المرء، طبقاً لما هو شائع في مثل هذه المواقف، أن مثل هذه التجربة ستقعد نادراً، وتفقده الثقة بالنفس. لكن التجارب المختلفة تفرز ردود أفعال متباينة عند أناس مختلفين. ففي حالة نادر، استطاعت هذه الظروف غير المواتية أن تعزز إرادة البقاء لديه، وغرست في نفسه طموحاً لا يهدأ ورغبة في تأكيد وجوده وتحدي الظروف المعاكسة بل والانتصار عليها، بما يسمح له بالتحكم في الآخرين والسيادة عليهم. فقد جابه الذل الذي وقع تحت نيره رابط الجأش مصمماً على إثبات ذاته.

ولعل هذه الظروف الصعبة في تلك المرحلة المبكرة عززت في نادر كراهية للناس الذين نشؤوا في يسر من الأمر وحققوا مكانة عالية دون عناء بمن فيهم الملالي على الأرجح. ولم ينس نادر يوماً معاناته في سني عمره الأولى، ولا علاقاته بالناس الذين ارتبطوا به وخاصة أمه وأخاه إبراهيم. كما لم يحاول نادر يوماً إخفاء أسرار حياته الأولى التي سادها العوز والفاقة. تذكر إحدى الروايات أن أباه مات عنه وتركه وأخاه وأمه فقراء، وكان على نادر أن يوفر لهما العيش عن طريق جمع الحطب من التلال وحمله إلى السوق على حمار صغير وجمل، شق عليه توفير الأعلاف لهما. وبعد عدة سنوات، كرّم نادر رجلاً كان رفيقه في هذه الفترة بقوله: «لا يأخذك الغرور وتذكّر الحمار وجمع الحطب».11 وإذا كانت بعض ذكرياته المبكرة تنطوي على مشاعره الخاصة بذكائه وطبيعته النزّاعة إلى السيطرة والتحكم في الأطفال (وإلى حنو أبيه المفرط عليه)، فإن طفولته اللاحقة أظهرته بصورة أكثر سلبية بوصفه طفلاً منبوذاً من المجتمع، فصار نادر بطريقة أو بأخرى غريباً بقية عمره.

بعيداً عن رحلات نادر الموسمية، لم تسر حياة نادر على وتيرة يمكن التنبؤ بها. فإحدى الروايات تقول إن نادر وأمه قد وقعا في الرق على يد الغزاة التركمانيين وكان نادر لا يزل

بعد يافعاً. بينما تروي أخرى أن التركمان استرقوا نادر وعدداً من رفاقه، لكنه صلى لله كي يفك أسره فسقطت عنه الأغلال مثل خيط العنكبوت، فحرر أصدقاءه وأخذ غنائم آسريه. وقد فُسّرت هذه النسخة كرواية أسطورية لقصة استطاع فيها نادر إقناع خاطفيه بأن يُطلقوا سراحه مقابل وعد بأن يتعاون معهم في المستقبل، في بادرة تظهر قوته على تسخير الظروف غير المواتية لمنفعته وصالحه.12 أياً كانت الحقيقة، فإن هذه القصص تصف جانباً من عالم ملوءه المخاطر تربى فيه الطفل الصغير وترعرع.

وفي الخامسة عشرة من عمره13، التحق نادر في خدمة أحد قادة القبائل الذين يمثّلون السلطة الحكومية في المنطقة. كان اسمه بابا علي بيك أحمدلو، وكان حاكم مدينة أبيورد، وزعيماً مهماً بين أفشار خراسان. وكانت هناك صلة ما بين بابا علي ووالد نادر. فبدأ نادر في خدمته كأحد حملة المسكيت[1] في خدمة بابا علي ليصبح ذراعه اليمنى. وكان السهم والرمح اللذين أتقن استخدامهما في وادي «دارا جاز» لا يزالان سلاحين تقليديين هامين في الحياة القبلية وفي أجواء الصيد والقنص، لكن حتى في المناطق النائية من شمال شرق فارس، كان الرمح قد عفا عليه الدهر، بينما بدأ صيت القوس في التراجع في الحروب بعد انتشار الأسلحة النارية. وعندما كان نادر يتعلم استخدام البنادق ذات السبطانة الملساء، تعلم مهنة الحروب الحديثة الشديدة الخطورة. هذه التجربة علمّت نادر القدرة الهائلة الكامنة في هذه الأسلحة غير المستغلة نسبياً، فاستخدمها لاحقاً لتحقيق ثورة على الممارسات الحربية في فارس والمناطق المجاورة. لكن تلك الأيام التي سيحقق فيها ثورته لا تزال بعيدة جداً.

عندما استطاع نادر أن يثبت ذاته ويبرز من بين جنود حاكم أبيورد، أصبحت مهمته الأساسية ملاحقة الغزاة واستعادة الغنائم التي أخذوها، سواء أكانت ممتلكات منقولة أم حيوانات أم بشراً أوقعوهم في الرق. ولا شك أن هناك غموضاً في كثير من الحالات لا يعرف فيها مالكو هذه الغنائم عبى وجه التحديد، ومن المرجّح أنه حقق مكاسب من

---

(1) توفانغجي بالفارسية. لم يكن حملة بنادق المسكيت جنوداً راجلين بالضرورة، بل يرجّح أنهم ممن يمتطون الجياد أو البغال أو الجمال للتعامل مع التركمان السريعي الحركة.

هذه المناطق الرمادية. ومن السهل هنا أن نرى منشأ القصص العدوانية التي ستأتي لاحقاً لتحكي عن تحوّل نادر نفسه إلى قاطع طريق ولص.14

بين عامي 1714–1715 تقريباً، شنّ التركمان من قبيلة يوموت غارة أكبر من غاراتهم العادية ودخلوا من خلالها إلى شمالي خراسان بقوة قوامها عدة آلاف من الجنود. استطاعت قوات بابا علي الحدودية أن تتصدى للتركمان بنجاح وألحقت بهم الهزيمة وأوقعت 1400 رجل من بينهم في الأسر. ولا بد أن نادر أثبت تميزه في هذه المعركة ما جعل بابا علي يختاره ليحمل أخبار النصر إلى الشاه في العاصمة أصفهان. وفي أصفهان كان نادر على موعد مع الشاه سلطان حسين الذي منحه 100 تومان مكافأة على صنيعه[1].15

كانت هذه الزيارة الأولى لنادر لأصفهان وموعداً مع عالم لم يعهده من قبل. اليوم، لا يزال ميدان أصفهان الرئيس الذي تحيط به البازارات والمساجد والقصور واحداً من أعظم مظاهر العمارة الحضرية. ولا يزال مسجد الشاه المزين بالبلاط الأزرق الذي أنشئ في القرن السابع عشر بأمر من الشاه عباس العظيم[2]، يحبس الأنفاس. في أوائل القرن الثامن عشر، كانت أصفهان أكثر بهاءً مما هي عليه اليوم، حيث انتشرت القصور والحدائق الرائعة والجادات الكبيرة التي اختفت منذ ذلك الحين. ويروي أحد المعاصرين الذي زارها في عام 1716، والذي سيطر عليه الذهول، أنه لم يستطع النظر داخل القصر هناك لكنه حكم على ما بداخله من الأبواب الضخمة الخارجية التي اكتست بالزجاج البرّاق فبدت كالمرايا الضخمة المصنوعة من البلّور. وقد رأى الشاه يضرب بقدميه الميدان الفسيح أمام القصر محاطاً بجموع من رجال قصره الذين ارتدوا ثياباً مرصعة بالذهب والجواهر، وسط حماية الحراس الراجلين والراكبين والأفيال. فكتب يقول إن المرء ليظن من حب رجال القصر للذهب أن لحوم أجسامهم وشحومها قد سُبكت منه. لكنه حكا أن حاشية الشاه لم يرتفعوا بأنفسهم إلى معالي الفضيلة بل انغمسوا في الملذات.16 كان من السهل على رجل

(1) تساوي حوالي 190 جنيه إسترليني في هذا الوقت، ما كان يمثل ثروة لشاب صغير في سن نادر ومن خلفيته الاجتماعية.

(2) كان الاسم الرسمي للمسجد وقت كتابة هذا الكتاب «مسجد الإمام».

فقير فطِن مثل نادر يتمتع بحس ريفي بسيط، أن يدرك بسرعة أن الشاه وحاشيته لم يكونوا على نفس الروعة والإبهار الذي يظهر من الأجواء المحيطة بهم.

يقال إن نادر عندما كان في أصفهان التقى بعرّاف عجوز، فسأله عن طالعه. شرع العراف في ممارسة حيله المعروفة وبدا على وجهه الذهول، وكرر ما فعله مرة بعد الأخرى، لينتهي به المطاف ساجداً أمام نادر قائلاً له: «عما قريب سوف تصير ملكاً عظيماً يخضع لك ربع ملوك العالم». فرد عليه نادر بقوله: «هل جننت يا رجل؟ أم تظن أنك ستخدعني لأني خراساني؟». فأجابه الرجل: «لست أكذب عليك، وإنما أتوسل إليك أن تعامل أبنائي بالحسنى عندما تصير ملكاً».

لكن هذه الأسطورة تنتمي إلى نوع معين من الحكايات عن فترة شباب جميع العظماء، إذ تحاول معظمها أن تثبت أن نجاحهم كان قدراً بادياً عليهم من البداية. لكنها في الوقت ذاته تكشف توقعات الشاب الخراساني الجلف بأن سكان العاصمة سوف يحاولون الاحتيال عليه17. وفي ضوء موقف نادر العدواني فيما بعد من العاصمة الصفوية والبلاط الصفوي، فقد بدا أن الشاب القادم من الأقاليم قد عانى من بعض المذلة عندما كان في أصفهان رغم عطية الشاه له. تقول إحدى الحكايات إن نادراً تعرض لسوء معاملة من مسؤولي البلاط، وإنه بعد عدة سنوات عندما أصبح شاهاً أمر بإعادة نظم هذه الواقعة بوصفها جزءاً من عمل مسرحي للتسرية عن البلاط.18 وتجيء هذه الرواية بوصفها استبطاناً للذات الداخلية لنادر، فهي تظهره بوصفه شخصاً غريباً تعرض للمهانة من أناس منعتهم حماقاتهم الفجة من رؤية قدراته الفائقة.

يتبادر إلى الذهن سؤال عن انطباعات نادر عن البلاط الصفوي، وعن طبيعة النظام الصفوي؟ فنحن نعرف من الوقائع التي حدثت فيما بعد أن نادر كان نافد الصبر حيال الأبهة العبثية والتعقيد الرسمي داخل البلاط. فرغم رفعة مكانة موظفي البلاط وتعاليهم في التعامل معه، كان نادر يزدري فيهم حب التباهي الفارغ وخستهم والكسل والارتباك الذي يشوب دوائرهم. وكان دائماً يفضل التقشف في السلوك والملبس. وعلى الرغم من أن بعض الصفات الأخيرة كان جزءاً من طابعه الشخصي، فإنها تعكس جانباً ثقافياً أعمق

تمثل في المواجهة بين المحارب القادم من الأقاليم وبروتوكول البلاط.

قبل ثلاثة قرون من هذا العصر، وضع المؤرخ والمنظّر العربي العظيم ابن خلدون نظريته المثيرة حول صعود الممالك في العالم الإسلامي وأفولها، والتي بناها على تحليل لطبيعة العلاقة المتغيرة بين القبائل البدوية والسلطة في الحضر19. فقد كانت رحلاته وأسفاره شديدة الاتساع، بحيث غطت المسافة بين أسبانيا وسوريا، والتقى خلالها تيمور العظيم. وعلى الرغم من أن نادراً ربما لم يسمع عن ابن خلدون إطلاقا، فإن نظريات الأخير تكشف جانباً من المواقف الشخصية والتحيزات التي ألفها نادر ومعاصروه، وبالتالي فإنها تجعلنا أقرب إلى فهم طريقة تفكير نادر ومعاصريه ورؤيتهم للعالم من حولهم.

شغل مفهوم «العصبية» موقعاً مركزياً في نظرية ابن خلدون. فقال إن طبيعة الدعم القوي المتبادل والمودة الطائفية، معززة بصنوف المعاناة التي تنطوي عليها حياة الصحاري والجبال، هي ما منح بدو القبائل هذا الترابط والتلاحم في المعارك وفي السياسة، وجعل منهم هذه القوة الكبيرة. وكان لدى قبائل البدو المحبين للحرب رغبة في التقدم من حيز السيطرة على الريف إلى غزو المدن، وبالتالي بناء الحكم وتحقيق السيادة على سكان الحضر. لكن الحاكم البدوي الجديد، ما إن تستقر له أمور الحكم في المدن، حتى ينأى بنفسه عن مسانديه السابقين من البدو حتى يؤمّن نفسه من منافسيه من أبناء القبائل ويوسّع نطاق الدعم الذي يحظى به على مستوى المدن.

وقد لاحظ ابن خلدون أن العائلة الحاكمة الجديدة، ما إن تشعر بالأمان التام، حتى تبدأ في الاسترخاء، وتعزيز هيبتها من خلال تشييد المباني الفاخرة مثلاً، كما فعل الصفويون في أصفهان تحت حكم الشاه عباس الكبير في بداية القرن السابع عشر. وحينها تضيع القيم الصلبة ويغيب التقشف الذي بُني عليه الحكم. وعندما تنخدع الأسرة الحاكمة بهذا الزخرف والفخار، تبدأ في اتباع تقاليد ملكية جديدة أساسها المظاهر والعظمة التي تصبح فيما بعد غاية في ذاتها. وفي المرحلة الأخيرة ينغمس أهل الحكم في الملذات والشهوات، ويشرعون في الإسراف والبذخ في إنفاق الكنوز المتوارثة المخصصة في الأساس لدفع

رواتب جند الدولة وموظفيها، فتدب الفرقة في أوصال الحكم من خلال أقرب المساندين والمناصرين. يقول ابن خلدون: «تسيطر على المملكة شيخوخة وداء عضال يصعب عليها الفكاك منه أو التداوى»20. وهذه العملية دورية، إذ يدمر هذا الحكم بدو غزاة آخرون مثل هؤلاء الذين بنوه من قبل، بدعم من سكان المدينة الذين استبد بهم فساد واضمحلال الحكم في مراحله الأخيرة.

تظهر مواطن ضعف نظرية ابن خلدون عند تطبيقها على بداية القرن الثامن عشر21، لكن ذلك لا يمنع من أن في تاريخ الدولة الصفوية عدداً من جوانب الاتفاق المثيرة مع هذه النظرية. فقد ظهر الصفويون في بداية الأمر في أواخر القرن الخامس عشر كقادة تكتّل من قبائل التركمان في شرقي الأناضول. وقد كانت العصبية التي تربط بين قبائل هذا التكتّل عبارة عن ضرب راديكالي من الإسلام الشيعي، فجعلت من أفراد القبيلة إخوة في الدين وفي ساحات الوغى. واشتهر المحاربون من أعضاء تلك الرابطة باسم «قزلباش» (القبعات الحمراء)، ومنحوا قائدهم إسماعيل مكانة شبه ربانية22. فغزوا أذربيجان في سنة 1501، وقام إسماعيل بتنصيب نفسه شاهاً في تبريز. وخلال بضع سنوات استولى الصفويون على بقية المناطق الواقعة غربي الدولة الفارسية وفارس (Fars) وخراسان، لكنهم مُنعوا من العودة إلى موطنهم القديم في الأناضول بعد أن ألحق جيش العثمانيين هزيمة بإسماعيل في معركة كالديران سنة 1514. هذه الهزيمة حددت نظام الملك الجديد عند حدود فارس القديمة تقريباً. وبقيت العداوة بين الإمبراطوريتين العثمانية والصفوية في تزايد مع ازدياد المرارة والهوة بين المذهبين السني والشيعي.

وقبل الغزو الصفوي، كانت الأراضي الفارسية أكثر ميلاً للمذهب الشيعي من أي جزء من العالم الإسلامي آنذاك، بخلاف بؤر المذهب الشيعي القوية مثل مدينتي «قم» و«مشهد». وكان المسلمون السنة يمثلون الأغلبية على الأرجح، أما خارج فارس فقد كان يوجد أعداد كبيرة من الشيعة في الأناضول ولبنان وغيرها من البلدان. غير أنه ما إن غزا الصفويون وأتباعهم القزلباش بلاد فارس، حتى اتبعوا سياسة دينية تهدف إلى تحويل البلاد إلى دولة أغلبية شيعية. فاستقدم الصفويون علماء الشيعة من لبنان وشبه الجزيرة

العربية وفرضوا الطقوس الدينية الشيعية في المساجد والمدارس. فاضطر علماء السنة إلى ترك فارس قاصدين أراضيَ أكثر ترحيباً بهم. وفي الوقت ذاته، كان الشيعة يتعرضون للاضطهاد في بلاد العثمانيين، فقد كان يُنظر إليهم بوصفهم خونة وفئة قريبة من التخابر لصالح القزلباش المعادين. وهكذا ولكي نفهم طبيعة بلاد فارس في أوائل القرن الثامن عشر، فمن الضروري أن نفهم المذهب الشيعي الذي مثّل ركيزة للدولة الصفوية.

تعود أصول الشقاق الإسلامي إلى عهد الرسول نفسه. فقد اعتقد الشيعة بأن الرسول اختار ابن عمه علياً خليفة له[1]. ورغم ذلك فقد تم اختيار غيره من الصحابة ليصبحوا خلفاء أو قادة زمنيين بعد وفاة الرسول عام 632 ميلادياً: وهم على الترتيب أبو بكر وعمر وعثمان بن عفان الذي اغتيل عام 656 للميلاد. وقد انشغل الخلفاء الثلاثة الأوائل بالغزوات والفتوحات وإدارة الأراضي التي دانت لهم حديثاً، لكن علياً بن أبي طالب نأى بنفسه عن ذلك، ووهب عمره لحياة الوعظ والصلاة. ومع وفاة عثمان، كان علي قد حاز جمهوراً كبيراً من الأتباع وبويع علي خليفة رابعاً، لكن بعض المسلمين انشقوا على خلافته فنشبت الحرب بينهما. لم تنته بنتيجة حاسمة، وقُتل علي عام 661، ربما على يد المتعصبين من أتباعه الذين شعروا بخيانته لهم عندما أراد أن يصل إلى حل وسط بين المعسكرين.

وبعد مقتل علي تكرّس الشقاق بين شطري الإسلام. فقد استولت على الحكم عائلة من الخلفاء هم بنو أمية بناء على الحزب الذي عارض علي في حياته. واعتبر أتباع علي أن ابنه الحسن هو الخليفة الصحيح له أو الإمام وأصبح الحسن الإمام الثاني للشيعة بعد علي. وعندما مات الحسن بن علي، أصبح الحسين، الابن الثاني لعلي وحفيد الرسول، الإمام الثالث للشيعة. وقد رفض الحسين التسليم للخليفة الأموي وحاول تنظيم ثورة مسلحة ضده، إلا أنه تم تطويقه هو وعائلته وجيشه قليل العدد وذُبح غالبيتهم في كربلاء عام 680 للميلاد.

جاء استشهاد الحسين وعدد من أهل بيت الرسول في كربلاء ليصبح اللحظة الفارقة

(1) جعله زواجه من السيدة فاطمة صهر النبي في الوقت نفسه.

في التاريخ المبكر للمذهب الشيعي. فمنذ ذلك الحين، درج الشيعة على إحياء ذكرى وفاة الحسين كل عام، وتطور لديهم شعور بالظلم والخيانة. فأصبح فيما بعد أئمة الشيعة، المتحدرين من نسب علي والحسين، قادة روحيين لحزب منفصل ضمن التركيبة السياسية والدينية للخلافة. وعند وفاة الإمام السادس، جعفر (عام 765) زادت هوة الخلاف حيث اتبع بعض الشيعة الابن الأول لجعفر إسماعيل (وأصبح يطلق عليهم فيما بعد «السبعية» أو الشيعة الإسماعيلية) بينما اتبعت الغالبية الابن الثاني لجعفر كاظم. وفي عام 873، اختفى الإمام الثاني عشر، ومنذ ذلك الحين أصبح الإمام المنتظر لدى الشيعة «الاثنا عشرية».

وقد أمر قادة الصفويين الأوئل جميع أتباعهم بإعلان ولائهم الظاهر للمذهب الشيعي بسبّ الخلفاء الثلاثة أبو بكر وعمر وعثمان. وكانت هذه نسخة متشددة من المذهب الشيعي استفزت رد فعل متشدداً أيضاً من سلاطنة العثمانيين الذين تقلدوا الخلافة في بداية القرن السادس عشر بفضل سلطتهم على المسلمين السنة. لكن التعصب الديني لدى القزلباش لم يمنع قادتهم من التآمر على بعضهم بعض والتقاتل فيما بينهم من أجل السيطرة على الحكم. فمنذ منتصف القرن السادس عشر، كما تنبأت نظرية ابن خلدون، حاولت العائلة الصفوية أن تنأى بنفسها عن القزلباش وزادت اعتمادها على «الغلمان» (العبيد)، الذين تم تجنيد غالبيتهم من مسيحيي جورجيا وأرمينيا– ليعملوا جنوداً في الجيش وموظفين في الدواوين (وهي استراتيجية مميزة لما بات يُعرف باسم «إمبراطوريات البارود»)– وهي تركيا العثمانية وفارس الصفوية والهند المغولية)23. وفي عهد الشاه عباس الكبير (1587– 162)، استعادت فارس أراضيها التي فقدتها وتوطّدت هيبة الدولة وشوكتها. إلا أنه على الرغم من حركة الإحياء التي شهدها حكم الشاه عباس الثاني (1642– 1666)، فإن نوعية الحكم الصفوي تدنت فيما بعد، وأصابه الخمول والفساد تحت غطاء من السلم مع العالم الخارجي استمر لفترة مديدة.

أدرك نادر الصورة التي رسمها ابن خلدون عن شيخوخة الممالك في مشهد بلاط الشاه سلطان حسين، ومن خلال خلفيته البدوية الريفية، استطاع أن يرقى إلى الاتفاق مع حكم ابن خلدون الأخلاقي عليها. ولكن حتى بين يدي المملكة الشائخة، وبغض النظر عن

الظروف الخارجية المحيطة بها، قد يأمل المرء في أن يخرج قائد استثنائي بفضل مصادفة جينية نادرة، يُؤتى من قوة الشخصية ما يمكنه من تجاوز العقبات وإجراء الإصلاح. غير أن الحكم الصفوي جعل هذه المهمة أكثر صعوبة عندما ألزم ورثة العرش بالبقاء مع محظيات الشاه الحاكم. هذا التقليد جعل من الصعب على الأمراء أن يصبحوا منافسين سياسيين للشاه، لكنه سمح لهم بالحصول على نزر يسير من التدريب الجاد على فنون السياسة والحرب والحكم، أو إقامة علاقات مع كبار رجالات الدولة. وقد عاش الأمراء ورثة العرش مع الحريم في حياة عزلة، بينما تلقوا دروساً على يد معلمين خصوصيين. لكن هذه التربية المنعزلة وما سنسميه لاحقا «تربية مؤسسية» أسهمت في بناء الخوف داخل نفوسهم من صخب العالم الخارجي وتعقيداته وانعدام الثقة بالنفس، وبالتالي عندما يأتي دور هؤلاء الأمراء لاعتلاء الحكم، لا يكونون أهلاً للمهمة.24

وقد كان النظام الصفوي في أوجه مصمّما ليناسب شاهاً قوياً أوتوقراطياً مثل الشاه عباس الأول. كما كانت هناك أقطاب أخرى في السلطة، وتمتع حكام المقاطعات بشيء من الاستقلالية في مباشرة أعمالهم. إلا أن نظام الدولة كان مرتكزاً على الشاه، لأنه يتطلب شخصية تشكّل حجر الزاوية وتتمتع بالثبات والسعي الدؤوب والسلطة اللازمة للإبقاء على فعالية الحكم. وفي المنعطف الأخير من القرن السابع عشر، بدأ الشاه[1] الحاكم، وفي غيبة من التهديدات الخارجية الحقيقية أو التحديات الداخلية لمُلكه وسلطته، بترك الأمور تتفلّت من يديه، فمنح درجة متدنية من اهتمامه للحكومة، وترك المسؤولية لكبير قواده وغيره من القادة. ولا شك أن ثمة من بين المسئولين رجال أصحاب كفاءة ونشاط، لكنهم عندما رأوا أن ما يبذلونه لا يحظى باحترام الشاه، وعندما وجدوا غيرهم يتربحون لحسابهم الشخصي ويتجاهلون مصالح الدولة، بدأ الوهن يتسلل إلى عزائمهم. وبالتالي بدأت عدوى غياب الكفاءة والإهمال تحل بالنظام وتلحق بأركانه.

(1) ظل الشاه سليمان، والد الشاه سلطان حسين، في الحكم منذ عام 1660 حتى 1694.

هناك خلاف حول أسباب سقوط الحكم الصفوي[1]، لكن الفشل الذريع لدولة تمتعت فيما سبق بالقوة وشدة البأس مثل بلاد فارس الصفوية لم يأتِ من فراغ. فقد كانت الفكرة السائدة أن السبب في انهيار الدولة عائد إلى تدهور اقتصادي ألمّ ببلاد فارس في منتصف القرن السابع عشر، نتيجة التوسع في التجارة البحرية التي تهيمن عليها أوروبا وتباطؤ التجارة على طول الطرق البرية القديمة مارة عبر فارس. لكن الدراسات الحديثة تشير إلى أن التجارة على طول الطرق الداخلية القديمة احتفظت بكثير من حيويتها السابقة خلال هذه الفترة25. وهناك وجهة نظر تقول بأن فترة من التمرد القبلي في إيران26 أفرزت قطيعة وجفاءً عاماً بين شعوب المنطقة بوجه عام، وأدت إلى توغل الأفغان في بلاد فارس وشمال الهند، وكذلك إلى ظهور نادر شاه نفسه. لكن على الرغم من أن التغيرات الاقتصادية والاجتماعية المعقدة التي حصلت في هذه الفترة قد تكون عززت أو أثرت عدداً من القبائل التي تمتعت بوضع جيد في ذلك الوقت، فإن هناك سبباً يدفع إلى الاعتقاد بأن القبائل استفادت من ضعف الأسر الحاكمة التقليدية، ولم تكن السبب فيه27.

وقد كانت صناعة الحرير، التي تركزت بشكل عام في جيلان ومناطق أخرى بالشمال الغربي، ذات أهمية كبرى للاقتصاد الفارسي وعاملاً مساهماً إلى حد كبير في العائدات الملكية، بل لعلها كانت أهم سلعة تصدّرها البلاد. لكن تجارة الحرير على ما يبدو تراجعت في بلاد فارس في الجزء الأخير من القرن السابع عشر بعد أن كانت بلاد فارس سوق التصدير الرئيسة، إذ بدأت الهند تنتج الحرير الخاص بها، واستطاع الحرير البنغالي أن يزيح الحرير الفارسي ذا الجودة المتدنية عن ساحة التجارة مع أوروبا. في الوقت ذاته، بدأت

(1) لم تستطع أي نظرية حديثة تتناول نهاية الصفويين أن تأتي بما جاءت به نظرية رستم الحكماء من ابتكار في هذا الجانب، وقد أنحى رستم باللائمة على تفشي العلاقات الجنسية خارج نطاق السيطرة. ووفقا لما قاله رستم، فإن سلسلة الأحداث الدرامية بدأت مع عملية إغواء مرتجلة لزوجة شابة محترمة من أصفهان، وانتهت بالاغتصاب الشرجي لجميع الممثلين الدبلوماسيين للبلاطات الأجنبية في أصفهان. هذا أدى بطبيعة الحال إلى صعوبات في العلاقات الخارجية لفارس، حتى إنه عندما غزا الأفغان أصفهان، وجد الصفويون أنفسهم بدون حليف أو نصير. أما الجانب الوحيد من القصة الذي يبدو صحيحاً تماماً فيتعلق بتفاعل الشاه سلطان حسين مع هذه الجرائم: لأنه لم يدر ماذا يفعل حيال هذا الوضع، فنصحه بعضهم بأن الوضع طبيعي بشكل عام، ولذلك لم يحرك ساكناً. (Rustam at-Tawarikh, vol. 1, pp. 243-52).

الهند تصدر القطن الهندي إلى فارس على نحو زاد من سوء حالة ما يُعرف اليوم باسم أزمة ميزان المدفوعات، التي لم تستطع الخيول المصدّرة إلى الهند التخفيف منها، ما سرّع معدل تدفق العملات الفضية إلى خارج الدولة، وهو وضع ما لبث أن أضعف أركان الدولة الصفوية28. لكن تجارة الحرير تواصلت ولاسيما عبر الشام بل وأعادت توجيه نفسها نحو روسيا، بينما بقي النزر الأكبر من التجارة المتجهة إلى الغرب في أيدي الأرمن، وليس الشركات الهولندية أو شركة الهند الشرقية الإنجليزية. إلا أن تدني عائدات الحكومة من تجارة الحرير كان عائداً بالأساس إلى وهن الحكومة في تحصيله في صورة مبالغ مجمعة تحقق ربحاً ضريبياً.

ربما كانت هناك مبالغة في وصف حالة التدهور الاقتصادي لفارس في هذا الوقت. فصعود الهيمنة الاقتصادية للتجارة الأوروبية في آسيا لم يحدث قبل عام 1700م، وطوال هذه الفترة ظل حجم التجارة الفارسية مع الهند أكبر بكثير (حتى لو شهد تراجعاً) من نظيره مع أوروبا. ويبدو من المرجح أن الدولة الصفوية فشلت في التكيّف مع التحول الذي شهدته الهياكل الاقتصادية والاجتماعية آنذاك. وهنا يأتي دور الحرب ليصبح الاختبار النهائي والأكبر لأية دولة، أوروبية كانت أو آسيوية، في القرن الثامن عشر: فانتصارات جيوش نادر شاه الكبيرة ذات العتاد المتميز في ثلاثينيات وأربعينيات القرن الثامن عشر لم تكن ممكنة لو أن القاعدة الاقتصادية لفارس قد أصابها الوهن الذي شاع الحديث عنه (هذه النجاحات تكتسب أهميتها الكبرى عندما معرفة أن عدد سكان فارس لم يكن يتجاوز تسعة ملايين نسمة حينذاك، بينما كان سكان الدولة العثمانية 30 مليون نسمة، وبلغ عدد المغول 150 مليوناً)29. ولذلك علينا ألا نقبل الميل إلى الفكرة القائلة بوجود سبب اقتصادي بسيط وراء انهيار الحكم الصفوي. فعندما أصاب الوهن اليدين القابضتين على مقاليد الدولة، بدت الدولة نفسها واهية، لكن الأمور عادت إلى نصابها عندما عاد الزمام إلى يدين ثابتتين30.

وحين حضرت الوفاة الشاه سليمان والد سلطان حسين، في سنة 1694 ترك أمر خلافته

دون حسم فيما. فقد دعا مسؤولي قصره وحاشيته وقال لهم: «إن كنتم تريدون السلاسة واليسر عيّنوا حسين ميرزا[1]، وإن أردتم أن يصبح مجد بلادكم تبعاً لرغباتكم، نصّبوا عباس ميرزا على عرش البلاد31. وبمجرد أن أسلم الشاه الروح، قرر المسؤولون الخصيان الذين تولوا مهمة حراسة الحريم والإشراف عليهم، تنصيب سلطان حسين، قناعة منهم بأن السيطرة عليه ستكون أيسر لهم. وكان سلطان حسين أيضاً هو المفضل عند عمة والده مريم بيجوم، والتي كانت الشخصية المسيطرة على الحريم، فأصبح شاهاً على الفور. وكان الشاه سليمان شرهاً في معاقرة الخمر، فأفسد استهلاك النبيذ صحته ووافاه بالموت المبكر. وتقول الروايات المعاصرة إن الخصيان اختاروا نفس الوسائل لتحييد الشاه سلطان حسين والسيطرة عليه.

وفي بداية الأمر لم تبد آفاق هذه الخطة جيدة بما يكفي. لأن سلطان حسين ميرزا، على الرغم من سلبيته وضعف إرادته، كان مسلماً تقياً ورعاً، وافتتح حكمه بسلسلة من الإجراءات الدينية الدراماتيكية، متأثراً تأثراً كبيراً بالمجتهد الشيعي الشيخ محمد باقر المجلسي. وقد اشتملت إجراءاته على تدابير ضد النظام الديني الصوفي[2]، وبدأ بنفسه في تدمير قبو النبيذ الخاص بالشاه الأسبق (تم حمل الزجاجات إلى خارج القصر وتحطيمها أمام الرعية)، وأصدر مرسوماً ضد استهلاك الكحول بشكل عام. وكان على الحكام الإقليميين وغيرهم من المسؤولين أن يطبقوا أحكام الشريعة ومن يخفق في تطبيقها يخضع للعقاب. وكانت الموسيقى والرقص في الاجتماعات المختلطة للرجال والنساء من المحرمات، شأنها شأن المقاهي ولعب الميسر والدعارة واللواط والأفيون وغيره من «الأعشاب المثيرة للمتعة». وقد تم نقش هذا المرسوم على الحجر في العديد من المساجد

(1) ميرزا كلمة فارسية تعني 'الأمير' عندما تأتي بعد الاسم كما في المثال. وعندما تأتي قبل الاسم تشير إلى مسؤول رفيع أو أحد موظفي الديوان، على سبيل المثال، كان اسم أمين السر والمؤرخ الرسمي لنادر الميرزا مهدي الإستربادي.

(2) الصوفية حركة إسلامية تقوم على الزهد وتشدد على تجربة الصلة الشخصية المباشرة بين العبد وربه من خلال التأمل بدلاً من التقاليد العلمية والشرعية المتبعة بدراسات الشريعة والدراسات القرآنية في المدارس الدينية. وقد تأثر عديد من كبار شعراء الفارسية بالتصوف، كما هو حال حكام الصفويين وظاهرة القزلباش بشكل عام. وقد حافظ التصوف على شعبية العناصر الدينية التي سبقت ظهور الإسلام، بينما ظل يُنظر للتصوف بعين الريبة من جانب علماء الشريعة.

في أنحاء البلاد، رغم أن ذلك لا يعني أنه كان معمولاً به لدى الجميع. وفي الوقت ذاته، صدرت أوامر تمنع النساء من الخروج إلى الحدائق بدون أزواجهن، أو السير في الطرقات دون سبب مقنع أو ترك نُزل الحريم دون إذن. وفي محاولة لنزع الشرعية عن الصوفيين وانتحال كامل السلطة الدينية لصالح المجتهدين، حاول محمد باقر إطلاق نوع من الثورة الإسلامية.32

لكن العقول الطيّعة للخصيان وموظفي البلاط ارتفعت إلى مستوى التحدي، وبهذه المناسبة كان لديهم حليفة قوية هي مريم بيجوم. هذه المرأة الهائلة اعتبرت استثناءً لافتاً للنظر في قصة السنوات الأخيرة للحكم الصفوي، لأنها المرأة الوحيدة التي تظهر كلاعب كبير ومؤثر في الأحداث التي وقعت في ذلك الوقت وكصوت نادر (في كثير من الأحيان على الأقل) لاختراق الحس العام الشائع. لكن تظل هناك حاجة إلى مزيد من البحث لإلقاء الضوء على ظروف حياتها والأثر الذي مارسته على مجريات الأمور. فنحن لا نعرف تاريخ ميلادها أو وفاتها. لكن في عام 1694، كانت مريم مسنّة حسب معايير عصرها، وقد عاشت 25 سنة أخرى بعد هذا التاريخ. وكانت ابنة الشاه صافي، الذي حكم بين عامي 1629 و1642. وعاشت في مقصورة الحريم أختاً وعمة لوالد عدد من الحكام الذين ورثوا عرش الشاه. وعلى مر السنين أصبحت الشخصية المهيمنة على العائلة المالكة والأم الحاكمة. ولكن نظراً لكونها امرأة فقد اقتصر نفوذها على الحريم، وكانت تمارس تأثيرها فقط من خلال الشاه وغيره من الشخصيات.

لم يرق لمريم بيجوم هيمنة محمد باقر المجلسي المتحققة حديثاً. ولم تكن على وئام مع القيود التي فرضها على النساء، كما أن حظر الكحول كان يعني أنها لم تعد قادرة على الاستمتاع بالنبيذ، فضلاً عن أن التهديد الذي يحدق بمكانتها داخل القصر أشد خطورة من ذلك كله. وتقول القصة كما نُقلت إلينا إن مريم بالتعاون مع الخصيان وغيرهم، بدأت تتظاهر بالإصابة بمرض خطير. وقالت بنبرة حزن للشاه سلطان حسين إن الأطباء قالوا إن هناك علاجاً واحداً فقط لدائها وهو قليل من الخمر. فأرسل الشاه رسولاً على وجه السرعة إلى الأرمن يطلب شيئاً من الخمر، لكنهم شعروا بالريبة واشتموا رائحة الحيلة فيما

قال، فزعموا أنهم انتهوا عن معاقرة الخمر إطاعة لمرسوم الشاه. وأوصوا الرسول بزيارة السفير البولندي الذي وفّر لهم شيئاً من الخمر في نهاية الأمر، وهو أحد المهام التقليدية للبعثات الدبلوماسية. ولما وصل الخمر إلى مريم بيجوم وطُلب إليها أن تشرب منه، رفضت أن تتجرعه قبل أن يشرب الشاه31 نفسه، زاعمة أن الشاه وحاشيته في حاجة إلى عزاء الخمر بسبب الكثير من المسؤوليات التي تثقل كاهلهم، فشرب الشاه جرعة من النبيذ فأدمنه:

> ولم يستطع الملك أن يقاوم إلحاح الحضور عليه بالشرب، فاحتسى كأساً كبيرة منه بعثت فيه لذة وانتعاشاً لم يعرفهما من قبل، فأصبح ميالاً إليها فيما بعد بحيث كان من النادر أن تجده غير ثمل، فلم يعد قادراً على متابعة شؤون الحكم الدقيقة بنفسه.33

ربما تكون هذه القصة قد خضعت للتزيين أو التحريف لكنها نموذج لمرحلة تم فيها تصوير نجاح مريم بيجوم في إعادة توكيد نفوذها على الشاه، بأنه حيلة نسوية صرف. لكن الواضح أن الشاه سلطان حسين تحول من رجل تقي ورع إلى مدمن خمر، ما فاقم نزوعه إلى الكسل ورغبته في أن يظل وحيداً[1]. وقد كره الشاه أن ينقل له أحد أي أخبار سيئة ما حدا بمسؤوليه إلى حجب المعلومات عنه. وأصبح لديه القليل من الاهتمام بشؤون الدولة، التي انتقلت المسؤولية عنها إلى كبير موظفي البلاط[2] كما كانت الحال في السنوات الأخيرة من عهد أبيه. وبدلاً من ذلك كرّس الشاه حياته لبناء «حدائق المتعة»، لاسيما في «فرح أباد» الواقعة خارج أصفهان، وزيادة أعداد حريمه عن طريق اصطفاء الحسناوات من أنحاء البلاد الواقعة تحت سيادته.

وفيما يتعلق بموضوع الحريم وأثره بشكل عام، قد يتهم المرء الرحالة والمراقبين الغربيين

---

(1) ربما كان للتربية التي تلقاها الشاه أثر أكبر من الكحول في إفساده، لكن جرت العادة على اعتبار الغرق في السكر السبب الرئيس في ضعف الشاه، حيث كان من الممكن لأي شاه قوي أن يعاقر ما شاء من الخمر ويحتفظ بسمعته بوصفه حاكماً تقياً ورعاً. إلا أنه من غير المستحسن أن ننحي جانباً أدلة المعاصرين من أمثال كروسينسكي لمجرد أننا مرتابين من هذه القناعات. فقد عاش في هذا الزمان ونحن لم نعشه.

(2) اعتماد الدولة أو رئيس الوزراء.

باستغلال الإعجاب الشهواني والمبالغة بناء على أدلة واهية. فهناك بالطبع عدد من القصص شديدة التفصيل حول الشاه سلطان حسين وتوارد الحريم على قصره:

> كان كل من لديه ابنة شديدة الحسن يخشى من أن يأتي مسؤولو قصر الشاه ليتحسسوا أخبارها، ثم ينتهي الأمر بالفتاة العذراء صاحبة الوجه الذي يضارع القمر جمالاً والتي أوتيت من المميزات الأخرى ما يفوق الوصف، أن تتزوج من الأمير زواجاً شرعياً. وكان الشاه يتبع تقليداً يقوم على المداراة الواضحة والشهامة والحيل اللطيفة والحركات المثيرة للغرائز، فكان يقتحم قلعة الفتاة الحصينة محكمة الغلق كالبطل الفارسي الأسطوري رستم[1]، ويضمها إلى ما ملكت يمينه بعد أن يفتح قفلها السري المصاغ من حجر الروبي بمفتاحه الماسي. فكان كلاهما يغرق في الرغبة والمتعة الحسية المفرطة، ويشعر بمتعة وبهجة لدرجة تقصر الحكايات الشفهية أو القصص المكتوبة عن وصفها، لأن الشاه قبل مباشرة الجماع كان يدهن قضيبه بدهان يجعله يبدأ في الوخز على الفور ويدغدغ المرهم فرج المرأة أيضاً عند الجماع، وكان يرافق هذه الممارسة حركات مثيرة ونشطة غير عادية. فكانت العلاقة تصل بالطرفين إلى درجة يفقدان معها الوعي من فرط الرغبة.

ويواصل هذا الكاتب حكايته قائلاً إن الشاه فض بكارة ما لا يقل عن ثلاثة آلاف عذراء لهن ملامح وردية وأعين في لون اللوز وشفتين في حلاوة السكر بنفس هذه الطريقة، وأنه جامع أكثر من ألفي امرأة لعوب أخرى في نحافة أشجار السرو يتمتعن بسحر وإثارة يشيان بأنهن لم يكنّ عذارى. ثم كان الشاه يطلق النساء فيما بعد ليعدن إلى حيث أتين، محملين بالأجنة في بطونهن وبالهدايا والعطايا. وكثيراً ما كانت هؤلاء النساء تُهدى إلى النبلاء الفارسيين ليتزوجوا منهن، حيث يصبح أبناء هؤلاء النسوة أبناء للشاه سلطان حسين. ويقول المصدر نفسه إن النساء اللواتي كن يبقين في عداد حريم الشاه كن يكرهنه، وربما فضلن عليه البقاء مع أحد الفحامين أو أحد عمال نظافة المراحيض. وكانت

(1) البطل الأسطوري الفارسي المذكور في شهنامة الفردوسي.

أولئك النسوة يتقن إلى يوم تتم فيه الإطاحة بالشاه حتى يجدن الزوج المناسب.

لكن هذا الكاتب ليس مؤلفاً غربياً يبالغ في لعنة الشرق في نص موجه إلى جمهور قراء يعيشون بعيداً في الغرب، وإنما هو مصدر من فارس نفسها34. وقد يظن المرء أن هذه الحكاية تحمل قدراً من المبالغة (إذا لم نقل مفرطة الإثارة)، لكنها تساعدنا في وضع تقارير الكتاب الغربيين في سياقها الصحيح، والتعرف على نوعية القصص المتداولة في هذا الجانب. غير أن جميع المعلقين، فُرساً كانوا أم أجانب، لا يعدون كونهم بشراً مفتونين بالتعرف على أسرار حريم الشاه، وقد حصلوا على بعض القصص والفضائح من الخصيان وغيرهم، ثم قرروا فيما بينهم ما يمررونه إلى الناس.

كما أن المزيج الذي يجمع بين الأسرار وبين الجنس يكون دائماً حافزاً للخيال. فقد كانت الحياة في مقصورة حريم الشاه سلطان حسين ولا شك أكثر دنيوية مما كان متصوراً. وبدلاً من وصفها بأحد بيوت الدعارة ذات الألوان الزاهية، يمكن الاكتفاء بوصف المقصورة بأنها مجرد مكان تباشر فيه نساء العائلة المالكة والقصر مختلف الأنشطة العادية لحياتهن المقيدة. ولكن هناك دليلاً وجيهاً على أن استمتاع الشاه سلطان حسين بحريمه وإنفاقه عليهن كان مفرطاً35. كما أن استغلاله مكانته لإرضاء شهوته الجنسية التي لا تهدأ يجب أن لا يمثل لنا مفاجأة، فهناك قصص كثيرة مشابهة لذلك في عصره وفي عصرنا نحن أيضاً[1]. فالإفراط في مباشرة النساء وأثره السلبي على الحكم كان سمة غالبة في تعليق الكتّاب الغربيين على النظام الفارسي في هذه الفترة. لكن العديد من رعايا الشاه يتفقون على أن المعلقين الغربيين كان لديهم مشاعر استياء حيال هذه الممارسات36، ولا يمنع ذلك من أن تعليقاتهم كانت ولا شك تعكس استياء معاونيهم ومخبريهم الفارسيين الذين كانوا ينقلوا إليهم المعلومات.

حافظ الشاه سلطان حسين على دينه، وعلى نفوره من سفك الدماء، رغم

(1) كان لويس الرابع عشر وأغسطس حاكمين معاصرين يتمتعان بالقوة والنفوذ في أوروبا. ورغم أن رجال الدين ربما زموا شفاههم تجاه حريم الأمراء، فإنه من الواضح أن كثيراً منهم كان على استعداد للانغماس في الملذات التي أدينت بوصفها سبباً في ضعف الحكام.

أن تلك الميزة لم تعزز سمعته كحاكم قوي. فقد شجع ضعف الشاه على التآمر والدسائس والانقسامات داخل البلاط، فأصبح الخصيان والموظفون والنبلاء والخدم كلهم في صراع دائم على السلطة والنفوذ37. وعندما كان يُطلب من الشاه قراراً، كان يميل إلى الاتفاق مع رأى آخر من يأتيه من المسؤولين وكان يستخدم الكلمة التركمانية «يخشي دير» (استحسن هذا!). وتقول إحدى القصص إن هذه العبارة ظلت معه حتى أصبح الخصيان والخدم يلقبونه بها عند الحديث عنه في غيابه.38 يُنسب إلى الفيلسوف اليوناني القديم هيراقليطس قوله، في معرض التأكيد على وحدة طبيعة الوجود وتغيرها، إن رجلاً ما لا يستطيع أن يضع قدمه في النهر نفسه مرتين، فثمة مياه جديدة دائماً تتدفق في موضع القدمين. وقد استعار البعض هذه الصورة ليصفوا شخصية الإنسان— ذلك لأن فكرة وجود شخصية ثابتة للإنسان هو مجرد وهم.39 ففي حالة الشاه سلطان حسين، ربما لو كان واجه أزمة خطيرة في بدايات حكمه، على الرغم من الأثر الموهن الذي مارسته تربيته عليه، لظهر جزء مما كان مخفياً من طبيعته الداخلية ولاستطاع النهوض إلى مستوى اتخاذ إجراءات صارمة. وإذا كانت هذه الإجراءات تكللت بالنجاح لاستمر عليها وأصبح حاكمًا قوياً.

لكن فارس التي أوتيت حدوداً طبيعية منيعة واستفادت من الحماية التي وفرها لها اتساع مساحة الهضبة الإيرانية، لم تكن تقع كثيراً تحت تهديد من الأزمات الخارجية، وكانت السنوات الأولى من حكم الشاه سلطان يعمها السلام والأمن. وقد غرق الشاه بين جنبات قصره الحصين في أصفهان في حياة مترفة تقوم على الكسل ومعاقرة الخمر ومعاشرة المحظيات والاعتناء بحديقة القصر، فأصبح ساكناً كسولاً ملتزماً بالمكان الذي خُصص له حسب ثقافة البلاط التي نشأت في عهد أبيه. ووسط هذا الفراغ في سقف نظام الحكم شديد المركزية، انصرف مسئولو البلاط إلى الحيلة والمؤامرة لتأمين ميزاتهم ومنع أي منافس من تحقيق أي من أصناف الهيمنة. وبات إهمال مصلحة الدولة لصالح المنفعة الشخصية لأفراد الحاشية هو المعيار السائد. هذا هو الشاه وذلك البلاط الذي رآه نادر في رحلته إلى أصفهان- حال بعيدة كل البعد عن الجبال الجرداء والواقع الصعب

المهيمن على خراسان.

بإرسال الشاب نادر إلى أصفهان حاملاً أنباء النصر على التركمان، أظهر بابا علي بأسه وقوته علناً، ورفع نادر فوق بقية ضباطه. ولدى عودة نادر من أصفهان سنة 1715 تقريباً، تعزز وضع نادر بالتزوج من ابنة بابا علي التي أنجب منها ابنه الأول رضا قولي في 15 أبريل/نيسان 1719. 40 والاسم رضا قولي، مثله مثل أسماء أبناء نادر الآخرين عند ميلادهم وأبيه (إمام قولي) هو مؤشر قوي على أن نادر ترعرع وظل طيلة شبابه شيعيًا، كما يعكس ذلك انتماؤه إلى قبيلة الأفشار القزلباش.

كان بابا علي رجلاً نافذاً في خراسان، وكانت مظاهر تفضيله هذا الشاب الصغير (نادر شاه) مبعثاً للغيرة والحقد في نفوس الزعماء المحليين الآخرين من الأفشار وغيرهم. فقبيل زيجة نادر، دارت معركة قُتل فيها بعض من هؤلاء الزعماء الغيورين. ولا بد أنه كان لدى بابا علي دافع أكبر من مجرد حبه لهذا الشاب كي يتجشم عناء المعارضة الكبيرة التي تلت ذلك التأييد. فربما كانت هناك صلة قرابة بينهما أو صداقة قوية أو التزام من نوع ما بين بابا علي ووالد نادر41. غير أن الزيجة تمّت فضمن نادر مستقبلاً سياسياً مرموقاً في خراسان، كما وضعته هذه الزيجة على الطريق الصحيح للهيمنة على الزعماء فيما انزلقت البلاد إلى حالة عامة من الفوضى. لكن هذه الزيجة تركت شيئاً من المرارة في نفوس قبيلة الأفشار، وتعمّقت كراهية نادر لدى بعض العناصر في شمالي خراسان بسبب نزاعاته مع الأكراد. وفي الوقت الذي وفر النجاح له أتباعاً وموالين، صار غريباً وعدواً لمجموعة من أفراد قبيلته، ما بذر بذوراً للخيانة التي لحقت به بعد ذلك الحين.

وفي عام 1710، أخذ التمرد والصراع الذي شهدته الأقاليم يؤرق الحياة المترفة للشاه سلطان حسين في أصفهان بشكل متزايد. ففي عام 1699، شن رجال القبائل البلوشية القادمون من الجنوب الشرقي غارة واسعة النطاق على إقليم كرمان. فأرسل الشاه سلطان حسين أميرًا جورجياً عرفه الفرس باسم جورجين خان لقتالهم. وكان جريئًا حازماً في الحرب، لكنه لم يكن يفقه كثيراً من فنون السياسة والدبلوماسية. وكان متغطرساً يرى في القوة الحل الحصري لأي مشكل أو خلاف. نجح جورجين في تهدئة القبائل البلوشية،

وبقي في كرمان لمتابعة الأمور عن كثب. وفي عام 1704، حاربهم مرة أخرى عندما شنوا هجوماً على قندهار.42 فالبلاد التي تُعرف اليوم باسم أفغانستان كانت وقتئذ مقسمة بين الإمبراطوريتين الفارسية والمغولية، وكان الحد الفاصل بينهما هو الخط الواقع بين قندهار وكابل التي كان لها حاكم مغولي، بينما كانت قندهار عاصمة أحد الأقاليم الفارسية شأنها شأن هرات.

عندما وصل جورجين إلى قندهار، استسلم البلوش فوراً. فصار جورجين خان حاكماً على قندهار قبل أن يغادر كرمان، ثم شرع في بسط نفوذه على الإقليم الحدودي. وقد فعل ذلك بطريقة تشبه البلطجة السافرة، وسرعان ما ساءت سمعة قواته الجورجية لدى الأفغان الذين شعروا بالاستياء تجاههم منذ البداية بسبب أصولهم المسيحية.

وفي صيف عام 1706، خرج الشاه سلطان حسين في رحلة إلى مدينتي «قم» و«مشهد»، في حاشية قوامها 60 ألف فرد منهم الخدم والحريم والقوات المرافقة، ومكثوا هناك قرابة عام[1]. لكن تكاليف هذه الرحلة عادت بالدمار والخراب على خزينة الدولة والأقاليم التابعة التي مر بها موكبه.43 فقد أسفرت عن زيادة في اضطراب الحياة اليومية للناس بسبب القرق (Qoroq)– ذلك التقليد الذي بموجبه يسافر الشاه في صحبة حريم قصره والخصيان في راحلة تشبه الفقاعة تمتد على مسافة ميلين أو أكثر، وكان الضرب المبرح أو الموت عقاب من يسير في الطريق في أثناء مرور القرق. وكانت العادة أن يُنادى على أهل المدن التي سيمر بها الموكب قبل وصوله مطالباً إياهم بإخلاء جميع المنازل المطلة على الطريق الذي يمر به الشاه وإغلاق بقية المنازل. وكان الخصيان يسيرون على مسافة ميل واحد أو أكثر أمام موكب الشاه وعلى مسافة ميل تقريباً خلفه شاهرين سيوفهم لفرض نظام القرق. وكان الشاه يُسرّي عن نفسه طوال الرحلة بجلد البغال التي تُقِلُّ النساء وبضربها، بحيث تثور البغال وتركل وتُسقط ركابها على الأرض.44

تزامن حدوث نقصٍ حادٍ في الغذاء في أصفهان فيما الشاه في طريقه إلى مشهد–

(1) تتمتع هاتان المدينتان بقداسة لدى المسلمين الشيعة لأنهما مرقدا الإمام الثامن، الإمام رضا (في مدينة مشهد) وشقيقته فاطمة (في قم)

ربما كان سببه هو التربح غير المشروع الذي مارسه تجار الحبوب مستفيدين من غياب رجال البلاط. فثار الشعب وتجمهروا في الساحة الكبيرة وألقوا بالحجارة على أبواب قصر «علي قابو»، رافعين أصواتهم بالشتم والسباب على الشاه سلطان حسين، وهتفوا باسم أخيه مطالبين إياه بالخروج إليهم من مقصورة الحريم. فأرسل الشاه سلطان حسين أحد أبناء إخوة الأمير جورجين، واسمه كاي خسرو، من مشهد، ليخمد التمرد وقد نجح في ذلك.45

لا شك أن من الصعب تصوّر قيام هذه التظاهرة في عاصمة حاكم أوتوقراطي على النحو الذي كانت عليه تحت حكم الشاه عباس. فأي إدارة أشد قوة من تلك لم تكن لتسمح لهذه المجاعة بالوصول إلى هذا المستوى المتدهور. غير أن إلقاء الحجارة شكّل دليلاً على أن هيبة الشاه سلطان حسين وجلال نظام الحكم برمته قد تراجعت إلى مستوى يُنذر بالخطر. ذلك لأن أي صورة من صور الحكم إنما تنطوي على أحد صنوف الخديعة والمؤامرة، حتى الاستبداد نفسه لا بد أن يقوم في نهاية الأمر على قبول الأناس المحكومين به وعلى مدى الاحترام الذي يحظى به الحاكم. فإذا شرع الاحترام والهيبة في التداعي والانهيار، يبدأ امتثال الرعايا (وخاصة المتمردين على النظام) في التآكل أيضاً ، ويأخذ الانزلاق نحو الفوضى في اكتساب زخم وقوة دافعة.

في ذلك الوقت كانت هناك مشكلاتٌ مع قبائل اللزجي المولعة بالقتال في جبال داغستان الواقعة في أقصى الشمال الغربي. وقد لعب اللزجيون دوراً خطيراً ومثيراً للقلائقل بالنسبة لنظام الحكم الفارسي كما فعلوا مع جيرانهم الشيشانيين فيما بعد بالنسبة للدولة الروسية. واللزجيون من أهل السنة كالتركمان والأفغان والبلوش والأكراد، وقد زادت أعمالهم التخريبية من جراء البغضاء الناتجة عن الانشقاق الديني. ففي عام 1706، أغاروا على جورجيا بسبب اختلاس المسؤولين الفارسيين الفاسدين للإعانات التي كانت تُدفع لهم عادة للمحافظة على السلام. كما نشبت مشكلات أخرى عديدة بسبب ضعف السلطة المركزية للدولة. فمع زيادة الوهن الضارب في حكم الشاه أضحت الطرق ومسارات القوافل أقل أمناً بالنسبة للتجار والمسافرين وانتشر قطع الطريق واللصوصية. وفي بعض

الأحيان كان المسؤولون المفترض منهم حماية القوافل هم أنفسهم من يسرقونها.46

وقرر حاكم قندهار، جورجين، أن يعزز السلطة الفارسية على هذه المنطقة المضطربة عن طريق الضرب عليها بيد من حديد. وكان «مير ويس» من بين الشخصيات المعروفة في قندهار، وهو نبيل أفغاني وثري من عائلة معروفة تنتمي إلى قبيلة الغلزاي ولا يثق به جورجين. وقد استقطب الأناس العاديين المستائين من الحكم القمعي للجورجيين بفضل سخائه مع أنصاره والمحتاجين. وكان منع الأفغان من القيام بغارات على الأراضي المغولية من بين أهم التدابير التي اتخذها جورجين للحيلولة دون تدخل المغول الذين قد تستثيرهم هذه الغارات، الأمر الذي جعل الأفغان المحبين للحرب يعتبرون الحاكم الجديد لقندهار حاكماً قمعياً.47

يعتبر الأفغان ركناً مهماً في قصة نادر إذ يمكن للمرء أن يستشف من وصف معاصريه لهم بأنهم يتسمون بالعصبية القوية التي ترتكز عليها ابن خلدون. وكان جل ما يقتاتون الخبز واللحوم المشوية والخضر النيئة كما أنهم غير معتادين على التوابل. «لم يكن لديهم أي نوع من أنواع الترفيه سوى ذلك وكان شرابهم الوحيد هو الماء، كما أنهم من أشد الناس كرهاً للنبيذ». وهم يرتدون ملابس بسيطة، ويحلقون رؤوسهم مع ترك خصلة من الشعر بجانب كل أذن، ويرتدون عمامة مصنوعة من قطعة واحدة من القماش الملفوف حول الرأس بحيث يتدلى أحد طرفيها على الكتف الأيسر. ولم يكن يرتدي الأحذية منهم إلا الأثرياء في حين أن بقيتهم يمشون حفاة القدمين كما أن معظم جنودهم لا يرتدون الدروع الواقية للجسم.

والأفغان محبون للحرب ويفخرون بأنفسهم لأنهم درجوا على القتال والإغارة على جيرانهم، فضلا عن غلظتهم وشدة بأسهم في الحروب. وكان أغلب قتالهم على ظهور الخيل باستخدام الرماح والأقواس والسيوف والدروع التقليدية. ويقود هجماتهم رجال مختارون يعودون إلى مؤخرة الجيش فور انتهائهم من المصادمات الأولى. بعد ذلك تصطدم القوة الرئيسة للجيش مع العدو وتردي أصحاب القلوب الضعيفة ممن قد يحاولون الهرب إذا لزم الأمر48. وفي تلك الفترة كان الأفغان الغلزاي يقيمون في قندهار، في حين أن القبيلة

الرئيسة الأخرى، وهي الأفغان العبدلي، تقطن في هرات. وكان العيدلي والغلزاني ينافس بعضهم بعضاً وكثيراً ما قاتل كل منهما الآخر. والقبيلتان من المسلمين السنة وتميلان إلى التقشف والورع.

وفي أحد الأيام ازدادت شكوك جورجين حاكم قندهار في «مير ويس» لدرجة أنه ألقى القبض عليه وأرسله إلى أصفهان49، عملاً بنصيحة الشاه سلطان حسين الذي رأى أن «مير ويس» رجلاً خطراً ونافذاً يُشك في ولائه؛ وأن بقاء «مير ويس» في العاصمة يجعل الحكم الفارسي مستتباً في قندهار. وقد كان إرسال «مير ويس» إلى أصفهان خطأً فادحاً ليس بالنسبة لجورجين فحسب وإنما أيضاً بالنسبة للحكم الفارسي في الأراضي الأفغانية بشكل عام لأنه تمكن بذلك من أن يطلع بنفسه على ضعف النظام. وعلى غرار نادر فيما بعد تمكن «مير ويس» سريعاً من التعرف على طبيعة حياة البلاط ومن اكتشاف إمكانية استفادته من الشقاق والصراع هناك. فقام بالتملق والتزلف واكتسب بعض النفوذ حتى لدى الشاه سلطان حسين.

وسرعان ما اكتسب «مير ويس» موقعاً لنفسه كأحد أفراد الحاشية المفضلين لدى الشاه50، فاستأذن لأداء فريضة الحج في مكة المكرمة، وعندما وصل إلى هناك حصل على فتوى من السلطات الدينية تسمح للمسلمين السنة في قندهار بتحرير أنفسهم من حكم الفرس المارقين عن الدين. فعاد «مير ويس» إلى أصفهان من مكة المكرمة في صيف عام 1708، ومن ثم توجه إلى قندهار، فاستشاط جورجين غضباً. وهناك جهّز «مير ويس» أتباعه للثورة على جورجين المتعجرف، وجاءت الفرصة سانحة في أبريل/نيسان 1709. ومن القصص التي تذكر في هذا الصدد أن «مير ويس» نفسه دخل خيمة جورجين وقام بتقويضها من الداخل ومنع جورجين من المقاومة ثم قتله. وقُتل العديد من الجورجيين مع جورجين، أما الباقون فقد تمكنوا من الفرار إلى خارج المقاطعة بشق الأنفس.

وفي أصفهان أخفق تمرد الغلزاي في تنشيط الحكومة الصفوية. ولم يدرك الشاه سلطان حسين إلا متأخراً خطأ الثقة في «مير ويس» فأرسل مبعوثين واحداً تلو الآخر للاحتجاج لديه لكنه سجنهما. وفي نهاية المطاف أرسل الشاه قوات بقيادة «كاي خسرو»، ابن شقيق

جورجين، لاستعادة الإقليم. وعلى الرغم من حصول كاي خسرو على مساعدة من عبدليي هرات وتحقيقه بعض النجاحات إلا أن تقدمه كان بطيئاً فاضطر في أكتوبر/تشرين الأول 1711 إلى الانسحاب بعد حصار طويل وغير ناجع لقندهار. وعندما انسحب الفرس قام «مير ويس» بالهجوم عليهم فقاتله الجورجيون والعبدليون بشجاعة، لكنهم أُخذوا على حين غرة، كما أن كي خسرو نفسه قُتل عندما ألقى به جواده أرضاً بينما كان يحاول عبور مجرى مائي. وتمكنت معظم وحدات الجيش من الهرب إلا أنهم تعرضوا لهزيمة خطيرة، وفقد النظام الملكي الصفوي قندهار إلى الأبد. وأرسلت حملة أخرى من أصفهان لكنها لم تصل أبداً إلى قندهار، إذ تفرقت القوات بعد وفاة قائدها المسن في هرات.51

بسط «مير ويس» سيطرته على إقليم قندهار بأكمله لكنه اكتفى بحصوله على لقب «الوكيل» أو «الوصي»، وتوفي في عام 1715. وتقول إحدى الروايات إنه عندما كان يحتضر سُئل كيف ينبغي للغلزاي أن يتعاملوا مع تهديد بلاد فارس في المستقبل. فأجاب بأنه إذا هاجمهم الفرس فعلى الغلزاي أن يجنحوا للسلم، لكن إذا أظهر الفرس أنفسهم بأنهم أقل ميلاً للقتال فينبغي الهجوم عليهم «حتى إلى بوابات أصفهان». 52 وخلف «مير ويس» في الحكم أخوه، لكنه كان أقل عدائية وأقل شعبية لدى زعماء الغلزاي الذين شجعوا محموداً، الابن البكر لمير ويس، على تولي منصب القائد. فقتل محمود عمه في عام 1717 ليكون أول الضحايا في دورة أعماله الدموية. وفي تلك الفترة لم يقم الفرس بأية محاولة لاستعادة السيطرة على قندهار لانشغالهم بتمرد العبدليين في هرات.

كانت قبيلة العبدلي تشكل منافساً قوياً للغلزاي في ذلك الوقت، وربما كانوا أكثر عدداً. وبعد أن أصاب العبدليين في بداية الأمر ما أصابهم من النكبة التي لحقت بحملة كاي خسرو التي كانت تهدف لإخضاع الغلزاي، رأوا أن الفرصة قد سنحت لتحرير أنفسهم من الفرس الواهنين. لذا بدأ حاكم هرات الصفوي يتعرض للمتاعب فألقى القبض على بعض الزعماء، لكنه ما لبث أن سُجن من قبل قواته التي تمردت. فأرسلت أصفهان حاكماً جديداً سرعان ما هزمه رجال قبيلة العبدلي، كما لاقت محاولة حاكم مشهد قمع التمرد المصير نفسه في عام 1716.

وكان من بين الجنود الذين أُرسلوا من مشهد لإخضاع العبدليين فصيل مؤلف من 500 رجلٍ بأمرة بابا علي، حمي نادر. وتُرك نادر نائب عنه في أبيورد. لكن بابا علي لقي مصرعه في أثناء القتال53، فخلفه في حكم أبيورد أخوه قربان علي الذي قام نادر تحت قيادته بحملة ناجحة أخرى ضد التركمان المغيرين من قبيلة تقي. وبعد فترة قصيرة، توفي قربان بسبب المرض في الظاهر54، لكن المحتمل أن وفاته لم تكن لأسباب طبيعية، وقد صارت مصدراً للقصص التي انتشرت في وقت لاحق بأن نادر قتل حماه (حيث خلطت تلك القصص بين بابا علي وشقيقه). وعلى أي حال، فقد أدت وفاة قربان علي إلى ازدياد مكانة نادر فتم تنصيبه رسمياً نائباً لحاكم أبيورد تحت سلطة الحاكم الجديد حسن علي خان المعين من قبل أصفهان. وبمرور الوقت أضحى نادر الشريك المهيمن على الحكم.

في ذلك الوقت كان النظام الصفوي يكافح دون نجاح للتغلب على التمرد في الجزء الشرقي من الأراضي التي يسيطر عليها، وكانت هيبة الحكومة والنظام الصفوي تضعف مع كل فشل يلحق به في معالجة الوضع. فأرسلت الحكومة مزيداً من الحملات من أصفهان لاستعادة هرات لكنها باءت كلها بالفشل. وقد شارك نادر في إحدى هذه الحملات برفقة قوات من أبيورد. إلا أنه عندما بدأ القتال أخطأت المدفعية الفارسية وقصفت القوات الفارسية عوضاً عن العبدليين الذين تمكنوا من اختراق التشكيل الفارسي فانهار القائد الفارسي وفجر نفسه بواسطة برميل بارود55. وتمكن نادر ورجاله من الفرار بعيداً عن مسرح الكارثة. لكن ذلك لم يمنع نادر من أن يتعلم من كل تجربة قتالية جديدة مزيداً عن الحرب وقيادة الجنود.

بعد أن نجا العبدليون من الخطر الذي تمثله أصفهان قاموا بمهاجمة أعدائهم التقليديين من الغلزاي، لكن محموداً، ابن مير ويس، هزمهم في المعركة عام 1720، فنشب صراع بعد ذلك بين زعمائهم على السلطة. فأرسل محمود رؤوس بعض زعماء العبدليين للشاه سلطان حسين كبادرة ولاء. فقبل الشاه سلطان حسين ببساطته المعتادة هذه البادرة ونصّب محموداً حاكماً على قندهار ومنحه لقب «حسين قولي خان»56 الذي يعني «عبد (أو خادم) حسين»، حيث كانت تسميته باسم الشاه نفسه بهذه الطريقة تعتبر شرفاً عظيماً.

وفيما كانت الحكومة في أصفهان تشعر بالأسف للأحداث السيئة التي تجري في شرق البلاد، وصلت إلى البلاط أخبار عن استيلاء قراصنة عرب من مسقط على عدة جزر في الخليج تُعدُّ من الممتلكات الفارسية المهمة التي تضمن المرور الآمن للسفن التجارية. ويبدو أن مريم بيجوم، وهي الأم الأكبر سناً بين الحريم، كانت الوحيدة التي أدرك الحاجة لاتخاذ موقف حازم إزاء هذه المشكلات المتشعبة. فانتقل الشاه مع البلاط إلى قزوين في شمال غرب البلاد لحشد القوات استجابة لإلحاحها وللهدية التي قدمتها له من مالها. إلا أنه عند وصوله إلى قزوين لم يفعل كبار رجال حاشيته شيئاً، وأجّلوا التصرف، وتشاجروا فيما بينهم، ولم يحضروا إلا الجلسات المعتادة لتمضية أوقات الفراغ في سرور- فقد «كان لدى كل منهم أسبابه النابعة من مصلحته الشخصية والتي تحضه على نفاق الآخرين، مما حجب عن أعينهم رؤية ما كان ينبغي القيام به»57.

انتشر الطاعون في المقاطعات الشمالية الغربية في السنوات 1717—1720، واندلعت الثورات مرة أخرى في كردستان وشروان. ويبدو أن المسلمين السنة في شروان، وربما أيضاً في كردستان، قد تمردوا بسبب التعصب الديني لحكامهم تحت تأثير إحياء الحركة الشيعية الذي حدث في السنوات الأولى من عهد الشاه سلطان حسين. وكان رجل الدين المجتهد محمد باقر مجلسي الذي توفي عام 1699 هو الشخصية المركزية في هذه الحركة. فقد كان يتمتع بشخصية قوية وحازمة كما كان مدافعاً قوياً عن التشيع الأصولي والتقيد الصارم بقوانين الشريعة واعتزم إعادة تأكيد هيمنة الشيعة على مذهب أهل السنة، والصوفية، والأقليات الدينية في البلاد. ومكنته كتاباته الغزيرة بالفارسية فضلاً عن العربية من نشر آرائه على نطاق واسع، فضلاً عن أن نفوذه عند الشاه سلطان حسين لم يتأثر نتيجة لخلافاته مع الخصيان ومريم بيجوم على شرب النبيذ. وقد بقيت كتاباته حول تقاليد الشيعة مؤثرة إلى يومنا هذا.

في بلاد فارس وسواها من البلدان الإسلامية، منحت الأقليات المسيحية واليهودية وضعية مميّزة بصفتهم «أهل كتاب» تتميز عن وضعية غيرهم من غير المسلمين على أساس أن المسلمين يجلّون الكتاب المقدس أيضاً. لكن بعد وفاة محمد باقر، تولى حفيده الملا

باشي[1] محمد حسين قيادة الحركة الشيعية. وفي تلك الفترة تعرض اليهود والأرمن إلى اضطهاد كبير، على الرغم من الحماية التي ينبغي أن يتمتعوا بها من الناحية النظرية، كما أصدر الشاه مرسوماً أمر فيه بالتغيير القسري لديانات الزرادشتيين، عبدة النار الذين ترجع ديانتهم إلى وقت طويل قبل وصول الإسلام58. كما عانى من الاضطهاد التجار الهندوس والمتصوفة وأهل السنة بدورهم. وقد أدت عودة الحركة الشيعية الصارمة التي تحظى بموافقة ضمنية من البلاط، إذا لم يكن بدعم رسمي من الدولة، إلى التوتر بين الرعايا غير الشيعيين، ما زاد من الصعوبات السياسية التي يعاني منها النظام، وأصبح الأفق الفكري يعاني من الضيق والمحدودية بشكل عام59.

وثمة قصة حول محمد باقر انتشرت بين الأجيال اللاحقة عن شخص رأى في حلمه محمد باقر بعد وفاته فسأله عن الآخرة والكيفية التي عومل بها في العالم الآخر، فأجاب: «لم أستفد شيئا من أعمالي على الإطلاق إلا أنه في أحد الأيام أعطيت تفاحة ليهودي وهذا ما أنقذني»60. ولا شك في أنه ينبغي للمرء أن يكون حذراً في الاعتماد كثيراً على هذا النوع من الحكايات إلا أن الفكرة التي ترى أن مثل هذا العالم المجتهد والصارم قد كرمه الله نتيجة للفتة إنسانية بسيطة وليس بسبب إصراره المتواصل طوال عمره على نشر العقيدة تشير إلى وجود رد فعل طبيعي ضد التطرف الديني[2]+[3]. كما أن نادر نفسه قد يمثل رد

(1) تعتبر أصول هذا اللقب مجهولة، وقد أشار ساندي مورتون علي بأن هذا اللقب مرتبط بالسخرية، لكن يبدو أن اللقب خرج للوجود قرب نهاية حكم الشاه سلطان حسين. انظر Minorsky 1943, p. 41.

(2) من الصواب أن نشك بالكتاب الغربيين المعاصرين أو اللاحقين الذين انتقدوا ما يُسمى بالتعصب الإسلامي، لكن الحركة الدينية في زمن الشاه سلطان حسين تعرضت لانتقادات حتى داخل بلاد فارس، ومن الأمثلة على ذلك كتاب «رستم التواريخ» الذي ألقى مؤلفه باللوم على تأثير المتطرفين الدينيين الذي أدى بالشاه سلطان حسين للسير في «مسار الأخطاء الملتوي» (ج. 1، ص. 220–223). ولم يتم تجميع وقائع هذه الروايات (التي تستند إلى حد كبير إلى المحادثات التي تمت بين المؤلف ووالده وآخرين ممن عاصروا تلك الفترة) إلا في أوائل ثمانينيات القرن الثامن عشر (ج. 1، ص. 20)، ولم ينته إعدادها إلا في القرن التاسع عشر وذلك لأنه لا يمكن لأي كاتب أن يكون صريحا بشأن أخطاء أي نظام وهو لا يزال في السلطة.

(3) يثور سؤال هنا: ماذا كان موقف الملالي المحليين من ام نادر في فترة فقرها؟ ليس هناك دليل يمكن التعويل عليه في هذا الجانب على الإطلاق، لكن الرفض المذل لطلب ام نادر للإحسان، مثلاً يفسر الكثير من مواقف وسلوكيات نادر في حياته اللاحقة. فأم نادر بوصفها أرملة فقيرة كانت معرضة لتقديم التنازلات الجنسية.

فعل أكثر عنفاً ضد التطرف الديني. ففي مرحلة ما انقلب على الأشكال التي عاصرها من المذهب الشيعي بل ربما صار ضد فكرة الدين تماما. وقد يكون نادر مثالاً مبكراً للظاهرة التي حذر منها بعض المفكرين الإسلاميين وعلماء الدين الشيعة بأنه عندما تتحول الحماسة الدينية إلى أمر سياسي بحت قد تتعرض سمعة الدين نفسه للخطر61.

كانت ميول الشاه الشخصية أقل تشدداً وأكثر إنسانية من ميول الملا باشي، لكنه جارى مستشاريه كالعادة. فكان جو التوتر الديني عاملاً مهماً في تمرد المحيط السني، لاسيما مع ضعف نظام الحكم. والمثال الأوضح على ذلك هو التمرد الذي وقع في شروان وراح ضحيته رجال الدين السنة ومُزِّقت الكتب الدينية وتحوّلت المساجد السنية إلى إسطبلات62. كما حدثت ثورات في كردستان ربما تركت أيضاً بعض الأثر في تمرد الغلزاي والعبدليين. وقد ناشد المتمردون في شروان إخوانهم في الدين الأتراك العثمانيين كي يساعدوهم، وهو تطور لم يكن يبشر بالخير. فعندما قام السكان السنة في شاماخي، وهي البلدة الرئيسة في شروان، بفتح إحدى بوابات المدينة أمام رجال القبائل اللزجيين في أغسطس/آب 1721، ذُبح الآلاف من سكانها الشيعة (أما الأجانب والمسيحيين فلم يتعرضوا إلا للسرقة فقط). وقطّع الغوغاء أجساد الحاكم الشيعي وابن أخيه وغيرهم من أقاربهم إرباً وألقوا بجثثهم للكلاب63، فانتقل الإقليم إلى السيطرة العثمانية.

وجاءت الضربة الكبرى التالية لحكم الشاه سلطان حسين من الشرق في خريف عام 1719، عندما شن محمود الغلزائي، وهو ابن مير ويس، غارة على كرمان من قندهار برفقة حوالي 10 آلاف رجل من الغلزاي والسيستانيين وغيرهم. فهرب حاكم كرمان ودخل محمود المدينة دون أي مقاومة تقريباً ونُهبت المدينة عن بكرة أبيها.

أظهر محمود في كرمان بأنه لا يمكن التنبؤ بتصرفاته، الأمر الذي تحول لاحقاً إلى ضربٍ من الجنون. فقد أمر بالتحويل القسري للشيعة إلى المذهب السني، ثم ما لبث أن ألغى أوامره، ثم عاقب قواته بقسوة على الجرائم التي ارتكبتها، ثم سمح للفظائع بأن تستمر. واستغل الزرادشتيون الذين عانوا من مرارة الاضطهاد في السنوات السابقة الفوضى لمهاجمة المواطنين الشيعة، لكنهم هم أنفسهم تعرضوا للمزيد من الاضطهاد على يد

الأفغان. ومع مرور الوقت صار هناك مزيد ومزيد من القتل، ولحق بالمدينة مزيد من الأضرار حتى ترك الغلزاي المدينة أخيراً في صيف السنة التالية بعد أن أحرقت معظم مبانيها وتناثرت الجثث في سوقها وعاد محمود إلى قندهار محملاً بالغنائم التي سلبها64. وكان ذلك إنذاراً مخيفاً بما يأتي لاحقاً بصورة أكبر وأوسع.

عندما انسحب محمود، قام كبير الوزراء فتح علي خان داغستاني بتشجيع الشاه على التحرك مع البلاط إلى الشمال الشرقي ليزيد من هيبة حملته على قندهار، لكن الشاه لم يصل إلا إلى طهران. ويبدو أن المشكلة هي تآمر فريق داخل البلاط يقوده الملا باشي محمد حسين مع طبيب الشاه مع الآخرين على فتح علي خان الذي كانوا يكرهونه لأن لديه الحظوة لدى الشاه ويشكل منافساً قوياً لهم، إضافة إلى أصله اللزجي ومذهبه السني65. فقام أحدهم بتزوير رسالة إلى زعيم الأكراد تزعم بأنها موجهة من فتح علي خان وتحثه على إرسال قوات لاغتيال الشاه وعائلته. وسُلمت هذه الرسالة للشاه، فقبض على فتح علي خان وعذّبه وأصابه بالعمى كي يجبره على الإفصاح عن المكان الذي يخبئ فيه أغراضه الثمينة.66

يبدو أن سياسات البلاط في ظل الشاه سلطان حسين في هذه المرحلة كانت تجري بطريقة شيطانية لتقويض المصالح الحقيقية للنظام الملكي. فكلما حاول أي شخص من مسؤولي البلاط القيام بإجراءات حاسمة ضد التهديدات المختلفة التي تتعرض لها الدولة، كان بقية رجال البلاط يكيدون له على الفور خشية فقدان نفوذهم في حال كتب له النجاح67. وكانت الجهود المتضافرة من جانب بقية الحاشية تتمكن دائماً من تأليب الشاه على ذلك الشخص أو على مشورته. فكان الخصيان ورجال الحاشية يقومون بصورة منهجية بإحباط أي جهود جادة للتعامل مع المشاكل المتزايدة التي تعاني منها بلاد فارس بدلاً من رؤية أحد المنافسين يزداد هيمنة ونفوذاً من خلال تحقيق النصر على أعداء الدولة. وفي النهاية سقطت فارس الصفوية لأن أولئك الذين أوكلت إليهم مهمة الحفاظ على أمنها أخفقوا في فهم طبيعة مسؤوليتهم أو الأساس الصحيح لسلطاتهم، أو حقيقة التهديدات التي يتعرضون إليها. وكان رجال الحاشية يعيشون في عالم وردي يعتقدون فيه أن استمرار

السلالة الحاكمة أمر يقين لا شك فيه، وأنه يمكنهم ممارسة أي شكل من أشكال سوء الإدارة لأنه لن تكون هناك أية عواقب.

عيّن وزير أول جديد هو محمد قولي خان شاملو، وعاد الشاه مع حاشيته إلى أصفهان في ربيع عام 1721. وفي أثناء غيابه انتشرت شائعات عن مؤامرات تحاك بخصوص خلافته على العرش مع شقيقه عباس. وتولت مريم بيجوم تنظيم الأمور في أصفهان، لكنها عندما رأت كيف أن الشاه كان يضيع وقته في قزوين حثته على العودة. بيد أنه تجاهلها، ويبدو من غياب أي ذكر لها في المصادر بعد 1719 أنها تُوفيت على الأرجح قبل أن يعود في عام 1721، وبرحيلها غاب آخر صوت عاقل في المملكة.

ابتهج شعب أصفهان بعودة الشاه إلى مقر إقامته المعتادة في حدائق فرح أباد الواقعة في جنوب غربي المدينة. وسار أفراد الجيش الذي حُشد إلى مشهد، لكن عديداً من الجنود تركوه لأنه بدلاً من القيام بالحملة المخطط لها ضد الأفغان استُخدمتْ القوات المتبقية في نهاية المطاف ضد متمرد آخر هو مالك محمود السيستاني، حاكم تون وتاباس السابق. لكن مالك محمود انتصر وتمكن من توسيع نفوذه في الشمال الشرقي دون تدخل كبير.

في فرح أباد كان الشاه سلطان حسين يتذوق أطايب الطعام التي يستطيع أفضل طهاته إعدادها له، ويتمتع بأجمل النساء اللاتي تمكن المسؤولون في البلاط من إيجادهن له في الأراضي التي يحكمها، ويشرب الخمر، ويقرر إدخال تحسينات على مبانيه وحدائقه المفضلة. ورغم أن معظم هذه المباني قد اختفت، إلا أن مدرسة مدار الشاه[1] والبناء المجاور لها (وهو الآن فندق) ما زالا قائمين ويظهران الإنجازات المعمارية لفترة حكمه. لكن الأقواس والرخام الأزرق اللامع لا يمكنها أن تحفظ أمن الإمبراطورية المترامية الأطراف وسكانها. صحيح أن الشاه سلطان حسين كان يعيش حياة رغيدة في فردوس ساحر الجمال في فرح أباد لكنه كان على وشك الانزلاق في واد سحيق من الأهوال.

تشجّع محمود بنجاحه في الإغارة على كرمان، فغادر قندهار للقيام بحملته الثانية على بلاد فارس في صيف عام 1721. وانضم إليه البلوش وغيرهم من المغامرين في أثناء زحف

(1) تسمى اليوم رسمياً مدرسة شهر باغ.

جيشه. لكنهم لاقوا في هذه المرة مقاومة أشد في كرمان لأن الحاكم الجديد قام بتحصين القلعة التي لجأ إليها معظم السكان (حوالي 50 ألفاً) فعانوا أشد المعاناة من الازدحام وقلة الطعام والتعرض لنيران الأفغان.

وبسبب عدم وجود مدافع حصار ثقيلة لتحطيم الجدران، واصل الأفغان محاصرة القلعة، وبحلول 1722 مات الحاكم الأصلي الشجاع ولم يبقَ حياً من أولئك الذين لجؤوا إلى القلعة سوى حوالي 3 آلاف لجأ بعضهم إلى أكل لحوم البشر بسبب عدم وجود أي طعام. فدفع خليفته للأفغان 1700 تومان[1] ذهباً وفضةً لإنهاء الحصار68. وقد شعر محمود بالسعادة لمغادرة المكان لأنه خسر الكثير من الرجال في القتال كما لاذ آخرون بالفرار. فتوجه نحو يزد لكن تلك المدينة كانت أيضاً حازمةً وقويةً جداً، فترك محمود المدينة وقرر أن يزيد من درجة المخاطرة فزحف باتجاه أصفهان. وبحلول بداية مارس/آذار أوقف رجاله على مسافة قصيرة من قرية جولن أباد على بعد حوالي 18 ميلاً إلى الشمال الشرقي من العاصمة.

وصلت إلى الحاشية في أصفهان الأخبار بأن محموداً قد هاجم كرمان مرة أخرى، لكنهم عندما سمعوا بأنه يزحف نحو العاصمة شعروا بالذعر. وحث الوزير الجديد، قولي محمد خان، الشاه على إبقاء قواته داخل المدينة وأن يستفيد من وقته بحشد جيش كبير من أجزاء أخرى من المملكة. ونظراً لفشل الأفغان في الاستيلاء على كرمان ويزد، فقد كانت تلك النصيحة مجدية. ولو أن الشاه قد أخذ بخطة الوزير لكان الجيش الأفغاني الصغير قد ضعف تدريجياً من هذا الحصار ولكانت القوات الملكية قد اختارت اللحظة المناسبة للهجوم بأعدادها الهائلة.

ولكن نتيجة لوجود فريقين متنافسين من رجال الحاشية استجاب الشاه لضغط سيد عبد الله، حاكم عربستان، الذي حث الشاه على شن هجوم فوري على الأفغان. وكان ذلك الحاكم يتمتع بحظوة خاصة لدى الشاه (لسوء حظ الوزير) فأخذ بنصيحته. وتم تجنيد الجنود من أصفهان والريف المحيط بها لزيادة قوة الجيش، وفي الثالث من مارس/

(1) تساوي 900 جنيه إسترليني تقريبا في ذلك الوقت.

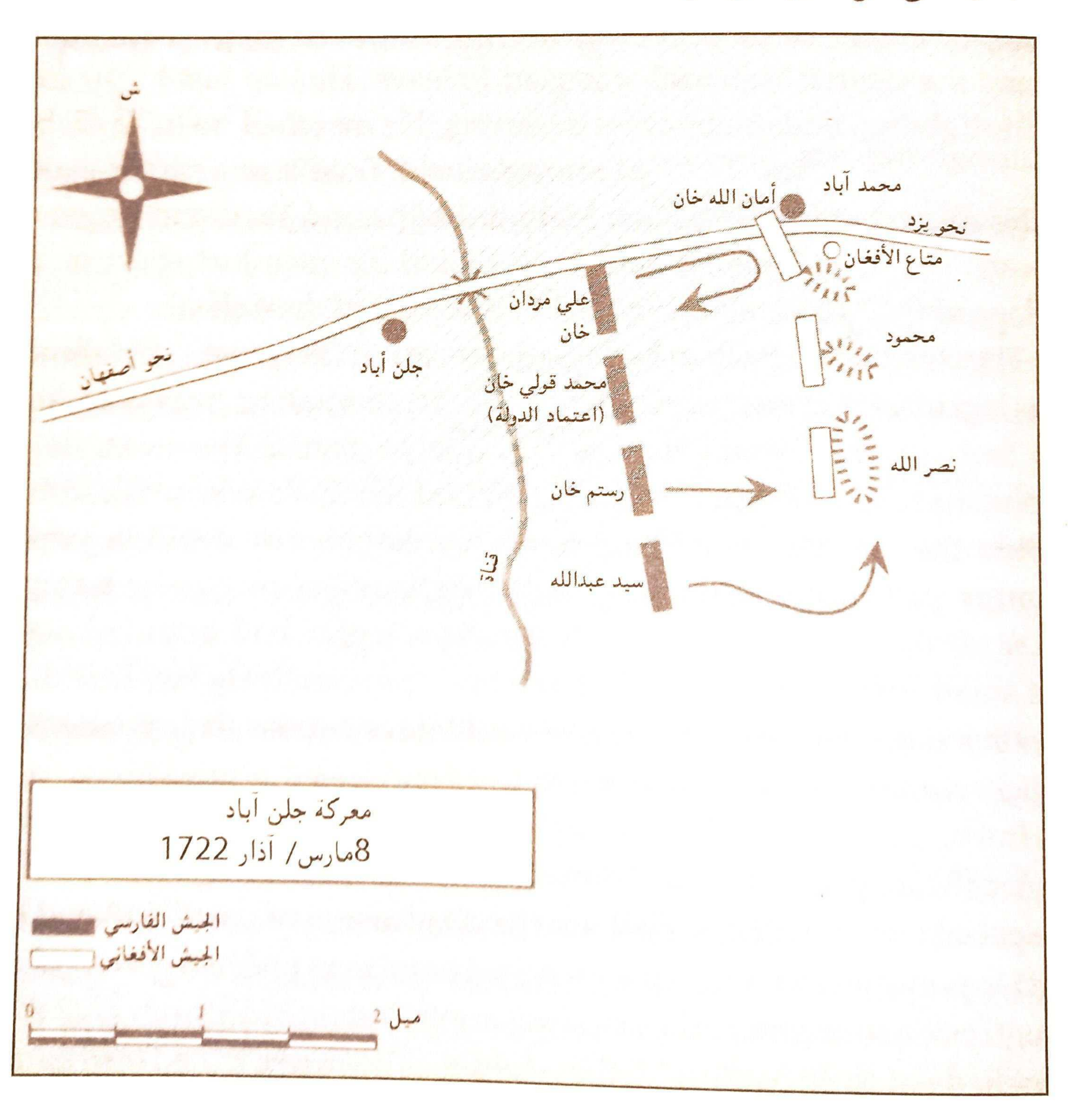
آذار 1722 خرج الجيش لملاقاة الأفغان. وانضم إليهم في الطريق 12 ألفاً من الفرسان العرب تحت أمرة سيد عبد الله، فوصل مجموع قوة الجيش الفارسي إلى 42 ألفاً، لكنه لم يكن نسيجاً واحداً. فقد كان كثير من المشاة غير مدربين وبعضهم لم يكن مسلحاً إلا بالعصي. من ناحية أخرى كانت هناك قوة كبيرة من الفرسان الفارسيين، من قوات الحرس الملكي، بقيادة رستم خان، وهو أحد أبناء أخوة الراحل جورجين خان، بالإضافة إلى مجموعة من الفرسان المولعين بالحرب من مختلف قبائل لوري بقيادة علي مردان خان، حاكم لوريستان. وهؤلاء الرجال يتمتعون بالخبرة والقدرة على القيادة. كما كان بحوزة الجيش الفارسي 24 مدفعاً بقيادة الطوبجي باشي (رئيس المدفعية) أحمد خان يعاونه خبير المدفعية الفرنسي فيليب كولومب. إلا أن العداوة بين سيد عبد الله والوزير محمد قولي خان أدت إلى عدم وجود وحدة في الهدف على أعلى مستويات القيادة69.

وفي 7 مارس/آذار سار الجيش الفارسي إلى جولن أباد مقترباً من المعسكر الأفغاني إلى الجنوب من الطريق بين أصفهان ويزد. ولإتمام ذلك اضطروا إلى عبور قناة، فحدثت بعض المناوشات مع بعض الأفغان انهزم الأفغان فيها. وكان منجّمو الشاه قد أعلنوا أن على الفرس ألا يقوموا بأية معركة قبل 8 مارس، وبما أن الأفغان لم يظهروا بدورهم ميلاً للهجوم الفوري فقد أقام الجيشان في تلك الليلة يفصل بينهما نحو ميل.

وفي صبيحة اليوم التالي صعد الأفغان الذين يواجهون الغرب إلى ثلاثة تلال صغيرة في ثلاثة تشكيلات. قاد محمود نفسه التشكيل الأوسط، وقاد أمان الله خان الميمنة، وقاد الميسرة زرادشتي وقاطع طرق سابق من سيستان يُسمى نصر الله. أما الفرس فقد اتخذوا موضعاً مقابلاً في أربعة تشكيلات هي: علي مردان خان إلى اليسار (مع زعيم آخر من زعماء قبائل لوري)، والوزير محمد قولي خان في الوسط، ورستم خان إلى يمينه، وسيد عبد الله مع القبائل العربية في الجناح الأيمن. ووُضعت المدافع أمام الوزير وكان معظم المشاة الفارسيين في الوسط. وقد كانت نسبة الفرسان المسلحين بالرماح والأقواس والدروع مرتفعة في الجيشين، وكان معظم الأفغان أو كلهم راكبين.

وكان الأفغان أقل عدداً من الفرس وربما لم يزيدوا على 11 ألفاً بعد الخسائر التي

تكبدوها في كرمان70، ما يعني أن عدد قوات سيد عبد الله العربية وحدها كان يفوق عدد الأفغان الموجودين في جنوب ساحة المعركة. وكما حدث في اليوم السابق حافظ الأفغان على مواقعهم بسبب شعورهم بالرهبة من حجم الجيش الفارسي وعظمته، لكنهم أيضاً بمحافظتهم على مواقعهم استفادوا من ميزة ارتفاع الأرض. وأحس الأفغان أن من شأن كبر حجم الجيش الفارسي أن يعوق التنسيق بين قياداته والتحكم فيه. ونظراً لقلة أعداد الأفغان وموقعهم القوي في ساحة المعركة فقد كان من البدهي أن يتركوا للفرس زمام المبادرة على أمل أن يرتكبوا أي خطأ.



معركة جلن آباد
8مارس/ آذار 1722

مر الوقت والجيشان يرقبان أحدهما الآخر بقلق عبر السهول المكشوفة. وكان هناك تناقض كبير في مظهر جنود الجيشين. فلباس الأفغان بسيط ورثّ بعد مرور ثمانية أشهر على حملتهم؛ في حين تنوعت ملابس الفرس، فاللوريون يرتدون ملابس قبائلهم ذات الألوان الزاهية، والعرب يرتدون أثواباً بيضاً، أما الحرس الفارسي فكانوا يرتدون زياً باذخاً مع دروع لامعة وخوذات مصقولة ويحملون رماحاً تلمع أسنتها في ضوء الشمس.

وعلى الرغم من أن الوزير هو من يتولى القيادة العامة نظرياً، فإنه كان في الأساس لا يريد الذهاب إلى ميدان الحرب، لذا لم يرد أن يكون هو البادئ بالهجوم. ومع مرور الوقت نفد صبر رستم خان وسيد عبد الله. لذا في الساعة الرابعة بعد الظهر تقريباً تقدم رستم خان مع رجاله إلى الأمام وبدؤوا بالهجوم، فأخذ سيد عبد الله رجاله أيضاً حول ميسرة الأفغان.

عندما رأى محمود ذلك حسب أن الحظ تخلى عنه، «فأمر بتجهيز أسرع جمل لديه استعداداً للهروب في حال لم يحدث أي تغيير لصالحه». وهو تغيير71 لم يكن ليحدث لو تقدم جنود قلب الجيش الفارسي بدورهم. لكن الوزير لم يتحرك من مكانه فبدأت الأحداث تأخذ منحًى مختلفاً. فبدلاً من أن يتدخل سيد عبد الله بالجناح في المعركة الرئيسة انهمك هو ورجاله في نهب المعسكر الأفغاني. وعندما تقدم علي مردان خان باتجاه اليسار تراجع رجال أمان الله مسافة معينة ثم ابتعدوا ليكشفوا عن حوالي 100 من الإبل الجاثية على الأرض يحمل كل منها مدفعاً صغيراً على ظهره يُسمى زانبوراك قادراً على إطلاق كراتٍ معدنية يبلغ وزنها رطلاً أو رطلين كان الأفغان يستخدمونها نظراً لافتقارهم لأي نوعٍ من أنواع المدفعية الأخرى. فأطلقت المدافع وابلاً من القذائف تجاه فرسان قبائل اللوري المتقدمة على مسافة قريبة ملحقة بهم أضراراً فادحة، حتى إن مردان علي خان نفسه أصيب وسقط شقيقه مضرجاً في دمائه. وعندما قام الفرسان الأفغان بالهجوم بعد وابل قذائف الزانبوراك فر رجال اللوري من ساحة المعركة.

استولى بعض رجال أمان الله على المدافع الفارسية بعد هزيمة رجال اللوري وفرارهم فلم يكن رجال محمد قولي خان قد تمركزوا في المكان المناسب بعد لحماية المدافع. وكان

الهجوم الأفغاني من السرعة بحيث إنه لم يسمح إلا لثلاثة مدافع بإطلاق النار على إثر مقتل جُل رجال المدفعية بمن فيهم الفرنسي والطوبجي باشي أحمد خان.

ومع بقاء قلب الجيش الفارسي واقفاً بلا حراك استجمع محمود شجاعته وتقدم مع الجزء الأكبر من رجاله إلى الأمام لدعم الميسرة الأفغانية التي يقودها نصر الله فحاصروا نخبة القوات الفارسية التي يقودها رستم خان. فهوجم هؤلاء الرجال الشجعان من جميع الجهات من قبل جنود يفوقونهم عدداً. حاول رستم خان أن يقاتل ليجد له مخرجاً لكنه لم يجد أي دعم من الوزير الذي ربما كان قد بدأ بالفعل بالتراجع مع قوات قلب الجيش الفارسي. وسقط رستم خان عندما تعثر جواده في أثناء محاولته إخلاء القناة الواقعة في مؤخرة الجيش الفارسي، فضربه أحد الغلزائيين بعصا غليظة قبل أن يتمكن من امتطاء جواده مرة ثانية وطعنه آخرون برماحهم فمات. فبدأ الجيش الفارسي بكامله بالفرار وترك الجنود العرب التابعون لسيد عبد الله غنائمهم التي نهبوها من المعسكر الأفغاني وتبعوا الجيش الفارسي على مسافة آمنة72.

ألقيت بمعظم اللائمة على الوزير محمد قولي خان في هذه الكارثة لأنه لم يدعم رستم خان في هجومه على الأفغان ولكونه أول من تراجع دون أن يقوم بأي هجوم (وفقاًلرأي السائد)، واعتُبر تصرف سيد عبد الله مريباً أيضاً. فقد كان التنافس بين هذين الرجلين قاتلاً وتكهن بعض من في بلاط الشاه سلطان حسين بأن محمد قولي خان قد تراجع لأنه خشي أن يحظى سيد عبد الله بالتكريم في حال حقق الجيش النصر73. وقال بعض الأفغان بعد المعركة بأنه لو حافظ قلب الجيش الفارسي بقيادة الوزير على مواقعه لفترة أطول بربع ساعة فقط لهزم الأفغان. لكن مرونة الأفغان تستحق الإعجاب أيضاً. فقد كان استخدام أمان الله الذكي لمدافع الزانبوراك ابتكاراً في مجال استخدام القوة النارية المتنقلة ستتضح أهميته لاحقاً74. وبصرف النظر عن مدافع الزانبوراك والقصف القصير للمدفعية الفارسية قبل أن يستولي عليها الأفغان، فإن الأسلحة النارية لم تلعب أي دور يذكر في المعركة. فقد حارب الأفغان معظم وقت المعركة بدونها كما أن الجنود الفرس حاربوا باستخدام السيوف والرماح بشكل رئيس. وبذلك شكّلت المعركة أيضاً نهاية لعصر القتال بدون

أسلحة نارية75.

لم تكن تلك الهزيمة مجرد انتكاسة بسيطة في أثناء القيام بمناوشات على الحدود وإنما هزيمة كبرى للجيش الملكي الرئيس وسط مملكته وعلى مرمى البصر تقريباً من العاصمة. وقد ألحقها بالإمبراطورية من كان يظن الفرس قبل أشهر أنهم مجرد ثلة من رجال القبائل رثي الثياب. وشكلت الهزيمة لطمة كبيرة لهيبة النظام الملكي نجمت عن عدم الكفاءة الواضحة في قيادته، ما أفسح المجال لجولات أخرى من الخيانات والكوارث.

ومن الطبيعي عند دراسة هذا النوع من الأحداث أن نرى أن تراكم الظروف السيئة والمشاكل من قبيل الانهيار الاقتصادي، والتطرف الديني، وسياسة البلاط، وفترة السلام الطويلة، وتردّي أوضاع الجيش وما إلى ذلك قد أدى إلى زيادة تدهور النظام وانحطاطه. لكن هل انهار الجيش كمؤسسة؟ ما الذي كان عليه حال الجيش الصفوي بوصفه مؤسسة؟ هناك شيء واحد واضح هو أن الجيش الصفوي لم يكن مؤسسة ثابتة وموجودة على الدوام كما هو الحال في الدول الحديثة. فقد كانت هناك بعض العناصر التي تشبه هذا النوع من المؤسسات إلى حد ما هي الحرس الملكي التي تتلقّى الرواتب وترتدي زياً موحداً ويتم الاحتفاظ بها بكامل قوتها حتى في أوقات السلم. بالإضافة إلى المدفعية، رغم أن تلك الأخيرة لا يتم الاحتفاظ بها دائماً بكامل قوتها في أوقات السلم. وفي جولن أباد كان هناك عدد كبير من المشاة المسلحين بالبنادق الذين تم تجنيدهم بسرعة على غرار الميليشيات والذين لعبوا دوراً محدوداً في تلك المعركة.

لكن الجزء الأكبر من الجيش الصفوي كان يتم تشكيله من رجال القبائل أو من غيرهم من القوات من المنطقة كما كانت حال جيوش فارس منذ أيام دارا وكسرى. وقد كانت هذه القوات قوات جيدة يمكن الثقة بمعظم أفرادها ليكونوا مرافقين لحكام المقاطعات وزعماء القبائل. فهم مشاة ممتازون ويتمتعون بالخبرة والصلابة ومنضبطون اعتادوا المناورة والقتال بصورة جماعية. صحيح أنهم لا يحاربون كالفرسان الغربيين، لكن إيران ليست كأوروبا، وهم أيضاً لم يخضعوا للتأثيرات نفسها التي سببت انخفاض الكفاءة القتالية للجنود المتمركزين في أصفهان.

قد تكون قضية تدهور الجيش الصفوي صحيحة على الأقل جزئياً، لكنها لم تثبت حتى الآن76. فربما صح أن دفع أجور الجند المثبتين في الجيش لم يتم بصورة منتظمة أو ربما لم يتم تزويدهم بالعتاد المناسب77، وربما كان لسلسلة الهزائم في شرق البلاد أثر سيئ على الروح المعنوية للجيش. لكن ليس ثمة إشارة واضحة لمدى تأثير هذه العوامل على معركة جولن أباد. وربما أمكن بناء جيش أكبر عدداً لو أن حكام الأقاليم أرسلوا قواتهم بصورة أسرع، وحتى إن لم يحدث، فإن العدد الحالي للجنود كان أكثر من كافٍ لدحر الأفغان. فقد كان الجنود القادرون على تحقيق النصر في المعركة، وخصوصاً الحرس، مجهزين تجهيزاً جيداً وبحالة جيدة. ولم يكن هناك نقص في التعبئة النفسية إلا بالنسبة لقيادة الوزير، وتتفق المصادر على أن ذلك يعود إلى تصرفاته الشخصية لا إلى رجاله. فقد اتسم قتال الفرس للقوات الإقليمية والقبلية بصفة عامة بالشراسة وشدة البأس[1]. إلا أنه كي يكتسب جيش يضم جنوداً من مشارب شتى الكفاءة والفعالية، فإنه بحاجة إلى قيادة مركزية صارمة وشعور قوي وموحد بالهدف، وهو ما افتقر إليه جيش الشاه. فالشاه لم يكن موجوداً في ساحة المعركة، ومع غيابه غابت كل شخصية مسيطرة. فخسر الصفويون المعركة لنفس السبب الذي انهارت لأجله الدولة الصفوية، أي غياب السيطرة المركزية في نظام شديد المركزية مصمّم خصيصاً لشاه قوي.

لم يصدق محمود حسن الحظ الذي حالفه في هذه المعركة فبقي بالقرب من ساحة المعركة ولم يترك رجاله يلاحقون فلول الجيش المنهزم مسافة طويلة خوفاً من وجود كمين. وقد كانت خسائر الفرس محدودة نسبياً إذ لم تتعد 5 آلاف لكنها خلفوا وراءهم كل المدافع كما أن عديداً من المشاة الفارسيين قد رموا ببنادقهم أرضاً في أثناء الفرار. وأصيبت أصفهان بالذعر عند وصول أول فلول الهاربين إليها وبدأت النساء بالجري والصراخ طلباً للسلامة والأمن اللتين توفرهما القلعة. وتدارس رجال البلاط أمر بقاء الشاه في أصفهان

(1) بوسع المرء الادعاء بأن إخفاق قوات المدفعية يعود إلى رداءة التدريب والاستعداد، لكن ليس هناك دليل قاطع على ذلك. وقد أوضح محمد محسن سبب هزيمة الفرس: «لقي الشيعة هزيمة منكرة بسبب افتقارهم إلى الوحدة. ولو أنهم حافظوا على وحدتهم لهزموا الأفغان».

أو مغادرتها لحشد قوى جديدة من بقية الأقاليم. صحيح أنه بعد جولن أباد لا يمكن لأي شيء أن يخلّص أصفهان من محنتها إلا وجود الشاه، لكنه ربما يكون بمأمن أكثر وذا نفع أعظم خارج العاصمة. ولكن كالعادة تم اتخاذ القرار الأسوأ وبقي الشاه في المدينة78.

بعد ثلاثة أيام استأنف محمود تقدمه واحتل مجمّع القصر في فرح أباد جنوب غربي أصفهان إضافة إلى الحي الأرمني المسمى جلفا وبدأ بسرعة بتجريد الأرمن من ممتلكاتهم (بضربهم على أخمص أقدامهم كي يتخلوا عنها) وسبي فتياتهم حيث أجبر زعماء الجالية الأرمنية على أن يعرضوا عائلاتهم على الأفغان الذين أخذوا حوالي 50 فتاة. احتفظ محمود بأجمل الفتيات لنفسه ووزع البقية على ضباطه. لكن دموع الفتيات وألمهن جعلت الأفغان المفتولي العضلات يكتشفون أنه ثمة فجوة بين مفهوم الرجولة وحقيقتها فأشفقوا عليهن وسمحوا لبعض الفتيات بالعودة إلى منازلهن على الفور في حين أنهم طلبوا فدية لتحرير بعض الفتيات الأخريات. واحتفظ الأفغان بقلة قليلة من الفتيات بضعة أيام فقط ثم سمحوا لهن في نهاية المطاف بالعودة إلى عائلاتهن. وبحسب إحدى الروايات أن ما جعل محمود يعيد الفتيات إلى منازلهن اعتقاده بأن عملية الاختطاف هي إثم كبير يستوجب سخط الله وسيسبب بطء وتيرة تقدم حصاره لمدينة أصفهان. فأعاد قساوسة الأرمن تعميد الفتيات وقالوا لهن ولعائلاتهن إن من شأن ذلك أن يعيد طهرهن السابق79 كي يتاح لهن التزوج وإلا قد ينتهي بهن الحال إلى الدعارة.

تواصل حصار أصفهان من مارس/آذار حتى أكتوبر 1722. وحالت المشاحنات المعتادة والحماقات داخل المدينة دون القيام بأي عمل مجدٍ حتى في ظل هذه الظروف القاسية. فأحضر الشاه اثنين من أبنائه الواحد تلو الآخر من جناح الحريم ليقاسمهما حكمه، لكنهما أغلظا القول بحق طبيب الشاه والملا باشي وقادة جولن أباد المهزومين لسوء إدارتهم شؤون الحكم فشعر رجال البلاط بالمهانة وطلبوا من الشاه أن يعيد الأميرين إلى جناحهما. ونُصح الشاه مرة أخرى بالتوجه إلى بقية الأقاليم لحشد القوات لكنه لم يفعل ذلك، وعندما حاصر الأفغان أصفهان ضاعت هذه الفرصة. فقد كان من الممكن القيام في البداية بنقل بعض السكان إلى خارج المدينة للحد من الطلب على الغذاء، لكن ذلك لم يحدث بل ازداد

عدد السكان نظراً لوصول اللاجئين من القرى المجاورة. وتم إحضار بعض الجنود والمؤن الإضافية وقد لاقت مناشدة الشاه لحكام المقاطعات إرسال قوات جديدة لإنقاذ المدينة ردود فعل متباينة.

دفع الذعر من سوء إدارة الشاه نبلاء المقاطعات إلى الحيرة بين الولاء للشاه والحاجة إلى الاهتمام بمصالحهم الخاصة. فقد كان فاختانج جورجيا[1] أحد أقوى مصادر المساعدة المحتملة لكنه أصيب بخيبة أمل كبيرة بسبب عدم كفاءة النظام وضعفه.80 وهناك عامل آخر هو إدراك فاختانج أن القيصر بطرس الأكبر في روسيا يعتزم التدخل في القوقاز، فكان النظام الملكي والمسيحي الروسي الذي حقق نجاحات عسكرية ساحقة أمام السويديين في الحرب الشمالية العظيمة، يبدو أكثر جاذبية له من الدولة الصفوية الواهية المنهارة. ويعتقد المعاصرون لتلك الفترة أن الجيش الجورجي لو حاول التقدم لكان أنقذ أصفهان، لكن فاختانج لم يبذل أي جهد يُذكر للتدخل ضد الأفغان.

وفي خراسان كما في أماكن أخرى من البلاد، كان الحصار المفروض على أصفهان يعني انتهاء سلطة الدولة وكانت الشخصيات البارزة في المنطقة يراقب بعضهم بعضاً لمعرفة من الذي سيحاول السيطرة على مقاليد الأمور إن أصبح الإقليم بدون قيادة. وفي أبيورد، انسحب الحاكم الذي عينه الشاه سلطان حسين وبسط نادر سلطته بفضل قيادته لقوات حدودية معروفة بصلابتها رغم صغر عددها، أطلق عليها اسم «جيش أتاك».

كان جيش محمود من الأفغان الغلزاي وغيرهم أصغر من أن يتمكن من حصار مدينة بحجم أصفهان، كما أنه يفتقر إلى المدفعية الثقيلة، ما جعل مصير محاولات الهجوم الأفغانية الفشل، رغم وقوع العديد من القتلى على الجانبين. واضطر الأفغان في نهاية المطاف إلى ضرب حصار على المدينة لتجويع شعبها وحملهم على الخضوع. في البداية واجه محمود صعوبة في منع المدينة من الحصول على الإمدادات من الخارج. وقام الفرس ببعض الهجمات الناجحة لكن معظم محاولاتهم للرد على الأفغان لم تسفر عن شيء. كانت بعضها بقيادة سيد عبد الله، قائد الجناح العربي في جولن أباد. لكن قيادته الفاترة

(1) ابن شقيق آخر لجورجين خان، وقد عيّن نائباً للملك في جورجيا بناء على طلب جورجين.

التي تعوزها الحماسة جعلت المواطنين يشكون في ولائه. وكان عبد الله في واقع الأمر يقيم تحالفاً سرياً مع الأفغان، لكنه ظل محتفظا بمكانته وحظوته لدى الشاه الذي لم يشتبه بأي شيء.

ارتفعت تكلفة المؤن باطراد ومعها كثافة التظاهرات المناهضة للحكومة في ساحة القصرالملكي، مطالبة بتنصيب شقيق الشاه محل الشاه الحاكم. واقتحم اللاجئون المتحمسون من القرى المحيطة بأصفهان منزلي طبيب الشاه والملا باشي وأنحوا عليهما باللائمة بصوت مرتفع على الكوارث التي تئن تحتها البلاد. وحاولت قوات موالية من قزوين ولوريستان رفع الحصار عن المدينة في مايو/أيار لكن جهودهم باءت بالفشل81.

بعد أن اعترض رجال الحاشية على تسلم ابني الشاه البكرين مكان أبيه سُمح لابنه الثالث طهماسب بأخذ مكانهما إلى جانب والده. وكان طهماسب ليّناً مثل والده، فلم يمثل أي تهديد لمستشاري الشاه غير الأكفاء. وأخيراً طلب الشاه من طهماسب أن يغادر المدينة لحشد قوات للإغاثة فنجح في الخروج على رأس 1000 رجل في ليلة 8/7 يونيو/حزيران. لكن بدلاً من سعي طهماسب إلى الانضمام إلى أحد حكام المقاطعات الموالية أو بذل جهود حثيثة لتشكيل قوة إغاثة، توجه إلى قزوين وأضاع الوقت هناك، أما رسائله إلى رؤساء المقاطعات والتي طلب فيها دعماً بالجنود، فقد لاقت درجة أقل من الاهتمام الذي حظيت به رسائل والده82.

في هذه الأثناء، حصل نقص كبير في المواد الغذائية في أصفهان. وحاولت قوة من رجال قبائل البختيار مؤلفة من ثمانية آلاف رجل اختراق الحصار لإيصال قافلة كبيرة من المؤن في أواخر يونيو/حزيران، لكن الأفغان منعوهم بعد قتالٍ عنيف. وفي يوليو/تموز انتشرت شائعات بأن هناك قوة إغاثة كبيرة بقيادة مالك محمود السيستاني، الحاكم المتمرد السابق لتون وتاباس، تعتزم التوجه إلى الشمال الشرقي للمدينة، لكن تلك القوة استغرقت وقتا طويلاً لتتشكل.

وفي أوائل أغسطس/آب رفض الشاه عرضاً أفغانيا للتفاوض. وبدأ حتى أغنى الناس بأكل لحم الخيل، أما الفقراء فكانوا يصطادون الكلاب والقطط لأكل لحومها وجعلوا من

أي شيء يمكن أن يُشبع طعاما:

> وبما أن مدينة أصفهان مليئة بالأشجار فقد قُطع بعضها وبيع لحاؤها وأوراقها بالرطل، وطهيت جذور الأعشاب طعاماً، وصارت جلود الأحذية المغلية طعاماً شائعاً. وفي خاتمة المطاف اضطر الناس إلى أكل لحوم البشر فصارت الشوارع مليئة بالجثث المقطوعة أفخاذها سراً. واختُطِف عديد من الأطفال شبه الميتين بسبب المجاعة وأُكلت لحومهم...83

وبمرور الوقت ازداد عدد الجثث غير المدفونة الملقاة في الشوارع، ولم يعد للمال أية قيمة وصار الطعام هو السلعة الوحيدة التي تتمتع بالقيمة.

وبحلول نهاية سبتمبر/أيلول وصل مالك محمود السيستاني أخيراً إلى جولن أباد على رأس قوة إغاثة طال انتظارها تتكوّن من عدة آلاف رجل. كان الأفغان يعلمون أن تلك القوة هي الفرصة الأخيرة لصمود أصفهان فأرسلوا إليه نصر الله للتفاوض معه (وهو غريم رستم خان في معركة جولن أباد ومن سكان سيستان مثل مالك محمود). دعم نصر الله حججه بإهداء مالك محمود سبعة خيول رائعة مع كامل عدتها، وجملين محملين بالحرير، ومال وحلي. وأوضح له أن أصفهان على وشك السقوط وأنها إذا سقطت فإن الشاه سلطان حسين سينتهي وسيصبح الغلزاي السادة الجدد، ومقابل تعاونه قد يصبح مالك محمود الحاكم الجديد لخراسان بمساعدة من الأفغان. ربما لم يكن مالك محمود ينوي متابعة جهوده لإغاثة المدينة. لذا فقد سمح لنصر الله بأن يقنعه، وقفل عائداً باتجاه الشمال الشرقي لتجنيد المزيد من القوات ثم توجه لمدينة مشهد عاصمة خراسان84.

بعد خيبة الأمل القاسية هذه حاول بعض الأصفهانيين أن يهربوا من المدينة بشكل جماعي لكن لم يتمكن من ذلك إلا قليل منهم تخطوا دوريات الغلزاي. وكان الآلاف يموتون جوعاً، ووصلت حامية المدينة إلى درجة من الضعف تسمح للأفغان باقتحام المدينة في أي وقت، لكن محموداً انتظر كي تصبح ثروات المدينة وقصورها له ولا تضيع في غمرة السلب والنهب الذي سيعقب الهجوم الناجح.

في أوائل أكتوبر/تشرين الأول 1722 عرض الشاه سلطان حسين أخيراً على محمود

استسلامه لكن الأفغان رفضوا التفاوض. وهناك تقليد بأن يقوم الشاه في يومه الأخير في المدينة باجتياز الشوارع مرتديا ملابس سوداء وهو ينوح ويندب حظه العاثر85. وأخيراً امتطى الشاه يوم 23 أكتوبر حصاناً أعاره إياه الأفغان وتوجه باتجاه النهر ليسلم نفسه. وفي أثناء سيره رأى الجثث مسجاة على جانبي الطريق، ووقف الناس يرقبونه بصمت. وعندما وصل إلى جنته السابقة فرح أباد قيل له إن محمودا نائمٌ وإنه سيتعين عليه الانتظار كي يستيقظ. وبعد هذا التأخير الإضافي والمذل اقتيد الشاه إلى محمود الذي كان جالساً على وسادة من ذهب فسلم كل منهما على صاحبه وقال الشاه:

> «يا بني، بما أن الذات الإلهية لا تريدني أن أحكم فقد أمر الله بوراثتك للعرش، وها أنا أتخلى عن إمبراطوريتي لك طواعية، وأتمنى أن تحكمها حكماً رغيداً»86.

نزع رمز المُلك عن عمامته وثبته هو شخصياً على عمامة محمود. وبعد ذلك شرب الشاهان القديم والجديد الشاي والقهوة معاً، وتعهد محمود بمعاملة سلفه معاملةً حسنة. وبذلك انتهى قرنان من الحكم الصفوي في بلاد فارس.

وبعد ذلك بقليل توجه أمان الله خان على رأس 3 ألاف من الأفغان إلى المدينة، فأغلقوا أبواب القصر، وحل الأفغان محل الحراس الفرس، فأزيلت الجثث من الشوارع استعداداً لدخول محمود منتصراً. وقُدِّر عدد من قضوا جراء الحصار الذي دام ثمانية أشهر بحوالي 80 ألف شخص بفعل الجوع والمرض (إذ لم يتسبب القتال إلا في إصابات قليلة نسبياً)87. وفي عام 1710 قدَّر الهولنديون عدد سكان أصفهان بحوالي 550 ألف نسمة استناداً إلى إحصاء الحكومة. وبانتهاء الحصار لم يبقَ في المدينة سوى 100 ألف نسمة بعد أن لاذت الغالبية بالفرار88، ولم تعد المدينة العظيمة والمتألقة بعد ذلك إلى سابق عهدها مرة أخرى.



4- أن يكون الإنسان لطيفاً ليس كافياً

كان الشاه سلطان حسين يتمتع بصفات جيدة لكنه ضعيف ومنغمس في الملذات، فعوقب بفقدان ودمار كل ما أحبه.

(من Cornelis de Bruyn's Voyages- مكتبة جامعة كامبريدج)

الفصل الثاني

«طهماسب قولي خان»

«تركت الطبيعة فينا ذاك الطابع فبات يجري منا مجرى الدم،
أن يُمسي ابن آدم طاغية إن استطاع إلى الطغيان سبيلا»

دانيل ديفو

من جنوب مدينة أبيورد وصولاً إلى مدينة مشهد، ترتفع التضاريس فوق السهل الذي كان معروفاً في القرن الثامن عشر باسم أتاك وصولا إلى منطقة من المرتفعات تقع عند قمتها هضبة كبيرة تمتد على مساحة عشرين ميلاً. وكانت هذه الهضبة تُعرف قبل زمن نادر باسم «القلعة»، ثم اشتهرت بعده باسم «قلعة نادر». وامتازت الهضبة بكونها موقعاً رئيساً ومناسباً للأوضاع الدفاعية وكانت نقطة سيطرة على الأرض على امتداد أميال، فاتخذها نادر معقلاً له لفترة من الزمن في عام 1720 على وجه التقريب1. وكانت القلعة إحدى حصون تيمور التي استولى عليها بعد حصار طويل عام 1382. وكان اقتران اسم تيمور بالقلعة من أوائل المصادفات التي اجتذبت انتباه نادر إلى تيمور بوصفه مثالاً يُحتذى.

تقول إحدى الحكايات إن نادر اكتشف في القلعة كهفاً ممتلئاً بكنوز تيمور ومجموعة من النقوش، وتروي القصة أن هذه النقوش كانت بالفعل رسالة مباشرة من تيمور إلى نادر تقول إن «الرجل الذي سيأتي إلى هذا المكان سيصبح نادراً في زمانه وصاحب القران...» ومضت الرسالة تحذره من الغلو في الاعتماد على حجم جيشه وبأسه، فتيمور نفسه لم ينتصر على أهل القلعة بعد حصار طويل إلا عندما اعتمد على فضل الله: «لا تكن مختالا فخورا إن حاز جيشك نصراً، بل اشكر الله». ولعل القصة تعكس آراء كاتبها ووجهات نظره عن حياة نادر أكثر مما تنبئنا عن نادر نفسه، وربما تكون الأسطورة مجرد رواية لقصة حكاها نادر نفسه تشير إلى نوع من العلاقة الخارقة بينه

وبين تيمور والشرعية المنبثقة عنها.2

وعندما وصلت إلى مشهد أخبار غزو الأفغان لأصفهان في نوفمبر/تشرين الثاني عام 1722، ثار أهالي المدينة. ودبّت الفوضى في إقليم خراسان وفي أنحاء متفرقة من فارس، وقام عشرات من أمراء الحرب والأمراء المغمورون بتنصيب أنفسهم حكاماً مستقلين. وكان نادر لا يزال في طور تعزيز سيطرته على أبيورد وحريصاً على ألا يبسط سيطرته بقدر يفوق قدراته الحالية. فلم تكن سيطرته تتجاوز الزاوية الواقعة في حوزته في شمال خراسان، وكان هناك الكثير من زعماء القبائل وآخرون يتنافسون على بسط نفوذهم- «أمراء الحرب وحتى الزعماء الذين كانوا نملاً صاروا ثعابين، ومن كانوا ثعالب تحولوا إلى أسود»3، فتحالف بعضهم مع نادر وتطلع آخرون إلى أماكن أخرى بينما تريث البعض في انتظار اللحظة المناسبة.

وعندما وصل مالك محمود السيستاني إلى مشهد على رأس جيشه في أعقاب اتفاقيته مع الأفغان خارج أصفهان، استطاع بسرعة أن يعالج أمر المتمردين الذين استولوا على السلطة هناك، فنسف مخبأ زعيمهم بالمدافع وأعدمه. ومع استقرار أمر مالك محمود السيستاني في مشهد، صار بمثابة ندٍ لنادر في خراسان.

كانت «قلعة» بمثابة قاعدة راسخة أمّنت لنادر ميزة حصرية على المنافسين الداخليين في السلطة. وحتى مالك محمود- الذي يبلغ قوام جيشه عدة آلاف من الرجال فضلاً عن سيطرته على مشهد- لم يكن في مقدوره أن يفرض سلطته على الإقليم بفاعلية كاملة. وشكّل ظهور مالك محمود بصفته الحاكم الجديد لمشهد فرصة سانحة لخروج بعض رؤساء القبائل عن قبضة نادر، الذين سبق أن قبلوا على مضض سيادته على أبيورد، فتوسلوا إلى مالك محمود كي يتخلص من ذلك الرجل الذي ساد أبيورد مؤخراً.

كان مالك محمود ونادر فرسي رهانٍ تساويا في الحيلة والدهاء وفي حذر كل منهما من صاحبه. وحاول كلٌ منهما تجنب مواجهة صاحبه على نحو مباشر وحاسم وسعيا في الوقت نفسه إلى تمكين نفسيهما وتعزيز وضعيهما. وقد عززت استعانة الزعماء بمحمود رغم وجود نادر من مكانة الأول وهيبته بوصفه محكّما في شمالي خراسان، لكنه بدلاً من

إرسال جيش للتعامل مع نادر، اكتفى بإرسال حاكمٍ جديدٍ إلى أبيورد (متجاهلاً بذلك سلطة نادر هناك ومستغلاً شغور منصب الحاكم الرسمي منذ مغادرة حسن علي خان في أوائل عام 1722). وكانت لدى الحاكم توجيهات بعدم التعرض لنادر بل إن نادراً حاز منصب نائب الحاكم وتمتع بسلطات معززة: لاسيما في إدارة القضاء، مع كل ما لهذه الوظيفة من أهمية رمزية. فقبل نادر مخفياً حنقه تعيين حاكمٍ جديدٍ: وخاب رجاء الزعماء الذين تمنوا التخلص منه.

الآن بعد أن أصبح نادر يخضع شكلياً لسلطة مالك محمود، بدأ استغلال منصبه في تصفية حساباته القديمة وتعزيز سلطته– فأعداء نادر غدوا أعداء مالك محمود أيضاً. وصار لزاماً على خصومه قبول سلطته أو التعرض للتصفية الجسدية. تراجع عدد منهم إلى معاقل محصنة فحاصرهم نادر. فقرّب من استسلم منهم إليه، حتى وإن كان نادر قد تكلف في سابق قتاله معه سقوط الكثير من رجاله، ما داموا يدينون لنادر ولرجاله بالولاء، بينما تعرض الذين ظلوا على عنادهم أو تظاهروا بالخضوع إلى سوء المعاملة. وقام أحدهم واسمه الأهوردي بيك بمهادنة نادر على إثر قتالٍ نشبَ بينهما، وجاء إلى معسكر نادر بموجب جواز مرور. واحتفل الرجلان معاً بالهدنة في لفيفٍ من أتباعهما. لكن الأهوردي أخطأ بذهابه للنوم مبكراً، فمهد الطريق أمام نادر لاستجواب رفاقه، الذين كشفوا له أن الرجل كان ينوي قتله إن لاحت الفرصة، ورغم جواز المرور، أمر نادر بسحب الأهوردي بيك من فراشه وقطع رأسه.4

وفي كل مرة يتغلب نادر على رجل مثل الأهوردي، كان يستميل أتباعه المسلحين. والتزم نادر سياسة إظهار الكرم لمن يخضعون له وانتهاج الشدة مع المراوغين والخونة، فأثبتت السياسة فعاليتها على مدار حياته. وكان نادر قاسياً إلى حد ما، لكنه لم يكن يسعى إلى الانتقام متى رجحت لديه موالاة من قدر عليهم. فكان يفضل استعمال الرجل الذي يرتاب في إخلاصه بدلاً من التخلص منه. ووسعت سمعته فاجتذب لخدمته زعماء جدداً وتابعين مسلحين يتشوقون للحصول على نصيب من عوائد النجاحات في المستقبل.

كانت إحدى الجماعات التي انضوت مؤخراً تحت قيادة نادر مكونة من حشدٍ كبير من قبيلة جالاير على رأسها طهماسب خان جالاير[1]، وهو «رجل فظ مثل العجل»5، صار بمرور الوقت صديقاً مقرباً لنادر. وبعد عدة سنوات رآهما شخص ما وقارن بينهما، واصفاً نادر بأنه طويل وسيم ذو وجه معبرٍ جميلٍ، بينما طهماسب خان قصير بدين قبيح الخلقة والمحيا، وكان جلده يتدلى مكوناً طيات كجلد الكركدن: وما كان يصلح لرأسه سوى فصلها عن رقبته6. إذا ما نحينا مظهره جانباً فمن الممكن القول بأن طهماسب خان كان تابعاً ممتازاً. فقد كان مخلصاً ذكياً له مهابة وسلطان على الرجال إلا أنه يفتقر إلى طموح نادر وأحلامه التوسعية. وقد أظهر نادر ثقته في طهماسب خان بأن جعله مسؤولاً عن «قلعة». وقد بلغت قوات نادر الآن حوالي 1200 فارسٍ.

بحلول عام 1724 شعر نادر بأنه صار قوياً بما يكفي لمعارضة مالك محمود. وكان مالك محمود قد ادعى أنه من نسل ملوك الكايان الأسطوريين في فارس وأحسن استغلال هذا النسب في الدعاية لنفسه. فكان ذلك بمثابة الشرارة التي أججت نيران الصراع بين نادر ومالك محمود. لم يكن نادر ليقبل بهذا الأمر– فمتى نجح منافسه في أن يحصل على الاعتراف بنفسه ملكاً، فسيستغني بذلك عن التحالف مع نادر. ويُروى أن نادراً فجّر الصراع بقتل الرجل الذي عيّنه مالك محمود حاكماً لأبيورد.

وطبقاً للرواية الأخيرة، فقد قضى مالك محمود ونادر وذلك الحاكم يوماً في الصيد والتدخين في الريف خارج مشهد. وبحلول المساء قفل مالك محمود عائداً إلى المدينة، بينما بقي نادر يحادث الحاكم. حتى إذا جاء الغسق، واستعد هذا الأخير للذهاب. امتطى نادر جواده بينما كان الحاكم ممسكاً بعنق حصانه استعداداً لامتطائه ومع بلوغ قدم الحاكم ركاب الجواد، استل نادر سيفه فجأة وهوى به على رقبة الحاكم. وكان ذلك إيذاناً لرجال نادر بمهاجمة أتباع الحاكم فقتلوا بعضهم وتفرق الباقون منهم7.

ارتكب نادر كثيراً من الجرائم والخيانات في طريقه للصعود بعضها أخفاه التاريخ في طياته. فلقد ارتأى نادر أن نجاحه، يتطلب منه أن يكون قاسياً إلى حد ما. وقد حفرت فعاله

---

(1) قبيلة جالاير تعود إلى أصول مغولية وقد خرجت منها عائلة حكمت بغداد قبل عهد تيمور.

أخاديد العداوة والقسوة بينه وبين بعض الأكراد والأفشار الذي نشأ بينهم.

بعدما أمن نادر أبيورد، شن غارة كبيرة على مشهد بقوته الرئيسة، فواجه قوات مالك محمود، وتغلب عليها ودمر المنطقة حول المدينة. وحين وضع مالك محمود الجيك الملكي وأمر بصك عملات معدنية تحمل اسمه، لم يذهب إليه نادر في مشهد ليقدم له فروض الطاعة على حين قدمها كثيرون غيره ومنهم زعماء قبائل الأكراد المحاربة مثل «تشاميشجازاك»[1]، وهم جيران نادر المقربون في خابشان[2]. وكان لدى نادر في حينها قوة كبيرة مؤهلة جيداً- جيش صغير مزود بالمدفعية والزانبوراك8.

وخلال الفترة المضطربة التي تلت ذلك، اندلع قتال محدود ومباشر بين نادر ومالك محمود. لم يكتف نادر بخصومة «أكراد تشاميشجازاك»، بل راح يحتك بعدد من زعماء الأفشار. وقد لبى نادر دعوة لمساعدة مدينة مرو ضد هجوم شنته قبيلة من البدو والتدخّل في حرب بين القبائل التركمانية. وكان كل دعوة للتدخل تتعزز مكانته وسلطته في المنطقة، سواء قام بإجراء ما حيال الدعوة أم لم يقم. وكلما تدخّل خرج ناجحاً وكسب مزيداً من المحاربين في صفوف قواته. وفي تلك الأثناء دخل عنصر جديد إلى معادلة خراسان- وهو قوات الشاه الصفوي الجديد طهماسب الثاني ابن الشاه السابق سلطان حسين.

وفي عامي 1725/1726، أخذ دور طهماسب وجنوده القلائل يتعاظم في لعبة صراع القوى على أرض فارس. فما إن مرت أيام على سقوط أصفهان وإقالة والده، حتى نصب طهماسب نفسه شاهاً جديداً. ولكنه لم يحظَ بدعم كبير، وفي ديسمبر/كانون الأول 1722 طرده الأفغان من قزوين. ومن هناك ذهب إلى أذربيجان9 ليهرب منها حين غزاها الأتراك العثمانيون. وهرب طهماسب إلى مازانديران، على الشاطئ الجنوبي من بحر قزوين حيث تسيطر قبيلة قاجار القوية على المناطق القريبة من عاصمتهم أستراباد[3]. وهناك، أستطاع أخيراً تجهيز جيش بمساعدة جماعة من القاجار.

(1) كانت قبائل أكراد تشاميشجازاك وكاراتشورلو وشاديلو هي القبائل الكردية الرئيسية في شمال في ذلك الوقت.

(2) تسمى الآن قوشان.

(3)اسمها الآن جورجان.

والروس على أجزاء كبيرة من الشمال والغرب.

في تلك الأثناء، استولى العثمانيون والروس على أجزاء كبيرة من الشمال والغرب. فخلال الفترة التي أفضت إلى الغزو الأفغاني لبلاد فارس، قامت الحكومتان الروسية والعثمانية بإرسال بعثاتٍ دبلوماسية خاصة إلى بلاط الشاه سلطان حسين، فأوصلت هذه البعثات أخبار الشاه وحاشيته وحال بلاد فارس إلى حكومتيهما. فتوصل كل من الروس والعثمانيون إلى نتائج مشابهة تشير إلى ضعف الشاه وأنه محاط بمستشارين دون المستوى، ومن ثم فإن مشاكل الملكية تتصاعد وأنه ليس ثمة إشارات على وجود الجدية والإرادة لدى أي شخص للتعامل مع المشكلات القائمة.10

رأى كل من الروس والأتراك فرصة سانحة في الوضع القائم. وعندما وقع غزو الأفغان خشي الروس والعثمانيون من أن يتخلّفا عن الحصول على نصيب من الأراضي الفارسية. وعلى غرار الروس الذين هزموا لسويديين في الشمال، فرغ العثمانيون من حرب مؤخّراً، لكنها كانت أقل نجاحاً مما حققه الروس. فبموجب معاهدة باساروفيتش المبرمة عام 1718،11 خسر العثمانيون بلجراد وأراضي بلقانية أخرى لصالح النمسا. وكان كل من داماد إبراهيم الوزير العثماني والسلطان أحمد الثالث شخصياً من معارضي الحروب، وانصب جل اهتمامهما في الحفاظ على إيرادات الدولة وتشجيع الأدب وبناء المشاريع، حتى إن السلطان أسرف في زراعة زهور التوليب وحض على زراعتها على نحو يماثل ما كان في هولندا في القرن السابق. فاشتهر عهده فيما بعد بعهد التوليب. ومع تسارع وتيرة انهيار الدولة الصفوية، تعاظمت فرصة الظفر بمكاسب تعويضية منخفضة التكاليف من الشرق. فمنذ «معاهدة زوهاب» المبرمة مع فارس عام 1639، بقيت الحدود العثمانية الفارسية مستقرة وهادئة (بقيت تقريبا على نفس الخط الذي تقع عليه اليوم بين إيران والعراق)، لكن في عصور مختلفة قبل ذلك، كانت للأتراك العثمانيين أراضٍ شرق هذا الخط. وكان الإحياء الديني الشيعي والاضطهاد الذي فجر صرخات أهل السنة في مناطق من غرب فارس هو ما أجج نار العداوة الدينية وأحيا الحروب القديمة بين العثمانيين والفرس.

كان تدخل العثمانيين في شؤون فارس عن طريق اللزجيين وأهل السنة في شيروان

هو ما شجع بطرس الأكبر ملك روسيا مع الجورجيين المسيحيين على تدخل مشابه. فقد تذرع الروس أيضاً بحماية مصالحهم في فارس من الفوضى المتزايدة هناك مستشهدين بخسائر التجار الروس، حين طردهم اللزجيون من شاماخي في سنة 1721. وكان بطرس يتطلع إلى صناعة الحرير في جيلان وإلى بسط سيطرته الكاملة على المنطقة الساحلية المطلة على بحر قزوين[1]. وفي عام 1722 بلغ بطرس ذروة نجاحه. بعد انتصاره على السويد في الحرب الشمالية العظمى، أصبحت روسيا القوة المهيمنة على شمال أوروبا وشرقها وبنى عاصمته الجديدة على بحر البلطيق– وهي سان بطرسبرج، الأمر الذي بدا رمزاً لتطلعه إلى الغرب. وقد أدت الإصلاحات الشاملة إلى تجديد روسيا وجعلها غربيةً على الأقل من الناحية الشكلية. إلا أن هذه الإنجازات لم تتم إلا من خلال استعمال طرق وحشية ولّى زمانها في غرب أوروبا. فقد أسرف بطرس في عملية إعمار سان بطرسبرج مما كلفه حياة العديد من العاملين في إنشاء المدينة وتخطيطها. كما مات ابن بطرس نفسه تحت وطأة التعذيب سنة 1718، على إثر شك أبيه في ضلوعه في مؤامرة ضده. لم يجتمع نادر وبطرس البتة، لكن بطرس كان الحاكم الوحيد الذي يضاهيه في الإصرار والذكاء والقسوة.

قاد القيصر بطرس بنفسه قواته بحراً وبراً من أستراخان إلى دربند في صيف عام 1722، فيما لا يزال حصاره أصفهان قائماً. واجه قليلاً من المقاومة لكن اللزجيين أزعجوا جيشه والحصون التي بناها، وفتكت حرارة الجو وانتشار الأمراض بجنوده. أخيراً، فقد عدد كبير من سفن الإمدادات القادمة من أستراخان حين عصفت بها الرياح، ما استحال معه إحراز تقدم آخر في هذا الفصل. فقام بطرس بتأمين الأرض التي حازها بمحاذاة ساحل داغستان، وغادر مع معظم قواته في نهاية ذلك العام.12

وبعد انهيار سلطة الصفويين تطلع الحكام الإقليميون في شتى أنحاء فارس إلى مصالحهم الخاصة. على سبيل المثال كانت جورجيا إحدى حصون الدولة الصفوية وكانت تزودها بأعداد كبيرة من الجنود ورجال الحاشية وموظفي الحكومة، إلا أن «فاختانج» حاكم

(1) كان هذا رغم النتيجة الكارثية لحملته على خيفا على الجانب الشرقي من بحر قزوين عام 1716. وقد انتهى هذا بموت أو أسر كل الجنود الروس وتعليق جثمان القائد الروسي في ميدان عام خارج قصر خان خيفا.

جورجيا راح يراسل الروس طوال خريف عام 1722 داعياً القيصر بطرس للمسير إلى جورجيا. وعندما لم يأتِ الروس، اندلع نزاع بين «فاختانج» وأمراء جورجيين منافسين، وبحلول صيف عام 1723، غزا جورجيا إبراهيم باشا الحاكم العثماني على أرضروم. فتنافس وجهاء جورجيا على نيل رضا إبراهيم باشا، لكن القائد العثماني احتفظ بالسلطة الحقيقية في يده. وانسحب بعض الجورجيين البارزين إلى الجبال والغابات كي يقضوا مضاجع قوات الاحتلال العثمانية بغارات مسلحة.

انتهى المطاف بفاختانج إلى النفي في روسيا. وقد تمكن الأتراك العثمانيون من احتلال شبه تام لكلٍّ من: جورجيا وأرمينيا و«شيروان» وأذربيجان بنهاية موسم الحملات عام 1725 وذلك رغم المقاومة الشجاعة التي أبدتها الحاميات الفارسية في أثناء حصار «يريفان» وتبريز. وفي الجنوب، كانت القوات العثمانية بإمرة باشا بغداد قد استولت بالفعل على «كرمانشاه» وهمدان والأقاليم المحيطة بها في عام 1724 (رغم أن همدان لم تسقط إلا بعد حصار طويل قاوم فيه الأهالي بضراوة). وسيطر السلطان العثماني على كل الجزء الغربي من فارس.

أسفر انتزاع الأراضي المتبادل بين الروس والعثمانيين عن توترات بين الإمبراطوريتين، وبدت في الأفق حرب وشيكة، وتصاعدت شكوك الإمبراطوريتين حول نوايا كل منهما وحول موقع ترسيم الحدود النهائية فيما بينهما. ورغم قلة الدعم الذي قدمته روسيا لمسيحيي جورجيا وأرمينيا، فإنها استشعرت في نهاية الأمر أنها مجبرة على الحرب من أجلهم. فبدأ الجانبان في مفاوضات طويلة الأمد تمت بين الصدر الأعظم العثماني والسفير الروسي في إسطنبول بوساطة فرنسية، وفي شهر يونيو/حزيران 1724، وقع بعدها الجانبان معاهدة لتقسيم فارس13.

اعترفت معاهدة التقسيم العثمانية– الروسية في الواقع الذي فرضه الاحتلال العسكري الروسي والعثماني، كما اعترفت بمعاهدة سابقة عقدها القيصر بطرس مع ممثلي طهماسب بعد أن غزا الروس «باكو» عام 1723. وبموجب تلك المعاهدة حصلت روسيا على دربند وجيلان ومازانديران وأستراباد (رغم أن طهماسب لم يصدق عليها قط، وعلى أرض الواقع

لم يكن للروس سوى تواجدٍ محدود شرق رشت، تاركين للخانات المحليين السيطرة على الأجزاء المتبقية. ونصت المعاهدة العثمانية الروسية على أن كلتا القوتين ستعترفان بشرعية طهماسب في ما بقي من فارس إذا ما أقر طهماسب التقسيم. ووافقت المعاهدة مبدئياً على ترسيم حدود خلال أقاليم «داغستان» و«شيروان» يعطي لروسيا القطاع الساحلي. لكن بعد موت بطرس الأكبر في فبراير/شباط عام 1725، ضعف الاهتمام الروسي بفارس وصارت قوات الروس نهباً للأمراض في حصونها غير الصحية بمحاذاة الجزء الغربي من ساحل بحر قزوين.

وفي أثناء ذلك، عزّز محمود، الشاه الأفغاني الجديد في أصفهان، قبضته على الحكم. فحبس الشاه السابق حسين وعائلته الكبيرة في القصر وأحسن معاملتهم في بداية الأمر، ولكن بخلاف الزوجات الشرعيات للشاه السابق فقد أعطى معظم نساء الحريم الملكي إلى ضباطه. وتزوج هو نفسه من إحدى بنات الشاه السابق. وشهدت بدايات حكمه مؤشرات على كونه ملكاً محسناً للرعية، فقد جلب الطعام إلى المدينة الجائعة وأعدم من خانوا الشاه سلطان حسين. مسترشداً في ذلك بالمبدأ القائل بأن الرجال الذين خانوا ملكاً، من المحتمل يفعلوا الأمر نفسه مع آخر متى سنحت الفرصة14. واستثنى من ذلك «سيد عبد الله» الذي يعد أخطر خائن فلم يقم إلا بمصادرة أملاكه وإلقائه في السجن. ولأنه لا يثق في مسؤولي الدولة من الفرس في نفس الوقت الذي يفتقر فيه رجاله إلى الكفاءة المطلوبة، فقد عين مراقباً أفغانياً لكل مسؤول فارسي كبير15. وقد أثبت هذا الإجراء فعاليته.

لكن لم يكد يمر وقت طويل حتى تكشف الوجه القبيح لمحمود. فقد أفرط في جمع أموال الأرمن في «جُلفا» ووقعت بعض أعمال السلب والنهب في الجزء الرئيس من المدينة. وبعد أن أعلن طهماسب نفسه شاهاً في نوفمبر/تشرين الثاني 1722، أرسل محمود «أمان الله خان» بجيش إلى قزوين. فهرب طهماسب واستسلمت البلدة لكن سكانها أحنقهم سلوك الأفغان الوحشي الجشع، فثاروا في يناير/كانون الثاني 1723، ثورة ناجحة ولقي كثير من الأفغان مصرعهم، فيما جاهد من بقي منهم للفرار وخرجوا يجرون أذيال

الهزيمة إلى أصفهان.

خشي محمود من وصول الأفغان مهزومين، الأمر الذي سيشجع أهالي أصفهان على المضي قدماً في درب إخوانهم بقزوين، فقرر القيام باستعراض دموي للقوة. ودعا كبار الوزراء والنبلاء من الفرس إلى اجتماع في مساء يوم 24 يناير/كانون الثاني 1723 وأغراهم بوعدهم بالهدايا والألقاب وأمرهم بارتداء أفضل ما لديهم من ثياب. وحين وصلوا تتابع إدخالهم عليه بعد تجريدهم من مجوهراتهم ومقتنياتهم وجُزت رؤوسهم عدا رئيس الوزراء السابق الذي توسط من أجله بعض المسؤولين الأفغان. ثم ألقيت جثثهم عارية في الميدان أمام القصر ليراها عامة الناس17. ولم يكتف محمود بهذا، فأمر بقتل أبناء الرجال المقتولين كذلك ثم أمر بقتل ما يقارب 3000 من الحراس الملكيين الفرس.

وفي عامي 1723 و1724، نجح محمود في توسيع مدى أملاكه فاحتل بلدات «كاشان» و«جولبييجان» وصولاً إلى شيراز. ورغم ذلك فإنه لم يسيطر إلا على جزء صغير نسبياً من أرض العالم الصفوي السابق. وكان عدد جنوده قليلاً وثمة نزاعات ومنافسات بين أتباعه. فكان «أمان الله خان» وأشرف ابن عم محمود تحديداً يسببان له اضطرابات. كما تصاعدت حدة الشقاق بين الأفغان بعد فشل غزوةٍ له ضد قبيلة كوجيلو في سلسلة جبال زاجروس جنوب أصفهان، فضلاً عن فشل آخر إزاء بسالة المقاومة في مدينة «يزد» التي ظلت تقاوم خطوط اتصال الأفغان إلى قندهار.

هذه الانتكاسات جعلت محموداً أكثر حزناً وارتياباً وقلقاً من ذي قبل. عرف أن وضع الأفغان في فارس صار خطراً، فهم بعيدون عن قاعدتهم في قندهار ومعرضون للتهديدات من كل جانب كما أن الشعب الفارسي لا يحبهم. فتسلل بعض من معه من الأفغان حين شعروا بهبوب ريح التغيير، عائدين إلى وطنهم. ورغبة منه في منع تكرار الأمر أحضر محمود زوجات كثير من جنوده وعائلاتهم إلى أصفهان. فثارت ثائرة الجنود لدرجة أن محموداً لم يعد يثق حتى في أعلى ضباطه. وصار عدوانياً خصوصاً تجاه ابن عمه أشرف الذي كان على ما يبدو ذا حظوة بين الجنود في ظل ضعف شعبية محمود. فرجح محمود أن سوء الحظ الذي لازمه مؤخراً إن هو إلا مؤشر على غضب إلهي وأن عليه القيام بعمل

ذي مسحة دينية لاستعادة شعبيته. اقتضى منه ذلك قضاء أربعين يوماً في عزلة انفرادية فرضها على نفسه، وهي شعيرة تسمى «تاباسيا» اقتبسها الأفغان من عادة هندية. فحبس محمود نفسه في صهريج تحت الأرض أو زنزانة لا ضوء فيها وليس معه سوى القليل من الخبز والماء. وبعد الفترة المحددة خرج وقد هزل حتى صار مثل الشبح. وربما يجلب هذا العلاج ضياء روحياً لرجل قوي العقل، ولكن بالنظر إلى طبيعة محمود غير المستقرة فقد انتهى به إلى حالة من جنون الاضطهاد والسفه. 18

وبعد فترة قصيرة في فبراير/شباط 1725، وصلت إلى محمود إشاعة بأن صافي ميرزا، أحد أبناء الشاه السابق، قد هرب[1]. فأصابه ذلك بجنون الغضب، وأقسم على قتل كل أمراء الصفويين الناجين ما عدا الشاه السابق سلطان حسين فأبقاه وحده على قيد الحياة. وبينما اقتيد إليه الأمراء البائسون، ومنهم إخوة حسين وأعمامه بالإضافة إلى كثير من أبنائه وكثير من السيدات، وجاؤوا أيديهم مربوطة خلف ظهورهم بأحزمة الوسط. ثم اقتيدوا واحدا تلو الآخر وقتلهم محمود بنفسه مع اثنين من المساعدين الذين هووا عليهم بسيوفهم. أسرع سلطان حسين وهو يسمع صرخات الضحايا وأنينهم فوصل إلى الفناء ليجده مغطىً بالدماء ووجد معظم أقاربه من الذكور قتلى أو يحتضرون. فجرى نحوه اثنان من أصغر أبنائه واحتضناه هرباً من القتلة. فأسرع محمود إليهم في جنون ورفع عليهم سيفه. فأصيب حسين في يده وهو يحمي الولدين، ويبدو أن منظر دمائه قد أعاد محمود إلى عقله فجأة. فسمح للولدين الصغيرين بأن يعيشا ليصيرا الناجيين الوحيدين19. في حين مات ما يقارب المئة من أفراد العائلة المالكة في تلك المذبحة. فكانت هذه عقوبة قاسية على ضعف السلطان حسين وفشل بوصفه شاهاً، ولم تصل بهذه النهاية معاناة محمود إلى منتهاها.

كان آخر ضحايا المذبحة هو محمود نفسه، إذ تغلبت عليه اضطراباته العقلية. وصارت مسيرته ملطخة بالقتل والمذابح منذ أن قتل عمه ليتزعم «الأفغان الغلزاي» سنة 1717، ويبدو أن جنونه، كجنون «ماكبث» أساسه الإحساس بالذنب ولو بشكل جزئي. فقد

(1) على الرغم من وجود مدعين لاحقين زعموا أنهم صافي ميرزا، فمن غير المرجّح أن يكون قد وقع أي هروب.

كان يهذي ويستشيط غضباً. ولم تفلح معه كل أنواع الأدوية إلى أن جاء أخيراً بعض القساوسة الأرمن ليقوموا بتمرير مخطوطة خاصة من الإنجيل (مكتوبة بالحبر الأحمر) على رأس الشاه المختل. ويمكن النظر إلى هذا اللجوء إلى الرمزية الدينية المسيحية بوصفه لوناً من الإيمان الخرافي بفعالية الشيء الأجنبي والغريب. فقد كان يظن أنه علاج فعال للجنون. لذا فقد تعافى محمود لفترة طويلة تكفي ليعطي القساوسة الأرمن ألفي «تومان» تعبيراً عن شكره لهم لكنه انتكس في جنونه وارتكب مزيداً من المآسي الجديدة:

لم تدم فترة الهدوء التي نعم بها محمود طويلاً، فقد أصابه الشلل – أو الجذام بحسب رواية أخرى – ثم تعفن نصف جسده وأصيب باعتلال في أمعائه حتى صار يضع برازه في فمه ووسط العذابات البشعة التي تحملها وجّه جام غضبه على نفسه فقطع يديه بأسنانه.20

اتضح للغلزاي أن محموداً في طريقه للهلاك. وفي 22 أبريل/نيسان 1725 قام «أمان الله خان» وآخرون بتحرير أشرف ابن عم محمود، الذي سبق أن سجنه في إيشاهان لشكوك في خيانته. فسار مع مئات من التابعين إلى القصر الملكي وتغلب على حراس محمود وأحكم سيطرته على الوضع. ولم تمر ثلاثة أيام حتى مات محمود، ربما متأثراً بأمراضه، وربما لتعرضه للخنق.21 وفي يوم 26 أبريل/نيسان تم إعلان أشرف شاهاً.

كان الشاه الصفوي المستقبلي طهماسب يريد التحرك لمهاجمة أصفهان بأسرع ما يمكن، لكن محاربي القاجار الذين كانوا المعين الأساسي له أشاروا عليه بالحذر، معتقدين أن الأفغان لا يزالون أقوياء. كما ارتأى فتح علي خان قاجار»[1] وهو أحد جنرالات طهماسب، مصلحة شخصية له ولأتباعه في مواصلة الفتوح والغزوات قرب قاعدتهم في أستراباد. فأجبر الشاه طهماسب على شن حملة في خراسان وأخذ مشهد من مالك محمود قبل القيام بأي محاولة ضد أصفهان. كما كان الوضع المائع في خراسان يبشر بالحصول على مزيد من التابعين المسلحين لشن هجوم نهائي على الأفغان. وقد صحت كل هذه

(1)كان فتح علي خان هو كبير عائلة كويونلو من فرع الأشاكاباش من القاجار في أستراباد. ويعتقد كتاب القاجار اللاحقون أن فتح علي خان كان في أصفهان في أثناء حصار عام 1722، لكنه رحل غاضبًا عندما أساء إليه رجال حاشية الشاه سلطان حسين. لكن لوكهارت، 1958 (ص. 280) استبعد هذه الرواية إلا أن سجلات في أو سي تشير إلى (Floor, Afghan Occupation, p. 148) أن مجموعة تتكون من 50 من القاجار رحلت عن أصفهان يوم 17 يوليو.

الافتراضات فيما عدا أن في ذلك نفعاً للقاجار.

في خراسان، بحلول نهاية عام 1726 قام نادر بمواجهة «أكراد تشاميشجازاك»، وإخضاعهم (بشكل مؤقت) وذلك حين حاربهم في ميدان مفتوح وحاصر قاعدتهم في «خابوشان». وقد مكنه هذا الانتصار الصعب من توسيع نفوذه مرة أخرى ومن اجتذاب مزيد من القبائل من ناحية الغرب. كما أرسل قوات لتقوم بهجمات باتجاه «هرات» ليظهر النطاق الواسع لسلطته على خراسان والعجز النسبي لمالك محمود السيستاني خارج مشهد.

وفي أوائل عام 1726 أرسل الشاه طهماسب أحد كبار رجال الحاشية لمعرفة مدى استعداد نادر للتعاون مع الشاه طهماسب والقاجار ضد مالك محمود في مشهد[1]. رد نادر بالإيجاب، وحث طهماسب على المجيء إلى خراسان في أقرب وقت، وفي المقابل ثبّت المسؤول منصب نادر الشكلي بوصفه نائب حاكم أبيورد. وفي سبتمبر/أيلول من عام 1726، سار الشاه طهماسب وفتح علي خان القاجار إلى خراسان من أستراباد وقاما بإنشاء قاعدة لهم في خابوشان. وفي 19 سبتمبر/أيلول، انضم إليهم نادر هناك بقوة مؤثرة تبلغ حوالي 2000 من الفرسان والمشاة قوامها الرئيس من الأفشار والأكراد مع بعض المدافع وبنادق الزانبوراك22. وحسب إحدى الروايات، قابل طهماسب نادر على الطريق وأمر نادر رجاله بالانقسام والوقوف صفين على جانبي الطريق عند اقتراب طهماسب تقديراً وإبداءً «للجلال والفخر اللذان يليقان بالملك» فكانوا يركعون وينحنون عند مروره. ثم جرى نادر وركع وعانق رجل طهماسب قائلاً: «ها أنا يا سيدي بحق الله وحق الأجداد، أنا ملك يمينك ومعي كل معاونيّ وغيرهم كثيرون ليسوا حاضرين هنا- كلنا خدمك المخلصين وسنكون مستعدين للتضحية بأنفسنا عند الحاجة». فنزل طهماسب وعانق نادر وخلع عليه على الفور لقب «خان» في إشارة إلى قيادته ونبله.

تعد هذه اللحظة فارقة في تاريخ نادر، فقد تحول فيها من قائد إقليمي إلى شخصية

---

(1)تشير بعض المصادر إلى أن قوات طهماسب حاولت بالفعل اقتحام خراسان والإطاحة بمالك محمود السيستاني لكنها فشلت دون مساعدة نادر.

ذات أهمية قومية. ومع وجود نادر مع مستشاري طهماسب، تحرك الجيش بسرعة من خابوشان إلى موضع يهدد مشهد، في الوقت الذي تدفق مزيد من المتطوعين.

كانت علاقة طهماسب مع فتح علي خان قاجار عاصفة قبل وقت طويل من ظهور نادر على مسرح الأحداث. فقد وصل طهماسب إلى أرض فتح علي خان في وقت بائس، في عملية هروب بعد هزيمته من الأفغان بالقرب من طهران، والتي كاد أن يقع فيها أسيراً.23 وفي مرحلة مبكرةٍ عصاه فتح علي خان ووصل النزاع إلى حد القتال الذي تعرض فيه رجال طهماسب للهزيمة وأخذ متاعهم. لكن فتح علي خان سعى للصلح. فقد كان طهماسب ذا قيمة بوصفه رمزاً للفارسيين. وقد كان إخلاص كثير من الفارسيين للقضية الصفوية– وهي دعامة مألوفة في فترة الاضطرابات– يعني تقاطر مزيد من المسلحين إلى الانضمام لصفوف الشاه الصغير. فالمكاسب التي سيحصل القاجار عليها من قبيل الأراضي والسلطة وهو في خدمته ستكتسب شرعية لن تنالها إن كان في خارج خدمته. وبحلول أوائل عام 1726، جعل فتح علي خان من طهماسب سجيناً له من الناحية الفعلية لكنه ارتكب خطأً فادحاً بدخول خراسان والسماح لنادر بأن يتحد معه. 24

في خراسان، كان فتح علي خان بعيداً عن أرضه المعتادة. فحتى مكانته بين رجال قبيلته القاجار بـأستراباد لم تعد مأمونة. في المقابل كان نادر على أرضه المألوفة وفي قمة مكانته. واكتسب نادر بسرعة حب الشاه طهماسب، وكان طهماسب يسعى بحماس للهروب من حالة الذلة التي فرضها عليه فتح علي خان. رحب رجال الحاشية، الغارقين في روح التناقض التي كانت تحكم البلاط الصفوي في عهد أبيه، بالفرصة المتاحة لإذلال شخصية كانت مهيمنة من قبل. وقد دفع الغرور فتح علي خان إلى أن يرتدي في حضرة طهماسب بعض ملابس الشاه التي سبق أن نهبها من أمتعته بعد المعركة التي تقاتلا فيها. اتسمت هذه الفعلة بالغباء من فتح علي خان– فطهماسب سريع الغضب، وهو بخلاف أبيه معتدل المزاج يميل إلى تذكر الأحقاد.

لم يمضِ وقت طويل حتى أدرك فتح علي خان أن نادراً يتعدى وبسرعة على مكانته بوصفه قائداً أعلى لقوات طهماسب.25 لم يكن فتح علي خان يتوقع ذلك– إذ كان

التدخل في خراسان فكرته هو في النهاية. وخلال أيام فرحاً بقيادة مزيد من القوات التي لم يكن يقودها نادر من قبل، شن نادر عدة هجمات على دفاعات مشهد أظهرت مهارته مما أعطاه ميزة لاسيما في ظل التباطؤ الواضح في نجاحات فتح علي خان بعد ابتعاده عن أستراباد حتى إن بعض أتباع فتح علي خان من القاجار أظهروا مؤشرات على رغبتهم في خيانته. فبدأ يثير الشكوك حول جدوى الحصار والإستراتيجية التي ينتهجها نادر والشاه. والتجأ فتح علي خان بحثاً عن مخرج يسمح له بالانسحاب إلى أستراباد فقام بمراسلة مالك محمود.

في يوم 10 أكتوبر/تشرين الأول، اعترض أحد كشافة نادر رسالةً من فتح علي خان إلى مالك محمود. وقد أدت إحاطة نادر طهماسب علماً بشأن رسالة علي فتح خان لمالك محمود إلى إعدام فتح علي خان وإن اختُلف في تقدير درجة مسؤولية نادر عما تلا إعلام طهماسب بشأن مراسلات فتح علي خان لكنه على أية حال لم يندم كثيراً نتيجة لذلك. فعندما قرأ طهماسب الخطاب استشاط غضباً واستدعى فتح علي خان ليفسر له أفعاله هذه. ولكنه وجد مبررات فتح علي خان واهية، فأمر طهماسب نادر ورجاله بالقبض عليه. فخلع نادر الشال عن خصره وربط به يدي فتح علي خان. ووضع جنود نادر فتح علي خان رهن الاعتقال. واقترح نادر أن يحبس» فتح علي خان» في «قلعة» حتى يتم احتلال مشهد والتعامل مع مالك محمود، ربما كيلا يتحمل المسؤولية وربما خوفا من فقد قوات القاجار إذا أعدم فتح علي خان. كان من طبيعة نادر أن يلزم الحذر والأناة ضد منافسيه بدلاً من محاولة التخلص منهم عند أول فرصة مثلما يفعل الآخرون. لكن لين نادر لم يكن لإنقاذ الخان البائس. تظاهر طهماسب بالموافقة على نصيحة نادر لكنه أرسل في اليوم التالي رجلين لقتل فتح علي خان فيما كان نادر مشغولاً بأمر آخر. أخبر الحراس أن نادراً نفسه هو من أرسل القاتلين ما سمح لهما بدخول الخيمة التي احتُجز فيها فتح علي خان حيث قطعا رأسه، وأخذا الرأس الملطخ بالدماء ووضعاها عند أقدام طهماسب.26

فقام طهماسب على إثر سروره بهذه النهاية بتعيين نادر في منصب «كورشي–باشي» (يعادل القائد الأعلى).27 فأضيف هذا اللقب إلى لقب «طهماسب قولي خان» الذي سبق

أن حصل عليه نادر (يعني عبد طهماسب). قد يبدو لقباً مهيناً لكنه يعد تكريماً عظيماً يتيح استخدام سلطة اسم الشاه: «فأكبر شرف يمكن أن ينعم به الملك الفارسي على أحد رعاياه هو أن يعطيه حرية استعمال اسمه رغم أنه لا يعني إلا أنه عبده». 28

وإذا كان طهماسب ووزراؤه يظنون أن القائد الأعلى الجديد سيكون أسلس من فتح علي خان قاجار، فإنهم كانوا أمام تجربة جديدة سيرون فيها تنويعاً جديداً في علاقة العبد والسيد. اعتُقل بعض زعماء القاجار بشكل مؤقت لمنع وقوع قلاقل، فأسعد ذلك منافساً لفتح علي من عشيرة أخرى[1] إذ تولى منصب زعيمهم وصار يخدم تحت قيادة نادر.

صارت مهمة نادر توطيد دعائم سلطته الجديدة بهزيمة مالك محمود واحتلال مشهد. وشرع نادر في إتمام مهمته متوتراً نافذ الصبر حتى إنه كان يشن كل يوم محاولةً جديدةً ضد دفاعات مشهد. وعندما علم مالك محمود أن فتح علي خان قد مات، ظن أن من شأن ذلك إضعاف قوة الجيش الملكي فأغار على معسكرهم بقوة كبيرة مدعومة بالمدفعية. لكن نادر واجه هذا الهجوم مع رجاله فصده ودحر العدو مرة أخرى إلى المدينة. فلم يحاول مالك محمود شن غارة أخرى، لاسيما وقد قتل عدد من ضباط مالك محمود منهم أستاذ سلاح المدفعية- الذي كان لموته تأثير كبير على سير الأحداث اللاحقة.. فقد كان امتلاك مالك محمود مدفعيةً قويةً من أهم دعائمه الرئيسة، لكن المدافع عديمة الجدوى ما لم تستخدم بالشكل المناسب. 29

في أوائل شهر نوفمبر/تشرين الثاني عام 1726، في آخر مراحل الحصار، وقع حادث صغير في المعسكر الملكي أظهر إلى أي مدى نجح رجال حاشية الشاه طهماسب في سياستهم التقليدية بتحويل رئيس الدولة إلى معاقرٍ للخمر ولماذا كان من السهل نسبياً للآخرين أن يسيطروا عليه. ففي يوم من الأيام طلب طهماسب- الذي ربما كان في يعاقر الخمر- من أحد رجال حاشيته الجورجيين أن يُحضر له كمية من شراب التشيخير

(1) كان محمد حسين خان قاجار من عشيرة ديفلو من يوخارياش من فرع قاجار أستراباد، وكان منافسًا لفتح علي خان وعشيرته في أستراباد، واعتقد القاجار فيما بعد أنه ساعد في اعتقال فتح علي خان (Hanway, vol. 1, p.197). وكان سيلعب دورًا شريرًا في مستقبل كل من طهماسب ونادر.

(مشروب روحي قوي ينتجه عادة أهالي القوقاز). فرد الجورجي بأن ليس عنده منه شي،، وكان أفراموف المبعوث الروسي في بلاط طهماسب يحتفظ ببعض منه، لكن الجورجي شك في أنه سيتخلّى عنه. فانطلق طهماسب إلى المعسكر الروسي غاضباً وهدد بقطع رؤوس كل الروس إذا لم يحصل على شرابه. وعند وصوله هناك، قام بعض خدمه بجر أفراموف ليقف أمامه عارياً سوى من قميص. فسجد أفراموف طالباً الرحمة لأنه معتاد على نوبات طهماسب العصبية. فسخر منه طهماسب وطلب مشروب التشيخير. وبعد أخذ ورد، ذهب أفراموف وأحضر الشراب الروحي في طريق عودة طهماسب إلى مقر إقامته، سقط في خندق وخرج منه مغطى بالطين، مما زاد سوء مزاجه. فخاطب أفراموف محملاً إياه مسؤولية ما علق به من طين.

أخيراً عاد أفراموف جالباً معه شراب التشيخير فاعتدل مزاج الشاه. وأمر بإحضار الطعام وطلب من العازفين أن يعزفوا الموسيقى، وراح يصفق بيديه على إيقاع الموسيقى وقص بعض القصص لكن مزاجه لم يلبث أن تعكر مرة أخرى فألقى على أفراموف باللوم لخسارته مملكته. فأصيب الروسي بالذعر وأخذ يدافع عن نفسه لكن طهماسب قاطعه قائلاً: «إن وقت العمل قد انتهى وعلينا جميعاً أن نمرح الآن بدلاً من ذلك». فبدأ توزيع التفاح والطعام الخفيف مع الزجاجات وعندما فرغت، جلب أفراموف المزيد منها، وسرعان ما غرق طهماسب في نوبة نسيان. وقرر أفراموف أن يحتفظ بمخزون من التشيخير والفودكا للشاه مستقبلاً.30 ولا تعد رواية الدبلوماسي الروسي أفراموف غريبة فيما يخص أطوار شخصية الشاه فقد تواترت بروايات شخصيات أخرى أكدت رواية أفراموف فيما يخص عصبية طهماسب وتقلب مزاجه وسكره الشديد مما يجعل روايته أقرب إلى الصحة. وقال أحد أكثر رجال حاشية طهماسب أمانة لأفراموف إن عهد الشاه لن يطول لأنه دائم السكر وليس ثمة من له منزلة تصحيح مساره.

مع مرور الوقت، زاد بأس قوات طهماسب، وتعب الروس من احتلالهم ساحل بحر قزوين، وتكثفت الاتصالات بين بلاط طهماسب والقائد الروسي هناك ليفاشوف.31 فلم يكن الروس سعداء بالمكاسب الكبيرة التي حققها العثمانيون في القوقاز وغرب فارس،

كما لم يكونوا راغبين في إدخال مزيد من القوات إلى المنطقة، فيما رجالهم هناك الذين يدافعون عن حصون قزوين يموتون من المرض بأعداد مخيفة. ويبدو من المرجّح أن الروس وافقوا على عدم التدخّل ضد مصالح طهماسب فيما يقاتل هو ونادر لإعادة السيطرة على المملكة الصفوية في فارس. ورأى الروس على المدى الطويل في طهماسب ونادر وكيلين لهما في صراعهما ضد أعدائهم التقليديين، العثمانيين. فتعهدوا بالانسحاب من الأراضي الفارسية (دون تحديد توقيت) وربما قاموا بإرسال بعض الدعم العسكري أيضاً.

كان نادر نفسه أكثر تشككاً من طهماسب حيال الروس. فقد خشي من أن يدعم الروس طهماسب ضده يوماً ما. وذكر أفراموف عندما أتاه خبر باحتمال عقد معاهدة مع الروس، أن نادراً قال لطهماسب: «من هم هؤلاء الروس– مرني وسأذهب وأقضي عليهم جميعاً». وطبقا لأفراموف فقد كانت هذه المرة واحدة من المواقف النادرة التي صد فيها طهماسب نادراً قائلاً له: «إن هذا ليس من شأنك».32 وقد قبل نادر التحالف مع الروس بوصفه أمراً واقعاً لأنه رأى لذلك مردوداً إستراتيجياً.

في خريف عام 1726 كانت الآمال في فتح مشهد لا تزال بعيدة المنال، لكن بعد حوالي شهرين من الحصار بدأت الأمور تسير لصالح قوات طهماسب وساءت توقعات مالك محمود. فقد أخذت الإمدادات تقل في مشهد ولم يكن ثمة أمل في قدوم مدد من الخارج. وبدأ شركاؤه في التخلي عنه، حتى إن قائده الأعلى بير محمد رأى في النهاية أن حظ سيده في النجاة ليس أكثر من ثبات صورة مرسومة على صفحة مياه البحر33 – وقرر الاكتفاء بما سبق من مساندة مالك محمود فأسر «بير محمد» لنادر بأنه سيفتح إحدى بوابات المدينة في ليلة 10 نوفمبر/تشرين الثاني ويسمح بدخول القوات الملكية. وفي الليلة الموعودة قتل «بير محمد» الحراس في هذا القطاع وألقى جثثهم من على الأسوار وفتحت البوابة.

دخل نادر ورجاله المدينة. فحاول مالك محمود يائساً شن هجوم مضاد داخل المدينة في صباح اليوم التالي لكنه تعرض للهزيمة فتراجع إلى القلعة. وسرعان ما أدرك حقيقة موقفه اليائس، فذهب إلى نادر وأعطاه الحلة الملكية مقابل رداء متواضع لعابد ديني. فتفضل عليه نادر وسمح له بالمكوث في محيط «مقام الإمام رضا» وسط مشهد، لكنه اكتشف بعد

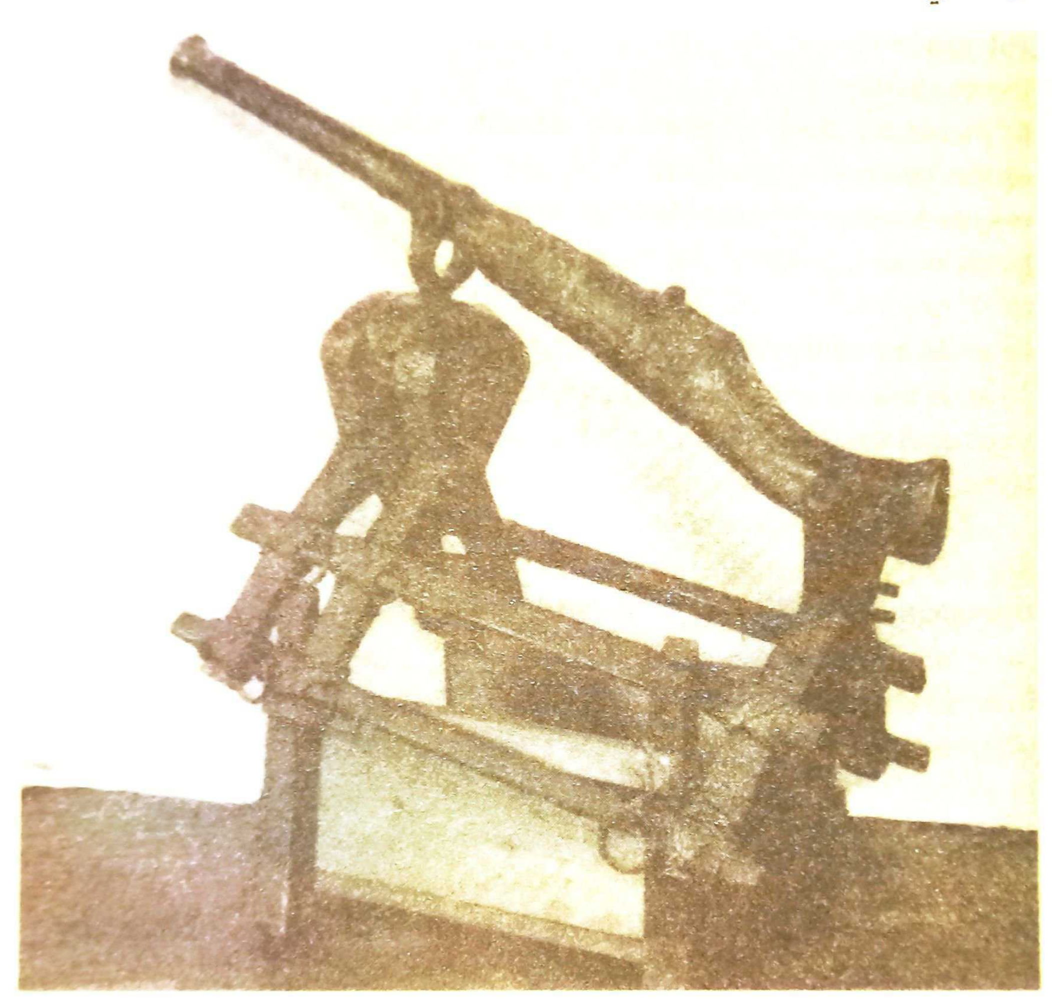
أشهر قليلة أن مالك محمود يجري اتصالات مع بعض «التركمان» في مرو، يحرضهم على مهاجمة الحكام الجدد للمدينة. وبموجب قاعدته المعتادة- القسوة مع من استغلوا رحمته ورأفته- أمر نادر بإعدام مالك محمود وأخيه وابن أخيه في 10 مارس/آذار 1727. 34

فور استباب الأمر لقواته في المدينة، وقبل أن يستسلم مالك محمود، توجّه نادر إلى مقام الإمام رضا وقبل الأرض شكراً وعرفاناً. وأمر نادر بإعادة طلاء قبة المقام بالذهب وبناء مئذنة جديدة بجواره35 وفاءً بنذرٍ كان قد نذره قبل أن يأخذ المدينة، ولا تزال المئذنة قائمة إلى الآن. وقد يفترض المرء من ذلك أنه لا يزال يعتبر نفسه شيعياً تقياً، كما قد يكون هذا السلوك لمجرد الاستهلاك الإعلامي المحض كي يدخل السرور على قوات القزلباش في جيشه وعلى السلطات الدينية في المدينة التي تم احتلالها حديثا36. ويتبدى شك نادر العميق إزاء المجاهرة والمتاجرة بالإيمان والتدين من خلال معاملته لأحد الشحاذين في مقام الإمام الرضا:

> كثير من الناس يظنون أن الإمام الرضا الذي دفن في مشهد ظل يقوم بمعجزات، ودعمًا لهذا الظن كان بعض الأشخاص يتظاهرون بالعمى ويذهبون إلى قبره ثم بعد فترة طويلة من الصلاة يفتحون أعينهم ويعلنون أن الإمام قد أعاد لهم بصرهم. وقد التقى نادر عند بوابة الضريح بواحدٍ من هؤلاء». فسأله الملك: «منذ متى وأنت أعمى؟». فأجاب الرجل: «منذ عامين». فأجاب نادر: «هذا دليل على افتقارك للإيمان. فلو كنت مؤمناً خالصاً لشفيت منذ وقت طويل. تذكر يا صديقي أني إذا عدت ووجدتك كما أنت الآن سأقطع رقبتك». وعندما عاد نادر، تظاهر الرجل المذعور بالصلاة بشدة وفجأة عاد إليه بصره. فصاح العامة: «معجزة معجزة»، ومزقوا معطفه قطعاً صغيرة ليتبركوا بها. فابتسم الملك وقال: «هذا الإيمان هو كل شيء».37

ومع نهاية عام 1726، وفي غضون أسابيع معدودة تحول نادر من مجرد أمير حرب إقليمي مغمور إلى الأمل بإحياء القضية الصفوية في فارس. وكان نادر، مثل فتح علي خان قاجار من قبله، يدرك تماماً أهمية إظهار الولاء للشاه طهماسب، فظن الشاه الصغير ووزراؤه أن

السيطرة على نادر أسهل من السيطرة فتح علي خان الذي كان متكبراً، لاسيما وأن لقب «كورتشي-باشي»، الذي تم خلعه على نادر أقل من لقب «وكيل» الذي انتزعه فتح علي خان. والحقيقة أن نادر قد خدعهم وأخفى عنهم رغبته في السيطرة. وقد تلقى طهماسب وحاشيته درساً في حقائق السلطة فيما بعد ووضعهم نادر بإحكام في أماكنهم الحقيقية.



5. مدفع الزانبوراك

يأتي هذا السلاح من الهند المغولية، وكان شبيها بالأسلحة التي استخدمها جنود المدفعية التابعون لنادر. وكانت مدافع الزانبوراك تطلق عادة كرة يبلغ وزنها ما بين نصف رطل ورطلين وكان حملها ونقلها يناسب وعورة التضاريس الفارسية.

(بإذن من تاور أرموريز)

الفصل الثالث

الحرب مع الأفغان

الحرب أم العالمين ومليكتهم.. جعلت من بعض الناس أرباباً وأبقت بعضهم بشراً، وجعلت البعض أحراراً وتركت آخرين قيد الأغلال.

هيراقليطس

بعد سقوط مدينة مشهد في نهاية عام 1726، تفاقمت الخلافات بين نادر والشاه طهماسب. وشعر رجال الحاشية بالاستياء إزاء هذا الوافد الجديد، فبذلوا قصارى جهدهم لبث البغضاء بينه وبين طهماسب من ناحية، وبينه وبين بعض الأكراد المحليين الموتورين منه بسبب الاشتباكات المريرة التي وقعت معه في السنوات السابقة. وكان طهماسب كوالده يأخذ بنصائح مستشاريه، لذلك فر من مشهد في فبراير/شباط 1727، وأقام في بلدة خابوشان الكردية. ومن هناك، ندد بنادر ووصفه بالخائن1، وبعث رسائل إلى جميع أنحاء المملكة يطالب فيها بدعم عسكري ضده، وحض وزراؤه الأكراد والآخرين على أن يثوروا ضده، فثار بعضهم بالفعل!

لكن رد فعل نادر جاء سريعاً خاطفاً، فقد صادر جميع ممتلكات طهماسب ووزرائه في مشهد، ووضعها في يد أخيه إبراهيم خان، ثم توجه بنفسه على رأس قواته إلى خابوشان لمناوشة الأكراد، فحاصر المدينة، وأحبط محاولة بعض أكراد قبيلة قاراشورلو كسر الحصار على المدينة، وأخذهم أسرى. ويُقال إن نادر قد حفر خندقاً، وألقى فيه الأكراد مهدداً بدفنهم أحياء، لكنه أفرج عنهم بعد أن بث في نفوسهم الرعب.2

وعندما شارفت مؤن طهماسب على النفاد، قرر أن يتفاوض مع نادر، فأرسل الملا أباشي محمد حسين. وعندما تحادث معه، أعرب نادر عن مخاوفه من أن يحاول الشاه طهماسب قتله في وقت لاحق. لكن محمد حسين أكد له أن طهماسب أقسم على عدم المساس به.

فأجابه نادر ساخرا: «أعرف الشاه ومدى صدقه ووفائه بوعوده، فقد سبق أن أقسم في الصباح أن يحمي فتح علي خان، وأمر بقطع رأسه في المساء3. لكن تم في النهاية التوصل إلى تسوية، وعاد نادر إلى مشهد يتبعه طهماسب بامتعاض في وقت لاحق، فدخل المدينة في خضم الاحتفالات العارمة بعيد رأس السنة الفارسية (النوروز) يوم 21 مارس/آذار، وتم تمديد الاحتفالات أسبوعين كاملين بمناسبة زواج نادر من ابنة أحد الزعماء الأكراد.

ويروي مؤرخ نادر الرسمي أن نادراً رأى في منامه في ليلة عودة طهماسب، طائراً مائياً كبيراً، فأطلق عليه النار ببندقيته، فأصابه وأسره. ثم رأى بركة فيها نافورة، ورأى في البركة سمكة كبيرة بيضاء تبرز من رأسها أربعة قرون. فأمر خدمه بالإمساك بها لكنهم لم يتمكنوا. فمد يده بنفسه في الماء، وتمكن من الإمساك بها. وعندما أخبر أصدقاءه في اليوم التالي بما رآه في الحلم قالوا له إن الإمساك بالطيور والأسماك في الحلم تعني أنه سيصير حاكما على إمبراطورية. وفسّروا له القرون الأربعة الموجودة على رأس السمكة بأنها بلاد فارس والهند وتركستان وخوارزم4.

هناك عدد من الجوانب المثيرة للفضول في هذه القصة. فسواء أكان نادر قد رأى هذا الحلم حقاً أم لا، وسواء تم ذلك في هذه المناسبة أم في مناسبة أخرى، وبغض النظر عن صحة تسجيل مؤرخه للحلم، فإن للصورة التي اختار المؤرخ تخليدها، لاسيما السمكة البيضاء ذات القرون الأربعة، أهمية كبيرة. ولعل الصلة الأكثر وضوحا بين الحلم والواقع هي أن نادراً أمر الناس في وقت لاحق بارتداء قبعة ذات أربعة رؤوس مدببة في أثناء فترة حكمه. بل هو نفسه ارتدى هذه القبعة كما يتضح من صوره. وقد سميت هذه القبعة بعدة أسماء منها: «التاج الطهمازي»، و«الكلة النادرية». ومن المعروف أن القزلباش كانوا يرتدون عادة قبعة ذات اثني عشر قسما أو تعريجة (للدلالة على أئمة الشيعة الاثني عشر)5، ما جعل البعض يعتقدون أن لقبعة نادر ذات الرؤوس الأربعة معنى دينياً. لكن يبدو على الأرجح أن هذه الرؤوس تعبّر عن قرون السمكة التي ترمز إلى الأركان الأربعة للمنطقة التي كان نادر يتطلع إلى غزوها. فعندما أصبح شاهاً، كان يصور نفسه في خطاباته وعلى القطع النقدية التي يسكها على أنه حاكم الأقاليم الأربعة. وقد غدا الحلم والقبعة

جزءاً من وسائل حكمه، حيث اعتبر الحلم قبولاً إلهياً بطموحاته، وجعل من القبعة رمزاً تجلّى في لباس رجاله.6

لكن خضوع طهماسب والزواج لم يضعا حداً لمتاعب نادر مع الشاه وحاشيته. فبينما كان طهماسب يتحرّق لاستعادة العاصمة الصفوية، أصر نادر على ضرورة إخضاع الأفغان العبدليين في هرات أولاً، قبل الشروع في أي محاولة لاستعادة أصفهان. فرغم أن الصراعات الداخلية خلال معظم العقد السابق أوهنت عزم العبدليين، فإنهم كانوا أقوياء يحبون الحرب. وقد حاصروا مشهد عام 1716، ثم تكرر ذلك منهم في عامي 1722-1723. 7 صحيح أنهم ليسوا متحالفين مع أي جهة، حيث أدت العداوة التقليدية إلى صعوبة دخول العبدليين في حلف مع نظام الأفغان الغلزاي في أصفهان، مع ذلك ظلوا يشكلون تهديداً لا يُستهان به لقاعدة السلطة التي أسسها نادر وطهماسب في مشهد. وكان من الضرورة كسر شوكتهم قبل قيام القوات بأي حملة خارج خراسان. بالطبع لم يعجب هذا التفكير حاشية طهماسب الذين يشعرون أن نادراً يسعى لرفعة شأنه فحسب. لذلك لم يتوانوا عن نصب المكائد ضده، فاندلعت سلسلة من حركات التمرد بين الأكراد في خراسان، وثار تتار مرو أيضاً، وشاركت بعض القبائل التركمانية في هذه القلاقل8. ما إن يستتبّ الاستقرار في منطقة حتى تندلع الاضطرابات في غيرها. ولم يكن نادر لينجو من هذه الثورات المتعددة لولا شدة إخلاص شقيقه إبراهيم خان وطهماسب خان جالاير، اللذين يمكن دائما الاعتماد عليهما في الإبقاء على النقاط الحصينة الهامة، مثل كالات ومشهد، في أثناء معارك نادر لدحر المتمردين.

كان نادر مصيباً عندما اهتم بتأمين خراسان قبل الشروع في أي حملة سابقة لأوانها لاستعادة العاصمة الصفوية، لكن ذلك أظهر أيضاً تبايناً في توجهاته. فأصول نادر التركية التي تعود إلى خراسان جعلته يميل للتطلع شرقا نحو بخارى، في حين أن كونه من سلالة جنكيز خان جعله يهتم بحكم سمرقند عاصمة تيمور القديمة. وقد تبدو مشهد وأبيورد بلاداً غير مهمة مقارنة بأصفهان، خاصة لأولئك الذين يتوقون إلى استعادة أصفهان[1]،

(1) أو لمن يتفحّص خريطة إيران الحديثة.

لكنها كانت بالنسبة إلى نادر منطقة محورية ذات هوية مختلفة. فخراسان القديمة تشمل هرات التي عبر أحفاد تيمور جبالها، واحتلوا الهند. لذا فقد بقيت مشهد وخراسان إقليمين مركزيين في عالمه.

وفي صيف 1727، قام نادر بهجوم أولي على الأفغان العبدليين لجس نبضهم، رغم شدة الحر والعطش، وغوص مدافعه في الرمال الناعمة على الطريق. فقد قام بنفسه بتوجيه الرجال الأقوياء الذين سحبوا المدافع من وسط الرمال باستخدام الجمال.9 ويوضح هذا الحادث أحد الأسباب التي جعلت الحرب والحصار متخلفة في بلاد فارس في هذا الوقت، حيث كان ينبغي نقل المدفعية الثقيلة على العجلات عبر الطرق، أو باستخدام القوارب وهو الأفضل. لكن لم يكن هناك سوى عدد قليل من الممرات المائية الصالحة للملاحة في بلاد فارس، كما أن العديد من الطرق في البلاد لم تكن جيدة بالقدر الذي يصلح لنقل الأغراض الثقيلة عليها، على عجلات، لمسافات طويلة. لذا فقد كان الجزء الأكبر من البضائع يتم نقله على ظهور الدواب. وبدون المدفعية فإن الحصار يكون طويلاً وصعباً.10

توقف الجيش لحصار سانجان في سبتمبر/أيلول. وفي أحد الأيام، بينما كان نادر مع المهندسين يراقبون المحاولات البطيئة لضرب المدفعية أسوار المدينة المحاصرة لاختراقها، حدثت واقعة غريبة. فقد أطلق أحد المدافع الكبيرة قذيفة للتو، فانتقل المدفعي إلى أمام المدفع لإعادة تلقيمه بالقذيفة التالية. وفي الوقت نفسه، تراجع نادر مصادفة بخطوات قليلة، فلاحظ الجندي وجود رئيسه، فارتبك ونسي إطفاء شرارة فتيلة المدفع التي خلفتها القذيفة السابقة، ومن المحتمل أن يكون قد لقّم المدفع بحشوتي بارود عن طريق الخطأ. فانفجرت الحشوة الجديدة قبل أوانها، وتحطم المدفع، وتبعثرت شظاياه القاتلة في جميع الاتجاهات. لقي المدفعي وعدد من المارة مصرعهم، لكن نادر لم يصب بأي أذى.11 وقد تم في الأول من أكتوبر/تشرين أول الهجوم على المدينة، والاستيلاء عليها، وذبح جميع سكانها، لأنهم كانوا قد قدموا آيات الطاعة لنادر في وقت سابق، ثم حنثوا بوعدهم لاحقا.

بعد ذلك بوقت قصير، وصلت أنباء عن اقتراب قوة إغاثة قوامها ما بين 7000 و 8000

أفغاني عبدلي. فاصطدم معهم نادر في معركة قرب سانجان بجيشه الذي كان يماثلهم عدداً. وقد كانت ملاحظة المؤرخ الرسمي لنادر عن الأفغان في هذه المناسبة أن القط قد يصبح نمراً عندما يقاتل فأراً، لكنه يصبح فأراً عندما يواجه نمراً. وفي الحقيقة لم يكن الفرس نموراً أو فئراناً، وإنما كانوا فخورين بأنفسهم، حريصين على الانتقام، مدفوعين بثقة زعيمهم والنجاحات الأخيرة التي حققوها. بيد أن العديد منهم كانت تعوزه الخبرة في الحرب، كما أنهم في أعماقهم لم يكونوا واثقين من أنفسهم ضد الأفغان الذين هزموا الجيوش الفارسية في مناسبات عديدة. وقد تمكن نادر من أن «يقرأ ما في قلوب جنوده» 12 فقرر أن يزيد ثقتهم بأنفسهم زيادة كبيرة، وألا يخاطر كثيراً في البداية، فأمر المشاة بالبقاء في الخنادق، كي يتمكنوا من إطلاق النار على العدو دون التعرض للمخاطر. ثم انتقى 500 من أفضل الفرسان للمناورة ضد هجمات الفرسان الأفغان من خارج الاستحكامات. وبعد أربعة أيام من القتال والاشتباكات، تراجع العبدليون نحو هرات.

وقد أمر نادر رجاله بعدم اللحاق بفلول الجيش المتراجع، ربما لأنه قد سمع عن حدوث المزيد من الاضطرابات في مشهد، كما أنه على الأرجح لم يكن يريد أن يقوم بهجوم كاسح على العبدليين في هذه المرحلة. فعاد إلى مشهد لتتواصل خلافاته مع طهماسب، بسبب إصراره على ضرورة إخضاع العبدليين. وبعد ذلك بفترة قصيرة، عندما كان خارج المدينة، قيل له إن طهماسب قد هاجم حلفاءه، وأصدر الأوامر بعدم إطاعة توجيهاته. لذا توجه على الفور نحو طهماسب الذي حصّن نفسه في بلدة سبزوار. وعندما وصل وجد بوابات المدينة موصدة في وجهه، فأحضر المدفعية، وبدأ بدكّ المدينة بالمدافع حتى يوم 23 أكتوبر/تشرين الأول 1727 الذي استسلم فيه طهماسب.

شعر طهماسب بالعار واليأس. وفي إحدى الليالي، غادر خيمته بحجة أنه يريد أن يغسل يديه، وتمكن من الفرار، وابتعد عن المعسكر مسافة معينة قبل أن يكتشف نادر هروبه، لكن الأخير تمكن من اللحاق به على بعد ميل واحد. عندئذ استل طهماسب سكيناً، وحاول قتل نفسه، لولا أن نادر لحق به، فجرده من سلاحه، واقتاده إلى المعسكر. ومن هناك، أمر بأن يرافق طهماسب اثنان من جنوده إلى مشهد. وبعد ذلك، احتفظ بختم

طهماسب، وصار يصدر المراسيم باسم الشاه.13

وبعد ذلك اليوم، لم يعد طهماسب يقوم بأي محاولة جادة للتحرر من هيمنة نادر الذي قام، خلال الأشهر القليلة التي تلت ذلك، بحملات تأديبية ضد الأكراد الذين يثيرون القلاقل على الدوام، وتركمان يوموت، إضافة إلى حملة لجس نبض العبدليين في صيف عام 1728. 14 غير أن بعض أتباع طهماسب، الذين خذلوه إبان هزيمته في سبزوار، واصلوا العمل ضد نادر، حيث أعلن أحد قادة طهماسب السابقين، محمد علي خان، مع أحد أقربائه، «ذو الفقار»، سيطرتهما على مازندران وأستراباد باسم طهماسب (رغم أنه يبدو أنهما بسطا سيطرتهما على المنطقة من أجل الشغب والسرقة). لكن طهماسب ادعى أنه بريء من أي تورط في هذا الأمر، فأجابه نادر باحتقار انه يعرف أنه كان على اتصال مع «ذو الفقار».15 ثم سار بجيشه إلى مازندران في نوفمبر/تشرين الثاني 1728 مع طهماسب. فاستسلم محمد علي له على الفور، بينما واصل ذو الفقار التحدي إلى أن تم إلقاء القبض عليه في نهاية المطاف. وكان من الممكن أن يصفح عنه نادر في ذلك الوقت، لكنه استمر في التنديد به حتى وهو في الأسر. وفي النهاية «قطع الفاتح العادل رأس هذا المتمرد الغبي».16 وبعد أن بسط نادر سيطرته على مازندران في نهاية ديسمبر/كانون الأول، أرسل مبعوثًا إلى الروس يطالبهم بإعادة جيلان.

وفي مارس/آذار 1729، احتفل نادر بعيد النوروز في مشهد، وتمكن أخيراً من إتمام الاستعدادات للقيام بحملة حاسمة ضد هرات. فكرّم ضباطه، وأجزل لهم العطاء من المال والخيل والسلاح، كعادته قبل معظم حملاته. وقد كانت هذه الحملة هامة بالنسبة له، حيث سيحارب فيها جيشه الصغير أحد أشد الجيوش التي واجهها بأسا. وقد أعطى شاهد عيان في ذلك الوقت، هو التاجر الرحالة اليوناني باسيل فاتاتزيس، انطباعاته عن التدريبات اليومية التي فرضها نادر على الجيش لإعداده للمعركة. ونحن نعلم أنه كان يجري هذه التدريبات بصورة روتينية لقواته طوال حياته المهنية، وترجع هذه العادة إلى الفترة التي كان فيها مع بابا علي في أبيورد، لكن لا يوجد أي مصدر آخر يصف هذه التدريبات بالتفصيل.

كتب فاتاتزيس أن نادر كان قوياً وسيماً، وكان إذا دخل منطقة التدريب على صهوة جواده، يحيّي الضباط قادة الألف وقادة المئة، ثم يتوقف وهو ممتط جواده بصمت بعض الوقت، فينظر إلى القوات المتجمّعة ويتفحّصها. ولاحظ فاتاتزيس أنه في أثناء قيامه بذلك كانت حنجرته تتحرك باستمرار كما لو كان يحاول ابتلاع بعض البلغم في حلقه. وأخيراً، كان يلتفت إلى الضباط، وينظر إليهم مازحا، ويقول: «ما أوامركم يا سادتي؟» مستفسرا عن تشكيلات المعركة، أو الأسلحة التي ستتدرب عليها القوات في ذلك اليوم. ثم تبدأ التدريبات:

> يقوم الجنود بالهجوم من مختلف الوضعيات القتالية، من تشكيلات قريبة وهجومية، وتشكيلات تفرّق، ثم يقتربون مجدداً في نفس المنطقة، ليقوموا بالهجوم، ثم بالهجوم المضاد، ثم يتجمعون ويتفرقون بسرعة... وقد كانوا يتدربون على جميع أنواع المناورات العسكرية على ظهور الخيل باستخدام أسلحة حقيقية، لكن بحرص شديد كي لا يجرحون زملاءهم.17

وعلاوة على التدرب على الحركة في التشكيل، كان الفرسان أيضاً يظهرون مهاراتهم بأسلحتهم الفردية من رماح وسيوف ودروع وأقواس. وكانوا يجعلون من كرة زجاجية على قمة عمود هدفا لسهامهم، كما كان بعض الرجال يجرون بأحصنتهم تجاهها، ويحاولون إصابتها، لكن لم ينجح في إصابتها سوى قلة قليلة. أما نادر فكان عندما يقوم بهذا التدريب يتمكن من إصابة الهدف مرتين أو ثلاث من أصل ثلاث محاولات أو أربع. ويقول فاتاتزيس: إنه كان عندما يجري نحو الهدف مع قوسه يبعد ذراعيه عن جسمه مثل الجناحين، ليتناول سهما من جعبته، فيوجهه ويطلقه بحركة سلسة يبدو فيها كالنسر.

كان الفرسان يتدربون لمدة ثلاث ساعات، كما كان المشاة يتدربون معاً:

> ... المقصود بالمشاة أولئك الذين يحملون البنادق، ويتجمعون في وحداتهم حيث يطلقون النار من بنادقهم على هدف معين، ويتدربون باستمرار. فإذا ما رأى تاكماز قولي خان جنديا عاديا يظهر دائما تفوقا، فإنه كان يقوم بترقيته ليصبح قائد 100 رجل أو قائد 50 رجلاً. وكان دائما يشجع جميع

الجنود على أن يكونوا شجعاناً وذوي قدرة وخبرة. باختصار لقد كان مثالاً حياً على قوة الشخصية والفضيلة العسكرية.18

أسهب فاتاتزيس في وصف مناورات الفرسان وعرض مهاراتهم في استخدام الأسلحة الفردية، لأنها كانت مثيرة، لكن وصفه تدريبات المشاة والنفقات الباهظة لاستخدام البارود وقذائف المدافع في التدريبات كان مطنباً، ما يظهر حرص نادر على مضاعفة القوة النارية لقواته لأهميتها. ويوضح هذا المقطع حرصه على حسن اختيار الضباط، وترقيتهم عندما يستحقون ذلك. فكي يتصرف الجيش بسرعة وذكاء ومرونة تنفيذاً لأوامره كان من الضروري أن يوجد ضباط جيدون لنقل هذه الأوامر. وبفضل التدريب على المناورات لمدة ثلاث ساعات يوميا، تمكن نادر مع مرور الزمن من الارتقاء برجاله إلى مستوى عال من الانضباط والتحكم، بحيث صاروا في ساحات الوغى ينتقلون ويقاتلون كما لو كانوا جزءاً من عقله. ويبين فاتاتزيس الطريقة التي تمكن من خلالها نادر من إثارة إعجاب رجاله به ليصبح قدوة لهم، وهو المبدأ الذي سار عليه في المعركة أيضاً، حيث كان دائما يقود الجيش من المقدمة غير آبه بأي خطر. وقد كان التدريب والقوة النارية والانضباط والسيطرة والقدوة الشخصية جزءا من مفتاح نجاحه في الحروب. كما كان تحوير نادر لقدرات جيشه أمراً متقدماً بالفعل.19

وفي بداية مايو/أيار، انطلق نادر من مدينة مشهد باتجاه هرات يرافقه طهماسب. وقد أدرك العبدليون خطورة استعداداته لخوض المعركة، فوضعوا خلافاتهم جانباً، وتوحدوا تحت لواء الله يار خان الذي جعلوه حاكماً لهرات. فقاد جيشاً من هرات وزحف نحو نادر. التقى الجمعان عند قلعة كافر، على بعد حوالي 50 ميلاً غرب هرات.

نشر نادر رجاله بحذر، ولم يستخدم أي استحكامات في هذه المرة، وإنما أحاط المشاة بالمدفعية. وكما في سانجان، قاد قوات مختارة من الفرسان لتكون احتياطياً منفصلاً عن بقية الجيش، وأرسل بعض الفرسان للاشتباك مع العدو أملا في أن يوهن قواهم. لكن شراسة الهجوم الأولي الأفغاني أحبطت جميع خططه تقريبا، فقد ضرب العبدليون ميسرة المشاة الفارسية، واخترقوا تشكيلها، مما اضطر حملة البنادق الفارسيين إلى إفساح المجال لهم.

وعندما رأى نادر ذلك قاد الفرسان الاحتياطيين في هجوم مضاد، فقتل جنود المقدمة الأفغان، وأجبر فرسان العدو على التراجع، وجرح في أثناء ذلك في قدمه. وعندما حل الليل أمر جنوده أن يتراجعوا، فانسحب الجيشان.20

كان هذا الاشتباك شرساً، مما أدى إلى زعزعة عزيمة الفرس بصورة كبيرة. لكن في اليوم التالي، وسّع العبدليون انسحابهم، ووصلوا إلى نهر قريب يسمى هاري رود. فتقدم نادر من هرات، وخاض معركتين أخريين مع العبدليين في الأيام التالية، خرج من كليهما رجال الله يار خان مهزومين. وبعد المعركة الثانية، أقام رجال نادر مخيماً على أرض المعركة، وحالت عاصفة ترابية دون مواصلة القتال لمدة يومين. ثم جاء رسول يعرض السلام من الله يار خان، لكن نادراً كان شك في ذلك، فطلب أن يأتي إليه قادة العبدليين شخصياً إذا ما كانوا يريدون أن يؤخذ عرضهم على محمل الجد. وفي هذه المرحلة، حصل الله يار خان على تعزيزات، وتشجع على مواصلة القتال. وبعد معركة أخرى حامية الوطيس على مدى يومين في شكيبان، انتصر الفرس ثانية، رغم التعزيزات التي حصل عليها العبدليون.

أرسل الله يار خان مجدداً رسلاً يعرضون الاستسلام، لكن نادر أكد لهم أنه ما دام الزعماء الأفغان يرفضون الخضوع للفرس، وما دام في قواته رمق، فإن جيشه لن يكف عن الحرب أو يتخلى عن نواياه، كاشفا أن الهدف من هذه الحملة كان كالعادة إعادة إخضاع الأفغان وتجنيدهم. فوصلت الرسالة إلى العبدليين، وجاء العديد من زعمائهم إلى نادر، فانحنوا أمامه خاضعين، وقدموا ولاءهم للفرس، وأعلنوا أنهم يعارضون الغلزاي، وأنهم على استعداد للعمل ضدهم في المستقبل. فاستقبلهم استقبالاً حسناً، رغم ضيقه من طهماسب ووزرائه الذين كانوا بلا شك يريدون الدخول منتصرين إلى هرات، ولا يرتاحون لزيادة القوة العسكرية لنادر. وقد كانوا محقين في ذلك، لأن العبدليين أصبحوا فيما بعد من أشد قوات نادر مراساً وشراسة. وتواصلت المناقشات بحضور زعماء العبدليين الذين كافأهم نادر بالعطايا والأثواب. ودخل العديد من العبدليين في خدمة طهماسب، ونُقلت بعض القبائل الناطقة بالفارسية إلى محيط مشهد، وتم تأكيد شرعية حكم الله يار خان لهرات باسم طهماسب، وأُفرج عن الأسرى العبدليين. وعاد نادر وطهماسب مع الجيش إلى مشهد،

حيث وصلوا هناك يوم 1 يوليو/تموز 1729.

هكذا لم تنته الحملة ضد العبدليين بهزيمتهم وخضوعهم المطلق فحسب، وإنما بإذعانهم ودخولهم في نوع من التحالف. وقد عززت هذه الحملة من ثقة الجيش الفارسي الذي تبين له، ولبقية فارس، أن هزيمة الأفغان أمر ممكن، وقد كان ذلك مهما للاستعداد لاختبار القوة مع الأعداء الغلزاي في أصفهان. كما أنها أحدثت نوعاً من التحييد الاستراتيجي للتهديد الذي كانت تشكله هرات.

يجدر بنا هنا أن ننظر في كيفية تحقيق نادر هذا الهدف، فظروف الحرب في منطقة الشرق الأوسط وآسيا في ذلك الزمن لم تكن موثقة بصورة كاملة مقارنة بالمعلومات المتوفرة حول الحروب الأوروبية في الفترة نفسها. توجد في أوروبا كتب ومخطوطات عن التكتيكات والنظريات العسكرية، إضافة إلى مذكرات مفصلة كتبها الجنود بأنفسهم. أما فيما يتعلق بحروب نادر شاه فلا يوجد أي من هذه الأمور، وربما تكون موجودة لكنها لم تكتشف بعد. لم يكن المؤرخون الذين سجلوا وقائع حملات نادر جنوداً، لذا كانوا يميلون إلى تسجيل ما يقوم به الجيش بصيغة رسمية. وثمة احتمال كبير أن تكون تلك مشيئة نادر، وأنه لم يرد أن يعرف الناس في خارج البلاد سر نجاحه22. كما أن البيروقراطيين والعلماء الذين كتبوا وقائع الحملات كانوا يعتبرون مهنة الجنود قذرة ووحشية، فيما كان الجنود، وأكثرهم أميون، يعتبرون عمل الكتبة والرجال المثقفين شيئا يتصف بالجبن والعجز. ومن ثم، أعاقت كل هذه المفاهيم تدفق المعلومات الدقيقة، فلا نعرف إلا الخطوط العريضة للتكوين العرقي لجيش نادر، من قبيل العدد الكلي لأفراده في أوقات مختلفة، وهيكلية القيادة والرتب، أما المعلومات التي نعرفها عن الطريقة التي حارب بها فشحيحة للغاية.

كانت شروط وتقاليد الحرب في الشرق مختلفة. فعلى سبيل المثال، نعلم أن مشاة نادر لم يستخدموا السلاح الأبيض المركب على البندقية، عكس نظرائهم في أوروبا23. فقد بدأت الجيوش في أوروبا باستخدام السلاح الأبيض قبل ذلك بحوالي 40–50 عاما، لتمكين المشاة من صد هجمات الفرسان. وبينما تركّز الذاكرة الثقافية للحروب على متن الخيول في الغرب على هجوم الفرسان الساحق، يركّز الشرق على رماة السهام الفرسان. ولعل

السبب في ذلك يرجع إلى أن الخيول تشكل هدفا كبيراً للبنادق، لذا فقد كان الفرسان في الشرق لا يرغبون في المخاطرة بخيولهم التي كانوا يدفعون ثمنها بأنفسهم (لهذا السبب من المهم الإشارة إلى أن نادراً قد وفر الخيول لفرسانه على نفقته الخاصة، ربما لتفادي هذه المشكلة)24. كما أن الفرسان في الشرق كانوا يناورون ويقاتلون في تشكيلات أكثر حرية مما هي عليه في أوروبا، الأمر الذي يزيد من صعوبة توجيه الخيول للهجوم على التجمعات الكثيفة للمشاة الذين يطلقون النار بالبنادق، ويصدرون ضجيجاً كثيراً.

وهناك أيضاً اختلافات أخرى. ففي معظم الأحيان يضع القادة في الشرق المدفعية أمام المشاة، لتشكل رادعاً إضافيا وحاجزا أمام تقدم الفرسان، ومن هذا المنطلق، أمر نادر رجاله بحفر الاستحكامات عندما واجه الأفغان لأول مرة. وقد أفاد الأوروبيون من بعض هذه التكتيكات، فنحن نعلم أن سلاح الفرسان النمساوي في القرن الثامن عشر قام بتكييف تكتيكه، عندما قاتل العثمانيين، بحيث ركّز على استخدام الأسلحة النارية من على ظهور الخيل، بدلاً من هجوم الفرسان بأقصى سرعة. وتؤكد بعض الدراسات التي أجريت مؤخراً أنه تم استخدام الأسلحة النارية من على ظهور الخيل من قبل القوات الأفغانية في الهند المغولية في وقت لاحق من هذا القرن.25 وثمة انطباع عام أن الجنود العثمانيين والفرس يفتخرون بمهارتهم في الرماية26 وبراعتهم في القتال الفردي، بخلاف جنود القوات الأوروبية الذين يعتبرهم العثمانيون بمثابة آلات تتسم بالجبن، حيث يطلقون النار معاً بصورة جماعية، ويعيدون تلقيم بنادقهم معاً، ويتحركون معاً كما لو كانوا جسداً واحداً. ومن الأمثلة الواضحة على تلك الاختلافات أيضاً أنه في الوقت الذي كان فيه الجنود الأوروبيون يحملون خراطيش ورقية تحوي كل منها كمية من البارود ورصاصة، لتسريع إعادة التلقيم، كان الفرس يعيدون التلقيم باستخدام أقماع بارود، كي يتمكنوا من معرفة كمية البارود المناسبة التي يحتاجون إليها حسب بعد الهدف. لذا فقد كانت نيرانهم أكثر دقة، لكنها تستغرق وقتاً أطول[1] وكانت البنادق الشرقية عادة

(1) استخدم رجال الحدود الأمريكان المستعمرين في القرن الثامن عشر أبواق البارود أيضاً، وكانت لديهم مواقف مماثلة تجاه القوات الأوروبية والرماة من قواتهم.

أثقل من الأوروبية، لكنها تطلق كرات أكبر تصل إلى مدى أطول (حيث تساعد المهارة في الرماية وبعد مدى الرمي في إبقاء الفرسان بعيداً). بل إن بنادق الجزاير التي كان نادر يحبذها للنخبة من قواته كانت أثقل، وتحتاج إلى أن يتم إسنادها على داعم عند إطلاق النار[1]. ومع انتشار القوات الخفيفة، وتكتيكات المناوشات، تعزز التفسير الذي يرى أن الحروب الشرقية كانت مختلفة وليست بدائية، بدليل تبنّي الحروب الأوروبية التكتيك الشرقي خلال القرن الثامن عشر (متأثرة باستخدام النمساويين للنمط الشرقي للفرسان والمشاة الخفيفين)، ولاسيما في نهاية هذا القرن (تحت التأثير الفرنسي هذه المرة)، وهو ما أدى إلى زيادة سهولة التدريبات.

ترتكز ابتكارات نادر قبل حملاته على الأفغان في المقام الأول على إدخال الأسلحة النارية، باعتبارها تجهيزات حربية قياسية، وتدريب المشاة على استخدام أسلحتهم بطريقة ذات تأثير شامل ومدمر. فقبل زمن نادر، كان لدى الشاه الصفوي رماة بنادق من على صهوة الخيل، لكن كان هناك تردد عام بين صفوف الجيش بالنسبة لاستخدام الأسلحة النارية. لذا، ولقرون عديدة، كان النمط التقليدي للحرب في بلاد فارس وآسيا الوسطى يرتكز على رماة السهام من على صهوة الخيل، بينما اعتمدت الأسلحة النارية ببطء وعلى مضض، لأن تلقيم الأسلحة النارية واستخدامها على ظهور الخيل ليس بالأمر السهل. لكن كانت هناك أيضاً أسباب ثقافية أعمق، تتلخص في أن الأسلحة النارية تعتبر اختراعاً قذراً، حيث كان الكثيرون يفكرون بعقلية الشعر البطولي للشاهنامة، ويعتبرون استخدام القوس والرمح أكثر رجولة ونبلاً، وهذا موضوع يحتاج إلى مزيد من البحث. وتتميز فترة حكم نادر بأنها كانت الحقبة التي استغلت فيها الجيوش الفارسية للمرة الأولى الإمكانات الكاملة للأسلحة النارية لهزيمة أعدائها، الأمر الذي أفضى (ولو لفترة قصيرة) إلى بداية ما أطلق عليه في أوروبا اسم «الثورة العسكرية»28.

كان تركيز نادر منصباً على المناورة وقوة النيران، ما جعل رجاله يكتسبون ميزة حاسمة في المعركة، لكن هناك ثمن لذلك لابد أن يدفع، فقد كان من الضروري الاحتفاظ بالجنود

(1) انظر اللوحة 7، ص210.

في الجيش بشكل دائم، مع إثارة حماستهم باستمرار بطريقة أو بأخرى. ولم يكن ممكنا أن تتم تعبئتهم وقت الحملات، ثم تدفع أجورهم بواسطة الغنائم، ثم تتم إعادتهم إلى أراضي قبائلهم، كما جرت العادة في عهد الصفويين، وإنما كان حتمياً أن يبقوا مع الجيش بصورة دائمة، للاستفادة من التدريبات والمعدات الجديدة. كما لم يكن بمقدور نادر أن يسمح لهم بأن يختفوا هم وبنادقهم الجديدة، ثم لا يعودون. لذا كان لا بد أن يتم دفع رواتبهم على نحو مجزٍ وبسرعة، كي لا يتركون الجيش، كما أنه يجب أن يتم تزويدهم بالطعام والملابس والذخائر، واستبدال معداتهم المكسورة أو المفقودة أو التالفة، علاوة على توفير الدواب لنقلهم وأمتعتهم عبر المسافات الطويلة للهضبة الإيرانية. وكان ينبغي أيضاً أن يتم تزويد الفرسان بنوعية جيدة من الخيول القوية، بما يكفي لنقل الرجال ومعداتهم في المعارك. وللاستفادة من تركيز القوة النارية يجب أن يكون هناك حشد من الرجال لإطلاق النار من البنادق. لذا أخذت جيوش نادر تنمو بشكل تدريجي وبصورة مستمرة.

أدى ذلك كله إلى أن يصبح الجيش مكلفاً جداً. لذا كان نادر دائم البحث عن مصادر جديدة للأموال للحفاظ عليه، وذلك ما يعني بدوره وجود عبء ثقيل من الضرائب والمساهمات القسرية على المناطق التي يسيطر عليها الجيش. وقد كان نمو الجيش في أوروبا، وتحوله إلى جيش كبير محترف، والتركيز على التدريبات وقوة النيران والخدمات اللوجستية اللازمة لتزويد الجيش بمستلزماته، والزيادة الكبيرة في تكاليفه، يتم بموازاة التطورات التي بدأت قبل ذلك الزمن بـ 150 عاما[1]. فقد أدت الضغوط المالية الناجمة عن كل ذلك في أوروبا بمرور الوقت إلى إجراء إصلاحات في الحكومة والتوسع الاقتصادي. على حين أن نادر قد أحدث ثورة عسكرية في بلاد فارس، وكيّفها حسب الظروف في الشرق، لكنها لم تعمر طويلاً، ولم تترك أثرا عميقا، لأنها لم يصاحبها مثل تلك الإصلاحات السياسية والاقتصادية التي حدثت في أوروبا.

(1) لكي لا يعتقد أن الفكرة الأخيرة تركّز على أوروبا، يشير باركر إلى ما يوازي نمو الجيوش والهياكل البيروقراطية للدولة في الصين في فترة الدول المتحاربة، 770 - 221 قبل الميلاد (parker 1988, pp. 2-3). ويرجع بعض المؤرّخين بدايات الثورة العسكرية الأوروبية إلى وقت أبكر.

بغداد أحمد باشا من همدان باتجاه أصفهان على رأس جيش يتراوح بين 70–80 ألف رجل. وكان قد بعث قبل تقدمه برسالة مهينة إلى أشرف، أخبره فيها أنه قادم لإعادة الحاكم الشرعي لفارس.

تحرك أشرف لمواجهة أحمد باشا على رأس قوة أصغر بكثير، لا تتعدى 12 ألف رجل. وقرر أن يرد رداً لا يُنسى، فبعث ثلاثة رجال على صهوات جيادهم إلى القصر في أصفهان، حيث قاموا هناك بجعل الشاه المخلوع سلطان حسين يركع في قاعة مرايا في القصر، ثم قطعوا رأسه، وعادوا بها مسرعين إلى الجيش الأفغاني. وبمجرد وصولهم، أرسل أشرف الرأس المقطوع إلى العثمانيين، مع رسالة مفادها أنه سوف يرد على أحمد باشا رداً كاملاً بحد سيفه ورأس رمحه. وبهذه الطريقة، قدّم الشاه سلطان حسين بموته رداً أكثر حدة من أي رد في حياته.31

على الرغم من رسالة أشرف المتوعدة، واصل أحمد باشا تقدمه، ليتوقف الجيشان لا تفصل بينهما سوى مسافة 12 ميلاً. لكن حدث تأخير لصالح الأفغان، حيث أرسل أشرف رجالاً لرشوة الأكراد في الجيش العثماني، وتشجيعهم على تغيير ولائهم. وعندما أرسل أحمد باشا بعثة استطلاع قوامها 6 آلاف رجل، أضلّهم المرشدون، وكمن لهم الأفغان فحاصروهم وقتلوهم.32

وازدادت الأمور سوءاً بالنسبة لأحمد باشا عندما زار المعسكر العثماني أربعة رجال دين أفغان، شقوا طريقهم إلى خيمته سالمين لكبر سنهم ووقارهم وهيبتهم، فخاطبوا أحمد باشا باسم أشرف، ولاموا العثمانيين على تحالفهم مع الروس المسيحيين، ونصحوه أن ينهي هجماته على الأفغان السنّة مثل العثمانيين. وأهابوا به أن ينضم إلى الأفغان في حربهم ضد الفرس المبتدعين. وقد أثّرت كلمات هؤلاء الرجال في جميع الحضور، وحاول أحمد باشا أن يجادلهم، لكنه قوطع بالأذان للصلاة، فقام الأفغان الأربعة مع العثمانيين ليلبوا نداء الصلاة. ثم غادر الأربعة المعسكر بعد ذلك وهم يترجون أحمد باشا أن يمتنع عن سفك المزيد من الدماء.

عندئذ رأى أحمد باشا أنه قد انتظر وقتاً أطول مما ينبغي، فأمر بالهجوم الفوري بإشارة

من عشر قذائف مدفع. لكن عدم حماسة القوات العثمانية باتت واضحة الآن، حيث رفض معظم الجيش التحرك إلى الأمام، وفرّ عدد كبير من الأكراد إلى الأفغان. لذا أعاد أحمد باشا تنظيم قواته سريعاً، ونجح في قيادة ميمنة الجيش لمهاجمة العدو، لكن الأفغان تمكنوا من صد الهجوم. وبدا أشرف في أرض المعركة وهو على ظهر فيل كما لو كان أميراً هندياً، مظهرا هدوءه وثقته في نتيجة المعركة من خلال العزف على الناي. وقد قام العثمانيون بهجمتين أخريين فاشلتين أيضاً، مما حدا بأحمد باشا إلى الانسحاب بعد أن تكبد 12 ألف قتيل. وفي تلك الليلة، أثار الأكراد المتبقون في المعسكر العثماني حالة من الاضطراب والهلع والارتباك، وبدؤوا في نهب المخيم، في حين انسحب أحمد باشا مخلفاً وراءه كل الأمتعة والمدفعية. وقد تراجع العثمانيون في البداية إلى همدان، ثم عادوا إلى بغداد.33

و في صيف 1727، حاول أحمد باشا تجديد القتال، لكن الحرب في ذلك الوقت كانت لا تحظى بالتأييد في إسطنبول، وعند بقية المسلمين في جميع أنحاء الأراضي العثمانية الذين أعجبوا بالأفغان، لاعتقادهم أن نجاحهم كان مرده إلى التوفيق الإلهي. وعندما اقترح أشرف إقامة السلام، أسفرت المفاوضات بين العثمانيين والأفغان عن معاهدة يعترف فيها العثمانيون بسلطة الأفغان على الأراضي الفارسية التي احتلوها، وبأشرف شاهاً شرعياً على ما تبقى من أرض فارس.34 وقد زاد هذا الاعتراف بحق أشرف في الحكم من قبل أعلى سلطة في العالم الإسلامي من هيبته وسلطته، وشكّل نصراً له. تم التغاضي عما تمثله هذه المعاهدة من تعارض مع معاهدة التقسيم العثمانية/الروسية السابقة التي تعترف بطهماسب شاهاً.35 لكن على أي حال، لم يدم أثر المعاهدة الأفغانية العثمانية طويلاً.

عندما زار المبعوث العثماني أصفهان تأكيداً للمعاهدة في ربيع 1729، رافقته حاشية أشرف إلى خارج المدينة، وبذلوا قصارى جهدهم لإخفاء حالة المواطنين عنه. لكن كان من الواضح له أن حالتهم بائسة، فالكثير منهم يتضورون جوعاً، ويعيشون في خوف دائم من التعرض للسرقة والقتل والحرائق المتعمدة من قبل سادتهم الأفغان. وقد كانت حالة سكان فارس عموما سيئة في ذلك الوقت، لدرجة أنه كان يتم بيع النساء والأطفال

في سوق الرقيق. وكان ذلك يتم في القطاع العثماني بشكل اعتيادي حتى أنهيت هذه الممارسة بموجب مرسوم في نهاية عام 1725. على العموم، كانت التجارة في حالة جمود، بسبب عدم الاستقرار السياسي، وقطع الطرق، وحالة عدم اليقين، وانهيار الاقتصاد. أما عدد السكان فانخفض بنسبة تصل إلى الثلث، بسبب حالات الوفاة الناجمة عن الحروب والمجاعات والأمراض، إضافة إلى الهجرة إلى الخارج. ومما زاد الطين بلة أن أشرف أصدر مرسوماً حدد فيه ترتيب الأعراق الذي يحكم طريقة التعامل معها، حيث جاء في قمة اللائحة الأفغان أنفسهم، ثم الأرمن، ثم الدرغزيون (وهم من السنّة الذين يعيشون في منطقة غرب فارس، بالقرب من همدان، وانضموا إلى القوات الأفغانية)، ثم التجار الهنود (المعروفون بالبانيان)، ثم الزرادشتيون، ثم اليهود، وأخيراً في المرتبة السابعة والأخيرة الفرس الذين يعاملون بوصفهم عبيداً من قبل الأعراق الستة الأخرى.36 وقد كان المحتلون (سواء الأفغان أم الروس أم العثمانيون) مكروهين عموماً. وأدى ذلك الاستياء إلى اندلاع عدد من الثورات في أنحاء مختلفة من البلاد بقيادة عدد من الشخصيات، ادعى كثير منهم أنه من أبناء الشاه السابق سلطان حسين، أو أنهم من سلالة الملوك الصفويين السابقين.

لم يُكتب لأي من هذه الثورات النجاح، لأنها لم تكن منسقة، كما أن أعداءها كانوا يحشدون قوة كبيرة لسحقها الواحدة تلو الأخرى. لكن الثورات ضد الأفغان في منطقة قزوين وتبريز وهمدان أظهرت عناداً شعبياً في مقاومة المعتدين، شأنها في ذلك شأن المقاومة العنيدة التي أظهرتها العديد من القرى بالقرب من أصفهان في أثناء شهور حصار أصفهان، وهي فكرة تتكرر كثيرا في التاريخ الفارسي. فمحورية مفاهيم الاستشهاد والظلم في المذهب الشيعي الإيراني قد دفعت البعض إلى التكهن بأن ذلك يعطي الثقافة السياسية الإيرانية قوة غير عادية، حيث يعتبر المستضعفون أنفسهم أشرف وأقوى روحياً من مضطهديهم.37 وبشكل عام يمكننا القول إن مراسيم أشرف المتغطرسة وفظائع الغلزائيين أضرمت نار الاستياء والفتنة التي ستدمر الأفغان فيما بعد.

ظن أشرف لفترة طويلة أنه لا يوجد أي تهديد خطير لحكمه سوى طهماسب. لكن

الليلة، أن يزوجه شقيقته إذا انتصر في المعركة المقبلة. 40

وفي صبيحة اليوم التالي، 29 سبتمبر/أيلول 1729، انقسم الفرس إلى أربعة أقسام في حين أن الأفغان انقسموا إلى ثلاثة. كان أشرف واثقاً من النصر، لأن جيشه يتفوق على جيش عدوه عدداً. فأمر من موقعه في الوسط جناحين قويين من أجنحة جيشه بمحاصرة الجيش الفارسي. وأعطى أوامره لمجموعة مكونة من ألفين أو ثلاثة آلاف رجل بأن يكونوا على أهبة الاستعداد لملاحقة الفرس بعد أن تتم هزيمتهم، واعتقال نادر وطهماسب، لتصبح الطريق في تلك الحال ممهدة أمامه للتقدم وغزو خراسان. وبعيداً عن أحلام أشرف هذه، فقد تقدم الجيشان إلى الأمام وضيّقا المسافة بينهما.

كانت الحرب قبل نهاية القرن التاسع عشر مختلفة، إذ كانت أكثر إنسانية وحميمية من الحروب الحديثة. كان الجنود يلتصقون بعضهم ببعض طلباً للدعم وتجنباً للقتل في العراء على يد العدو، تماماً مثلما يتجمع قطيع الحيوانات طلبا للأمن من الضواري. وبهذه الطريقة كان يتم تكييف ظروف الحرب وفقاً لأبسط غرائز البشر. لكن الجنود في العصر الحديث يتدربون على التشرذم، بدلاً من التجمع معاً، عندما يتهددهم القصف على سبيل المثال. مع أنهم عندما يصلون إلى أرض المعركة في لحظات التوتر قبل بدء القتال يتجمعون مع زملائهم من حولهم، ويتمكنون من رؤية العدو. وهذا شيء كان البشر يفعلونه ليس قبل آلاف السنين فحسب، وإنما قبل عشرات، أو ربما مئات، الآلاف من السنين. 41

كان موفقاً للغاية وصف العروس الجميلة في «أغنية الأغاني» بأنها رهيبة، كما لو كانت جيشاً أُمِر بخوض معركة. فكلا الجيشين يسعيان للتغلب على الآخر، ويحاول كل منهما إيجاد موقع يكسبه ميزة عن الآخر، لكن إذا كان الموقع قوياً جداً، فإن العدو سيضطر إلى الانسحاب خائباً. وعندما يقترب الجيشان كثيراً أحدهما من الآخر، يصبح الانسحاب من المعركة أكثر خطورة. لكن قبل الشروع في القتل تمر لحظة يتمكن فيها الخصم من رؤية خصمه عن قرب، وهي لحظة يشعر فيها الطرفان بالخوف والرعب أيضاً، وربما الإعجاب. ومع ذلك يغامر القادة بالتعرض للقتل والتضحية والخسارة أملاً في الحصول على فرصة للنصر. ويرضى الجنود بذلك أيضاً رغم أنهم قد يتعرضون للقتل أو التشويه.

لكن لماذا؟ إن معظم هؤلاء الرجال من الشباب الذين قبلوا التخلي عن شبابهم خوفاً من النظام، أو ربما طمعاً في النهب. لكن أهم شيء هو أنهم يشعرون بالانتماء، لأنهم محاطون برفاقهم، ومعظمهم من أقاربهم في القبيلة والأصدقاء المقربين لديهم. وهم يشعرون بالخوف، لكنهم يخشون أن يخذلوا أصدقاءهم، ويريدون أن يتفوقوا في عيونهم. لذا فهم على استعداد للقتل والموت من أجلهم. إنهم، أو على الأقل الشباب منهم، يذهبون إلى المعركة كما لو كانت عروساً.

كان الفرس في تلك الظروف لا يشعرون بالانقسام الذي شعروا به في جولن أباد قبل سبع سنوات، وإنما يشعرون بالتوحد والتصميم الشديد والرغبة في الانتقام. لكن حدث ما لم يكن متوقعاً، إذ لم يستقر الفرس كثيراً في مواقعهم، ولم يتقدموا للهجوم، وإنما بدؤوا في الانسحاب يساراً نحو الجانب الآخر من الوادي الذي يقع فيه التل. وقد غطى الانسحاب حامية تتكون من عدة آلاف من الفرسان الأقوياء. فغادر الأفغان تحت قيادة محمد سيدال خان مواقعهم، وتحولوا إلى الهجوم على الفور معتقدين أن الفرس يحاولون الفرار، وأنهم قد انتصروا في المعركة بالفعل. لكن الحامية الفارسية أبقتهم بعيدين عنهم باستخدام الأسلحة النارية والسهام والاشتباكات في الغبار، في الوقت الذي استمر فيه الانسحاب بطيئا.

استغل نادر هذا الوقت الذي أتاحته له مماطلة حاميته ليقوم بوضع مدافعه ومدفعيته الخفيفة المحمولة على الجمال (زانبوراك) على سفوح التل، وأمر بقية رجاله بالتزام الصمت، وألا يطلقوا النار حتى يصبح الأفغان على مسافة قريبة، وأن يحافظوا على مواقعهم وألا يتزحزحوا منها دون أمر منه. «فاندفعت القوات الأفغانية إلى الأمام معتقدين أنهم قد انتصروا».42 وحاول الأفغان أن ينفذوا الأوامر التي أعطيت لهم بأن يحاصروا عدوهم من جميع الجوانب، وأن يهاجموا وسط الجيش وجناحيه في وقت واحد. لكن عندما ازدادوا اقتراباً انهالت عليهم قذائف المدفعية الفارسية من التل مستهدفة حشودهم الواقعة في منتصف تشكيلاتهم، وصارت «تقطّع كل ثلاثمائة جندي أو أربعمائة إلى قطعتين مثل الخيار».43 كان أشرف موجوداً في ذلك المكان مع حرسه، حيث قُتل الكثير من خيوله

الإضافية المزينة بالأحجار الكريمة أمامه. وعندما حاول جناحا الفرسان الأفغان الاقتراب قتلتهم جميعاً نيران بنادق الفرس. وقد صوب الجنود الفرس الوابل الأول لنيرانهم بعناية، ما ترك أثرا كبيراً على الأعداء قبل أن يحجب دخان البارود النظر ويسود الارتباك. فسقط المئات من الخيول والفرسان، وتخبطوا بعضهم ببعض بسبب سحب الغبار والدخان. وهكذا، فقد الهجوم الأفغاني قوته، وفشل في اقتحام الصفوف الفارسية.

وعمت الوادي أصوات المدافع والبنادق، وواصل الفرس إمطار حشود الأعداء المذهولين بالنيران بكثافة. وقد حاول الأفغان استعادة تنظيمهم، غير أن مدفعية الزانبورك الأفغانية سقطت، الواحدة تلو الأخرى، على وقع قذائف مدفعية نادر، وتناثرت الأشلاء. وعندما استعاد الفرس ثقتهم بنفسهم بدأت مجموعة من رماة البنادق والمشاة الفارسية في التقدم تجاه ما تبقى من مدفعية أشرف، وضغطوا على قلب مركز الحشود الأفغانية، فمزقوا أوصالها، وفر الأفغان هاربين بعد أن تكبدوا أكثر من 12 ألف قتيل. وبحلول الظهيرة، كان كل شيء قد انتهى. وقد قامت مجموعة من الأفشار بتعقب الأفغان بضعة أميال. لكن نادر منع الجزء الرئيسي من جيشه من تعقبهم، خوفاً من تعرضهم لأي كمين.44 وهكذا، استعاد الفرس احترامهم لأنفسهم، وتحطمت غطرسة الأفغان ومغامرتهم في بلاد فارس.

كان المشهد بعد انتهاء الحرب مريعاً، فإن كان هناك أي شيء في مشهد الجيوش قبل المعركة يبعث على الرهبة، فإنه ليس هناك أي شيء جميل في منظر ميدان القتال بعد المعركة، الذي تتناثر فيه أكوام القتلى، والرجال المحتضرين، والحيوانات التي يتنازعها الموت،45 والتراب الذي يختلط ببقع الدم. وإن كان الجنود الجرحى على الجانب الفارسي قد تلقوا العناية من الخدم المخلصين، فليس ثمة ما يشير في تلك الفترة، أو في الفترات اللاحقة، إلى وجود أي عناية طبية منظمة للجرحى. لذا فإن الجرحى، كما هو الحال في أي زمان أو مكان آخرين، يجرّون أنفسهم إلى أي مأوى قريب من الصخور أو الشجيرات، كما تفعل الحيوانات المحتضرة. أما الأفغان المصابون بجروح خطيرة لا تسمح لهم بالهرب، فإنهم ببساطة يُنهَبون ويُقتَلون، أو يُترَكون ليموتوا. لذا ما من شك في أنه قد كان عصراً قاسياً.

بعد أن استراح الفرس تقدموا باتجاه دَمغان. وفي أثناء زحفهم، كان نادر كعادته يفكر فيما سيفعله لاحقاً، فأرسل مبعوثا إلى الأتراك العثمانيين يطالبهم بإعادة أذربيجان. كما وقع خلاف آخر بينه وبين طهماسب «لأن الحقيقة مريرة، فقد أثارت كلماته استياء الشاه طهماسب». فانسحب الشاه من الجيش في نوبة غضب، وأخذ معه حراسه. فأرسل نادر رجالاً موثوقين في إثره استطاعوا إقناعه بالكلام الطيب، فعاد بعد تأخير استمر أياماً قليلة بعد أن «تمكن من نفض غبار الغضب عن مرآة روحه.46

يبدو أن الخلاف قد نشأ بسبب حرص طهماسب على التوجه إلى أصفهان، في حين رأى نادر أن من الحكمة العودة إلى مشهد، والتحضير للزحف على أصفهان في العام التالي. لكن طهماسب أصر على ضرورة توجيه الضربة على الفور. وقد يكون ذلك لأن نادراً كان يراوغ لانتزاع المزيد من الوعود من طهماسب، غير أنه بطبعه يسعى لتجنب المخاطر. وقد تم حل الخلاف، وحصل طهماسب على ما يريد، ولو في هذه المرة فحسب. ومع زحف الجيش باتجاه الغرب، تدفق المواطنون من كل مكان بالآلاف، لاستقبال موكب الشاه بصيحات الفرح، كما انضمت إلى الجيش المظفر تعزيزات من جميع الأنحاء.47

انسحب أشرف إلى فارامين، حيث جمع المزيد من الرجال من طهران والمناطق المحيطة بها. وعندما علم أن نادراً قد تابع زحفه، وأن طريقه سيمر عبر الوادي الضيق الذي يقع إلى الشرق من فارامين، قام بنصب كمين هناك، فوضع القناصة على التلال، ووضع المدفعية في مواقع مناسبة، وقطع الطريق بالتحصينات، وأخفى قوة من الفرسان لاستكمال هزيمة الفرس. لكن لسوء حظه رصدت كشافة نادر هذا الكمين، وأطلعته على هذه الاستعدادات. فتسلل ورجاله حول مؤخرة الجيش الأفغاني، وهاجم الوادي من اتجاهين باستخدام رماة البنادق وبدعم من المدفعية. وهكذا، وقع الأفغان أنفسهم في الكمين، وفرّوا باتجاه أصفهان مخلفين وراءهم أمتعتهم والمدفعية.

كان العنصر الذي جعل الجيش الفارسي ينتصر في كل تلك المعارك هو الأسلحة النارية والمشاة والمدفعية. فقد أدرك نادر أن القوة النارية تشكل عاملاً حاسماً، لذا كان يستغلها أفضل استغلال. غير أن المشاة أيضاً هم من يميز الهوية الفارسية. فرغم الاختلاف العرقي

لجنود نادر فإنهم ليسوا مجموعة من المرتزقة. فسلاح الفرسان كان في الغالب قبليا، يضم عناصر متنوعة من غير الإيرانيين (وبعضهم ليسوا شيعة)، مثل: الأفشار، والقاجار، والأكراد، والتركمان، والأفغان العبدليين، وغيرهم. أما المشاة فقد كان يتم تجنيدهم أساساً من الفلاحين الإيرانيين الذين يعملون في الأراضي الزراعية، والشباب من سكان المدن. لذا فمن المنطقي أن نرى هذا التحدي والصمود في المعارك، لأنهم يعبّرون بذلك عن الروح العامة للاستياء من الأفغان.

في أصفهان، قام أشرف بذبح 3 آلاف من الوجهاء ورجال الدين، لمنع حدوث أي ثورة ضده، ونهبت قواته السوق المحلية وأحرقتها. واستنجد أشرف بأحمد باشا الذي أرسل له بعض المدفعية التركية لتحل محل الأسلحة التي فقدها48 إضافة إلى بعض القوات، لأن العثمانيين بدؤوا يخافون من انبعاث القضية الفارسية. وبعد أن عزز أشرف جيشه بالحلفاء، خرج من أصفهان لمواجهة الجيش الملكي للمرة الثالثة في 31 أكتوبر/تشرين الأول، وأخذ مواقعه بالقرب من قرية مورشاخر، وعززها بالاستحكامات.

في هذه الأثناء، كان نادر قد أوصل طهماسب إلى طهران. لكن في هذه المرة لم يكن هناك أي خلاف بشأن من الذي يستحق المجد في المعركة الحاسمة لتحرير أصفهان.49 وبعد أن تأكد نادر من عدم وجود أي قصور في معدات رجاله، زحف بجيشه إلى الجنوب سالكاً طريقاً أطول من الطريق المعتاد، حتى لا يتعرقل تقدم المدفعية بسبب صعوبة الطريق الجبلي المباشر. وعندما اقترب الفرس، قامت طليعة من أكراد قبيلة قاراشورلو بمهاجمة القوات الأفغانية الاستطلاعية في الليل، وتغلبت عليها، وأسرت 100 رجل.50

كان الجيش الفارسي قد صار بالفعل قريباً من مورشاخُر عندما وصل أشرف إلى هناك. وفي صبيحة 13 نوفمبر/تشرين الثاني 1729، وبدلا من مهاجمة الأفغان وهم في مواقعهم الدفاعية، حاول نادر استدراجهم إلى سهل مكشوف من خلال عبور مجنبتهم، والتوجه مباشرة إلى أصفهان.

> لذلك أمر قارعي الطبول في جيشه المهيب أن يدقوا طبول الحرب بأصوات تشق عنان السماء، وطلب من حملة الرايات أن يخترقوا السماء براياتهم المدببة.51

كان للمعايير العسكرية والموسيقى العسكرية دور هام في جيوش المسلمين منذ مئات السنين، حيث كان يرافق الحاكم إلى ساحات الوغى مجموعة كبيرة من الرجال كرمز للسلطة، وهي ما يسميها ابن خلدون في كتاباته بالآلة (أي رفع الرايات والأعلام وقرع الطبول ونفخ الأبواق والمزامير، قناعة بأن ذلك يشد من أزر الحلفاء ويبث الرعب في قلوب الأعداء). وقد كتب ابن خلدون في ذلك: «... أن النفس عند سماع النغم والأصوات يدركها الفرح والطرب بلا شك فتصيب مزاج الروح نشوة يستسهل بها الصعب ويستميت... ».52

لكن أشرف لم يخرج من استحكاماته، وإنما تمسك بمواقعه53، وصفّ رجاله بحيث يكونون متراصين، مقلداً التكتيكات السابقة لنادر، ووضع عدداً كبيراً من المدافع في جميع الجوانب، ثم وضع المشاة في الوسط، والفرسان خارج التشكيل الرئيسي من أجل حرية المناورة[1]. وقد كان أشرف يحاول من خلال تجربته تلك إيجاد وسيلة فعالة مضادة للتكتيكات الحربية الجديدة التي أدخلها نادر، حيث سعى لزيادة القوة النارية لقواته، من خلال إضافة المدفعية والقتال بصورة دفاعية أكثر. لكن ذهبت محاولاته أدراج الرياح، فالنظام التكتيكي لنادر كان متفوقاً، لأنه استغرق سنوات في تطويره، فلا يمكن إيجاد وسيلة فعالة ومضادة له في غضون بضعة أسابيع.

طلب نادر من رجاله أن يطيعوا أوامره بإخلاص، وحذّر الفرسان من أن يترجلوا عن خيولهم للنهب، خوفاً من أن يهجم عليهم على حين غرة. ثم تقدم الفرس وكانت المدفعية والرماة في المقدمة. وعندما اقتربوا من خط العدو أطلقوا وابلا من النيران من مسافة قريبة على خنادق الأفغان، قبل أن يندفعوا نحوهم ويلتحموا معهم بالقتال. فقام الفرسان الأفغان بهجوم يائس على جناحي الجيش الفارسي ومؤخرته، لكن هجومهم لم يؤثر على الفرس. وأظلم النهار بسبب سحب التراب التي أثارتها حوافر الخيول ودخان البارود.

(1)ربما بلغ عدد كل من الجيشين ما بين 16 و20 ألف رجل، غير أنه هناك من يقول إن عدد الأفغان كان 40 ألفاً، بينما تراوح العدد في جيش نادر ما بين 5000-6000 (Floor, Afghan Occupation, p. 262)، لكن لا يمكن أن يكون ذلك صحيحا.

وتغلب الفرس على مدفعية أشرف، ثم انكسر الأفغان بعد قتال شرس وفرّوا. فعاد أشرف إلى أصفهان في ذلك المساء على عجل، وجمع بسرعة كل ما استطاع من أغراض ثمينة، ثم وضع الأمتعة، بالإضافة إلى نساء العائلة المالكة، على ظهور كل ما تمكن من إيجاده من الدواب، وخرج من المدينة قاصداً شيراز قبل فجر اليوم التالي بساعة واحدة.54

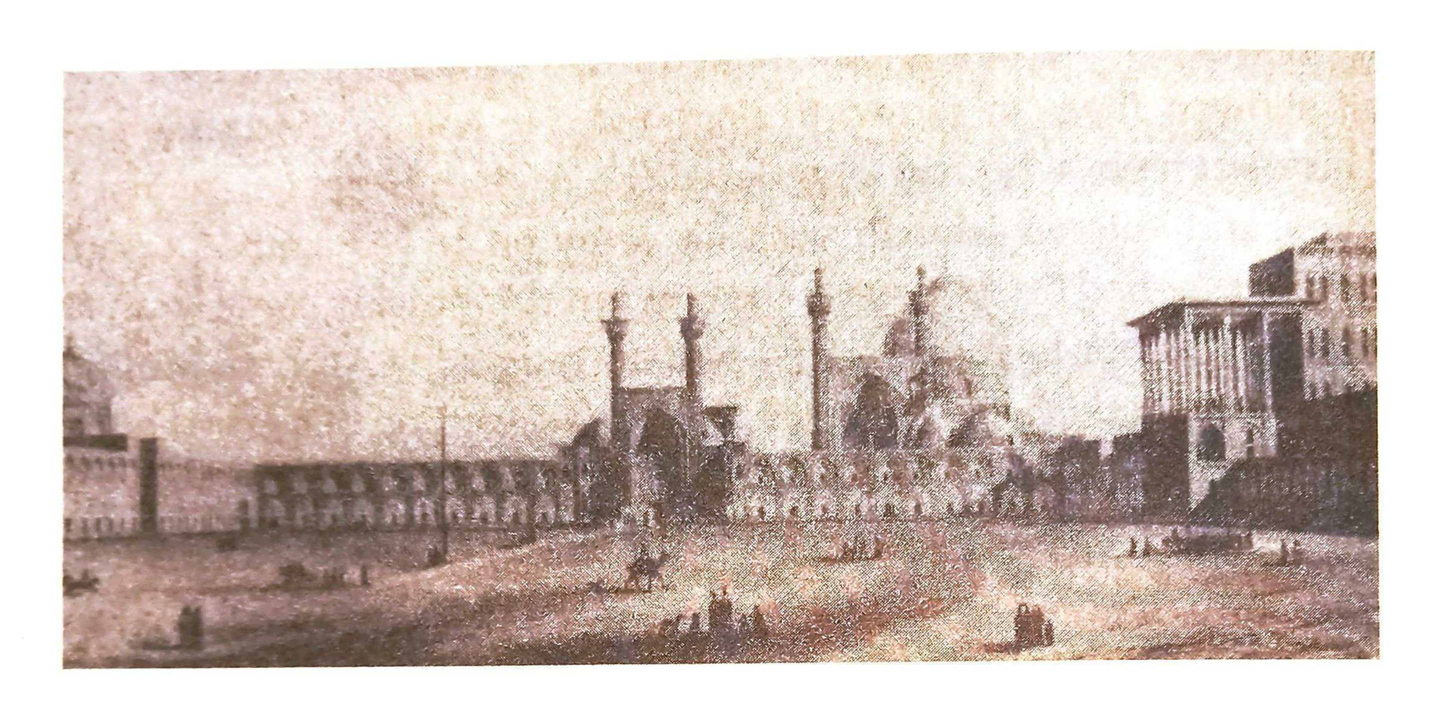
وقد وقع عدد كبير من الجيش الأفغاني في الأسر، وكان من بينهم عدد من الأتراك العثمانيين الذين أسروا بعد المعركة. لكن نادراً عاملهم معاملة إنسانية، وأطلق سراحهم، وسمح لهم بالعودة إلى بغداد. ومن ناحية أخرى، اضطر لتأديب بعض رجاله الذين نهبوا أمتعة الأفغان، وعصوا أوامره. ثم دخل أصفهان مع جيشه في 16 نوفمبر/تشرين الثاني، فعم السلب والنهب والفوضى المدينة، لكن سرعان ما انتهى ذلك عندما بسطت قوات نادر سيطرتها. ثم لوحق من تبقى من الأفغان الذين اختبؤوا في المدينة، فاعتُقلوا وأُعدِموا، لكنه أطلق سراح بعضهم ممن كانوا يتصرفون بطريقة إنسانية خلال فترة الاحتلال. وقد تم توزيع الأغراض الثمينة التي تركها الأفغان على الجنود. وسمح للسكان بالانتقام عن طريق هدم وتدنيس قبر محمود الغلزائي، ثم بنيت في وقت لاحق مراحيض عامة في موقعه.

وقد اجتمع نادر مع الشاه طهماسب خارج المدينة55 في استقبال رسمي أقيم لتحيته في 9 ديسمبر/كانون الأول 1729. وكان طهماسب عندما شاهد نادر:

> ترجّل عن جواده، كما لو كان يقصد بذلك توقيره، فترجّل العامة عن جيادهم كذلك، وركضوا إليه باحترام، لمنعه من إظهار بادرة التواضع الكبيرة هذه، لكن الشاه أصر على المشي بضعة خطوات معه، للدلالة على أنه لا يوجد شيء يمكن أن يفي حق هذا الشخص الذي قدم الكثير لبلاده، وأخرج أعداءه من أصفهان. وبعد أن تبادل معه حديثا قصيراً، ركب جواده مرة أخرى يتقدمه الخدم وهم يركضون، وتبعه الخان على رأس قواته.56

وقد رحب سكان المدينة بطهماسب مبتهجين، لكن سعادته تحولت إلى دموع عندما شاهد الأضرار التي لحقت بالمدينة على يد الأفغان. ويقال إنه لدى وصوله إلى القصر الملكي عانقته سيدة مسنة، أدرك أنها والدته التي تنكرت سنوات في زي خادمة تؤدي

مهمات وضيعة في مقصورة الحريم.57 وهكذا، انتهى الاحتلال الأفغاني لأصفهان، لكن الاحتفالات باستعادة الحكم الصفوي كانت سابقة لأوانها.



6. أصفهان

لوحة تعود إلى القرن التاسع عشر، تصور الزاوية الجنوبية من الميدان الكبير لمدينة أصفهان بشكل مطابق للصورة التي كانت قائمة في زمان نادر، ولم يتغير هذا الميدان كثيرا اليوم. ويبدو على يمين الصورة قصر علي قابو الذي رمت منه حشود الشعب الغاضبة الحجارة مطالبين دون جدوى بخلع الشاه سلطان حسين.

(اللوحة من ضمن مجموعة مقتنيات مملوكة للمؤلف)

الفصل الرابع

الحرب مع العثمانيين

(ليحذر من يقاتل الوحوش من أن يستحيل هو نفسه إلى وحش كاسر).

نيتشه

تلاقت فرحتا الشاه طهماسب وشعب أصفهان بإقصاء الأفغان واسترداد العرش الصفوي، لكن توقعاتهم لم تتفق مع توقعات نادر شاه، وبغض النظر عن كافة المظاهر الخارجية، فقد كان نادر الطرف صاحب اليد العليا. وكان إرضاء الجيش ودفع رواتب الجند دائماً ما يأتي على رأس أولويات نادر، وسرعان ما اتضح أن ذكرياته عن أصفهان جعلته يجنح إلى الانتقام أكثر منه إلى التعاطف. ولم يكن ما تبقى من كنوز فارس التي خلفها الأفغان وراءهم كافياً لإرضاء القوات فترة طويلة، وسرعان ما تراجعت مظاهر البهجة لدى شعب أصفهان. 1 فقد بدأ جنود نادر يضربون العامة لجباية المال منهم عندما نقصت إمداداتهم من الطعام والملبس بعد حملتهم الشاقة، وسرقوا البيوت وباعوا عائلات فقيرةً بأكملها رقيقاً للحصول على ما يريدون من مال.

ووفقاً لإحدى الروايات، شكا أحد النبلاء إلى نادر أن أحد جنوده اغتصب زوجته وتحدث إليه بأكبر قدر من الاعتداد بالنفس وأخبره أنه لا يستطيع العيش بعد هذه الإهانة الكبيرة التي لحقت بشرفه. فأجابه نادر: «حقاً، إنك لن تستطيع العيش». وأمر بشنقه. وقد برر نادر قسوته لضباطه بأنه لو تابع كل شكوى من هذا القبيل، لأمضى وقته بالكامل في معاقبة جيشه بدلاً من التفرغ لأعداء البلاد. وقد تخلى نادر فيما بعد عن ذلك المبدأ وفرض على قواته قواعد انضباط أكثر صرامةً. 2

تبرز هذه الحادثة موقف الرجل تجاه المرأة في بلاد فارس آنذاك. ويلاحظ أن الحاجة الاقتصادية في أوساط البدو القَبليين والطبقات العاملة قد دفعت باتجاه قدرٍ أقل من تقييد

المرأة: فقد اضطرت معظم النساء إلى العمل الشاق في الحقول وغيرها من أماكن العمل. واستثني من ذلك النساء ذوات المكانة الاجتماعية فقد كن يحجبن عن الأنظار في جزء من المنزل لا يصل إليه سوى النساء أو رب المنزل. ومن شأن أي خرق لهذه القاعدة– مهما كان طفيفاً– أن يعرض صاحبه للسخرية ويلحق به العار. وكانت نساء الحرفيين والتجار والطبقات الأرقى يعشن حياةً مقيدةً تماماً. وقد ينظر البعض إلى رد فعل نادر تجاه الزوج المُهان بوصفه تصرفاً مقيتاً تجاه رجل لا يمكنه التفكير سوى في عزة نفسه عندما اغتصبت زوجته. ولم يكن نادر مختلفاً عن معاصريه في نظرتهم للمرأة، فلا بد لنا من الاحتراز فلا نسقط أحكام العصر الحديث عليه. وعلى افتراض أن هذه القصة صحيحة، فإن الواضح أن شيئاً ما لم يُعجب نادر في هذا الرجل.

لا شك أن ممثلي الشركتين التجاريتين الإنجليزية والهولندية في أصفهان في بادئ الأمر كانوا ضمن الأشخاص الأكثر سعادة لرؤية جنود نادر يصلون إلى أصفهان. فقد تنافس التجار الأوروبيون في أصفهان سنوات عديدة ودّب الخلافات فيما بينهم على بعض الامتيازات الطفيفة التي حصلوا عليها من الحكام الصفويين والأفغان. وكانت العداوة فيما بينهم تظهر في التقارير التي يرسلونها إلى بلادهم. وبعد فترة من موقعة «مورشاخُر»، خشي الإنجليز من أن يكسب الهولنديون تأييد نادر، لكن سرعان ما تعرضت الشركتان لضغوط رجال نادر من أجل الحصول على المزيد من المال. لذا صارت نظرة الشركتين سلبية تجاه حكم نادر، لاسيما مع شعور الشركتين بإفساد نادر مصالحهما فضلاً عن سخطهما على أساليبه القمعية.3

بعد أن عاد طهماسب إلى قصور عائلته ورياضها التي اعتاد عليها في أصفهان، تمنى قيام نادر بمطارده أشرف في الشرق للقضاء عليه وإنقاذ أميرات الصفويين اللاتي وقعن في أسره من شقيقات طهماسب وقريباته. غير أن نادراً ظل يراوغ في تنفيذ ذلك، وأخبره بأن رجاله قد أصابهم الإرهاق، وأن التوقيت غير مناسب لبدء حملة أخرى، لأنه موعد عودته إلى خراسان. كان ذلك بمثابة مسرحية: فقد كان هدف نادر الحقيقي أن يحصل على المكافأة الكاملة المرصودة لإعادة فتح أصفهان. فاستمرت المناقشات وعقد طهماسب

مجلساً كبيراً استدعى فيه عدداً من ضباط الجيش والحاشية في محاولة منه للضغط على نادر، إلا أن الجنود أيدوا رأي نادر الذي واصل بدوره اعتراضه. ومع ختام ذلك اليوم الذي انقضى بأكمله في النقاش، فقد طهماسب رباطة جأشه وألقى الريشة الملكية (الجيك) التي تتوج رأسه على الأرض.

وافق نادر في نهاية الأمر على ملاحقة أشرف بعد أن ضمن لنفسه في المقابل حكم خراسان وكرمان ومازندران (إذ وعده طهماسب قبل أن يغادر مشهد بأن يوليه هذه الأقاليم)، كما حصل على حق جباية الضرائب من أنحاء البلاد لدفع رواتب الجيش وحق وضع الريشة الملكية فوق رأسه. ولتأكيد دوام الاتفاقية، تم الاتفاق على زواج نادر وابنه رضا قولي من شقيقتي طهماسب،4 وما لبث نادر أن تزوج إحداهن– وهي راضية بيجوم. وتمتع نادر بفضل هذه الامتيازات بسيطرة شبه كاملة على جزء كبير من شمال بلاد فارس وشرقها، فكان حتى ذلك الحين قد نال اثنين من أهم مآربه: المال والشرعية، فأعلن أنه سيقضي على أعداء الشاه نهائياً ثم يعود إلى خراسان.5

كان الحصول على حق جباية الضرائب أهم بنود الاتفاق. فقد منح نادر سلطة لا تقتصر على الأقاليم الخاضعة لحكمه الشخصي فقط، بل أيضاً على أهم المناطق الخاضعة لحكم الدولة في باقي أنحاء البلاد. وكما هو الحال في أي دولة، فإن زيادة الضرائب أهم عوامل السلطة. وفي ولاية نادر كانت زيادة العائدات أمراً حيوياً لدفع رواتب جيوشه الآخذة في النمو المستمر. لذا فقد أولى عناية شديدة للأمور المالية، وقام على مدار السنوات المتعاقبة ببناء شبكة معقدة من المسؤولين والمفتشين والجواسيس للمراقبة وجباية الضرائب والسيطرة عليها، كما دأب على تغيير الكوادر التي خدمت الصفويين وتقويتها. وكان على كل إقليم تقديم كشف حساب دوري. فعادت السلطة مركزية قوية ذات قبضة إدارية قوية بعد فترة التراخي الذي ساد إبان حكم الصفويين وفوضى فترة الهيمنة الأفغانية. غير أن مطالب نادر الضريبية كانت مرتفعة. بل كانت الضرائب تتضاعف في بعض الأحيان دون إشعار مسبق، وكانت عقوبة التهرب قاسية.

اشتهر نادر بزرع أعين له في كل مكان. ووفقاً لإحدى الروايات، كان على أحد سكان

أصفهان دفع غرامة لنادر، فاختار نادر جامع ضرائب محلياً لجمع المال. لكن من دون أي محاولة لإخفاء الأمر أنفق جامع الضرائب المال كله على الخمر والنساء والموسيقى واللحوم المشوية. وعندما لامه الرجل الذي دفع الغرامة على ذلك، مطالباً إياه بتوضيح كيفية سداد هذه الأموال إلى نادر بعد أن أنفقها بالكامل، أخبره جامع الضرائب مفاخراً بأنه لا يوجد ما يقلقه، لأنه لن يرى نادر مجدداً. وبعد أسابيع قليلة جاء أحد رجال شرطة نادر العسكرية إلى السوق وضرب جامع الضرائب على رأسه ببلطة القتال وسلمه ليحاكم أمام نادر. وهناك قال له نادر: «انظر، لقد التقينا مرة أخرى على أي حال». وأمر بشنقه.6

تبرز هذه القصة ما اكتسبه نادر من سمعة في عنايته الفائقة بالأمور المالية. لكنها تظل على نحو مشابه لقصة الزوج المظلوم، نموذجاً لنمطٍ من القصص يروى عن نادر. ويصعب الحكم على ما إذا كانت هذه الوقائع قد حدثت بالفعل، وإلى أي مدى صار نادر رمزاً يرغب الناس في سرد هذا النوع من القصص عنه، بحيث تسري قشعريرة في أجساد المستمعين. لكن هذه القصص مروية عن معاصريه أو تابعيهم، ورغم زخرفتها، ما كان معاصروه ليكرروا هذه القصص ما لم يدفعهم شيء للاعتقاد بوجود بعض الحقيقة في جوهرها.

لا يُعلم تاريخ زواج نادر من راضية بيجوم، شقيقة طهماسب، أو أي شيء آخر عنها، بخلاف أن ذلك قد حدث في تلك الفترة. وأنها قد تجنبت على نحو ما أن تقع في أسر أشرف مع الأميرات الأخريات، غير أنها أمضت بلا شك حياة صعبة طوال السنوات الثماني السابقة التي قضتها تحت حكم الأفغان. فقد كانت تعيش وتشهد بعينها قسوة قتل والدها ومعظم أقاربها الذكور. كما أنها قد قضت معظم حياتها في مقصورة الحريم بالقصور الملكية بأصفهان. وصار ذلك كله الآن على وشك التغير الكامل، فستمضي قرابة العشرين سنة المقبلة من حياتها في التنقل، فوق ظهور الخيل أو الإبل أو في المعسكرات، تتبع نادر في حملاته. ولا يُعرف ما إذا حظي هذا التغيير بقبولها، أم أنها شعرت بالسخط تجاهه متذكرةً أيامها السعيدة في أصفهان قبل مجيء الأفغان. وقد كان نادر متزوجاً بالفعل من «كوهر شاد»، الابنة الصغرى لسيده السابق «بابا علي بيك» حاكم أبيورد. وربما ساد

بعض التوتر في جناح الحريم بين المرأتين، غير أننا لا نعلم شيئا عن ذلك أيضاً.

رغم أن حياة راضية بيجوم وزوجات نادر الأخريات بقيت طي الكتمان إلى حد بعيد، فإن حياة نساء أصفهان بوجه عام في سنوات الحكم الصفوي لم تكن غامضة بفضل الجهود التي نهضت بها الأبحاث الحديثة. ويرصد أحد النصوص الساخرة التي ترجع إلى ثمانينيات القرن السابع عشر صورة معقدة من العادات والممارسات داخل مقصورة الحريم، لولاها لظننا أن مقصورة الحريم عالم مخيف. حاول كاتب هذا النص أن يصدم قراءه فقال إن نساء المقصورة اعتدن على كسر الأعراف الاجتماعية والدينية، بمخالفة أزواجهن ومجافاة قواعد الحشمة أمام الرجال من خارج نطاق العائلة، وإساءة السلوك مع النساء الأخريات في الحمامات العامة. ويواصل الكاتب حديثه الساخر فيورد العديد من التفاصيل عن الصداقات بين النساء، والتي رآها تهديداً لمعشر الرجال. فقد كانت بعض النساء تتبادل تذكاراتٍ على هيئة دمًى صغيرة مصنوعة من الشمع لإعلان ولائهن المتبادل، وكُن يتبادلن أشياء أخرى تدل على الرغبة الجنسية. فكان القرنفل، مثلا، يعني أن مرسلته تتحرق شوقاً، على حين يحمل «البندق المملح» رسالة مفادها: «أرغب في وصالك رغبة شديدة».

كان الغرض من هذه الرواية الساخرة تشجيع وتأييد القيود الصارمة على حرية المرأة، التي كان معمولاً بها على نحو كامل في بداية عهد الشاه سلطان حسين. وقد يكون الكاتب مبالغاً فيما يتعلق بالجانب الجنسي من طقوس الصداقة، لكونها أفضل ما يحقق له هدفه. لكن لو كان الكاتب قد اختلق هذه الرواية الجنسية برمتها، لما صدّقه أحد. فرغم القيود الصارمة التي اتسمت بها مقصورة الحريم، كانت المحظيات تقيم علاقات قويةً فيما بينهن مع بقية النساء اللائي حرمن من العلاقات الزوجية. وهو رد فعل تجاه القيود مقبول تماماً. وقد اتسعت الحياة العاطفية للنساء لتملأ الفراغات المتاحة وتدفع بالقيود المفروضة عليهن إلى أبعد ما يُمكن.

رغم حملة الإحياء الديني في تسعينيات القرن السابع عشر والصدمة المرعبة لثورة الأفغان، فإن المرأة في عهد نادر ما كانت لتتنازل عن استمرار هذه الصداقة وعن عادات

الحريم، مع أن الأمور تغيّرت بمرور الوقت. كما أن لدينا نصاً آخرَ من أواخر تسعينيات القرن السابع عشر يعرض رحلة أرملة من أصفهان إلى مكة، ويتكئ هذا النص على قصيدة كتبتها المرأة نفسها. كان زوجها أحد كبار موظفي الشاه سلطان حسين، ورغم فقدها له منذ فترة قصيرة واستمرار حزنها عليه، فإن تفكيرها في رحلة الحج امتزج لديها مع تفكيرها في إحدى صديقاتها التي انقطعت عنها قبل سنوات. وبرغم صعوبة الرحلة، فقد حولت وجهتها عن الحج لتزور صديقتها، في شمال تبريز. وتعد مقدرة امرأة متعلمة على السفر وحيدة بمثابة تصحيح مثير للنظرة المعتادة التي سادت عن المرأة الفارسية في تلك الفترة. 7

حصل نادر شاه على ما كان يرغب فيه من طهماسب بالزواج، فنال حكم الأقاليم وحصل على حق جباية الضرائب. وفي 24 ديسمبر/كانون الأول 1729 تحرك من أصفهان متوجهاً إلى شيراز بجيش قوامه ما بين 20 و25 ألفاً. وتقدم أشرف لملاقاته في زرقان، شمال شرق شيراز، بعد أن عزز قواته المنهكة بقوات عربية وقبلية أخرى. ومرة أخرى، هاجم الأفغان بضراوة، فلم توقفهم سوى رصاصات مشاة الفرس، التي لم يكونوا يملكون إزاءها رداً. وقاد نادر هجوماً مضاداً، فت في عضد الأفغان وحطم جيشهم.8 ففر أشرف إلى شيراز، ووقعت أعداد كبيرة من الأفغان في الأسر.

حاول أشرف التفاوض مع نادر على الاستسلام من شيراز، وأرسل له الأميرات الملكيات. ولكنه فر في ذلك الوقت متجهاً إلى قندهار عبر «لار» حتى لا يضع نفسه تحت رحمة أعدائه. وعند جسر «بولي فاسا» لحق 500 من الأفغان والأكراد من طليعة جيش نادر بمؤخرة جيش الأفغان عند الغسق، ودار القتال بينهم. وقاوم الأفغان بشجاعة، إلا أنهم هزموا. ففر كثير منهم إلى النهر وغرقوا من الذعر. وتشتت أعداد كبيرة من النساء والأطفال الذين كانوا يزحفون في مؤخرة جيش الأفغان في ظلمة الليل - «يوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه، وصاحبته وبنيه».9

أسر رجال نادر أعداداً كبيرة من كبار رجال الغلزاي عند «جسر بولي فاسا»، كان من بينهم بعض الزعماء الدينيين الذين أعدم أكثرهم فيما بعد. وعندما لحق نادر بمقدمة جيشه

تملكه الغضب لأن قواده هاجموا دون الرجوع إليه. وتشير هذه الواقعة إلى ما كان يتوقعه نادر من ضباطه، وقواعد القيادة الصارمة التي كان ينتظر التزامهم بها. وبرغم انتصارهم على مؤخرة جيش الأفغان، فقد سمل نادر أعين قادة الأكراد وقطع آذان الأفشار عقاباً لهم. فكان ذلك هو الثمن الباهظ لعدم التزامهم الأوامر تحت قيادة نادر. فقد كان من أهم الأمور لدى نادر أن يطلعه ضباطه على مجريات الأمور. فهم منه بمنزلة أذنه التي يسمع بها وعينه التي يبصر بها في أرض المعركة– الأمر الذي أرسته العقوبة بوضوح وحشي. واستمر تفوق الفرس في حملاتهم التالية لأن فرق الاستطلاع التابعة لنادر كانت تحيطه علماً بالتطورات مبكراً، وهو ما مكنه من الاستجابة السريعة وأخذ زمام المبادرة. فقد كانت الاستخبارات السريعة هي العنصر الأساسي لتحقيق النصر. وليس ثمة ما يشير إلى أن نادراً احتاج إلى تكرار الدرس لضباطه.

أمر نادر بالبحث في المنطقة المحيطة للعثور على نساء الأفغان وأطفالهم الذين تشتتوا، وأرسل من وقع في الأسر من نساء محمود غلزائي وأشرف وأطفالهما تحت الحراسة إلى مشهد. وقد كان أشرف نفسه على الجانب الآخر من النهر عندما ظهر الفرس، ولاذ بالفرار مجدداً، وحينها تفكك الجيش الأفغاني المستنزف بقوة. فطارده نادر مسافة قصيرة بعد عبور النهر، لكنه قفل عائدا إلى شيراز، وأصدر الأوامر بحراسة جميع الجبهات والموانئ لمنع الأفغان الفارين من الهروب. وقد غطت الجثث الطريق إلى «لار». وقُتل بعض الغلزائيين على يد الفلاحين ورجال القبائل على طول الطريق،10 بينما انتحر بعض آخر وقتل بعضهم عائلاتهم كيلا تقع في الأسر.

اتخذ أشرف ومن نجا من الأفغان من «لار» ملاذاً لهم لفترة قصيرة، ليتدبروا أمر الكارثة التي ألمت بهم. فقد كانوا بعيدين بمسافة كبيرة عن بلادهم، ويحدق بهم الأعداء من كل جانب. وكانوا يعلمون الصعوبة والخطورة اللتين تكتنفان طريق العودة إلى قندهار عبر «بلوشستان» وصحراء «مكران» القاحلة. لم يعد أشرف يستطيع السيطرة على المجموعة المتضائلة التي كانت برفقته، فانفصل بعضهم قاصدين الساحل جهة الجنوب. ووقع كثير منهم قتلى كمائن نصبت لهم بطول الطريق، واعتلى من استطاع النجاة منهم ظهر السفن

المتجهة إلى الشاطئ الجنوبي من الخليج العربي، غير أن بعضاً من تلك السفن غرق. فلم يبلغ ساحل «عمان» منهم سوى عدد قليل، ليصيروا عبيداً لدى «عرب مسقط» ولتسند إليهم المهام الحقيرة. وقد شوهد أحد أشقاء أشرف فيما بعد يحمل المياه هناك، وانتهى أمر بعضهم إلى العمل في استخراج الطين.11

واصل أشرف بعد توقف قصير رحلته باتجاه الشرق من «لار» إلى قندهار مع عدد قليل من الأتباع. وثمة عدة روايات حول وفاته، أوثقها أن «حسيناً» حاكم قندهار وشقيق محمود غلزائي أوقع به في النهاية بعد عدة أشهر. بعدما نجح أشرف في الوصول إلى إقليم قندهار. وتجنب الدخول إلى المدينة خوفاً من انتقام حسين لخلع محمود وقتله. إلا أن «حسيناً» كان قد سمع بعودة أشرف، وأخذ يتعقبه. وحين صار قريباً منه أرسل ابنه إبراهيم على رأس سرية صغيرة عثرت في نهاية الأمر على أشرف ورجاله في إحدى القرى الصغيرة بعد حلول الظلام. فحاول أشرف الفرار على ظهر جواده، لكن إبراهيم تبعه وأدركه. وبينما كان يعدو الجوادان متجاورين، طعن أشرف بخنجره جنب إبراهيم الذي استطاع أن يطلق عليه الرصاص ويرديه قتيلاً.12

ويُذكرُ أن أشرف قد واجه العديد من الصعاب التي كانت تهدد موقعه حين وصل إلى سدة الحكم في أصفهان. وقد رأى بعض المؤرخين أن هزيمته كانت حتمية، رغم تفوقه على العثمانيين، وقتالهم إلى أن قضى عليهم، وحصل على اعترافهم بحكمه، ورغم أنه تمتع بمهارة قيادية لا تبارى. فقد كانت هزيمته لسبب لم يكن يتوقعه هو أو أي من معاصريه، ألا وهو ظهور صحوة صفوية يقودها شخص ذو عبقرية عسكرية على رأس جيش تم تدريبه وتجهيزه ليتفوق على أي خصم في المنطقة.

وبعد القضاء على آخر تهديد قد يشكله أشرف، أخذ نادر ورجاله قسطاً من الراحة في شيراز. وأرسل مبعوثاً إلى «دلهي» ليخبر إمبراطور المغول بنجاح حملاته ضد الأفغان، وما يعتزمه من إعادة قندهار إلى سلطة الفرس. وطلب من إمبراطور المغول ألا يجير أحداً من الأفغان الفارين في أراضيه،13 وهو طلب كانت له دلالة كبيرة فيما بعد، عندما اتُخذ ذريعة للحرب. كما أرسل مبعوثاً إلى البلاط العثماني مطالباً

باسترداد الأقاليم الفارسية التي احتلها العثمانيون.

عيّن نادر بتعيين حاكماً جديد على شيراز، وشرع في إصلاح الأضرار التي سببها الاحتلال الأفغاني. وأنفق نادر من ماله الخاص لبناء مسجد، وأمر الحاكم الجديد بزراعة آلاف الأشجار في حدائق المدينة الشهيرة، التي لحقها الدمار. واشتهرت شيراز أيضاً بشعرائها، وأبرزهم حافظ وسعدي. وتذكر إحدى الروايات أنه عندما كان نادر في المدينة، أمضى يوماً في الحدائق بالقرب من مقبرة حافظ، وفتح أحد مرافقي نادر ديواناً لحافظ ليستطلع له المستقبل. وكانت الأبيات في الصفحة المفتوحة من الديوان تتحدث عن الجزية والتاج وتقول:

عيناك الذابلتان أربكت شعب تركستان

والصين والهند تدفعان الجزية عن يد لشعرك الأجعد..

وعلى الرغم من الآثار الغريبة التي يمكن توقعها من الحصول على هذه النبوءة من ديوان للغزل لصالح محارب، فإن هذه الأبيات حملت بين سطورها بشارات الخير.

والمرجح أن يكون نادر التقى بتقيّ خان الشيرازي، ابن المسؤول عن إمداد المدينة بالماء، خلال إقامته. وكان تقي خان حاذقاً متقد الذكاء والمهارة في الأمور المالية. ولسببٍ أو لآخر، ربما لوجود حس فكاهي مشترك، صار الرجلان صديقين، بل إن تقي خان صار من أكثر مرافقي نادر شاه حظوة لديه. ومن المرجح أنه ساعد نادر في حل تعقيدات نظام الضرائب.

بينما كان نادر في شيراز، ذكر العودة إلى خراسان، إلا أنه لم يكن أكثر جدية هذه المرة عن المرات السابقة التي تحدث فيها احتمال عودته. فقد كان الغرض من فكرة الرجوع إلى خراسان أن يوحي لنفسه أنه يفضل عيش حياة هادئة، وأن الحملات والحروب كانت مفروضة عليه من الآخرين أو فرضتها عليه الظروف. إلا أن الحقيقة كانت خلاف ذلك تماماً. فهو لم يكن من الرجال الذين يفضلون حياة الدعة والراحة، فأسابيع قليلة من الاسترخاء في شيراز كافية جداً لتذكره بهذا النمط من الحياة، إن كان محتاجاً لما يذكره به فعلاً. فهو ما أن يقرّ في مكان ما برهة حتى يصيبه الضجر وسرعة الغضب. وحقيقة الأمر

أنه لا يشعر بذاته ولا يجد روحه إلا على سرج حصان، أو في خيام المعسكرات، حيث تهب الرياح على ساحات المعارك وهو ما لا يجده في حياة المدن. فقضى حياته في القتال والتغلب على العقبات والأعداء، وتوسيع سلطانه الشخصي.

لم يكتفِ نادر بما حققه، فبعد أن تغلب على الأفغان، كانت خطوته التالية التخلص ممن احتلوا معظم المناطق الغربية لبلاد فارس: ألا وهم العثمانيون. تقول بعض الروايات أنه أتى إليه في شيراز أناس من همدان وأذربيجان يشكون إليه معاناتهم تحت نير العثمانيين. فكان تحرير الأسرى وغيرهم من «شيعة فارس» الذين يعانون تحت حكم العثمانيين «السنة» من الأمور التي طالما تذرع بها وبرر حملاته في السنوات التي أعقبت ذلك. ومع مرور الأسابيع وغياب الرد من البلاط العثماني، عزم نادر على الخروج في حملة إلى الغرب. وليس هناك ما يشير إلى أنه ناقش هذا الأمر مع طهماسب، غير أنه من المرجح أنهما قد تراسلا في ذلك. سار نادر برجاله خارج شيراز متجهاً إلى الغرب في 8 مارس/ آذار 1730. 14

وكما فعل قبل حملته على هرات قبل ذلك بعام، أوقف نادر رجاله بطول الطريق ليشكرهم على فعالهم بالأفغان بإقامة احتفال صاخب بعيد النوروز. ولتهيئتهم ذهنياً لحملته الجديدة أمام «الأتراك العثمانيين». ويُحتفل بالنوروز (رأس العام الفارسي الجديد) في الاعتدال الربيعي من كل عام في يوم 21 مارس/آذار. وهو في الأصل عيد زاردشتي جرت العادة على الاحتفال به في بلاد الفرس في زمن الإمبراطورية الساسانية والأخمينية قبل بعثة النبي محمد بفترة كبيرة. ولا يزال ذلك اليوم هو الاحتفال السنوي الرئيس في إيران ويستمر عدة أيام. ونظراً لوقوعه في فصل الربيع، بداية موسم الحملات الجديد، ارتأى نادر أنه موعد مناسب لتجديد ميثاق الولاء والثقة مع جنوده.

أهدى نادر الملابس الفخمة إلى قواده. كما أرسل الشاه طهماسب 300 خلعة لضباط الجيش من أصفهان تقديراً لانتصارهم على أشرف، وأكد رسول الشاه سلطة نادر على خراسان وولايات الشمال الشرقي الأخرى. لكن نادراً امتنع عن ارتداء الريشة الملكية15– في لفتة نموذجية. فقد حصل على حق ارتداء حلية الرأس المصنوعة من ريش طائر البلشون،

التي تؤكد وضعه الأميري، لكنه لم يأخذها- ربما لأنه أراد أن تنتشر الشائعات بين الناس، ولخلق موجة خفية من الهواجس. وقد اعتقد بعض الناس أنه اعتزم خلع طهماسب وتنصيب نفسه شاهاً. 16 وربما ساورهم الشك حول رفضه ارتداء الريشة الملكية- لعل رفضه بدافع التواضع المحمود، حيث شعر أنه لا يستحقها؟ أو ربما لم يحن الوقت المناسب بعد. وساعدت تلك الهواجس التي دارت حول نادر والريشة الملكية على انتشار الشك في مستقبل طهماسب شاهاً.

لم ترسل الحكومة العثمانية رداً رسمياً على المطالب الفارسية بإعادة الأراضي التي احتلتها الجيوش التركية. وقد تفاوض مبعوثٌ فارسيٌ في إسطنبول مع الوزير التركي غير المؤيد للحرب «داماد إبراهيم» باشا على انسحاب القوات العثمانية. وكادت هذه المفاوضات أن تحرز بعض التقدم لولا أن نادر استبقها، وواصل مسيره نحو الشمال الغربي. وكان بُعد المسافات وصعوبة السفر في تلك الأيام يعني تفوق الأحداث في أغلب الأحوال على الدبلوماسية. وفي دزفول، التقى نادر في الطريق بالمبعوث الذي أرسله أشرف إلى إسطنبول محمد خان بالوتش، الذي سلّم نادراً ما كان بحوزته من رسائل أشرف الموجهة إلى السلطان العثماني، فعينه حاكماً على أحد الأقاليم مكافأة له على ذلك (وهو قرار سيندم عليه نادر لاحقاً).17

ولأن نادر لم يطق صبراً عن لقاء العدو، فقد سار إلى بروجرد، ثم اتجه ليلاً إلى «نهاوند»، ليفاجئ قائد العثمانيين هناك. ونظراً لثقة العثمانيين النابعة من انتصارهم في معركتهم السابقة على الفرس، تقدم العثمانيون للقتال. لكن رجال نادر من الفرس كانوا قوات من نوع مختلف عما كان في المعارك السابقة. فانهزم العثمانيون بعد قتال قصير ولاذوا بالفرار إلى همدان. بعد أن استولى الفرس على «نهاوند»، قامت طليعة جيش نادر بتحذيره من اقتراب جيش عثماني قوامه 30 ألفاً. تواجه الجيشان في سهل ملاير، يفصل بينهما نهر صغير. ونظراً لمواجهة نادر جيشاً تحمل مشاته الأسلحة النارية، ويضاهي جيشه في التنظيم على نحو يفوق الأفغان الذين قاتلهم من قبل، فقد عمل نادر على نشر قواته في تكوين حر يتألف من ثلاث تشكيلات وأبقى القلب تحت قيادته المباشرة في الخلف بمثابة

احتياطي. اقترب العثمانيون من الفرس ليصبحوا في مرمى البنادق، وتبادلوا إطلاق النار بعض الوقت عبر النهر. وحينها حل نادر هذا المأزق بأن أمر الميمنة بعبور النهر ومهاجمة ميسرة العثمانيين. وبعد قتال طويل، قُتل حامل لواء العثمانيين وسقطت الراية مما جعل قوات الأتراك التي أصابها الرعب تنسحب من الميدان. وحاولوا الفرار إلى الجبال، لكن فرسان نادر طاردوهم وأوقعوا فيهم مقتلة عظيمة وأسروا ضباطاً رفيعي المستوى وجمعوا غنائم كثيرة. تقول إحدى الروايات إن قوات العثمانيين التي أصيبوا بصدمة من جراء الهزيمة المفاجئة على أيدي الفرس كان يدعون بعضهم بعضاً أثناء الفرار قائلين «ماذا علينا أن نفعل؟» و«اهربوا! اهربوا!»18

أنهت هذه المعركة سيطرة العثمانيين على ذلك الجزء من غرب فارس، فقد فر الحاكم العثماني من مدينة همدان وانسحب إلى بغداد. واستطاع نادر أن يتجه إلى همدان دون أن يوقفه شيء. وقام بتحرير 10 آلاف أسير فارسي، واستولى على كميات من أسلحة المدفعية والمؤن التي تركها الأتراك على عجل.19 وبعد ذلك بفترة قصيرة، وبعد مزيد من القتال، توجهت قوات نادر إلى كرمانشاه وقامت بتأمين الإقليم بأكمله. وأمر نادر ببناء حصون جديدة في كرمانشاه لحمايتها من أي غزو عثماني في المستقبل. ثم أراح جنوده مدة شهر في همدان لينفد صبره ويشرع في إتمام مهمته، فيتجه شمالاً في 17 يوليو/تموز 1730 ليخرج العثمانيين من أذربيجان ويعيد فتح تبريز.

ومع شعور العثمانيين بالإهانة لهجوم نادر على قواتهم المحتلة، أعلنت الحكومة العثمانية في إسطنبول الحرب رسمياً وقامت باحتجاز السفير الفارسي (كما جرت العادة)– لكنها مع ذلك واصلت الضغط على طهماسب عبر مبعوث خاص إلى أصفهان وعبر حاكم بغداد التابع لهم لتحقيق السلام. وتابع السلطان أحمد ووزيره «داماد إبراهيم» أملهما في عقد اتفاقية مع الفرس تتيح لهما الاحتفاظ بجورجيا وشيروان ويريفان، لكنهما كانا يخشيان الاضطرابات في إسطنبول، فقد تزايد الغضب الشعبي جراء انتشار شائعات الهزيمة في الشرق.

قام نادر غير مكترث بالمباحثات التي تجري بمعزل عنه والتي فقدت مضمونها مع

تحركاته باتجاه الشرق عبر «سنندا ج»، والتقى نادر بجيش عثمانيّ آخر في مياندوآب، جنوب بحيرة أورميا. ومع اقتراب الفرس، نظم الأتراك صفوفهم للمعركة، إلا أن انتصارات نادر السابقة كانت قد زعزعت من ثقتهم. وعندما تقدم الفرس إلى الأمام، غطى غبار حوافر خيولهم وجوه العثمانيين وأعمى أبصارهم، فلاذوا بالفرار قبيل ملاقاتهم الفرس.

واصل نادر تقدمه شمالاً بينما كان التمرد مستشرياً في صفوف العثمانيين الذين عازتهم الروح المعنوية، وبعد مزيد من الصدامات البسيطة، ألحق رجال نادر الهزيمة بمصطفى باشا الحاكم العثماني لتبريز على مقربة من سهيلان. وعقب كل معركة من هذه المعارك يقتل الفرس أعداداً كبيرة من العثمانيين، ويستولون على كثير من المدافع والغنائم والأسرى. وبعد واقعة سهيلان، سقط عديد من نساء العثمانيين في أيدي الفرس- وكن «حسناوات كحوريات الجنة». ووفقاً لما هو متبع في أغلب الأحوال تجاه النساء، أمر نادر بإرسالهم في حامية إلى بلاده مشدداً أوامره بعدم التعرض لهن. 20

دخل الفرس تبريز يوم 12 أغسطس/آب، وبعد ذلك بفترة قصيرة هزموا قوة عثمانية أخرى أُرسلت لتعزيز المدينة. وعامل نادر أسرى الأتراك معاملة طيبة، وأطلق سراح عدد من كبار الباشوات وأرسل عروض سلام مع أحدهم إلى «داماد إبراهيم» في إسطنبول. وفي غضون عام، من الحملات السريعة الجريئة، ألحق نادر هزيمة شاملة بالأفغان والعثمانيين، واستعاد معظم المدن الفارسية.

عبر الوزير العثماني «داماد إبراهيم» باحتفال كبير ودعاية صاخبة مضيق «البوسفور» يصاحبه الجيش قبل عشرة أيام من استيلاء نادر على تبريز، وكان ذلك بغرض الخروج لإخضاع الفرس. غير أنه لم يتقدم لملاقاة نادر أكثر من عبوره إلى الجانب الآسيوي من «البوسفور» وتوقف هناك بجيشه، مخافة التعرض لتقلبات المعركة، وأملاً في التفاوض على إحلال السلام. في تلك الأثناء اتجهت القوات المتمردة والفارين من تبريز والأماكن الأخرى إلى الغرب، لتزيد من حدة مزيج من مشاعر الضيق والإحباط والغضب في إسطنبول.

في 28 سبتمبر/أيلول، اندلعت ثورة في منطقة السوق بالعاصمة العثمانية. بعدما

تراكمت الاضطرابات فترة من الزمن. وبعد أن ساد جوٌ من عدم الرضا عن ارتفاع الضرائب المفروضة لسداد تكلفة الحرب مع الفرس. لاسيما مع تفشى وبائي «الطاعون» و«الكوليرا» في المدينة المزدحمة، فضلاً عن الحرائق المتعمدة. وكان عدد كبير من أهل إسطنبول يشعرون بالاستياء منذ أمدٍ بعيدٍ تجاه ما يعتقدون أنه سياسة غربية تنتهجها الحكومة: خاصة المعاهدة التي أبرمت مع «روسيا» عام 1724م والحرب ضد الأفغان في السنة التي أعقبتها. وكان الشعب ينظر إلى السلطان وكبار الوزراء بوصفهم أناساً مرفهين تعوزهم الكفاءة، يتمتعون بحدائق التوليب ومظاهر الترفيه الأخرى بينما يعاني فقراء المسلمين الجوع وتضيع منهم الأقاليم واحداً تلو آخر. ولم يكن «داماد إبراهيم» يحظى بالاحترام الذي يحظى به عديد من رجال البلاط العثماني البارزين. وقد أثار حنق عدد منهم بإلقاء عملات ذهبية أسفل فساتين زوجاتهم في حفلات الاستقبال العامة، وهي حيلة أتقنها تماماً لإيقاع ضحاياه وأزواجهم في شرك القلق.21

وكان قرار بعض العلماء العثمانيين دعم الثوار هو العنصر الذي أحال ثورة 1730 في إسطنبول إلى حدث خطير. فعندما بدأت الثورة رفض عدد من العلماء دعم السلطان مما أسهم في حدوث تأخير قاتل لما كان ينبغي للحكومة أن تتخذه من إجراءات لإخماد الاضطرابات. فأخذ الثوار زمام المبادرة، وضموا إلى صفوفهم العديد من «الإنكشارية». واغتالوا «داماد إبراهيم» وعدداً كبيراً غيره، وفي تلك الفترة من التقلبات، تم عزل السلطان أحمد وتولية محمود ابن أخيه. استغرق الأمر بعض الوقت قبل أن يُثبت السلطان أقدامه بما يكفي لطرد المتمردين خارج عاصمته ويحكم سيطرته على الحكومة. وفي أوائل 1731، مع هدوء الأوضاع في إسطنبول، قام السلطان بتعيين رئيس وزراء جديد هو توبال عثمان باشا.

لم يستطع نادر الاستفادة من تلك الفوضى في صفوف العثمانيين. لكنه عقد العزم على متابعة نجاحه في تبريز بحملة أبعد باتجاه الشمال إلى «يريفان». إلا أنه لم تكد تمض خمسة أيام على وجوده في تبريز حتى وصلته أخبار ثورة العبدليين في هرات وإلحاقهم الهزيمة بقوة فارسية خارج مشهد.22

كان حسينُ سلطان حاكم قندهار هو القائد الأفغاني الوحيد الذي لم يخضعه نادر بعد. وكان المعاصرون يرون أن «حسين سلطان» قد شجع ثورة العبدليين خشية هجوم نادر بجيشه المنتصر عليه آجلاً أم عاجلاً معززاً بذلك وضعه المنعزل بشكل خطير. واستجاب العبدليون المنقسمون إلى فصائل عدة لهذا التحريض. وبقي الله يار خان الحاكم الذي عينه نادر عند نهاية حملته على هرات عام 1729 وفياً له. غير أن خصمه ذو الفقار خان بسط سيطرته على الثورة وأجبر الله يار خان على الانسحاب إلى مشهد. وبعد الاستيلاء على هرات، توجه ذو الفقار خان إلى مشهد، حيث كان إبراهيم خان شقيق نادر قائداً عليها.

كانت مشهد قاعدة قوة نادر ولم يكن ليغامر بفقدها. وخوفاً من الاضطرابات، فقد أرسل إليها تعزيزات ومؤن. وأمر شقيقه بأن يبقى داخل المدينة عند الهجوم عليها، إلا أنه عندما وصل الأفغان-وكان إبراهيم متشوقاً لتحقيق نصر عليهم وإثبات كفاءته أمام شقيقه المنتصر- وجد أن من المستحيل أن يطيع الأمر. وبعد تردد دام عدة أسابيع، قاد قواته إلى خارج المدينة في بداية أغسطس/آب تقريباً لمهاجمة العبدليين، لكنه مُني بهزيمة ساحقة كانت من الخزي بحيث جعلته يعاني اكتئاباً عميقاً أوهنه.23 وكان رضا قولي بن نادر البالغ من العمر اثني عشر عاماً هو الذي أرسل أخبار الهزيمة خارج مشهد إلى أبيه في تبريز.

رد عليه نادر في التو طالباً منه البقاء في المدينة، وبأنه في الطريق لتخليصه. وأرسل لشقيقه توبيخاً قاسياً، وأمره بالذهاب إلى أبيورد حتى لا يعدمه عند عودته إلى مشهد جراء عصيانه الأحمق. 24 وسلك نادر طريق العودة في 16 أغسطس/آب، ولم يمض وقتٌ طويلٌ حتى تلقى رسالة ثانية من رضا قولي تفيد بأن العبدليين قد انسحبوا بعد أن دمروا القرى المحيطة بمدينة مشهد. فلم يكن العبدليون يستطيعون الاستيلاء على المدينة دون مدفعية ثقيلة تدك أسوارها.

سار نادر بجيشه جهة الشرق. فقد كان الهجوم على مشهد بمثابة إهانة لمكانته التي اكتسبها لذا لم يكن ليدع الاعتداء عليها يمر دون ردٍّ رادع، وكان من الضروري أن يؤّمن خراسان بشكل دائم. وقد صار الوقت الآن متاحاً له لفعل ذلك. وصلته رسالة أخرى من الله يار خان يتوسل إليه أن يغفر لإبراهيم عصيانه وهزيمته خارج مشهد. فأجاب نادر بأنه

سيعفو عن شقيقه لما أبداه من عميق الندم، ولأن الهزيمة كانت بقدر الله. لكنه أردف قائلاً: «...يجب أن يصحح خطأه بمزيد من التصرفات الحذرة، وأن يسعى لإرضائنا بإبداء مزيد من السلوك الحكيم في المستقبل».25 ويمكن النظر إلى موقفه ذلك بوصفه مثالاً صارخاً على التباين والتناقض لدى نادر بالنظر إلى الأمثلة الأخرى التي تعامل فيها نادر بقسوة مع حالات عصيان الأوامر. لكن نادر لم يكن يحكم مرؤوسيه بالإرهاب وحده، فقد كان على استعداد للعفو عن الأخطاء العفوية خاصة لأفراد أسرته أو لأفراد دائرته الداخلية الذين أثبتوا فيما مضى ولاءهم له مرة تلو أخرى.

وصل نادر أخيراً إلى مشهد في 11 نوفمبر/تشرين الثاني، وأمر بإطلاق المدافع ترحيباً بمجيئه. وعندما حل بالمدينة لم يكن متعجلاً. فقد مكث ثلاثة أيام حتى أمر باستعراض بعض القبائل التي أعاد توطينها في خراسان لتمر أمامه. وكانت تضم ما بين 50 و60 ألفاً من الأكراد والأفشار وغيرهم ممن أمرهم بالتوجه شرقاً بعد آخر حملاته في إقليم همدان وأذربيجان. واختار من بينهم أقوى الشباب وأكثرهم لياقة، وأمر بتدريبهم على القتال.

ومع مرور الوقت، أصبحت سياسة إعادة التوطين طابعاً لحكم نادر. وساعد تركيز رجال القبائل المولعين بالحرب في خراسان على تحقيق عدة أغراض. فقد أدى ذلك إلى تقسيم القبائل وإضعافها في باقي مناطق فارس، والتي كان من شأنها إحداث اضطرابات خطيرة لولا إعادة توطينها. كما ساعدت إعادة التوطين على جعل خراسان– التي هي قاعدة قوة نادر الأساسية– أكثر أماناً ضد تهديدات «التركمان» وغاراتهم. وثورات الأكراد وهجمات الأفغان. ولم يكن اختيار شباب من المستوطنين ضمن حرس نادر الشخصي بمثابة مجرد احتياطي على أعلى مستويات الفخامة والانضباط من الفرسان، بل إنهم صاروا بوجودهم إلى جواره بمثابة رهائن يجبرون أقاربهم في خراسان وغيرها على التصرف بحكمة. فقد كان من الصعب إحكام قبضة الحكم على القبائل، لاسيما وقد ساعدت فوضى السنوات الماضية على إذكاء الرغبة في الإغارة واستلاب الغنائم لدى هذه القبائل لتوسيع استقلالها واختبار السلطة المحلية. وعادة ما يكون الشباب هم أكثر عناصر القبائل تمرداً. لذا فقد كان توطينهم وتجنيدهم في بعض أسمى الوحدات مكانة في جيش

نادر- الذي ينفق عليه الكثير- سبباً جعل شباب القبائل وذويهم يبدون اهتماماً بدولة نادر ونجاحه. كما ساعدت تلك السياسة في تقوية العنصر غير الفارسي وغير الشيعي في الجيش، وامتاز هذا العنصر بكونه يدين بالولاء لنادر وحده على عكس بقية العناصر التي قد تدين لغيره من الصفويين.

ورغم ذلك، فقد سببت سياسة إعادة التوطين التي اتبعها نادر استياءً عظيماً في أوساط القبائل وأسهمت في نوبات التمرد المستمرة التي عصفت بالفترة الأخيرة من حكمه. فقد سبب التهجير القسري لأعداد كبيرة من البشر معاناةً كبيرةً، كما تسبب في موت العديد من فقراء الناس في أثناء الرحلة. وتختلف الانطباعات في الروايات حول رؤية نادر لمن أعيد توطينهم. فقد أعطى نادر ثورين لكل أسرة من 300 أسرة أرمنية كان قد أرسلها إلى خراسان عام 1736 لمساعدتهم في حمل الأمتعة خلال الرحلة، وذلك قد يكون دليلاً على امتياز خاص لهم، لكن إعادة توطين الأرمن لم تُكلل بالنجاح على أية حال.26 وكانت إعادة التوطين في بعض الأحيان بمثابة عقوبة، كما حدث عند إرسال 6 آلاف جورجي ممن ساعدوا العثمانيين من تفليس إلى خراسان عام 1735. وفي أوقات أخرى لم يعدُ الأمر أن يكون سياسياً، كما كانت الحال مع أفشار أورميا.

ويُعد ما قامت به قبيلة بختيار العظيمة الشأن مثالاً على الاستياء الناتج عن إعادة التوطين. فبعد أن استولى نادر على همدان في عام 1730، أمر حاكمه المحلي في بلاد البختياريين بإعادة توطين 200 أسرة في المناطق المحيطة بأصفهان، في محاولة لتعويض انخفاض عدد السكان نتيجة للحصار والاحتلال الأفغاني على الأرجح. لكن مع ابتعاد جيش نادر مسافة كبيرة وعدم قدرته على ممارسة ضغط مباشر، رفضت قبيلة بختيار الانتقال. وعندما سمع برفضهم الانصياع لأوامره، نزع سلاح جميع «البختياريين» في جيشه، ووضع زعماءهم في الأغلال. ثم أمر حاكمه المحلي بمعاقبة رجال القبائل المتمردين، مع إرسال 400 أسرة إلى أصفهان بدلاً من 200. 27 لكن ذلك لم يكن نهاية المشاكل التي وقعت بين نادر والبختياريين.

أمضى نادر شتاء 1731/1730 في مشهد، يُعد حملة لإخماد ثورة العبدليين والاستيلاء

على هرات. وأرسل الله يار خان إلى إقليم هرات ليحشد الناس ضد فصيل ذو الفقار. وكان هناك متسع من الوقت سمح بعمل أخف وطأة. ولا بد أن نادر يشعر بالفخر إزاء الرد السريع والذكي من ابنه رضا قولي ميرزا حيال هزيمة إبراهيم. فقد كان ذلك أولى علامات الموهبة المبكرة التي تجعل نادر يكرّس نفسه لصالح ابنه الأكبر. في يناير/كانون الثاني 1731 تزوج رضا قولي أخت الشاه طهماسب، «فاطمة سلطان بيجوم». وأقيمت الاحتفالات الكبيرة في حدائق «جهار باغ» خارج مشهد، واستمرت أسبوعاً وانتهت باقتران فلكي لنجوم السماء يبعث على البشرى. وتبع ذلك رحلة صيد كبيرة في المناطق المحيطة بمدينة كالات وأبيورد– موطن نادر القديم. وربما كجزءٍ من إعادة التأهيل فيما تحتفل العائلة، أرسل نادر شقيقه إبراهيم في حملة تأديبية ضد التركمان، فنجح فيها واستعاد نصيباً من ثقته السابقة.28 وبعد عدة أسابيع تم الاحتفال بأعياد النوروز بقدر كبير من الاستمتاع والبهجة، حيث ذابت ثلوج الجبال، وتفتحت زهور الربيع وحل مجدداً موسم حرارة الجو وسفك الدماء. وفي غضون أيامٍ قليلةٍ من انقلاب الشمس في فصل الربيع، خرج نادر بجيشه من مشهد متوجهاً إلى هرات.

خلال تلك الفترة كان حسين حاكم قندهار يتفاوض مع كل من نادر وذو الفقار. واتفق مع نادر على تبادل أميرتين صفويتين مقابل أرملة محمد غلزائي وأطفاله. ومع ذو الفقار تظاهر بعدم الاهتمام (برغم تشجيعه الثورة في بداية هذا العام)، لكنه في النهاية أرسل عدة آلاف من الغلزائيين تحت إمرة «محمد سيدال خان» لدعم هرات.

وصل نادر إلى نُقرة، على بعد أميال قليلة غرب هرات، وكان ذلك في بداية أبريل/ نيسان 1731. انتشر جند الفرس في الأرياف المحيطة بهرات حيث قاموا بالسلب والاستيلاء على الحصون والقلاع الصغيرة. وبعد ثلاثة أيام فقط من وصول الفرس، حاول محمد سيدال خان وعدة آلاف من الرجال مباغتة الفرس بهجوم ليلي. وفي غمرة الارتباك، ترك الفرس نادر نفسه في قلعة صغيرة مع ثمانية حراس مسلحين فقط، وأحاطت بهم قوة أكبر من الأفغان. فحارب نادر ومن معه دفاعاً عن حياتهم في الظلام، وقتلوا عدداً كبيراً من الأعداء، حتى وصلت سرية من مشاة الفرس لإنقاذهم.29

وكانت لهرات أهمية رمزية فضلاً عن أهميتها الإستراتيجية. فهي واحدة من أعظم مدن آسيا، وكانت تحيط بها كثير من الحصون المنيعة منذ عهد شاهرخ، ابن تيمور، الذي اتخذها عاصمة لإمبراطوريته. في 4 مايو/أيار تحرك نادر ليطوق المدينة من كافة جوانبها. وترك حامية قوامها 10 آلاف جندي متحصنين في نُقره، وصد هجمة عنيفة من المحاصَرين في تلك الأثناء، ثم أخذ باقي الجيش وعبر نهر «هاري رود» فوق جسر جنوب هرات. وهناك أقام معسكراً واتخذ من المكان مقراً رئيسًا له. وأقام لنفسه داراً للهو في مكان غير بعيد- «بحيث يمكنه الاسترخاء من الإنهاك المتواصل الذي يلم بروحه العظيمة». لكنه كاد أن يلقى حتفه وهو في حالة الاسترخاء هذه عندما نجح الأفغان في إرسال قذيفة مدفعية ثقيلة فوق تلك الدار من مسافة بعيدة. وقد مزقت القذيفة سقف الدار وسقطت بالقرب من مضجعه وتدحرجت عدة مرات قبل أن تستقر. واعتبر مرافقو نادر هذه النتيجة السعيدة علامةً أخرى على عناية إلهية خاصة.30

وفي الوقت الذي كان نادر يحرز تقدماً بطيئاً اقتضته الضرورة في وقت الحصار، أتم تحصين المدينة بإنشاء معسكر منيع آخر جهة الشرق. وفي 22 يوليو/تموز قاد ذو الفقار قوة أخرى لمهاجمة القوات المحاصِرة، عبر نهر «هاري رود»، غير أن نادر كان بمقدوره تقييم خطورة الهجوم من على قمة أحد التلال، فأرسل قوة لتطوقهم وقاد بنفسه قوة من الفرسان لمواجهتهم من الأمام. وهو ما أوقع الفوضى في صفوف قوات ذو الفقار المهاجمة، فلاذوا بالفرار وقُتل عددٌ كبيرٌ منهم. في ذلك الوقت لقي عديدٌ من الغلزائيين التابعين لمحمد سيدال خان مصرعهم، وكانت هذه الهزيمة بمثابة القشة التي قصمت ظهر البعير بالنسبة له. فغادر المدينة، مضعفاً برحيله العبدليين، وجعلهم يرسلون إلى نادر طلباً للاستسلام.

استمر مع ذلك الخلاف فيما بينهم، لكنهم استسلموا في نهاية الأمر كما كان ينبغي وتركوا المدينة ليصيروا تحت رحمة قانون نادر طالبين منه أن يعيِّنَ الله يار خان حاكماً عليهم. فوافق نادر، وتولى الله يار خان حكم المدينة وتم نفي ذو الفقار إلى فرح مع شقيقه. وقد أبدى نادر قدراً من ضبط النفس بعدم احتلاله هرات بنفسه، إلا أنه لم تكد تمر أيام

قلائل حتى اشتعلت حماسة العبدليين مرة أخرى نتيجة لانتشار شائعة بقدوم 40 ألف رجل لمساعدتهم في فرح. حاول الله يار خان تهدئة الأوضاع، إلا أن نادراً فقد صبره واقتاد عدداً من زعماء العبدليين تحت الحراسة إلى معسكره، وهو ما زاد حدة الحنق لدى بعض العبدليين. وفي بداية سبتمبر/أيلول ثار الله يار خان نفسه، وشن غاراتٍ وهجماتٍ على قوات نادر. فكثف نادر الحصار، وشدد الحظر وأمر بإعدام من يقع في الأسر من الأفغان. وصمم بشدة على أن تنتصر إرادته في هذا الصراع الدائر بين إرادته وعزيمة العبدليين التي لا تقهر.

ورغم الانشقاقات والتغير في النوايا، استسلم العبدليون بقيادة الله يار خان في نهاية الأمر يوم 27 فبراير/شباط 1732، وأطلق الفرس صيحات الفرح التي عم صداها جميع التلال المحيطة بهرات. واحتل إبراهيم شقيق نادر فرح، مكملاً بذلك إعادة تأهيل نفسه بما يخدم نادر. أما ذو الفقار وشقيقه فقد فرا إلى قندهار للاحتماء بحسين، لكن حسيناً زج بهما في السجن. وفي هذه المرة لم يخاطر نادر بشأن هرات. فقد انطلقت مجموعات من جنوده لحراسة البوابات والقلاع، ونفذت عملية إجلاء إجباري، وتم إرسال الله يار خان إلى المنفى دون ارتكاب مذابح أو نهبٍ، وكان تساهل نادر محل دهشة معاصريه بوجه عام.31 وقد عيّن نادر بير محمد خان حاكماً لهرات، وهو رجل حظي بثقة نادر عبر إنجاز ما عهد إليه من مهام صعبة منذ 1726، عندما حوّل محمد ولاءه إلى نادر بدلاً من مالك محمود السيستاني. وتم إرسال 60 ألف آخرين من العبدليين إلى أجزاء عديدة من خراسان32 إلى جانب من سبق أن أُعيد توطينهم بعد حملة 1729. وكانت خصالهم القتالية إضافةً مهمةً لقوة نادر العسكرية، وتعزيزاً جديداً للعنصر غير الفارسي في الجيش. وكان نادر في طريقه إلى إبراهيم عندما وصلته أخبار مقلقة من الجانب الآخر للبلاد.

أعطى رحيل نادر إلى خراسان في صيف 1730 فرصة لا تعوض للشاه طهماسب. ففي غياب قائده الأعلى المتغطرس، استطاع طهماسب أن يعزز مكانته الشخصية ويؤكد أحقيته بالعرش بقدراته الشخصية. ورغم أن بعض رجال البلاط قد دعوه لتأكيد ذلك بحملة جديدة يشنها على العثمانيين في الشمال الغربي، لاستعادة «يريفان» وجورجيا

كما كان يخطط نادر، إلا أن طهماسب أمضى خمسة أشهر في الشراب والملذات في أصفهان دون إبداء أدنى بوادر العجلة.33

كانت الدولة العثمانية في تلك الأثناء قد أخذت تتعافى من فترة الفوضى التي أعقبت ثورة سبتمبر/أيلول 1730 وخلع السلطان أحمد. فعندما غادر طهماسب أصفهان أخيراً متوجهاً إلى تبريز في يناير/كانون الثاني 1731 كان السلطان العثماني الجديد محمود مستعداً له. وفي تبريز قام طهماسب باستبدال الحاكم الذي عينه نادر بأحد مؤيديه، وتحرك جهة الشمال الغربي بجيش قوامه 18 ألفاً. وعندما اقتربوا من «يريفان»، التقوا بقوة من الأتراك العثمانيين وألحقوا بها الهزيمة بعد اشتباك قصير.34 انسحب العثمانيون إلى «يريفان»، بينما استقر جنود الشاه طهماسب لحصار المدينة.

لكن هذا النجاح المبكر لم يدم طويلاً. فقد تقدم طهماسب دون أن يفكر في الخطر الذي تمثله قوات الأعداء على أجنحة جيشه. استطاعت قوات عثمانية أخرى توجد إلى الجنوب من «يريفان» أن تقطع تدفق الإمدادات عن جيش طهماسب، وبعد ثمانية عشر يوماً اضطر إلى الانسحاب مجدداً إلى تبريز. وفي أثناء وجوده بها، سمع أن الحاكم العثماني لبغداد أحمد باشا أغار على أقاليم فارسية، متوجهاً إلى كرمانشاه وهمدان. فأسرع طهماسب زاحفاً جهة الجنوب لصد التهديد الجديد، تاركاً تبريز عرضة لخطر القوات العثمانية التي استعادت شجاعتها وتقدمت مرة أخرى قادمة من يريفان.

عندما وصل طهماسب إلى همدان، كان أحمد باشا قد احتل كرمانشاه. وتوقف طهماسب في كوريجان، التي تقع في شمال شرقي همدان، فتقدم الجيش العثماني لملاقاته. وأرسل أحمد باشا رسله عارضين إحلال السلام، فأجابهم طهماسب لما يريدون، إلا أنه في تلك الأثناء كان الجيشان قد اقتربا وصارا في مرمى المدفعية. وكان الفرس منظمين في ثلاثة تشكيلات: الفرسان على الأجنحة، والمشاة المسلحون بالبنادق في القلب. وكان معظم حاملي البنادق في جيش الفرس من حديثي التجنيد (فقد كان المخضرمون برفقة نادر في الشرق)، بينما كان مشاة العثمانيين من فرقة «الإنكشارية» جيدة التدريب. وهم الذين جاء أسلافهم في القرون السابقة من الأقاليم الأوروبية المسيحية التابعة للسلطان

عندما كانوا صغاراً وتمت تنشئتهم بوصفهم جنوداً، لذا فهم أبناء وأحفاد القوات الأصلية ذات الأصول البلقانية. وكان تدريب تلك القوات وانضباطها لا يضاهي نظيره لدى فرقة «الإنكشارية» بالجيش العثماني الأساسي الموجود في إسطنبول، إلا أنها مع ذلك قوات جيدة مقارنة بمجندي طهماسب.

وخوفاً من مباغتة العثمانيين له بهجوم مفاجئ رغم مفاوضات السلام، أمر طهماسب مدفعيته بإطلاق القذائف، وسرعان ما بدأت المعركة بين الطرفين. وتفوق فرسان الجيش الفارسي على الخيل العثمانية وحملت عليهم ثلاث مرات. لكن إنكشاريي العثمانيين زحفوا ببطء متقدمين رغم مواجهتهم فرسان الجيش الفارسي وفتحوا النيران عليهم، ما جعلهم يفرون على الفور. ثم أحاطت فرقة الإنكشاريين بجنود سلاح الفرسان الفارسي. ولم يستمر الأمر طويلاً حتى كاد طهماسب نفسه أن يستسلم. لكنه نجح في الفرار، وعندها هُزم الفرس إلى غير رجعة. وتم تطويق من لم يقتل من مشاة الفرس وقيّدوا بالأغلال، وعاد معظم من تبقى من الناجين مباشرة إلى بلادهم بعد أن فقدوا روحهم المعنوية.35

وعلى نفس النحو غادر طهماسب الميدان مسرعاً برفقة عدد قليل من النبلاء والحرس. وعلى نقيض كثيرٍ من مرافقيه في حملته على العثمانيين، لم تبدُ النتائج الفورية للهزيمة ذات أهمية كبيرة بالنسبة له. فقد عاد إلى قصره في أصفهان للاحتفال كما لو أن كارثةً لم تحل به.36

الفصل الخامس

الانقلاب

تيمور

لماذا التشبث بالتمني في نيل مُرام

يزخر به العالم

ولماذا نؤثر الراحة دون جهاد، ونبقى أهل ضعف وفاقة؟

لعمرك ما علينا ذلك.. فقناعتي أني

لو رُمتُ تاج فارس

سأصل إليه بسلاسة المعجزات

أولن يرضى عنا كل الجنود

إن كان مطمحنا ذلك الشرف العظيم؟

مارلو

لم تكد تمر بضعة أسابيع على هزيمة طهماسب النكراء في معركة كوريجان، حتى احتل العثمانيون مدينتي همدان وتبريز وكذا جميع الأقاليم الأخرى التي كان الفرس قد استولوا عليها منهم في عام 1730، ليقضوا بذلك على كل ما حققه نادر من انتصارات في جهة الغرب. وحرصاً من العثمانيين على إرساء قواعد هذا التوازن المتأرجح بعد الحرب خاصة في هذه المرحلة المواتية، ألح مبعوثو الدولة العثمانية على إبرام اتفاق سلام وأبدوا استعدادهم للجلاء عن كرمانشاه وهمدان وتبريز مقابل تأكيد هيمنتهم على جورجيا وأرمينيا والأقاليم الأخرى الواقعة إلى الشمال من نهر أراكس. وفي شهر يناير/كانون الثاني 1732، وافق طهماسب على إبرام معاهدة سلام مع العثمانيين تسير بنودها على النحو السابق. وهي المعاهدة المماثلة لتلك التي أبرمها طهماسب مع الأتراك العثمانيين

التي وصلت إلى نادر وهو في طريقه من هرات إلى فرح. ربما كان يعتزم مواصلة انتصاره في هرات عبر الزحف صوب قندهار، إلا أن تلك المخططات قُدِّر لها ألا تتحقق. ولو أن نادراً أدرك قبل ذلك أنه سيمنح بغيابه طهماسب حبلاً كافياً ليلحق بنفسه بالغ الأذى ثم يشنق به نفسه، فلم يكن ليجول بمخيلته مطلقاً أن طهماسب سيتسبب في كل هذه الفوضى. فقد أفسد طهماسب فرصته حقّاً، والآن جاء دور نادر!

عاد نادر إلى هرات وأرسل من هناك رسالتين لاذعتين إلى العثمانيين، الأولى موجهة إلى السلطان محمود يخيره بين أمرين إما أن يُعيد كافة أقاليم أذربيجان وإما الحرب. ووجه الرسالة الثانية إلى أحمد باشا في بغداد يخبره فيها أن يتأهب لزيارته.1 وأوفد نادر رفيقاً يثق به إلى حاشية طهماسب كي يوبّخ وزراء الشاه على ما ارتكبوه من أخطاء، وأصدر بياناً رسميّاً يشجب فيه المعاهدة المبرمة ويصفها بالخبيثة.

وذكر نادر في البيان أنه بفضل الله عز وجل تمكّن من تحقيق انتصارات عدة على الأفغان، لكنه تلقى بعد ذلك وعداً بإبرام معاهدة مع العثمانيين يتنازل بموجبها عن الأراضي الواقعة إلى الشمال من نهر أراكس. وتجدر الإشارة إلى أن تلك المعاهدة كانت عديمة الجدوى كونها لم تتطرق على الإطلاق إلى مسألة في غاية الأهمية، ألا وهي مسألة الأسرى الفارسيين[1] في قبضة العثمانيين. وذكر البيان أن نادر بصفته قائدا للجند يستحضر دوما المقولة المأثورة التي تقول: «على الرعاة الاهتمام برعاياهم والقيام على حماية مصالحهم، وعلى الإمبراطورية التخلص من بؤر الفساد كافة»، ولأن بنود المعاهدة الخاصة بالحدود الجديدة تخالف إرادة الله عز وجل فقد رفضها نادر. علاوة على ذلك لما كانت الملائكة تتمنى تحرير السجناء المسلمين، فقد عقد نادر العزم على مغادرة مدينة مشهد مع نهاية مارس/آذار والزحف بجيشه من الأسود البواسل، أما من يعارضه فسيحرم النبل والشرف والسعادة وستحل به لعنة السماء، فيصبح خارجاً عن الدين الحنيف ويُحشر في زمرة المتمردين.2

كتب نادر إلى حاكم فارس وربما إلى غيره من الحكام- الشروط نفسها إلا أن كتابه

(1) مثل استعباد المدنيين الفارسيين على يد العثمانيين في العقد السابق وأسر الجنود في كوريجان ومدن أخرى.

الموجه لعموم الشيعة كان أكثر صراحة، فعلى غرار البيان السابق أراد نادر لهذا الكتاب أن يُقرأ على نطاق واسع وأن تتناقله العامة. استغل نادر الدين ومسألة الأسرى الفارسيين للتشكيك في وزراء طهماسب وحشد الدعم لتجديد القتال ضد العثمانيين، وهي سياسة لولا ذلك ربما لم تكن شائعة على نحو خاص. فبالنظر لحالة الإنهاك التي عاشتها البلاد بعد سنوات قضتها في الحرب وعمليات السلب على يد الأفغان فضلاً عن الاحتلال العثماني لمعظم الأقاليم الواقعة في الغرب والشمال الغربي- رحّب الكثير بالمعاهدة واعتبروها غير جائرة، لكنَّ إعادة مدينة تبريز للفارسيين وفق ما هو منصوص عليه في المعاهدة كان- في واقع الأمر- محل انتقاد واسع في إسطنبول حيث اعتبروها معاهدة سخية أكثر من اللازم. وبالنسبة لنادر فقد استنفد وقته كاملاً ونشر ما يرغب من دعاية ومعلومات ثم أبدى رأيه بعد ذلك وبدأ في التحرك بحذر، حيث كانت هذه هي اللحظة المواتية له للاستيلاء على السلطة ومن ثم كان عليه تحقيق غايته بكل دقة وإتقان.

ومثلما كانت تلك اللحظة محورية في تاريخ نادر المهني، فقد كانت محورية وكاشفة أيضاً في تاريخ إيران. فثمة رجل من مكان مجهول لا يملك «سوى سيف معقوف على شكل هلال» 4 يتحدى به سلطة الأسرة المالكة التي حكمت البلاد أكثر من قرنين من خلال سلطة لا تثار حولها الشكوك. ولم يكن تحديه من خلال القوة الغاشمة أو الاغتيال فقط، فالقوة كانت موجودة بالفعل لكنه سعى لحشد ما يمكن أن يُطلق عليه «الطبقة السياسية» في عدا الملكية المركزية المطلقة[1]. ولم يُسمَع قط أن على شعب فارس دعمُ ومساندة رجل ضد إرادة الحاكم المورث، بل الأدهى أنه لم يحدث أن طلب منهم القيام بذلك قط. لكن الفشل كان السبب الوحيد في ضعف وهوان السلطة الموروثة. أما الرجل الجديد فيعلم أن الأفضل عدم تحدي الحكم الصفوي، لكنهم ما إن قرؤوا الرسالتين أو سمعوا بالبيان الصادر عن نادر حتى أدرك الجميع على مضض أو بحماسة- طبيعة ما جرى. فقد كانت اللغة المستخدمة ذات طابع ثوري: «مثل هذه القبيلة الشيعية التي ارتدت عن هذه المناسبة العظيمة بعد تصالحها على ذلك السلام المخزي، فبات من الضرورة طردها من بين المؤمنين

(1) السلام... لا يلقى استحسان النبلاء ولا عموم الإمبراطورية Malcolm, Two Letters, p. 539.

واعتبارها من الأعداء. وقد أصبح ذبحها ذا وجاهة وغدا السماح بوجودها إثماً كبيراً.5 كانت لحظة معاصرة تدحض زعم أولئك الذين ينكرون وجود أي شيء سوى الولاءات على الصعيدين المحلي والأسرة الحاكمة في تلك الفترة. وتكمن الأهمية في تصريحات نادر وتبعاتها على مستقبل طهماسب في أنها كانت محل نقاش حاد خارج المساجد وفي أسواق مدن بلاد فارس وكذلك في السر عندما يجتمع الكبراء والحكام والبيروقراطيون والنبلاء بعضهم مع بعض. وكان ذلك هو ما يريده نادر بالضبط.

وبعد شهرين زار عدد من رجال حاشية طهماسب نادر ليحثوه على العدول عن معارضته للمعاهدة، ومن بينهم حسن علي خان الذي كان قد التقى نادر لأول مرة في مدينة خراسان سنة 1726 وزكي ميرزا خان وكلاهما كان من كبار المسؤولين بحاشية طهماسب، وقدر لهما أن يكونا من رفاق نادر المقربين.

لاستمالة رجال كهؤلاء إلى صفه، كان على نادر أن يدعوهم إلى حفلات الشراب المسائية التي كان يعقدها بانتظام، فقد كان معروفاً عن نادر ولعه بحفلات الشراب حتى إنها باتت جزءاً من روتينه اليومي منذ مرحلة مبكرة. ولعل في هذا ما يثير الدهشة، فبرغم التعاليم الدينية التي تنبذ شرب الخمر كما هو الحال بالضبط مع الأفغان والملالي في المدن الفارسية، كان المقاتلون الأتراك والفرس قد تعودوا شرب الخمر بشراهة منذ عهد تيمور ومن بعده[1]. لكن نادر لم يسمح قط بأن يسيطر الشراب عليه كما كان يفعل طهماسب وشاه سلطان حسين. كان يفصل عادة بين العمل والمرح، إذ الغرض من حفلات الشراب التي يقيمها نادر الاسترخاء في نهاية اليوم، ولم تكن الأعمال تناقش عادة. كانت الجلسات تقيم روابط الألفة والثقة، وإن بقيت هناك قواعد يجب مراعاتها والتقيد بها، وأشراك تنصب للحمقى.

> لم ينغمس نادر قط في أي من أنواع المتعة خلال النهار، لكنه كان دائماً يذهب عند الغروب إلى مكان خاص يحرر نفسه من هم العمل، ويتناول الأطعمة مع ثلاثة أو أربعة من أقرانه المفضلين ويشرب نحو ربع جالون من الخمر أو

(1) العبارة الفارسية التي تشير إلى ذلك هي «رزم أو بزم» (القتال والإسراف في الشراب).

ثلاثة مكاييل على الأكثر من النبيذ[1] حيث يطلق العنان لنفسه، ويتصرف بحرية في جو يسوده اللهو والمزاح. وخلال تلك المسامرة الخاصة لا يسمح لأي شخص كان- أن يتحدث عن الأعمال العامة، ولا حتى أن يفترض هؤلاء الرفقاء المقربون أن تلك العلاقة الحميمية قد تسمح لهم في الأوقات الأخرى بأن يتميزوا على نظرائهم بالتعامل بقدر أكبر من الألفة. لقد كان نادر ودوداً إلى أقصى حد مع رفقائه الذين يوفرون له أسباب السعادة والمرح خلال المسامرات والجلسات الخاصة، ويتصرفون في الوقت نفسه بأدب واحترام على الملأ دون أن يلفت انتباههم لذلك ودون أن يكون لهم أي تأثير عليه بخلاف غيرهم ممن هم بمكانتهم ومنزلتهم نفسها.6

كان الحوار يدور بحرية مطلقة خلال حفلات الشراب، وكان نادر يمنح حريات لم يسمح بها على الإطلاق في أوقات أخرى. لكنه لم يكن يقصد بذلك الحوار الإفراطُ والمبالغة في الاسترخاء والمرح بشكل أكثر من اللازم. فذات مرة تحرر أحد الرفاق من كافة الحدود وتحدث بحرية مفرطة عندما طرح نادر سؤالاً خلال إحدى حفلات الشراب قائلاً:

برأيكم أي نوع من الأطفال سيولدون لنساء قد عاشرهن عشرة جنود،
فأجاب الرجل خطئها قائلاً «أطفال مثلك يا نادر، يا أيها الوغد».7

عندئذ علا الوجومُ الوجوهَ واختفت الابتسامات. ربما ذكّرت تلك الكلمات نادراً بما تعرض له من سخرية عندما كان يعاني الفقر هو وأمه في خراسان بعد وفاة والده، وما كان منه إلا أن أمر بشنق ذلك الرجل.

فيما كان نادر يستضيف نخبة مهمة من أفراد الحاشية ويتحرى عن مدى صدق معارضتهم للمعاهدة المبرمة مع العثمانيين ويستعد لأخذ الخطوة التالية، كانت أصفهان هي المحطة التي توقفت بها عجلة المرح والترف التي استمتع بها أفراد الحاشية، فقد كانت

(1) كوكل، ممثل (EIC) الذي كتب هذه الرواية في عام 1741 وقصد أن يصف شرب نادر للخمر بالاعتدال وربما كان كذلك بالفعل مقارنة برفاق كوكل في لندن في ذلك الوقت.

هناك مؤامرة فاشلة للإطاحة بنظام طهماسب. ولم تكن هناك أي دلائل على وجود علاقة بين نادر ومؤيديه وبين تلك المؤامرة. فقد تبيَّن أن مدبر تلك المؤامرة إنما هو رجل يدعى إسماعيل ميرزا، كان قد وصل إلى أصفهان في التوقيت نفسه الذي عاد فيه طهماسب بعد هزيمته تقريباً في كوريجان. وقد ادعى إسماعيل أنه أحد إخوان طهماسب، ومن ثم فقد نجا من مذبحة محمود غلزائي ضد الأسرة الصفوية المالكة التي نفذها أحد الحراس الأوفياء. وبعد عودته إلى أصفهان بعد عدة مغامرات استجوبت حاشية طهماسب إسماعيلَ، وفي نهاية المطاف سُمِح له بمقابلة طهماسب شخصيّاً حيث اعترف بأنه شقيقه. لكنه وبعد فترة وجيزة، قام عدد من أفراد الحاشية-- ربما كانوا يأملون في إحباط ما يقوم به نادر-- بوضع مؤامرة للإطاحة به وتنصيب إسماعيل مكانه. لكنَّ طهماسب علم بأمر المؤامرة وجاء رد فعله وحشيّاً جداً. حاول إسماعيل إثبات براءته لكنه أُعدِم على أي حال أسوة بأفراد الحاشية ممن وضعوا فكرة المؤامرة، حيث قطعت رؤوسهم علناً وأحرقت جثثهم أو قدمت طعاماً للحيوانات بالحديقة الملكية. ولم يكتف طهماسب بذلك بل عمد إلى زوجات المتآمرين وقتلهن، حيث تركهن معلّقات داخل مداخن منازلهن حتى الموت.8

قضى نادر عيد النوروز في هرات، ثم توجه بعد ذلك إلى مدينة مشهد وبعث منها برسالة إلى أصفهان يطلب فيها من الشاه طهماسب مقابلته في طهران أو «قم». وأعاد مع رسالته المسؤولين الذين حملوا له نسخة من المعاهدة التي أبرمت بين العثمانيين والفارسيين، وأمرهم بشرح أسباب رفضه تلك المعاهدة مرة أخرى. كما أصدر أوامره باستبدال رجاله التابعين له بعدد من حكام الأقاليم، ليعزز من مكانته في البلاد استعداداً لمرحلة الاضطراب السياسي المقبل.

وخلال إقامته في مشهد استقبل مبعوثاً من الروس أخبره بأنهم على استعداد لإخلاء جيلان. فأرسل نادر اثنين من ضباطه إلى جيلان لمتابعة انسحاب الروس منها. وبعد ذلك ترك مشهد كما وعد في البيان الرسمي الذي أصدره سابقاً، لكنَّه استغرق بعض الوقت قبل أن يغادرها في زيارة كل من كالات وأبيورد والخروج في عدد من رحلات الصيد. وفي نهاية شهر مايو/أيار وصل نادر إلى سمنان ومعه 80 ألف فارس و40 ألفاً من المشاة.9

وبمجرد وصوله إلى طهران تفقَّد الجيش ووزَّع عليهم مكافآت سخية، وذلك على ما يبدو لإصلاح معدات القتال وتجديدها، ولكنها كانت في حقيقة الأمر نوعاً من المغريات لضمان ولاء القوات له واتباع أوامره.

لم يأت الشاه طهماسب للقاء نادر كما طلب منه وربما فكر في الهروب إلى أصفهان، بل الهروب من البلاد نهائيّاً والذهاب إلى الدولة العثمانية أو ما وراءها. إلا أن رفاقه أقنعوه- إن كان الأمر كذلك- بالعدول عن فكرة الهروب، وذهب نادر إلى طهماسب في أصفهان حيث فضل الذهاب إليه في الليل لتجنب حرارة الصيف المرتفعة ووصلها في 25 أغسطس/آب،10 فأطلق مدفع المدينة طلقاته ترحيباً بوصول نادر الذي أقام معسكراً بحدائق هازارجريب وجلب معه 32 ألف رجل لردع وإرهاب أي معارضة قد يواجهها في العاصمة.

وبعد يومين توجه نادر في زيارة إلى الشاه بحدائق سعدات آباد برفقة 3000 رجل من جنوده، لكنه لم يمكث هناك سوى 15 دقيقة وهو ما اعتبر تصرفاً غير لائق. وتذكر إحدى الروايات أنه أعطى طهماسب حزمة من الخطابات المرسلة له من عدد من الوزراء ورجال الحاشية يظهرون فيها عدمَ ولائهم له. وكان نادر قد عزل غالبية وزراء الشاه من مناصبهم، وصادر ممتلكاتهم بل سجنهم (وقد أفرج عنهم بعد أيام قليلة، حيث نفاهم خارج العاصمة). وبعد أن هيأ نادر أوضاعه وجه الدعوة إلى طهماسب للمجيء إلى حدائق هازارجريب ليرد الزيارة، ولم يكن أمام طهماسب أي خيار سوى قبول الدعوة، وبالفعل ذهب إليه هناك. وحسب إحدى الروايات استعرض طهماسب جنودَ نادر هناك وفي الوقت الذي كان يمر فيه بين صفوف الجند تعالت أصوات بعض صغار الضباط وهي تقول للشاه: «إن كان لجلالتكم أية أوامر فنحن على أتم استعداد لتنفيذها» ولحظتها اندهش نادر من هذا الشعور الموالي للصفويين بين جنوده وطلب من طهماسب أن يخبرهم بأن نادر قد تولى قيادة الجيش ومن ثم فإن الدليل على طاعتهم هو انصياعهم لأوامر قائدهم».11

وبعد أن انتهى استعراض الجند، اصطحب نادر طهماسب إلى مأدبة طعام فخمة

واحتسى الرجلان الخمر وعزفت الموسيقى لتهدئة الأجواء وتلطيفها. وعمد نادر إلى تشجيع طهماسب على شرب الخمر بشدة، ولم يكن طهماسب كارهاً لذلك. وأخبره نادر أنه قد أمر بوقف كافة الأعمال التجارية للدولة لعدة أيام حتى يتسنى لهم أن يروحوا عن أنفسهم، وبدأ طهماسب في الاسترخاء وسارت الأمور حينئذ كما هو مخطط لها بالضبط. وتسببت حالة الضعف التي كان عليها طهماسب في جعل التلاعب به أمراً سهلاً للغاية، لقد ترك نفسه في هذا التوقيت فريسة لإرادة نادر الأقوى، وبعد حالة من الابتهاج الصاخب، ونادر يرقب ما يجري والشرر يتطاير من عينيه، سقط طهماسب مغشيّاً عليه وفقد وعيه تماماً حتى إن رجال نادر سخروا من الحالة التي كان عليها. وتذكر إحدى الروايات أن واحداً من الخدم الأوفياء يدعى بيجان بيك قد حذّر طهماسب في السابق من مؤامرة قد تحاك ضده، وذهب معه حينئذ إلى حدائق هازارجريب، وظل واقفاً وراء نادر في كل مكان يذهب إليه منتظراً إشارة الشاه لقتل ذلك القائد العام الذي تجاوزت قوته الحدود. إلا أن طهماسب لم يُعِرْ تحذيراته وتوسلاته بالاً.12

ما إن سقط الشاه مغشيّاً عليه حتى أمر نادر بتقييده وحال جنوده دون أن يفعل الخدم والحرس الشخصي لطهماسب أي شيء. وكما هو مخطط مسبقاً، دعا نادر ضباط الجيش والنبلاء ورجال الحاشية والوزراء وأراهم الحالة التي عليها طهماسب. حيث تذكر إحدى الروايات أنه حمل طهماسب بنفسه إلى خارج الجناح الذي كان يرقد فيه، وألقاه خارج الحديقة وهو سكران حتى الثمالة، ورأى النبلاء المجتمعون تاج طهماسب[1] يسقط من على رأسه وقد تلطخ سرواله واتسخت رأسه وهو مستلق على العشب[2].13

(1) يُحتمل أن تاج طهماسب يشير إلى العمامة المرصعة بشعار الحكم.

(2) يقدم رستم التواريخ رواية أكثر حدة عن تلك الأحداث يذكر فيها أن النبلاء اختبؤوا خلف الستائر، وأخذوا يتلصصون على ما يجري من وراء الثقوب، وشاهدوا طهماسب وهو سكران ومتجردًا من ملابسه وهو يأمر «غلمانه الصغار» أن يتجردوا من ملابسهم أيضًا وأن يسيروا على أربع مثل الحيوانات. وكان هناك أحد رجال حاشيته ممن يقومون بتلطيخ مؤخراتهم بلعاب من كأس ذهبية ثم انحنى فوق كل واحد منهم (رستم التواريخ المجلد الأول صفحة 371) لكن محسنًا (في كتابه صفحة 215) ذكر كلمة «فجور» وربما كان يقصد أن طهماسب كان مخنثًا (قارن GD 3/14 .(October; Avramov, p. 96

تظاهر نادر بالغضب واتهم حاشية الشاه بأنهم كانوا السبب في إفساده وانغماسه في الملذات وشرب الخمر، وخوفاً من سوء العاقبة من قبل نادر، أعلن أفراد الحاشية أنهم غير مسؤولين عن نقائص طهماسب وأنه قد بات من المستحيل وضع حد لذلك. ثم ذكروا بعد ذلك أن الشخص الوحيد الملام في إدمان طهماسب الشراب هو طهماسب نفسه. وبهذه الطريقة كان طهماسب محل إدانة وازدراء من أقرب مسؤوليه ممن أصبحوا متواطئين في استيلاء نادر على السلطة. أما نادر نفسه فقال: إن الشاه لم يعد صالحاً للحكم، وأرسل عدداً من رجاله ليخبروه بذلك. وعادوا ومعهم الشعار الملكي، واقترح نادر على المجلس أن يخلف ابن الشاه أباه (وكان لا يزال رضيعاً) كما حدث مع عباس الثالث. ولكن البعض منهم ضغط على نادر لاعتلاء العرش، إلا أنه رفض محتجّاً بأنه لا يريد انتهاك حرمة المبدأ الوراثي في الحكم.

وبعد بضعة أيام وتحديداً في 7 سبتمبر/أيلول 1732، تم تنصيب الشاه الجديد رسميّاً.14 ووضع نادر الشعار المحتوم على رأس الطفل الصغير (الذي لم يتجاوز عمره بضعة شهور) وقدم المجلس فروض الطاعة والولاء وانحنوا إجلالاً للشاه الجديد، ووزعت الحلوى وقرعت الطبول في أرجاء المدينة طيلة سبعة أيام احتفالاً بالشاه الجديد. وذُكِر اسم الشاه الصغير في خطبة يوم الجمعة وتم عمل خاتم ملكي جديد وصك عملة جديدة،15 أما نادر فظفر بلقب الوصي على العرش ورئيس الوزراء. وأرسل طهماسب إلى مشهد ومعه جواريه وحريمه وخدمه وحاشية كبيرة قبل يومين من التنصيب.

تذكر إحدى الروايات أن الطفل الصغير بدأ في البكاء خلال مراسم التتويج، فسأل نادر من بجواره إن كانوا يعرفون لماذا يبكي الصغير، فأجابوا بحذر وتعقل قائلين: إن نادر يعرف أفضل منا بالتأكيد. فقال نادر: إن عباساً كان يبكي، لأنه أراد أن يحكم الأفغان في قندهار والسلطان العثماني. وأعلن وسط هتاف عام عن أمله أن تتحقق تلك الرغبة، وأنه سيُحْكِم قبضته ليس فقط على حكام تركيا العثمانيين وقندهار، وإنما على تركستان والهند أيضاً.16

وبحسب جميع المؤشرات، لم يكن هناك ما يمنع نادر من تنفيذ مراده بأن يكون الشاه،

إلا أنه لم يسلك قط طريقاً محفوفاً بمخاطر غير ضرورية. أما كونه وصيّاً على الملك الصغير، والجيش من ورائه يدعمه ويقويه، فلم يكن بمقدور أحد أن يتحداه. وكان بمقدور نادر الانتظار وإعطاء فرصة للرأي العام في البلاد، ليتكيف مع حكمه ثم يتحين اللحظة المواتية بعد ذلك، فقد كان يعلم جيداً أن تأييد العائلة الصفوية ما زال قوياً، ومن ثم فقد فضّل مسايرة هذا التأييد بعض الوقت وأن يهتم بتعزيز وترسيخ مكانته بدلاً من مواجهة هذا التأييد في مرحلة مبكرة. وكان تنصيبه وصيّاً على العرش بمثابة انتصار على خصومه. ولكن أسلوبه في إدارة الأمور كان يدل على ثقة وليدة اليقين من أنه على خطوتين أو ثلاث خطوات من هزيمتهم. ومن الجدير بالذكر أيضاً أن نادر كان رحيماً بطهماسب أكثر مما كان طهماسب نفسه رحيماً بإسماعيل قبل بضعة أسابيع. فاستيلاء نادر على السلطة لم تعقبه مذبحة جماعية كما حدث مع محمد غلزائي أو أشرف. لكنه في واقع الأمر، لم تكن هناك أية إراقة للدماء على ما يبدو.17 لكن هذا لا يعني أن نادر كان يخجل من اللجوء إلى القسوة الدامية– إن لزم الأمر. لكنه كغيره من المغتصبين والملوك الذين يلجأون إلى القتل وسفك الدماء بشكل روتيني لإبهار الآخرين وربما إبهار أنفسهم بفرط قسوتهم، وظف نادر جزاريه بعناية فائقة، لأنه لم يرد أكواماً من الجثث وأنهاراً من الدماء لتعزيز ثقته بنفسه.

بقي نادر في أصفهان بضعة أسابيع، وعين طهماسب خان جالاير، الذي كان في السابق عميلاً له داخل المدينة، حاكماً عليها. كما عاد الروسي سيميون أبراموف أيضاً وهو شخصية مألوفة، كان قد أُرسل إلى أصفهان ليكون سفيراً ببلاط طهماسب، لكنه فوجئ لدى وصوله أنه قد أصبح مبعوثاً للنائب عباس الثالث ذي النفوذ والسلطان.18 وقد لقي عزل طهماسب ترحيباً واسعاً في سان بطرسبرج حيث اعتبروا نادراً حليفاً عظيماً لهم ضد العثمانيين.

ومن المعلوم أن هناك آخرين ممن سجلوا انطباعاتهم عن نادر في هذا الوقت. فقد كتب ممثل شركة الهند الشرقية الإنجليزية عن نادر يقول إن طوله يتجاوز الستة أقدام، وإنه وسيم متناسق القوام وقوي البدن قابل للسمنة لولا كثرة سفره على ظهر الخيل، بشرته مسفوعة

بحرارة الشمس ما أكسبه «مظهراً أكثر رجولة»، كما أن قوة صوته غير العادية مكنته من أن يجأر بأوامره إلى الجند من مسافة تزيد على 100 ياردة. وكان مقتصداً وبسيطاً في طعامه، إذ كان طعامه الأساسي الأرز واللحم والتوابل، ولم يستغرق أكثر من نصف ساعة قط لتناول أي وجبة. وإذا منعه العمل من تناول طعامه، كان يحمل معه بعض حبات البازلاء المجففة لتناولها عند الحاجة وبعض الماء. وكان دائماً يفضل السفر والتواجد في الميدان ويكره الوقت الذي يقضيه في المدن. وقد كتبت إحدى الروايات المعاصرة أن نادر لم يكن لديه منزل ثابت يعود إليه قط، بل كانت الساحة والفضاء معسكره والخيمة قصره،[19] إذ قضى الجزء الأكبر من حياته في التنقل من مكان لآخر ممسكاً بزمام الأمور. وليس هناك ما يعبر عن نشاطه وحيويته أكثر من جلده الشديد الذي يعتبر أهم سماته الشخصية. وعندما يكون في حملة أو غزوة عسكرية فإنه يأكل ويشرب وينام مثله في ذلك مثل الجنود العاديين، وكان يتوقع منهم أن يحذوا حذوه. أما إذا اضطر الجند إلى السير في بعض الأحيان لمباغتة العدو فإنه كان ينام في العراء ويتغطى بعباءته ويجعل من السرج وسادة له- حتى إذا كانت البرودة شديدة والأرض يكسوها الصقيع.[20]

وقال الكاتب البريطاني أيضاً إن نادر كان «يدمن النساء بشدة» لكنه كان دائماً ما يذهب لحريمه في نهاية المساء ولم يكن يذهب لهن قط خلال فترات النهار، فيما كتب بريطاني آخر يدعى جوناس هانواي لاحقاً- ولكن بلغة أكثر اعتدالا- أنه «كان معروفاً عنه شغفه بالنساء»،[21] وربما كان يعني بذلك ترديد تصريحاته التي أدلى بها في أماكن أخرى من أن نادراً كان سخيّاً في معاملته للأسرى من السيدات بقدر ما كانت عليه شهوته الجنسية. وعلى غرار ما قيل حول عادات نادر في شرب الخمر فقد امتدحت العديد من الروايات المعاصرة قدرته على كبح رغباته الجنسية في إشارة ضمنية منها إلى تناقض سلوكه مع سلوك السلطان حسين وطهماسب اللذين كانا يهملان عمل الحكومة أيام وأسابيع سعياً وراء المتع والملذات. وربما كان نادر في واقع الأمر يفرط في احتساء الخمر، وهو ما سبب له مشكلة بالكبد أو أدى على الأقل إلى تفاقم علة أخرى كان يعاني منها لأسباب أخرى، ومع ذلك لم تصفه الروايات المعاصرة بأنه كان سكيراً، لأنه كان يشرب بحذر وتكتم ولم

يسمح قط للشراب بأن يؤثر على مهامه الرسمية وكذلك كانت حياته الجنسية. فلم يكن نادر يذهب قط للحريم خلال ساعات النهار. وهناك إيحاءات من أواخر حياة نادر تشير إلى أنه كان يحب صحبة النساء، حيث أقلع عن حفلات الشراب ليقضي فترات أكبر مع نسائه سواء في ترحاله أو خلال معسكراته. ولعل المخططات والمؤامرات التي كانت تحاك خلال سنواته الأخيرة من جانب أقاربه المتغطرسين من الرجال وأفراد الحاشية- كانت مفهومة.

في أصفهان، كان رجال نادر دائماً ما يقومون بمضايقة التجار وأصحاب المحال التجارية من الإنجليز والهولنديين والأرمن والتجار الهنود والنبلاء بالإضافة إلى المواطنين العاديين من أجل جني المال مستخدمين العصي لإجبار المتقاعسين عن دفع المال على بذله لهم. وكان من بين أبرز هؤلاء المسؤولين اللصوص- محمد تقي خان شيرزاي، حيث كان نادر يقدر فيه دهاءه في أمور المال، ولذا اعتبر الهولنديون أن تقي خان لم يكن فقط المستشار الرئيسي لنادر في ذلك الوقت، وإنما كان صديقه ورفيقه المقرب سواء على الملأ أو خلال حفلات الشراب الخاصة.

وقد سلط نادر من يقوم بنهب القصور الملكية وتفكيك المقتنيات الثمينة بها، حتى وصل الأمر إلى الأبواب والنوافذ التي كانت تؤخذ وتباع. وفي أكتوبر/تشرين الأول زوج الأخوات الثلاث الأخيرات للشاه سلطان حسين لأنصاره (حيث زوج إحداهن لشقيقه إبراهيم بمناسبة عودته إلى خدمة أخيه وتأييده) ثم أمر بقية أعضاء الأسرة الصفوية والحريم والنبلاء والبلاط والخدم بالذهاب إلى قزوين، وكان مقرراً للشاه الرضيع أن يتبعهم. كما أمر بعزل جميع الخصيان باستثناء 15 منهم، ورأى أن تخصص بقية حياتهم للتعبد والصلاة.22

وانتهى عهد أصفهان الطويل كعاصمة للأسرة الصفوية، فبعد الدمار الذي لحق بالمدينة جراء الحصار ثم الاحتلال الأفغاني، كانت الإطاحة بالبلاط آخر الصفعات التي منعت الأسرة من استعادة مكانتها السابقة، إذ اعتمد جزء كبير من الحياة الاقتصادية في أصفهان على وجود البلاط ورجاله والنبلاء والحريم والإدارة بكتابها وموظفيها وبيروقراطيتها.

وعلى مر الأجيال كان تجار وحرفيو المدينة ينعمون بالضروريات والكماليات التي كانت تتوافر في أصفهان بوصفها عاصمة الدولة، إلا أن هذا كله قد اختفى خلال فترة حكم نادر، ليحل محل ذلك الطلب المتواصل والمفرط على النقود. ولا عجب في أن نادراً لم يكن يتمتع بقبول شعبي بين كثير من سكان أصفهان بمن فيهم ممثل شركة الهند الشرقية الهولندية فان ليشبسيج، الذي كانت تقاريره على مدار سبع سنوات (اعتماداً على اتصالاته في المدينة) مجردَ مؤشرات على وقوع كوارث، حتى إنه أشار على رؤسائه في مارس/آذار 1733 بضرورة إغلاق فرع الشركة في أصفهان، لكن ذلك لم يحدث إلى أن مات في نوفمبر/تشرين الثاني 1739. 23

رغم عدم تمتع نادر بالشعبية واستياء البعض منه، إلا أنه كان بالنسبة للبعض بمثابة المنقذ والقائد العسكري الذي يملك القدرة على دحر أعداء فارس ومن ثم استعادة النظام الداخلي. وخلال تلك السنوات الأولى، اكتسب نادر سمعة طيبة بنشر العدالة، وهو ما تناقلته الروايات المعاصرة آنذاك على نطاق واسع. فقد ذكرت إحدى الروايات واحدة من حملات نادر ضد الأتراك العثمانيين، عندما تعرضت طليعة قواته من أكراد قبيلة قاراشورلو لهجوم غير متوقع من المدفعية التركية أردى العديد منهم قتلى. فقام نادر آنذاك بإرسال تعزيزات للجيش، ومع الوقت أثبتت هذه التعزيزات غلبتها برغم ما تعرضت له من خسائر بين صفوفها، وقهرت العثمانيين، وتسابق الوافدون الجدد الذين ينتمون إلى قبيلة أفشار التي ينحدر منها نادر– على نهب ما خلفه العثمانيون، وهو ما أثار حفيظة قوات طليعة الجيش وقائدهم حيث رأوا أن غنائم نصرهم الصعب وقعت في أيدي رجال لم يحاربوا من أجلها. وبدأ العديد من الأكراد والأفشار في القتال، فيما أصيب عدد كبير من الرجال قبل عودة الهدوء. أمر نادر بفتح تحقيق في الأمر، وعندما تحقق مما حدث بالفعل أشاد بالأكراد وقائدهم لهزيمتهم العثمانيين، وأمر بضرب العديد من الأفشار عقاباً لهم على ما بدر منهم. وكان هذا التصرف المتمثل في مكافأة الشجاعة وعدم محاباة أهل عشيرته ظلماً بمثابة التزام من نادر نفسه بفرض العدالة الحازمة والنزيهة.24

وتشير رواية أخرى لليوناني باسيل فاتاتزيس إلى كيفية ذيوع سمعة نادر بين عامة الناس

بتطبيقه الحكم الحازم والعادل في الوقت نفسه. فعندما كان فاتاتزيس في مشهد، رأى بعض الأطفال وهم يلعبون بجوار أحد الأنهار، وقد دار بينهم جدل حول قواعد اللعبة وبدأ الغضب يسيطر عليهم لدرجة أن واحداً منهم سب وضرب زميله الذي صاح في وجهه قائلاً: كيف تجرؤ على سبي وضربي؟ ألا تعلم أن طهماسب قولي خان في مشهد؟ وذكر شهود العيان الذين التقوا نادر نفسه أن هذا الحادث كان دليلاً على النظرة العامة التي جمعت بين نادر وغالبية السكان، والتي تمثلت في «قدرته على الحكم بحرص وذكاء وتحري الحقيقة بدقة والحكم دون تحامل ضد أحد، فالأغنياء والفقراء والضعفاء كلهم سواء».

> ولم يقتصر تنفيذ العدالة على الجناة من أصحاب النفوذ وخوفهم من بطشه ومن ثم زوال ظلمهم، بل اعتبره الضعفاء بطلاً لأنه سمح لهم بأن يعيشوا في سلام دون خوف من خلال حكمه الآمن.25

لقد كانت إقامة العدل بقدر من الغلو والمبالغة السمة الرئيسية للقائد الصالح بل وللملك نفسه.

في 19 أكتوبر/تشرين الأول 1732، خرج نادر من أصفهان على رأس قوة صغيرة في حملة عقابية ضد قبيلة بختيار التي كانت قد قتلت الحاكم الذي عينه نادر عليها. وقد تقهقر رجال القبيلة المذنبون إلى حصن جبلي بمسقط رأسهم في سلسلة جبال زاجروس جنوب غربي أصفهان، لكنهم وبعد مرور 21 يوماً خرجوا يائسين للقتال لا لشيء سوى أن يُقتَلوا على يد قوات نادر. وأصدر نادر أوامره بإعادة توطين 3000 أسرة من قبيلة بختيار في خراسان. كما اتخذت إجراءات عقابية ضد قبيلة زاند، التي كان رجالها يغيرون على المنطقة الواقعة جنوب كرمانشاه ويقومون بنهبها منذ الغزو الأفغاني إلا أن عقابهم كان أكثر قسوة لدرجة جعلته باقياً في الذاكرة، فقد ضربت أعناق 500 من أرباب الأسر وبيعت زوجاتهم وأطفالهم في سوق العبيد.

ومع مواصلة الزحف غرباً انضم نادر إلى جيشه الرئيسي في كرمانشاه التي كان يسيطر

عليها العثمانيون وتم فتحها على يد الفرس بعد مقاومة لم تدم طويلاً[1]. وغادر بعد ذلك كرمانشاه يوم 10 ديسمبر/كانون أول ومعه ما يقرب من 80 ألف رجل متوجهاً إلى الحدود العثمانية لمقابلة أحمد باشا في بغداد كما وعد، وذلك في أول مغامرة يقوم بها خارج الحدود التقليدية لدولة فارس.26

وكان نادر يهدف من وراء ذلك إلى شيء ما مختلف عن حملته السابقة ضد العثمانيين، والتي تمكن خلالها من استعادة الأراضي الفارسية بمهاجمة القوات العثمانية التي كانت تحتلها. أما هذه المرة فكان يعتزم إجبار العثمانيين على إتعادة الأراضي الفارسية في أذربيجان وشمالي نهر أراكس بمهاجمتها من جهة الجنوب وتهديد بغداد. وفي حال نجح نادر فسيمكنه المقايضة على بغداد والأراضي الفارسية التي احتلها العثمانيون، أو أن سقوط بغداد سيعجل بانهيار السلطة العثمانية على نطاق أوسع، وهو ما يعني جني المزيد من المكاسب. وعلى أي حال كان نادر يأمل في تجنب الدخول في حملة صعبة داخل المناطق الجبلية والغابات الكثيفة في القوقاز. وكانت خطته طموحة، لكنه كان يملك جيشاً أكبر من أي جيش تولى قيادته قبل ذلك، وفي ظل سجل انتصاراته المتكاملة، لم يكن أداء القوات العثمانية ضده حتى ذلك الحين مبهراً على الإطلاق.

كان العثمانيون على أهبة الاستعداد لمواجهة غزو نادر، فقد عززوا من مواقعهم على الجبال الحدودية وإقليم زوهاب ومناطق أخرى. ومع تطلع نادر لفرض سيطرته على المنطقة المحيطة بالحصن عند زوهاب متجاهلاً بذلك اعتراضات المرشدين الذين أعلنوا أن ما ينوي القيام به يعد درباً من دروب المستحيل، فقد قاد جنوده عبر التلال والوديان التي يكسوها الجليد وبطول طريق جبلية «ضيقة ضيق قلب الرجل البخيل» سار خلالها الفرس في البداية على ظهور الخيل ثم سيراً على الأقدام وأخيراً تسلقاً للصخور، وهو الأمر الذي أدى إلى تخلف غالبية رجاله في ظل تلك الظروف الصعبة، لكنه وبعد مسيره طويلة وشاقة خرج خلف دفاعات زوهاب ومعه 600 رجل. ولم ينتظر نادر قدوم بقية قواته الشاردة التي تخلفت عن اللحاق بهم وشن هجومه على الفور متستراً تحت جنح

(1) أخلى العثمانيون همدان امتثالاً لبنود المعاهدة التي أبرموها مع طهماسب لكنهم لم يخلوا كرمانشاه.

الظلام ليستيقظ العثمانيون على صهيل وقرع حوافر الخيول الفارسية، فما كان منهم إلا أن لاذوا بالفرار بعد أن أُخذوا على حين غرة وبعدما قتل العديد منهم وأسر قائدهم. وأصدر نادر أوامره بفرض تحصينات جديدة في زوهاب، ثم واصل سيره نحو السهل للقاء بقية الجند القادمين من همدان.27

ولأن نادراً كان يعلم أن حصار بغداد سيكون طويلاً وصعباً فقد حاول استدراج أحمد باشا خارج المدينة، حيث توجه إلى كركوك وبدأ في نهب المنطقة المحيطة بها وسلبها، إلا أن أحمد باشا لم يحرك ساكناً وظل متحصناً في بغداد. وترك نادر 7 آلاف رجل لتطويق كركوك وزحف جهة الجنوب ليُلحِق مزيداً من الهزائم بالعثمانيين وهو يقترب من بغداد ويرسخ الهيمنة الفارسية في المنطقة وحول المدينة. وقد قام نادر وجنده بتطويق بغداد لفرض حصار عليها يجبر المحتمين بداخلها على أحد أمرين، إما القتال والمواجهة وإما تجويعهم وحملهم على الاستسلام.

إلا أن أحمد باشا كان داهية هو الآخر، وكان يتسم بالحيوية والنشاط، كما كان ينظر إلى بغداد على أنها ملكية شخصية أكثر من أي شيء آخر، لذا فقد كان مصمماً على مقاومة نادر في كل بقعة من بقاعها. وحاول منع نادر من استكمال حصاره الحديدي حول بغداد بمواجهته عند نقاط تقاطع النهر، ثم قام بتحصين الضفة الغربية من نهر دجلة قبالة معسكر المدفعية التابع لقوات نادر. عندئذ قرر نادر تفادي هذه العقبة ومحاولة التغلب عليها، وتحرك في جنح الليل حتى لا تنكشف نواياه، وسار ضد التيار ليعبر نهر دجلة بمساعدة مهندس ألماني،28 كان قد شيد جسراً على وجه السرعة استخدم فيه جذوع النخل المشدودة بجلود الحيوانات.

وفي 15 فبراير/شباط، عبر نادر نهر دجلة العظيم ومعه 2500 من خيرة طليعة الجيش، ليتجه بهم صوب الجنوب. إلا أن التصميم التوتوني (الألماني) للجسر لم يحتمل وزن الخيول الفارسية، فما أن عبر 1500 جندي فارسي آخر في اليوم التالي حتى انهار الجسر وجرفه التيار. أما الطرق الرديئة والأراضي الوعرة فكانت سبباً في تباطؤ تقدم نادر وقواته، وهو ما مكن كشافة العدو من تحذير القوات العثمانية من أن نادراً قد تمكن من عبور النهر.

وانسحبت القوات العثمانية والتي كانت متمركزة قبالة معسكر الفرس، لكن أحمد باشا عندما علم بأن انهيار الجسر قد ترك نادر شريداً برفقة عدد قليل من القوات سارع إلى جمع قوة أكبر (تضمنت سلاح الفرسان والمدفعية والمشاة الإنكشاريين)29 وأرسلها لملاقاته.

وأمام الزحف العثماني المتتالي أمر نادر بإرسال قوات من الأكراد والتركمان والأفغان العبدليين. واضطر الأكراد والتركمان إلى التقهقر لكنَّ الأفغان صمدوا وواصلوا زحفهم، وعندما غطت سحابة غبار سماء الشمال إيذاناً بوصول القوة الثانية المكونة من 1500 جندي فارسي جدَّد نادر هجماته على جناحي القوات العثمانية (والتي ربما أعاقتها صعوبة التضاريس) وفي النهاية بدأ العثمانيون في الهروب بشكل فوضوي ومضطرب تاركين مدافعهم، فيما قُتل العديد منهم،30 وأمر نادر بإعدام بعض الأكراد والتركمان الذين تولوا عن المعركة وكافأ الأفغان في الوقت ذاته.

وبمجرد مروره بتلك اللحظة الخطيرة أصبح نادر مستعداً للمضي قدماً في مواصلة الحصار دون مزيد من التدخل. وشدد حصاره بالقرب من أسوار بغداد وبنى طوقاً كبيراً مكوناً من 2700 برج حول المدينة، في كل برج موقع تصويب لإحكام الحصار، وقام الجنود الفارسيون بعمل دوريات بالزوارق لمراقبة مياه الأنهار، فيما أقيم معسكر ضخم في مواجهة بغداد حول حصنين كبيرين على ضفتي نهر دجلة وأنشئت بهما متاجر وأحياء مريحة للجند ونسائهم. وقد أشارت التقديرات حينئذ إلى وجود 300 ألف شخص محاصر بغداد في هذا الوقت، ثلثهم فقط كانوا جنوداً أما البقية فضمت الخدم والحرفيين بمختلف حرفهم بالإضافة إلى العبيد. ومن بين الجنود كان هناك 80 ألفاً من سلاح الفرسان و20 ألفاً من قوات المشاة. إلا أن نادراً لم يكن لديه ما يكفي من المدفعية الثقيلة لاختراق جدران المدينة السميكة، حيث تذكر إحدى الروايات أنه عندما حاول اختراق جدران المدينة ردت المدفعية العثمانية بنيرانها بكثافة، مما أجبر قوات المدفعية الفارسية على التراجع والانسحاب.31 وكان لابد هنا من وجود ثغرة حتى يتمكن نادر من شن هجوم فعَّال. ومن ثم فقد اعتمد على سلاح الجوع كبديل للقوة العسكرية لإجبار المدافعين عن بغداد على الاستسلام. وتمكن رجاله من الاستيلاء على سامراء والنجف وكربلاء والحلة وعدد

من المدن أخرى حول بغداد، فيما تم إرسال مزيد من القوات صوب البصرة على الخليج جنوباً يدعهما رجال القبائل العربية ممن تمردوا وثاروا على العثمانيين.

احتفل الفرس بعيد النيروز داخل معسكرهم شمالي بغداد يوم 21 مارس/آذار وسط مظاهر الفخامة والسمو، حيث وزعت سبع آلاف حلة شرفية على ضباط الجيش، أما المحظوظون الذي دعوا لحضور مأدبة الطعام الكبرى فقد حصلوا على مزهريات فضية بكل واحدة منها رطل من الذهب. ولم تعهد بغداد من قبل مثل هذا الابتهاج والمرح. وبعد مرور أسابيع بات الوضع في المدينة يدعو إلى اليأس بشكل أكبر، وازداد ضجر الناس (وأكثرهم آنذاك من الشيعة المتعاطفين مع الفرس) فقد شحَّ الطعام لدرجة أن الناس أكلوا الخيول والحمير والقطط والكلاب وحتى الفئران، فيما مات الكثير منهم من الجوع والمرض وهرب بعضهم إلى الفرس وقتل آخرون أنفسهم.

وأشارت التقديرات بعد ذلك إلى أن نحو 60 ألف شخص قد لقوا مصرعهم في بغداد خلال فترة فرض الحصار على المدينة،32 فيما رأى البغداديون الفرس يعيشون حياة مريحة داخل مخيمهم الذي بدا دائماً على نحو يدعو للقلق، فضلاً عن وصول مزيد من القوات بصورة منتظمة لتعزيز الجيش الفارسي، والواقع أن ذلك كان مجرد وهم. فقد وضع نادر مخططاً لإفزاع الحامية العثمانية حيث قام سرّاً بإخراج عدد كبير من الجنود من الحصار ليلاً لتسير في اتجاه آخر في اليوم التالي على مرأى ومسمع الجميع حاملةً الأعلام الخفاقة والأبواق المدوية. وكان نادر مولعاً بأكل البطيخ وعمل ما في وسعه لتلقي كميات كافية منه أينما توجه بحملاته. فقد أرسل على سبيل السخرية عربات محملة بالبطيخ إلى أحمد باشا لسد جوعه فرد عليه الحاكم العثماني بإرسال خبز فاخر ورسالة يقول فيها: أن هذا هو الطعام اليومي الذي يتناوله أهل المدينة.33

وبرغم هذا التظاهر بالشجاعة فقد كانت الحامية العثمانية على أعتاب نهاية المقاومة، وفي 13 يوليو/تموز فتح أحمد باشا الباب للتفاوض بشأن تسليم بغداد على أساس تنازله عن المدينة في 11 أغسطس/آب إن لم تصل أية إغاثة حتى ذلك التاريخ. إلا أن لعبة المماطلة لم تنته عند هذا الحد، فبعد أيام قليلة علمت القوات العثمانية أن وزير الدولة السابق توبال

عثمان باشا قد تم تعيينه القائد الأعلى للقوات العثمانية وأنه بدأ في التقدم لإغاثة بغداد برفقة 80 ألف جندي و60 مدفعاً. ولم تكن تلك القوات قوات محلية أقل درجة أو مجرد مليشيات أو من رجال القبائل التي كان نادر يقاتلها حتى ذلك الوقت، بل إنها كانت تنتمي لقوات الهجوم الرئيسية للدولة العثمانية، والتي تضم الإنكشاريين والفرسان التي عادة ما تكون موجودة في إسطنبول.

كان العثمانيون ينظرون إلى توبال عثمان على أنه أعظم جنود الإمبراطورية. وفي عام 1733 أصبح رجلاً عجوزاً بعد أن قضى فترة طويلة من حياته مليئة بالمغامرة، حتى إنه سجن ذات مرة على يد فرسان القديس يوحنا في مالطا. وقد قلده السلطان محمود رئاسة الوزراء بعد ثورة سبتمبر/أيلول 1730 لكنه بات محل ازدراء واستهجان بعد أن تنازل للفرس عن تبريز بموجب المعاهدة التي أبرمت بعد معركة كوريجان، وفي مارس/آذار سنة 1732 عزله السلطان من منصبه إلا أن الأزمة الأخيرة أجبرت السلطان على إعادته مرة أخرى.

مر توبال عثمان بمدينة كركوك وتقدم صوب بغداد بطول ضفتي نهر دجلة. وقام الخدم بوضعه على حمالة لعجزه عن الحركة آنذاك بسبب ما لحق به من جروح في الحملات التي شنها، وأحضر له طبيب فرنسي[1]. وبعث نادر برسالة تحدٍّ له يحثه على القتال إلا أن توبال عثمان حبس الرسول، وواصل تقدمه، ولم يرد على نادر وأخبر رفاقه متجهماً بأن نادر سيتلقى الإجابة منه شخصيًا.34

عندما وصل الجيش العثماني سامراء بدأ نادر في فصل عدد من القوات التي تحاصر بغداد خلسة بالليل، حتى لا يتمكن أحمد باشا من إدراك ذلك. وكان أمام نادر حينئذ خيار واحد صعب. فبغداد على وشك الاستسلام ولو أبعد جميع رجاله المحاصرين إلى بغداد فربما وصلت إليها الإمدادات وتمكنت المدينة من الصمود عدة أشهر أخرى، وربما هاجمت القوات العثمانية مؤخرة جيشه عندما يخوض معركة ضد جيش توبال عثمان. وفي المقابل فإن الإبقاء على القوات التي تحاصر بغداد سيقسم قواته وربما أعوزه الاحتياطي الإضافي والحيوي الذي يحتاج إليه لهزيمة توبال عثمان. وفي حال هُزِمَت قوة

(1) اسمه جين نيكوديم وكان شاهد عيان على معركة استرداد بغداد.

نادر الرئيسية فلن يتمكن حينئذ بأية حال من الاستيلاء على بغداد.

وقد أصبح نادر بفضل خبرته على يقين بتفوق القوات الفارسية، وبأنه قد لا يمكنه التخلي عن الحصار تماماً بعد كل هذه الشهور. ولذلك ترك قوة مكونة من 12 ألف جندي تحت إمرة محمد خان بلوش لمواصلة الحصار فيما تقدم الجيش الرئيسي لملاقاة توبال عثمان.35 وانضم إليهم نادر في آخر لحظة لمواجهة العثمانيين شمالي المدينة بجيش قوامه نحو 70 ألف رجل.

وفي فجر 19 يوليو/تموز بلغت حرارة الشمس ذروتها. وما إن تلقت قواته أمر الدخول في المعركة حتى تنفس نادر الصعداء بثقة متطلعاً إلى يوم نصر جديد، يعود عليه بغنائم عظيمة متمثلة في مفاتيح بغداد واسترداد الأراضي الفارسية في منطقة القوقاز، وربما أدى ذلك إلى انهيار السلطة العثمانية بأكملها على الجانب الشرقي من إمبراطوريتهم.

لكن نادر هذه المرة لقي مقاومة من قائد محنك لا يبارى هو الآخر في المكر والدهاء. وكان توبال عثمان قد وضع جنوده بشكل يمكّنهم من الاستفادة من الأرض غير المستوية على ضفة نهر دجلة، ليكون النهر والرياح من ورائهم ومن ثم يلفح غبار المعركة وجوه الفرس. وقد عمل على بث روح الحماسة بين جنوده من خلال نشر شائعات بقرب وصول الطعام والتعزيزات. وفي صباح يوم المعركة انتفض توبال عثمان من على حمالة المرض وامتطى ظهر جواده رغم جراحه المزمنة، وتفقد قواته «وكأنه رجل في ريعان الشباب سيفه بيده، ووجه وعيناه يشعان حيوية وقوة».36

تعمد توبال عثمان أن يجعل من مقدمة ومؤخرة الجيش العثماني شيئاً ضعيفاً لحمل الفرس على مهاجمتهما إلا أنه عززهما خلال الليل. وفي صباح 19 يوليو/تموز أمر نادر طليعة قوات الفرسان بالتحرك حول الجناح الأيسر للقوات العثمانية، لكن الفرس فوجئوا بقوات أشد وأقوى مما كانوا قد توقعوه، وأجبرتهم نيران المدفعية العثمانية على التراجع. وبدلاً من محاولة القيام بخدعة حربية أخرى بعد هذه النكسة تقدم نادر بجيش قوامه 50 ألف جندي لشن هجوم أمامي شمل قوات المشاة والفرس والأفغان مقسمة إلى ثلاثة فيالق تمكنت بعد قتال مرير من إجبار القوات العثمانية على التقهقر والتراجع إلى حدود خيام

معسكرهم. وقد تمكن الفرس من الاستيلاء على عدد من مدافع العثمانيين وبدا الاضطراب واضحاً على الأتراك عندما هرب ألفان من القوات الكردية، لكن توبال عثمان بعث بعد ذلك 20 ألف جندي من قوات الاحتياط والذين أعادوا المدافع التي وقعت في الأسر مرة أخرى.37 ومع تواصل القتال حتى منتصف النهار بين كر وفر، بلغت حرارة الشمس ذروتها وهبت رياح الشمال بقوة لتتعالى معها سحب الغبار في وجه الفرس.

لكن القتال بهذه الصورة لم تكن له علاقة بالمستطيلات والجبهات المحددة بدقة على الرسوم البيانية للمؤرخين العسكريين. فقد قاتل كل رجل في إطار عالمه الضيق من الاضطراب والدخان والغبار والخوف غير مبالٍ بما يبعد عنه أمتاراً قليلة، وغير شاعر في الوقت نفسه بأي شيء غير البقاء والحفاظ على ولاء وثقة أقرب رفاقه. لقد تمكن الأتراك من الحصول على المياه من النهر الذي كان وراءهم أما الفرس فلم يجدوا من الماء ما يروي ظمأهم. وتشير بعض الروايات هنا إلى أن رجال القبائل العربية في جيش نادر قد غيرت ولاءها وهاجمت أحد أجنحة سلاح الفرسان الفارسي وأصيب جواد نادر بطلق ناري مع اشتعال أوار المعركة، لكنه امتطى جواداً آخر وبلغ القتال أشده.

عندما رآه الأتراك وهو يتحرك مثل حيوان السمندل بين النيران أطلقوا عليه النار من كل جانب لكن طلقاتهم قد (أبعدتها العناية الإلهية) ولم تصبه.38

كان الفرس يتقهقرون، في وقت كان نادر يجول ذهاباً وإياباً بين صفوف المقاتلين يحثهم على القيام بمحاولتهم الأخيرة. ويذكر أحد المراجع أن نادراً كان سريعاً في الوقوف على ميزان السبق لطرفي المعركة، ومن ثم إرسال التعزيزات عندما تقتضي الحاجة. لكنه إذا وجد أحد قواده نزل عن جواده لغير ضرورة، كان يسارع بضربه بفأس المعركة الذي كان يحمله دائماً فيرديه قتيلاً، ويعطي القيادة للضابط الذي يليه في الرتبة.39

وجاءت اللحظة الحاسمة عندما بلغ القتال ذروته، وحينما أصاب نادر أحد الأتراك برمحه ليسقط التركي عن ظهر جواده. إلا أن فرس نادر نفسه سقط على رأسه وألقى به على الأرض. وقبل أن يتمكن نادر من امتطاء جواد آخر كانت حرارة الشمس قد أضعفت القوات الفارسية، وأصابتها بالإعياء والتعب والعطش معتقدين أن قائدهم قد

قتل وأصيبوا بحالة من الذعر حينئذ. وفي العديد من المعارك تأتي اللحظة الحاسمة بهذه الطريقة، ضغط دام، ودقائق وساعات تمر، ورجال يشاهدون رجالاً يقتلون، بالإضافة إلى الاضطراب والفوضى، ومع ذلك يواصلون القتال إلى أن يقع حادث أو تنتشر شائعة بوقوع حادث لتنكسر حالة التوتر النفسي. فهناك مجموعة من الرجال ستتراجع وتبتعد عن العدو، ومجموعة أخرى من حولهم يرقبون ما يجري ليصيبهم الذعر بعد ذلك. وبعد تسع ساعات من القتال المتواصل، والحال كذلك، بدأ الجيش الفارسي في الانسحاب والتراجع غير آبهين بأي تهديدات أو تحذيرات. واضطر نادر لإصدار أمر بالانسحاب إلى بُهريز، تاركاً وراءه العديد من المدافع والأمتعة[1]. وتبعهم العثمانيون لمدة خمس ساعات وقُتِل الكثير من الفرس وهم يحاولون يائسين الحصول على شربة ماء من نهر دجلة غير آبهين بالخطر الذي قد يتعرضون له جراء محاولتهم تلك.

ربما فقد نادر قرابة 30 ألف رجل، كلهم لقوا مصرعهم في تلك المعركة الضارية، فيما ذبح العثمانيون 500 أسير فارسي بدم بارد وأسر أكثر من 3 آلاف آخرين.40 أما العثمانيون المنتصرون ففقدوا أيضاً 20 ألفاً من رجالهم. ومع تقهقر الجيش الفارسي إلى الوراء وسط أجواء من الفوضى والاضطراب، هاجمت قوات أحمد باشا الفرس الذين بقوا خراسة خطوط الحصار. وهرب قائدهم محمد خان بلوش برفقة عدد من الفرسان أما غالبية جنود المشاة فقتلوا أو أسروا قبل أن يتمكنوا من الفرار. كما كانت هناك قلة ممن كانوا بالمعسكر قد لاذوا بالفرار، وتهلل أهالي بغداد الجوعى باستحواذهم على المؤن التي تركها الفرس في الأبراج والمعسكرات. ودخل جيش توبال عثمان المدينة منتصراً يوم 24 يوليو/تموز، لكنه بعد أيام قليلة اضطر للتحرك بغالبية جنوده صوب كركوك، لأن بغداد والمنطقة المحيطة بها كانت في حالة مزرية ومدمرة للغاية وهو ما جعلها غير قادرة على احتمال هذا العدد الكبير من الرجال والحيوانات. وتجول رجال أحمد باشا في ميدان المعركة وقطعوا

(1) تضمنت المدفعية التي وقعت في الأسر أربعة مدافع عيار 30 دانة وستة منها عيار 15 دانة وثمانية أخرى عيار 9 دانات و500 بندقية، فيما دفن الفرس بعض المدافع (ربما لا يزال بعضها موجودًا حتى الآن بانتظار من يعثر عليها هي وأسلحة الدمار الشامل – رواية الشاهد العيان جين نيكوديم في von Hammer, p. 523).

رؤوس جثث الجنود الفرس وألقوا بالجثث في نهر دجلة وجمعوا رؤوسهم ووضعوها في أكوام لتكون نصباً تذكاريّاً قبيحاً للانتصار العثماني.41

لقد كانت كارثة حقيقية، مسحت كافة الانتصارات السابقة التي تحققت في الحملة التي شُنَّت على العراق العثمانية. ودفع رجال نادر ثمن ثقته العمياء التي دفعته لتقسيم قواته قبل المعركة ومن ثم شنِّ هجوم أمامي ضد جيش توبال عثمان على أرض غير مواتية، وهو ما وضعه في موقف صعب بين مطرقة بغداد وسندان الجيش العثماني المتقدم. وقاتل رجالُه تحت ظروف مروعة إلا أن اليوم الدامي أظهر أن الجيش الفارسي لم يكن عصياً على الهزيمة كما اعتقد جنوده سابقاً بعدما حققوا سلسلة من الانتصارات البارزة. فالهزيمة على أبواب بغداد كانت أسوأ نكسة في تاريخ نادر العسكري حتى ذلك الوقت، إلا أن ما حدث بعد ذلك كان استثنائيّاً تماماً.

الفصل السادس

نادر شاه

تيمور

رغم مؤامرة رب الحرب الغاضب

وكل ملوك الأرض

لحرماني من هذا التاج

سأتقلده رغماً عن أنوف العالمين

وأمسي حاكماً عظيماً على هذا العالم الشرقي

إن قال الجميع لك العرش.. يا تيمور

الجميع

عاش تيمور ملكاً على آسيا!

تيمور

الآن أصبح التاج على رأسي أكثر استقرارا

منه لو اجتمعت كل الأرباب وعقدت جلسة برلمان

ونصّبوني على فارس ملكاً.

مارلو

كان أول ما جال بخاطر نادر بعد الهزيمة الساحقة التي تلقاها خارج بغداد هو رفع الروح المعنوية بين الأحياء من جنوده ممن فقدوا الكثير من عدتهم وعتادهم. وبعد أن قطع

على علم باستعدادات نادر للدخول في قتال جديد. أما إسطنبول فقد كان يسودها حالة من السأم: حقق العثمانيون انتصاراً تاريخياً على الفرس المنشقين وحرروا بغداد. وقد عادت بعض القوات التي هَزَمت نادر في بغداد إلى إسطنبول.5 وكرم السلطان توبال عثمان وعائلته (وهو شيء لم يرغب فيه توبال). فقد بدا كل شيء بخير على الحدود الشرقية لإسطنبول ولم تُتخذ أية إجراءات لدعم الجيش العثماني الممزّق في كركوك.

فيما كان نادر عائدا عبر الحدود العثمانية، نمت إلى علمه أخبار غير سارة حول قيام ثورة في جنوب فارس. فقد قام حاكم كوجيلو محمد خان بالوش بفرض سيطرته على القوات التي تركها نادر لحراسة حدود بغداد قبل أن يتوجه للهجوم على جيش توبال عثمان. ولكن محمد خان حينما عاد إلى مقاطعته بعد المعركة، انتهز فرصة حالة الفوضى والشك التي سادت بعد الهزيمة، ليثور ضد نادر. ولذلك اتحد مع الشيخ أحمد مدني، الزعيم القبلي السني العربي والذي كان قد أعلن الثورة منذ فترة في المنطقة جنوب وغرب لار.6 وقد حرَّكت ثورة محمد خان المشاعر المؤيِّدة للصفويين بعد الإطاحة بطهماسب، كما حرَّكت مشاعر الغضب بين رجال القبائل العربية وغيرهم في الجنوب الغربي ممن أثارت الضرائب الثقيلة سخطهم. وكان اتحاده حينئذ مع الشيخ مدني يعني أن الثورة قد عمّت جزءاً كبيراً من ساحل الخليج بدءاً من طرفه الشمالي إلى جزيرة قيس.

في ذلك الوقت انتشرت الشائعات التي تؤكد هروب طهماسب إلى خراسان لجمع قواته، وشائعات أخرى تفيد بأنه في حال تفوق الجيش على العثمانيين فسوف يقوم نادر بإعادة طهماسب إلى الحكم. ولم يكن من المستبعد أن يُقدِّم نادر مثل هذه الوعود، ليقوم بتهدئة المشاعر المؤيِّدة للصفويين داخل صفوف الجيش، كما أنه أخرج طهماسب مؤقتاً من خراسان، لكن نادر سرعان ما غيّر رأيه ونقله إلى مازندران.7 وخلال تلك الفترة تحدثت والدة نادر معه عن طهماسب بإيعاز من الآخرين:

> لقد طلبتْ من نادر شاه بعد أن ألقى القبض على الملك– أن يعيده إلى الحكم، ولم يكن لديها أدنى شك من أن جلالته سوف يكافئه على ذلك بأن يمنحه لقب القائد الأعلى مدى الحياة. ثم سألها نادر إن كانت تظن ذلك حقّاً،

فأجابت بأنها واثقة من ذلك، فما كان منه إلا أن ابتسم وقال: «ربما لو كنت امرأة عجوزاً لاعتقدت ذلك أيضاً» وطلب منها ألا تشغل بالها بأمور الدولة.8

وجدير بالذكر هنا أن كل من كان يخشى أن يتحدث إلى نادر مباشرة فإنه كان يطلب وساطة والدته. وهذا دليل على أنه كان يكنُّ لها عظيم الاحترام والتقدير. لقد كان نادر مرتبطاً بعائلته كلها ارتباطاً وثيقاً، أما علاقته بوالدته فقد كانت الأقوى بشكل عام، ربما كان ذلك بفضل ما شاركه إياها من صعاب في فترة طفولته. ولكنه ما من أحد، حتى والدته، كان يستطيع أن يستغل مشاعره لكي يؤثِّر على سياسته العامة.

وبعد أن اطمأن نادر لدخوله إلى العراق العثمانية، قرر أن يترك حكام المقاطعات ليتولَّوا أمر ثورة محمد خان بالوش. لقد كان قرار الهجوم على العثمانيين مرة ثانية– مع وجود ثورة داخلية خطيرة– قراراً صعباً ومحفوفاً بالمخاطرة، إلا أن نادر فكر أن أفضل سلاح للقضاء على الثورة الداخلية هو تحقيقه انتصاراً عظيماً على العثمانيين. لقد كان قراراً جريئاً، فغيره من الرجال كان سيفضل التعامل مع العدو الأضعف أولاً وتأمين المؤخرة قبل مهاجمة توبال عثمان مرة ثانية. لقد تحرَّك نادر صوب العراق العثمانية. وفي 24 من أكتوبر/تشرين الأول بدأت المناوشات بين عناصر الجيشين في ليلان جنوبي كركوك. ولم تكن نتيجة المعركة حاسمة وتراجع رجال توبال عثمان آنذاك داخل أسوار كركوك. وكعادته حاول نادر أن يجر الجيش العثماني إلى معركة حاسمة فتحرك نحو الجنوب الشرقي باتجاه قلعة سورداش التي سقطت في قبضته. وبعد ذلك بقليل، أخبره جنود الكشافة أن هناك اثني عشر جنديّاً عثمانيّاً يتحركون نحوه عبر وادي آق دربند.

قام نادر بمناورة جيدة وضعت قواته في موقف أقوى من القوات العثمانية في أثناء تمركزها في الوادي، ثم أرسل عدة آلاف من مشاة الجزايرجي لقطع الطريق أمام انسحاب الأتراك. وبعد أن انتهى من تلك الاستعدادات قاد رجاله في 9 نوفمبر/تشرين الثاني إلى المعركة. وبعد اشتباك القوات بوقت قليل، تحرك توبال عثمان ومعه الجيش العثماني الرئيسي. ولقد بلغ عدد القوات العثمانية حوالي مئة ألف رجل، لكنهم عوضوا خسائر شهر يوليو/تموز بقوات

أقل كفاءة في سوريا وغيرها. وكان جيش نادر أقل في العدد إلى حد ما.

استمرت المبارزة العنيفة بين الجيشين ساعتين، حيث استخدم الجيشان التركي والفارسي أسلحة قوية للغاية كانت تسبّب جراحاً بشعة في أجساد الجنود. ثم تقدم الفرس إلى الأمام وكلهم حماسة ليثأروا لهزيمتهم السابقة، وهكذا وصلوا إلى قلب الجيش العثماني. نزل توبال عثمان من هودجه وامتطى فرسه محاولاً أن يُلقِيَ الحماسة في قلوب جنوده، إلا أن العبدليين التابعين لنادر قاموا بهجمة شرسة أشاعت الفوضى في صفوف العثمانيين. وفي ذلك الوقت، تلقّى توبال عثمان طلقتين من بندقية قديمة، وسقط ميتاً من فوق جواده. وهرب الأتراك تاركين خلفهم مدافعهم وخيامهم بكل ما فيها.

قام رجل يُدعى «الله يار» بقطع رأس توبال عثمان ثم أخذه لنادر على رأس حربة. ثم قامت قوات الجزايرجية بصب الحديد المنصهر على رؤوس الجنود ممن هربوا من مواقعهم، وأرسل نادر قواته الأفغانية لتعقُّب رجال القبائل العرب الذين خانوا الفرس في شهر يوليو/تموز وقتلَ الكثيرين منهم. وكذلك فقد العثمانيون قرابة عشرين ألف رجل بين قتيل وأسير. وأصدر نادر أوامره بالبحث عن جسد توبال عثمان فأحضروه إليه وأخذ يتأمل فيه لفترة قبل أن يرسله إلى العثمانيين في بغداد كي يقوموا بدفنه.9

بعد انتهاء المعركة، قام نادر بالترتيبات اللازمة لمتابعة حصار بغداد، وكذلك لاحتلال البلدان المجاورة كما كان الوضع في السابق. ثم قرر أن يتوجه بجيشه الأساسي نحو الشمال كي يطرد العثمانيين من تبريز، إلا أن الحامية التركية كانت قد انسحبت قبل أن يصل إلى هناك، وقامت قوات فارسية أخرى بالتحرك داخل البلدة لتأمينها. ورغم ما ورد من أخبار خطيرة عن نجاح محمد خان بالوش في ثورته إلا أن نادر عاد إلى بغداد ولم يمض وقت طويل حتى أرسل له أحمد باشا طالباً التفاوض. وفي 19 ديسمبر/كانون الأول 1733 عقد الرجلان اتفاقية يسترد العثمانيون بموجبها جميع الأراضي التي احتلت منذ عام 1722، ويعيد كلا الطرفان جميع الأسرى والمدافع وتتخذ بموجبها كذلك الإجراءات اللازمة لضمان حسن معاملة الحجاج الفرس في أثناء زيارتهم للأماكن المقدسة في العراق العثمانية.

ولكن نادر كان في الواقع مضطراً لرفع الحصار مبكّراً عن بغداد نظراً لحاجته إلى التحرك شرقاً لمواجهة الثورة التي أخذت تنتشر في خوزستان وفارس. وللمرة الثانية حرمته الثورة من المزايا الكاملة لانتصاره في المعركة. فقد أخبر أحمد باشا قياداته في إسطنبول بأنه لولا المعاهدة لم يكن ليتحمل الحصار الفارسي أكثر من شهر- وقد أخبر نادر نفسه الروس بأن لديه آمالاً عريضة، حيث قام القائد العثماني وعدد من رجاله بإرسال عائلاتهم خارج المدينة.10 لم تعد المعاهدة بفوائد كثيرة على الفرس. حيث أرسل أحمد باشا أوامره بإخلاء جانجا وتفليس ويريفان وشروان11، إلا أن إسطنبول أبت تنفيذ تلك الأوامر. وبدلاً من التصديق على المعاهدة قامت الحكومة العثمانية بتعيين سرعسكر (قائد جيش) جديد هو عبد الله كوبرولو ثم أرسلت تعزيزات إلى قاعدته في ديار بكر شرقي الأناضول.

قبيل مغادرة العراق العثمانية لمواجهة الثورة، قام نادر بزيارة خاطفة للأضرحة الشيعية في النجف وكربلاء، ثم تحرك سريعاً نحو الجنوب الشرقي. وفي طريقه اتحد مع طهماسب خان جالاير والحاكم الجديد لكوجيلو. وكان محمد خان بالوش قد أقام معسكره في وادي شولستان شمال غرب شيراز وكان يعرف باقتراب الحاكمين إلا أنه لم يكن يعلم أن نادر كان بصحبتهما. وتفيد إحدى الروايات أن صوت نادر الذي أخذ يدوي وهو يصدر الأوامر بالهجوم- كان يكفي لإضعاف الروح المعنوية للمتمردين. وقد فضل كثيرون منهم الفرار على أن يواجهوا عقاب نادر مما أدى إلى انهيار جيش المتمردين.12 وحاول محمد خان أن يطارد نادر ومجموعة من رفاقة كي يقتله برمحه إلا أنه فشل وأخذ يقاتل حتى هرب ومعه زهاء ثلاثمائة رجل.

هرب محمد خان بالوش أولاً إلى شيراز ومنها إلى الساحل ثم إلى جزيرة قيس. ولكنه سرعان ما أُلقي القبض عليه هناك وعاد مكبلاً بالأصفاد إلى أصفهان. وقد عمي ومات بعد ذلك بفترة وجيزة.13 كما أُلقي القبض أيضاً على الشيخ أحمد مدني، ثم تم إعدامه. وأصدر نادر أوامره بعقوبات ضد العرب في خوزستان وعلى طول ساحل الخليج، ليشمل جميع المناطق التي أيدت الثورة. وكالعادة استقرت أعداد كبيرة من الثوار في خراسان.

ذهب نادر إلى شيراز حيث احتفل بعيد النوروز في مارس/آذار 1734. وفي أثناء تواجده

هناك قام بتعيين صديقه ومستشاره تقي خان حاكماً على شيراز ومقاطعة فارس. وكانت علاقة نادر وتقي خان علاقة غريبة يصعب وصفها. فقد كانا شديدي الاختلاف. أما تقي خان فكان أحد سكان المدن البارعين في التلاعب من أجل المال ولم يكن من المحاربين، وذلك النوع من الأشخاص الذي لا يستهوي نادراً. ولكن يبدو أن أحد أهم مواهبه هو قدرته على إضحاك نادر. ففي عام 1736 وفي أحد التقارير المرسلة إلى بلادهم، أشار الهولنديون في أصفهان إلى تقي خان بأنه المهرّج الخاص بنادر.14 وقد ظهرت مهارة تقي خان في الأمور المالية لاحقاً في وضع تعديلات التقديرات الضريبية التي بدأت في فارس، والتي طبقها نادر بدءاً من عام 1736. كان نادر عادة ما يتجنب تعيين الحكام على البلاد التي ولدوا وشبوا فيها، ولذا كان تعيين تقي خان حاكماً على مقاطعته علامة على تمييزه بشكل خاص. وقد ثبت على المدى البعيد أنه لم يكن من الحكمة أن يغير نادر مبدأه.

بعد عيد النوروز توجه نادر إلى أصفهان، حيث وصل هناك بنهاية شهر أبريل/نيسان ليجد احتفالات عظيمة وموسيقى وألعاباً نارية استمرت عدة أيام.15 وفي طريقه إلى أصفهان تلقى نادر أخباراً بأن فاطمة بيجوم زوجة رضا قولي قد رُزِقت بمولود ذكر في عيد النوروز. وكان ذلك الولد أول أحفاد نادر، وسمي شاهرخ. حيث كان ابن تيمور يحمل الاسم نفسه وكانت تلك أولى علامات رغبة نادر في أن ينظر إليه الناس بوصفه فاتحاً عظيماً مثل تيمور.

وكما جرى العرف قام أحد رجال نادر[1] بفتح المصحف الشريف كنوعٍ من التنبؤ بقدَر حفيده الجديد، فكانت الآية التي فتح عليها المصحف هي: «وكذلك مكنا ليوسف في الأرض ولنعلمه من تأويل الأحاديث، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون».16

أخذ نادر نسخة من الكتاب وحملها بعيداً بمنتهى الحرص. ولو أنه لم يحصل على مثل

(1) كان هذا الرجل هو الميرزا مهدي أسترابادي الذي سجل هذه الواقعة في تاريخه. ويقول محمد كاظم صاحب الرواية الأكثر تشويقا إن المنجمين في وقت ميلاد شاهرخ تنبؤوا بأنه سيفقد بصره، وسأل نادر عن الشخص الذي سيتسبب في ذلك حتى يقتله (الصفحات 238 – 239).

هذه النبوءة الغامضة لساوره القلق إزاء مستقبل حفيده.

بعد ما يزيد على ستين عاماً وفي عام 1796، وصل أغا محمد شاه[1] إلى مشهد، لينهي حكم شاهرخ حفيد نادر ويزج به في السجون. لقد كان الشاه شريراً ومحباً للانتقام، مولعاً بالجواهر، فقام بتعذيب العجوز الأعمى ليطلعه على مخابئ آخر الجواهر التي ورثها عن جده، ولكنَّ شاهرخ أبى أن يعترف له لبعض الوقت. ومن شدة تأثرهم وحزنهم على ما يجري لسيدهم، قام بعض رفاق شاهرخ بإرسال أحد رجال الدين المعروفين في المدينة (الملا) لكي يتوسط لشاهرخ لدى أغا محمد شاه. وأرسلوا رسالة مع الملا مفادها أن ذلك الرجل العجوز الذي لا حول به ولا قوة- لا يملك شيئاً وأنه لو كانت هناك أي مجوهرات أو أموال باقية لا ينوي هو على التخلي عنها فإنهم بالفعل كانوا سيفصحون عن مكانها لكي يتم الإفراج عن شاهرخ.

روى الملا لاحقاً أنه ذهب لمقابلة الشاه في المساء. وفُتِح أمامه ستار كي يدخل الحجرة التي ينتظره فيها الشاه حيث رأى فيها قطعة كبيرة من القماش منبسطة على الأرض. وفي وسط تلك القطعة، رأى كومة من الجواهر المصقولة وغير المصقولة التي تلألأت في ضوء النيران المتوهجة في الموقد. كان الشاه يجلس على حافة قطعة القماش وقد جمع بعض قطع الياقوت الكبيرة إلى جانبه، وكان منهمكاً في فحصها على ضوء الشمع. جلس الملا بجوار الشاه، ولكن الشاه رغم الضوء الخافت في الغرفة لاحظ الخاتم الصغير المرصع بالياقوت الذي كان يضعه الملا في أصبعه. فسأله الشاه حينئذ: «بأي الأحجار مُرصَّع خاتمك؟» فأجابه الملا: «قطعة ياقوت صغيرة لا قيمة لها». خلع الملا خاتمه وأعطاه للشاه كي يفحصه هو الآخر. وكأحد تجار الجواهر المحنكين أخذ الشاه يقارن الخاتم بكل قطع الياقوت الأخرى وقال: «ما يميز حَجَرك هذا أنه معيار تقييم لكل الجواهر من اللون نفسه». خطر للملا أن هذا التعليق بمثابة تلميح له كي يهدي الشاهَ الخاتمَ وبدلاً من أن يفعل ذلك أطلع الشاه على الرسالة التي يحملها من أهل شاهرخ. وسأله الشاه عن رأيه في تلك الرسالة

---

(1) كان آغا محمد شاه من القاجار، ووصل إلى السلطة في النهاية بعد الحروب الأهلية الطويلة التي أعقبت وفاة نادر. وكان يكره الأفشار. وهندما كان صغيراً، خصاه علي"ولي، ابن أخي نادر (وقد سمل عيني شاهرخ بعد وفاة نادر).

وعما إذا كانوا يقولون الحقيقة، فأجاب الملا على الفور بأنه لا يوجد لديه دليل على أنهم يكذبون. أجابه أغا محمد مشيراً إلى الجواهر الموجودة على القماش- «هل يوجد دليل أقوى من ذلك؟ اليوم خرجت هذه المجموعة للنور والليلة سوف تظهر البقية».

خاب أمل الملا بعد أن أبطلت الأحداث رسالته. وجلس في صمت وكأنه نسي الخاتم إلا أن الشاه الذي ظن أنه ينتظر قراره بشأن الخاتم- بادر بأخذ عود نار من الموقد وخلع الياقوتة بمهارة وألقى بها في كومة الجواهر. ثم أعطى الملا الخاتم مرة ثانية وأمره أن يبحث عن حجر كورنيليان له لمعة جيدة وأن يضعها في الخاتم بدلاً من الياقوتة وأضاف قائلاً «إن خاتماً من الكورنيليان يناسبك أكثر». وكان هذا التعليق بمثابة نهاية للقائهما. وقد سُمِع في اليوم التالي أن شاهرخ قد انهار تماماً وأطلع القائمين على تعذيبه على أماكن بقية الجواهر حتى آخر قطعة.17

وتفيد رواية أخرى أن آخر الجواهر التي اعترف شاهرخ بمكانها (بعد أن سُكِب الرصاص المنصهر على رأسه) هي ياقوتة ضخمة سعى أغا محمد شاه وراءها كثيراً وهي التي كانت تزين تاج أورانجزيب إمبراطور المغول في يوم من الأيام.18 ثم أُرْسِل شاهرخ إلى مازانديران بصحبة عائلته إلا أنه توفي في طريقه جراء إصاباته أثناء التعذيب في دمغان. وكان هذا هو قدر ذلك الصبي الصغير الذي ولد في مشهد في عيد النوروز عام 1734.

بعد أن هزم أعداءه في الداخل والخارج، توبال عثمان ومحمد خان بالوش، استعاد نادر مكانته وثبَّت مركزه في فارس على المستويين الإستراتيجي والسياسي. وأصبح الوقت مناسباً لخروج البقية الباقية من القوات العثمانية من الأراضي الفارسية إلى الأبد. وقد وصل مبعوث من السلطان العثماني إلى أصفهان يحمل رسالة مفادها أن لدى عبد الله كوبرولو، قائد العسكر الجديد، السلطة الكاملة كي يعقد سلاماً مع فارس. وهو ما كان موضع سخرية نادر، وأرسل على إثرها رسالة لعبد الله تحمل إصراره على استعادة المقاطعات شمالي أراكس.

كما استقبل نادر بعثة روسية يرأسها الأمير جوليتسين، الذي أراد أن يجدد نادر حربه على الأتراك مقدماً له وعداً بأن يتم إخلاء الحصون الروسية التي لم تزل باقية على ساحل

بحر قزوين وذلك كحافز له. ساورت نادر الشكوك وأبى أن يكون مخلب قط للروس. ولكنه كان ينوي أن يهاجم العثمانيين على أي حال. ومما زاد من شكوكه أنه سمع أن الروس أرسلوا فاختانج حاكم جورجيا إلى دربند بتعليمات لغزو شاماخي وتفليس.

رغم ذلك استمر التحالف غير الرسمي مع الروس، وغادر جوليتسين أصفهان بصحبة نادر في 14 يونيو/حزيران متوجهين صوب الشمال الغربي. وحين وصل نادر إلى أردبيل في 10 أغسطس/آب،19 تلقى رسالة جديدة من عبد الله كوبرولو تطلب تأجيل تسليم الأراضي القوقازية مدة عامين، وهو ما رآه نادر دليلاً نهائيّاً على عدم التزام العثمانيين بشروط معاهدة السلام التي أبرمها مع أحمد باشا في ديسمبر/كانون الأول الماضي. وهنا أدرك نادر أن الحرب يجب أن تدق طبولها من جديد، وأنه سيضطر ليخرج بحملة إلى الأراضي القوقازية الصعبة وهو الأمر الذي طالما حاول تجنبه. ولكنه قرر أن يتحرك أولاً نحو شاماخي التي يحتلها العثمانيون بقيادة سورخاي، خان شروان.

أرسل نادر قبل وصوله رسالة إلى سورخاي يذكره بقرار أحمد باشا بإخلاء شاماخي. وجاء رد سورخاي قاطعاً: «لقد غزا جنودي الأسود شروان بسيوفهم المعقوفة القوية- فبأي حق يتدخل أحمد حاكم بغداد في أموري؟»20 ولكن مع اقتراب نادر انسحب سورخاي شمالاً إلى تلال داغستان. واحتل الفرس شاماخي وفي الخامس عشر من سبتمبر/أيلول، تحرك نادر مجددا باتجاه حصن سورخاي الحصين في قوموق على رأس نصف جيشه (المكون من 12 ألف رجل). أما الجزء الثاني من الجيش بقيادة طهماسب خان جااليار فقد اتجه ناحية الشرق ليلقى سورخاي في ديف باتان.

وقد شمل جيش سورخاي بجانب القوات العثمانية بعض التتار من القرم. حيث أدى تحرك هؤلاء التتار مسافة طويلة نحو داغستان مروراً بالسواحل الشمالية والشرقية للبحر الأسود، بأمر من قادتهم في إسطنبول، إلى توتر حالة السلم القائمة بين الإمبراطورية العثمانية وروسيا. أما هجوم طهماسب على أعدائه فكان شرساً حيث ألحق بهم الهزيمة واستولى على قلعة خاشماز المبنية حديثاً.21 ثم لحق نادر بسورخاي بعد ذلك بفترة وجيزة وألحق به هزيمة ثانية. ولكن سورخاي توغل هارباً نحو الشمال حتى وصل إلى أفاريا، فيما

استولى نادر على قوموق. وفي الوقت نفسه، شتّتت الثورة التي قام بها الملك الجورجي تيموراز حاكم كاخيتي لدعم الفرس انتباه العثمانيين. وحينئذ قرر نادر أن الوقت قد تأخر لكي يقوم بحملة في جبال أفاريا المثلجة، وأخذ رجاله على إثر ذلك، واتجه جنوباً ليحاصر جانجا حيث وصلها في 3 نوفمبر/تشرين الثاني عام 1734.

وفي جانجا قدّم الأمير جوليستين لنادر بعض الأخبار، فقد أثار نجاحُ نادر إعجابَ الروس الذين كانوا على وشك الانخراط في حرب مع الإمبراطورية العثمانية. وأخطرت الحكومة الروسية نادر بشكل رسمي بأن قواتها ستقوم بإخلاء الأراضي الفارسية مقابل استمرار التحالف بينهما ضد العثمانيين. وفي أكتوبر/تشرين الأول تلقى ليفاشوف، القائد الروسي في منطقة بحر قزوين22 الأوامر بإخلاء المواقع التي تمركز فيها والتقهقر إلى دربند تمهيداً لانسحاب شامل. وفي تلك الظروف، تأكدت عدم مصداقية أي ادعاءات مفادها أن الروس سوف يساعدون فاختانج حاكم جورجيا لكي يسترد المقاطعة ومن ثم فقد تراجع إلى أستراخان.

ثم عاد لحصار جانجا مرة ثانية، إلا أن نادر قد أطبق حصاره هذه المرة بطريقة أعنف مما فعل في بغداد. وانسحبت الحامية العثمانية إلى القلعة، وقام نادر برفع موقع المدافع كي يصيب الجدران بوابل من الطلقات حيث وضعها فوق سطح المسجد داخل البلدة- لكن الأتراك دمروا المسجد بأيديهم قبل أن تنجح المدفعية الفارسية في مهمتها. وكما حدث في بغداد، كانت المدفعية العثمانية تتفوّق على مدفعية الفرس سواء في العدد أو في الوزن أو في المدى أو في ثلاثتهم معاً.

قام الفرس بحفر الكثير من الأنفاق بهدف وضع كميات من البارود في نهاية الدهاليز تحت جدران القلعة. إلا أن المدافعين اكتشفوا الأمر وبدؤوا في حفر نفاقهم. وحين التقى الفريقان تحت الأرض في أثناء الحفر دار عراك مضطرب وشرس باستخدام الخناجر وأدوات أخرى كانوا يستعملونها. نجح الفرس في تفجير ستة من أنفاقهم في وقت واحد، فلقي سبعمائة تركي مصرعهم إلا أنهم لم يتمكنوا من الهجوم على الجدران وقتلت أنفاق الأتراك حوالي ثلاثين أو أربعين فارسيّاً.23

وقد تعرض نادر نفسه إلى مواقف في غاية الخطورة نتيجة لإصراره على الإشراف على العمل، ففي أحد المواقف سقطت قذيفة وسط جماعة من رجاله فيما كان يستريح في أحد المساجد في البلدة حيث أودت بحياة أحد حراسه. وفي موقف آخر أطاحت قذيفة مدفع برأس رجل يجلس بجواره وأغرقت الدماء معطفه. كما راح قائد المدفعية في قوات نادر ضحية قذيفة. وحين علم الروس بالأزمة التي يواجهها رجال نادر قاموا بإرسال مجموعة من المهندسين بالإضافة إلى أربعة ضباط مدفعية في زي فارسي لتقديم المساعدة وكان معهم آنذاك بعض مدافع الحصار الثقيلة.

لقد كانت بغداد مدينة إقليمية كبرى، ولم يكن غريباً أن يجد الفرس صعوبة في حصارها وأن ينتهي بهم الأمر إلى تجويع الحامية حتى تستسلم. لكن جانجا مدينة صغيرة ولذا فقد كان فشل الأساليب الفارسية في الحصار أمراً فاضحاً، خاصة بعد أن ظهرت ضرورة قبول المساعدة الروسية. وفي أوروبا وفي ذلك الوقت، حدث تقدم علمي كبير في فنون الحرب والحصار وضع أسسه المهندس العسكري الفرنسي العظيم فوبان. وكان قد عُرِف عن العثمانيين تفوقهم في فنون الحصار لقرون، وكان لديهم عدد كبير من المهندسين المدربين وكذلك الكميات الكبيرة من مدافع الحصار الثقيلة.

وللمرة الأولى في فارس قام نادر بتزويد جيش كبير بالأسلحة التي تعمل بالبارود، كما قام بتدريب قواته على استخدام البنادق والمدافع الخفيفة وهو ما ترك آثاراً مدمرة في أرض المعركة. لقد كان ذلك إنجازاً عظيماً ولكن الأمر– مع وجود الرجال والمواد اللازمة والأموال والنظام– لم يصبح بتلك السهولة والوضوح. فقد كان ضرب حصار فعال أمراً شديد الصعوبة، ولم يكد نادر يبدأ هذه العملية. فقد كان تصنيع المدفعية اللازمة للحصار مجرد خطوة أولى. وكان نقل مدافع الحصار الثقيلة إلى مواقعها في بلد كبير كهذا تنقل فيه البضائع على ظهور البغال والإبل مشكلة يستحيل التغلب عليها. ففي أوروبا كانت الأسلحة تنقل عن طريق الماء عبر الأنهار حيثما أمكن ذلك. وقد حاول نادر لاحقاً أن يفعل الأمر نفسه ولكن لم تكن هناك أنهار كبرى تكفي لنقل الأسلحة من خلالها، بل كانت الأنهار قليلة جدّاً في الهضبة الإيرانية الوسطى. وبعد مرور عشرة أعوام وفي منتصف

أربعينيات القرن الثامن عشر أصبح لدى نادر كمٌّ لا يستهان به من مدفعية الحصار، إلا أنه ظل يعاني من مشكلات تتعلق بأسلحة الحصار، قد يكون أحد أسبابها أنه لم يكن يملك أسلوب الحصار الذي يعتمد على التروي والصبر والاستقرار.

ورغم المساعدة التي قدمها الروس إلا أن حصار جانجا قد استمر طويلاً دون جدوى، ومثلما حدث في بغداد قرر نادر أن البلدة لن تسقط إلا بالإغلاق الكامل. فترك عدداً كافياً من القوات لحصار البلدة وهو يرى أن عبد الله كوبرولو لم يكن يرغب في الخروج من قاعدته في قارس فتحرك إلى تفليس وضرب حصاراً على الحامية العثمانية هناك بمساعدة الجورجيين.

شعر الروس بالرضا عن الطريقة التي تسير بها الحرب، فقاموا يوم عيد النوروز (21 مارس/آذار 1735) بتوقيع معاهدة مع نادر في جانجا أقيمت بموجبها الحدود الفارسية/ الروسية على نهر سولاق ويتم كذلك بموجبها إجلاء جميع القوات الروسية عن الأراضي الفارسية خلال شهرين. واتفق الطرفان على تحالف دائم على ألا يقوم أي من الطرفين بعقد سلام مع الأتراك العثمانيين قبل الحصول على موافقة الطرف الآخر. كان الروس قد فقدوا ما يقرب من مئة وثلاثين ألف رجل في فارس منذ عام 1722 بسبب الملاريا والأمراض الأخرى التي تفشت في مناخ جيلان الحار الرطب، لذا لم يتردد الروس في الرحيل. فمنذ وفاة بطرس الأكبر، لم يعد هناك دافع لتحقيق التوسع الاستعماري الروسي، وأصبح الشاغل الأهم هو كيفية حماية المنطقة القزوينية من العثمانيين. وقد اطمأن الروس إلى ذلك خاصة بعد أن فرض نادر سيطرته. ولو لم تَؤُل لما آلت إليه، فربما كان سيرضيهم أن يصبح فاختانج، حاكم جورجيا، النائب الروسي في القوقاز، لكنهم لم يرسلوا أي قوات إضافية إلى المنطقة كي يحققوا ذلك الهدف. فقد كان يكفيهم أن يحارب نادر معركتهم نيابة عنهم في القوقاز.

بعد أن قبل نادر معاهدة جانجا جدد جهوده لكي يستدرج عبد الله كوبرولو وجيشه إلى معركة جديدة، وأرسل قواته لتنتشر على سواحل قارس. وكان الجليد حينئذ لا يزال يغطي التلال، وكان التحرك صعباً. حتى اضطر الفرس في إحدى المرات لأن يستخدموا

سيوفهم لشق طريقهم في وادٍ ضيق يغطيه الجليد. وبدأت المناوشات حينئذ إلا أن الجيش العثماني الأساسي لم يخرج إلى المعركة.24 حيث لم يكن عبد الله كوبرولو مستعداً للمخاطرة بتلقي هزيمة مثل تلك التي تلقاها توبال عثمان وغيره من القادة العثمانيين، كما أن خطته لم تكن واضحة. وربما كان ينتظر تعزيزات إلا أن نادر تراجع.

وفي أباران التقى نادر برئيس الكنيسة الأرمنية، أبراهام الكريتي. وجد الأرمينيون أنفسهم في ذلك الوقت في موقف التابع، ممزقين بين الفرس والعثمانيين، يعاملون كمواطنين من الدرجة الثانية وليست لديهم أي سلطات سياسية. ففي تلك الظروف أصبح القس هو ممثل الأرمينيين المدافع عن حقوقهم، كما أنه كان زعيمهم الديني أيضاً. والتقى القس بنادر كثيراً في الشهور التالية وسجل ملاحظاته عنه لاحقاً والتي أصبحت تمثل تقريراً عن فترة قصيرة، لكنها مهمة، في حياة نادر. وقد ذكر في إحدى ملاحظاته أن نادراً كان يصر على أن يتم كل شيء بسرعة:

> أقبلتُ عليه وأقرأته السلام وقلت: «مرحباً بك أيها الخليفة! كيف حالك؟ بخير؟ فلتمتطِ جواداً كي نتقدّم!» وفي تلك اللحظة امتطى جواده ورحل بصحبة رجاله ثم تبع جيشه. وأعطاني بعض حراسه الشخصيين ثم تبعتهم...25

بعد عدة أيام، طلب نادر من القس أن يعود إلى دير إكميادزين، مقر القس الذي يُعد مركز المسيحية الأرمينية والذي يقع في غرب يريفان. حيث ذهب نادر إلى هناك للقاء القس ووصل إلى الدير يوم الاثنين الثالث عشر من يونيو/حزيران عام 1735. ولكن حدث بينهما سوء فهم في ذلك الوقت، وكان من الممكن له أن يودي بالعلاقة بينهما في بدايتها. ولم يتمكن القس من موافاة نادر عند وصوله، وأرسل إليه نائبه في اليوم التالي، الأمر الذي رآه نادر إهانة له. ثم عاد النائب إلى القس وهو حزين ومضطرب، وأخبره بأن نادر غضب بشده وسأله عن السبب الذي منع القس من الخروج لاستقباله والترحيب به.

وحين أدرك القس الخطأ الذي اقترفه امتلأ قلبه بالخوف واليأس. فإلى جانب الخطر الذي عرّض نفسه له، كان نجاح هذه الزيارة مهماً للشعب الأرمني بأكمله. سجد القس

على أرضية الكاتدرائية وأخذ يصلي، وهو على يقين من أن الله وحده هو من يملك قدره. ثم ذهب إلى المعسكر ليقابل نادر وقلبه يملؤه الرعب والترقب. سأله نادر عن سبب عدم مجيئه قبل ذلك، فأجاب القس وفرائصه ترتعد بأنه كان يجهل تقاليد البلاط الفارسي، وأنه لو كان سيعاقب أي شخص بإعدامه فيجب أن يكون هو وحده. التفت نادر إلى كبير مستشاريه الميرزا مهدي وقال له غاضباً: «لماذا لم تخبر الخليفة؟ إنه أجنبي غريب لا يعرف تقاليدنا». ولحسن الحظ أن نادراً كان قد قرر أن يسامح القس، فهدأ حينئذ ثم قال: «إن الخليفة يقول الصدق، فهو لا يعرف تقاليد بلادنا. ولذلك فسوف نخلع عليه الهدايا.»26

كانت الهدايا التي أعطاها نادر لإبراهام عبارة عن عباءة من المخمل مطرزة بالذهب ومزينة بالفراء. والأهم من ذلك أن نادراً منح القس كتاباً يؤكد على وضعه ككبير كهنة ويضع إكميادزين تحت حمايته. وكان الميرزا مهدي هناك ليدون الملاحظات حول محتوى الوثيقة التي كان سيكتبها لاحقاً هو ومساعدوه. حيث وصف القسُّ ميرزا فيما بعد بأنه «رجل متواضع ومهذب ويقظ ومحترم».27

كما أصدر نادر مرسوماً ينص على أن من يدخل الإسلام من الأرمن سوف يفقد إرثه. قد يبدو ذلك قراراً ظالماً إلا أن هدفه كان التخفيف عن الأرمن باتخاذ إجراء مخالف تماماً لحكم الشاه سلطان حسين وحكم الملوك السابقين، حيث كان يحتفظ بموجبه كل من يغير دينه بالممتلكات التي يرثها عن أقاربه الأرمن (ما مثّل حافزاً قويّاً لاعتناق الإسلام وأداة لقمع الأرمن). كان نادر قد أعجب بالقس، لكن من المؤكد أنه قرر قبل زيارته لإكميادزين أن يخفف من الأعباء التي تثقل الأرمن، وأن يؤمن لهم حياتهم لأسباب تتعلق بالسياسة. فقد كان كسب شعب كبير ومزدهر مثل الشعب الأرمني يعد جانباً مهمّاً من سياسة نادر الجديدة التي تهدف إلى تدعيم مكانته السياسية عن طريق كسب تأييد العناصر غير الشيعية في فارس.

بعد انتهاء هذا اللقاء سمح نادر للقس بالعودة إلى الدير، واتخاذ الاستعدادات اللازمة. وفي وقت لاحق في ذات اليوم، ذهب نادر إلى هناك وخلفه موكب كبير يحملون

الأعلام والشموع والكثير من الحلوى والأشياء المبهرة. وأخذه القس في جولة في أنحاء الكاتدرائية وأخذ يشرح له المعالم المختلفة. وسأله نادر عن الرسومات الموجودة في المبنى. ثم جلس وطلب أن تبدأ المراسم. وكان الوقت ساعتها وقت صلاة الغروب حيث مكث حتى انتهت المراسم ثم سمح بعد ذلك لأقاربه من النساء بزيارة المكان.

وفي اليوم التالي ذهب نادر في الفجر وقضى بعض الوقت في الكنيسة، يشرح معالمها لرفاقه كما فعل القس في اليوم السابق وهو يأكل الحلوى ويشرب الشربات ويدخن غليونه. وحين غادر الكاتدرائية استدعى القسَّ وشكره قائلاً: «لا تقلق ولا تحزن ولا تخف، هذا بيتنا وأنت شيخ جليل. ولسوف يمتلئ بيتك بالخيرات (وهي مقولة تشبه مقولة «فلتنعم بالصحة وليعم الخير على بيتك»)». كما أخبر القس بأنه سوف يدفع له مقابل العلف الذي أكلته خيوله، ثم ضرب جواده بالسوط وتحرك لكي يقيم معسكراً جديداً في منطقة أبعد قليلاً.28

بعد ذلك الفاصل الذي قضاه نادر في إكميادزين، حرك جيشه نحو يريفان التي استولى عليها العثمانيون حيث حاصر هذه المدينة كذلك. وكان نادر يعمل وفق مبدأ معين، إذ لو بدا أن جانجا وتفليس ويريفان على وشك السقوط في قبضته فإن اقائد العسكر العثماني سيضطر لمغادرة قارس والدخول في اشتباك.29 وبعد وقت قصير، جاءته الأخبار أن عبد الله كوبرولو كان يتحرك متجهاً إلى يريفان على رأس خمسين ألفاً من الفرسان وثلاثين ألفاً من المشاة وأربعين مدفعاً، وأنه عبر نهر أربا تشاي. وكما جاء على لسان القس أبراهام، قال نادر: «الحمد لله لقد انتظرت ذلك طويلاً.»30 تحرك نادر سريعاً على رأس جنوده المتقدمين الذين وصل عددهم قرابة خمسة عشر ألف جندي بالإضافة إلى قواته التي انضمت إليه والبالغ عددها ثمانية عشر ألف جندي لكي يحاصر العثمانيين ومن خلفه الجيش الفارسي الأساسي وقوامه أربعون ألف جندي. وكان كوبرولو قد خيم مع جيشه بالقرب من باغاورد (إغفارد) شمال يريفان.

وفي يوم الأحد 19 يونيو/حزيران، تقدم العثمانيون وبدؤوا القتال بعد أن تنبهوا لاقتراب نادر وبعد أن اطمأنوا إلى تفوقهم العددي. وما يعيد إلى الأذهان كلمات الأمير

دوفين في مسرحية هنري الخامس لويليام شكسبير ما قاله أحد القادة العثمانيين في الليلة السابقة: «أين سيختبئ مقاتلو الفرس من فرساني الذين سيوسعونهم ضرباً وقتلاً؟[31] لكن كوبرولو لم يكن قائداً على مستوى توبال عثمان كما أن نادر تعلم بعض حيل قائد العسكر الراحل.

بدأ القتال في الثانية ظهراً. ووضع نادر بعض رجاله في كمائن (في الغابة والوادي)، وهجم على العثمانيين بثلاثة آلاف رجل فقط§ من فوق التلال التي نصب عليها الفرس خيامهم في الليل، مما خدع العثمانيين الذين ظنوا أنهم سيواجهون هذه القوة صغيرة العدد فقط. وفي أثناء اشتباك هذه القوات، قاد نادر فرقة من جنود الجزايرجي البواسل (وهم حوالي ألفين أو ثلاثة آلاف رجل) ليستولوا على بعض المدفعية العثمانية التي نشرها عبد الله باشا على التل الصغير. وقد ارتبكت صفوف العثمانيين فوق التل من تلك المفاجأة. كانت المدافع ذات أهمية كبيرة في الجيش العثماني، لذا فقد كان ضياعها ضربة شديدة وجهت إليهم. في الوقت نفسه تحركت مجموعة ثانية من الفرس باتجاه التركيز المدفعي الآخر على الجناح التركي الأيسر واشتبك قلب الجيشين. ومع إبطال عمل المدفعية التركية أو تشتيتها، انهالت المدفعية الفارسية بنيرانها على قلب الجيش التركي ومعها ما يزيد عن خمسمئة زانبوراك، مما تسبب في حالة فوضى بين صفوف الجيش التركي الذي بدأ في الانسحاب. كانت هذه هي اللحظة التي اختارها نادر ليبدأ الهجوم ببقية الفرسان إلى جانب القوات المتمركزة في الكمائن لكي يتحول الانسحاب التركي إلى هروب نهائي. إلا أن نادراً استمر في ملاحقتهم حتى اعترض طريق الفارين من الأتراك بقوة قوامها ألف فارس.

وفي أثناء محاولة الهرب، تبع فارسي يدعى رستم عبد الله كوبرولو، فكبح زمام جواد كوبرولو وهو يحاول أن ينزل على طريق صخري إلى وادي نهر شديد الانحدار. وفي أثناء القتال سقط كوبرولو من فوق جواده وجرح رأسه بعد أن اصطدم بحجر، ثم نزل رستم عن جواده وقطع رأس كوبرولو وأخذه لنادر. كما قتل العديد من كبار قادة الجيش التركي وتمت ملاحقة الفارين من العثمانيين والقبض عليهم على بعد عدة أميال على

طول الطريق إلى نهر «أربا تشاي». ثم انضم إليهم الأرمن المحليون وسدوا الطريق أمام محاولات الهروب العثمانية مما ساعد الفرس على ملاحقتهم.

قدَّر بعض من عاصر هذه المعركة عدد الأتراك الذين قتلوا أو أسروا بحوالي أربعين إلى خمسين ألف رجل. وقد يكون في ذلك بعض المبالغة إلا أن نادر بنفسه قد روى أن الفرس «قطعوا الجنود الأتراك إرباً إرباً فلم يبق أحد منهم على قيد الحياة، وكذلك كان مصير عدد كبير من الفرسان العثمانيين، وأضاف أنه «بفضل الله- تعالى- قتل الجيش كله تقريباً». كما كتب القس إبراهام الذي كان موجوداً هناك أنه رأى آلاف الجثث منتشرة في الريف، وأن الكثيرين من الفارين المصابين لجؤوا إلى إكميادزين في اليوم التالي. وقد أمر القس أن يقوم الكهنة برعاية الأتراك والأرمن. وتوفي بعض هؤلاء الرجال إلا ان أغلبهم سرعان ما تعافى ومضى في طريقه. أما المسلمون فقد أرسلوا إلى الحامية العثمانية في يريفان بحلول الليل.32 واستولى الفرس الذين لم يتكبدوا خسائر تذكر على 32 مدفعاً إلى جانب كميات كبيرة من الأمتعة والحيوانات وأشياء أخرى ثمينة. كما أرفق نادر رؤوس القادة الأتراك بجثثهم وأرسلها إلى الحامية العثمانية في قارس ويريفان كي يتم دفنها.

«منذ أن بدأت خوض الحروب لم يحالفني الحظ مثل هذه المرة33 هذا ما قاله نادر في رسالة أرسلها لجوليستين فيما بعد (رحل جوليستين إلى دربند قبل ذلك بفترة وجيزة في طريق عودته إلى سانت بطرسبرج). لكن الحظ وحده لم يكن سبب انتصار نادر، فقد لعبت مهارته إلى جانب عدم كفاءة العثمانيين دوراً كبيراً. لقد هزمَ العثمانيين بقوة أقل كثيراً، ويبدو أن الجيش الفارسي الأساسي لم يدخل المعركة على الإطلاق. ولقد كان العدد الكبير للجيش العثماني معوقاً بقدر ما كان جانب قوة (حيث لم يتمكن كوبرولو من إشراك عدد كبير من جيشه الخاص). وكان تحريك هذا العدد الكبير والدخول به في مناورات أمراً صعباً وبطيئاً في وقت كان الجيش الفارسي العالي التدريب الصغير العدد هو صاحب المبادرة دائماً. وللمرة الثانية كان مفتاح المعركة هو قوة الأسلحة النارية. فقد كتب القس لاحقاً أن أسلحة العثمانيين لم تطلق إلا مرتين أو ثلاث مرات في الوقت الذي أطلقت

المدافع الفارسية فيه حوالي ثلاثمئة قذيفة أو أكثر[1]. حقق نادر التفوق المدفعي بفضل أسلوبه الوقائي ضد المدفعية التركية، مما مكنه لاحقاً من ضرب العثمانيين بواسطة مدافعه وبنادق الزانبوراك دون أدنى مقاومة.

كان نادر مديناً بنجاحه لشجاعة واستبسال قواته إلا أن حرصه الشديد في تدريب وتسليح القوات كان عاملاً قوياً كذلك. وقد أطرى القس إبراهام على شجاعة تلك القوات لاحقاً حين وصفهم وهم فوق ظهور الخيل طوال النهار يغطون منحدرات الجبال الصخرية بأنهم «مثل طيور الحجل». ولم يعرفوا الشعور بالتعب ولم تكن كلمات الشكوى ضمن قاموسهم. لقد كانوا يكسون الصخور ليفتحوا طرقاً ويحفرون في الأرض وفي الجليد ويقاتلون أعداءهم بشجاعة وينتصرون في النهاية. كانوا يحملون بنادق ضخمة وبحوزة كل منهم جعبتان مملوءتان بالبارود حتى لا ينفد منهم. وكان الكثيرون منهم يرتدون الدروع، وبعضها في هيئة سلاسل وبعضها في هيئة صفائح تغطي الصدر والظهر وكانت هناك أيضاً دروع مكونة من أربع صفائح منها اثنتين تحت الذراعين. وكانت هناك تدريبات صارمة طوال الوقت للمشاة والفرسان على حد سواء وإذا ما تسبب أحد الفرسان في قتل جواده من شدة إرهاقه، فإنه كان يحصل على البديل في الحال.34

كانت معركة باغاورد حاسمة مما غير وجه الأحداث في القوقاز. وأمر نادر فيما بعد ببناء نصب تذكاري على قمة التل الذي عسكر عليه الفرس في الليلة السابقة على المعركة، وذلك على شكل خيمة وكان ينام هو فيها. وفي إسطنبول تم خلع الصدر الأعظم من منصبه بعد أن وصلت الأخبار إلى هناك. وبعد أن زال الأمل في فك الحصار، استسلمت حامية جانجا العثمانية في 9 يوليو/تموز وكذلك حامية تفليس في 12 أغسطس/آب. وعين نادر حاكماً على كل مدينة ثم قام بزيارة شخصية لتفليس لاحقاً. ولم تتخلَّ يريفان عن صمودها إلا أن نادراً ضرب الحصار على قارس ومنع وصول المياه إلى المدينة حتى يضغط على الحكومة العثمانية لعقد سلام معه.

وبالإضافة إلى تلك النتائج، أسهم انتصار نادر في باغاورد في السيطرة على تهديد آخر،

(1)

يتمثل في وصول ما يزيد على خمسين ألف من تتار القرم إلى داغستان بقيادة خان التتار حاكم القرم. وما شجع كوبرولو على التلكؤ في أثناء حملة الربيع إنما هو انتظارة وصول تلك القوات. كما أن تحركهم كان سبباً في التعجيل بقيام حرب بين العثمانيين وروسيا. فقد استاء الروس من تحرك التتار عبر الأراضي التي كانوا يعتبرونها تحت سيطرتهم الخاصة على السواحل الشمالية والشرقية للبحر الأسود. واجتاحت قوة روسية أراضي القرم، وقام جيش كبير بغزو الأراضي العثمانية في ربيع عام 1736 والاستيلاء على أزوف.

أصر نادر في مفاوضاته مع العثمانيين على أن يتخلوا عن قارس إلا أنه قبل لاحقاً أن يترك لهم قارس مقابل يريفان التي سُلِّمت للفرس في 3 أكتوبر/تشرين أول عام 1735. ورغبة في استرضاء نادر وتحت ضغط من الروس، وافق العثمانيون كذلك على إصدار الأوامر إلى خان التتار بأن ينسحب. وتظاهر نادر بالتحرك نحو داغستان لمهاجمة التتار تاركاً في طريقه مجموعة من الجنود اللزجيين الذين حصنوا أنفسهم فوق قمة جليدية في أحد الجبال العالية،35 إلا أن التتار من أحفاد قبيلة المغول الذهبية لم يحاولوا الدخول في قتال وبدؤوا رحلة العودة الطويلة إلى بلادهم قبل اقتراب نادر منهم. لقد قطعوا مسافة ألف وخمسمائة ميل في رحلة ذهاب وعودة دون تحقيق شيء يذكر.

لقد حقق نادر نصراً أكيداً على العثمانيين في القوقاز في صيف 1735 ولكن من الواضح أنه في ذات الصيف قد تعرض لهزيمة صغيرة من عدو آخر، إلا أنها كانت مؤثرة. فمن المرجح أن نادر قد أصيب بعدوى الملاريا خلال هذه الفترة. لقد حاول في البداية أن يخفي آثار مرضه إلا أنها بدت ملحوظة خلال بضع سنوات.

على الرغم من طقس الشتاء البارد وصعوبة التحرك عبر الجليد الذي يغطي الجبال فإن نادراً تابع حملته لإخضاع اللزجيين مستغلاً الحماسة التي أشاعها بانتصاراته وهو ما أضعف من نفوس أعدائه. واستغل نادر الأفغان وجنود الجزايرجي في ملاحقة سورخاي ومن معه من رجال القبائل فكانوا بمثابة عصابات تطارد اللزجيين وتطيح بهم خارج حصونهم في الجبال. وأخيراً وفي يناير/كانون الثاني 1736 انتصر نادر على سورخاي في وادي غازي قوموق وهرب قائد اللزجيين مرة ثانية إلى أفاريا. أما القادة الآخرون

فقد توقفوا عن القتال، بل إن أحدهم (أحمد خان) أرسل ولده واثنتين من بناته لنادر علامة على استسلامه.36 إلا أن سورخاي بقي حرّاً طليقاً. ولم ينجح نادر أبداً في القضاء على المقاومة اللزجية تماماً، فقد كانت هناك دائماً حلقة مفقودة. ثم انطلق نادر من تلال داغستان قاصداً سهل مُغان.

بحلول نهاية عام 1735 كان نادر قد نجح في محو آثار هزيمته خارج بغداد في صيف 1733 وأتم إعادة غزو غرب وشمال غرب فارس. وكما ذكر المؤرخ الخاص به فيما بعد، فقد «أخذ مفاتيح النصر من أيدي أعدائه وأنقذ الفرس من شبح العار والعبودية».37 كما أخضع نادر ثورة محمد خان بالوش وأعاد حدود فارس لموقعها قبل الثورات والغزوات الأفغانية باستثناء قندهار. ولم يكن تفوقه، أو شرعية حكمة، محل نزاع داخل حدود فارس، فقد كان جيشه يثير الخوف في أرجاء المنطقة. والآن حان الوقت لأن يصل نادر إلى المكانة التي تتناسب مع ما حققه من إنجازات. ولكن، كالعادة لم يصل نادر إلى هدفه بطريقة مباشرة.

في صيف عام 1735 أرسل نادر مراسيم إلى جميع أنحاء فارس يطلب فيها من النبلاء وكبار رجال الدين ورجال الدولة أن يستعدوا للسفر إلى اجتماع موسع في تبريز أو قزوين بمجرد أن تعود يريفان تحت الحكم الفارسي. وكان من المقرر أن يقوم هذا الاجتماع بمناقشة شكل ثابت للحكومة في البلاد واتخاذ قرار بذلك الصدد. وكان نادر قد زعم أن ما منعه من اتخاذ تلك الخطوة حتى ذلك الوقت هو ضرورة استعادة المقاطعات التي تم الاستيلاء عليها. ثم أرسل أوامر أكثر دقة فيما بعد، حيث قام بتحديد الشخصيات التي ستحضر ذلك الاجتماع كما قرر مكان إقامته، سهل مُغان.38 وسهل مُغان هو مساحة شاسعة من الأرض العشبية الخصبة التي تشترك فيها حالياً إيران مع أذربيجان.

> إذا وضع المرء تفاحة على الأرض فيمكنك أن تراها من مسافة بعيدة جداً فلا يوجد أي أحجار على هذه الأرض السهلية المنبسطة. لكن الكثير من الأعشاب والحشائش تنمو فيها، ويعيش بها الكثير من الخنازير البرية التي تتحرك في قطعان مثل الخراف.39

اختار نادر سهل مُغان نظراً لاتساعه ولوفرة الماء والعشب الذي سيكون علفاً للأعداد الكبيرة من الخيول والحيوانات الأخرى التي ستكون بصحبة المبعوثين إلى الاجتماع. لكن ما كان يفتقر إليه هذا السهل هو وجود أماكن يحتمي فيها الحاضرون من حرارة الجو، وكان من المتوقع أن يصل عددهم إلى عشرين ألف مبعوث. فأمر نادر ببناء اثني عشر ألف كوخ من القصب. أما المباني الأكثر أهمية (بما فيها القصر بأروقته وإيوانه) فاستخدم الخشب في بنائها. كما كانت هناك مساجد ومراحيض وأسواق بل كل ما يلزم لإنشاء مدينة صغيرة. وكان هذا الموقع قريباً من جافاد، حيث يحده من الجنوب أراكس ومن الشمال القورة وغرب النقطة التي يلتقي فيها النهران. وتم بناء جسرين مؤقتين أحدهما يمر فوق نهر أراكس والآخر عند التقاء النهرين. وأقيم معسكر الجيش بعيداً عن الاجتماع حول الجسر الذي يمر فوق أراكس. أما الجسر الموجود أدنى التقاء النهرين ناحية الشرق فقد وضعت المدافع عند طرفيه تحسباً لأية هجمات.40 فنادر لم يكن ليخاطر أبداً.

وقد أطلق على هذا الاجتماع اسم «قورولتاي» - وهو مصطلح مغولي. أراد نادر باستخدامه أن يربط شخصه وحكمه بالفاتحين الأوائل في آسيا- جنكيز خان وتيمور. كان جنكيز خان يقيم القورولتاي ليمارس سلطاته على نبلائه لكي يظهر طاعتهم على الملأ، إلا أنهم كانوا قلما يشاركون فيه. فقد كان القورولتاي يقام بهدف تأكيد الولاء لا بهدف انتخاب حاكم.41 لم يختلف القورولتاي الذي أقامه نادر في مُغان كثيراً. وكانت رواية القس إبراهام عن هذا الاجتماع هي الأفضل والأكثر تفصيلاً.

كان القس حريصاً هذه المرة ألا يخالف التقاليد، فوصل إلى مُغان في وقت مبكر لحضور القورولتاي في يوم 14 يناير/كانون الثاني عام 1736، واحتفل بعيد الميلاد الأرموي هناك[1]. ولكن بعد أن بدأت ثلوج احتفال عيد الميلاد تتساقط، أصبح الجو شديد البرودة ولم تعد الخيام المصنوعة من القصب ذات جدوى. وذهب القس للنسقجي باشا (قائد الشرطة العسكرية لدى نادر والذي كان مسؤولا عن التجهيزات) وطلب منه أن يسمح له بأن ينتقل إلى مكان مريح حتى يصل نادر. وكان الجميع قلقين من ألا يجد نادر مدعويه

(1) 17 كانون الثاني/يناير على الطريقة الحديثة، و6 كانون الثاني/يناير على الطريقة القديمة.

حين يصل إلى الاجتماع. أما ما كان ما يقلق النسقجي باشا إلى جانب ذلك فأن يلام على عدم توفير إقامة ملائمة. لكنه أعطى القس الإذن بالانتقال وأخبره أنه غير مضطر لأن يبقى نظراً لمرضه وشيخوخته. كان على القس أن يعود فور وصول نادر، ولم يكن ليعاقب على ذلك- «لأن الخان يحبه ولم يكن ليؤذيه لأي سبب».42

لم يكد القس سيئ الحظ يغادر حتى اضطر للعودة إلى المعسكر حيث وصل نادر بنفسه في 22 يناير/كانون الثاني. وأسرع القس عائدا وذهب لمقابلة نادر في صباح 24 يناير/كانون الثاني، لكنه لم يكن قلقاً هذه المرة. وقد كانت له الأسبقية في لقاء نادر على جميع الشخصيات المرموقة في ذلك الصباح. ففرح نادر برؤية القس وبالهدايا التي أحضرها معه. وقال نادر له: «أهلاً بك أيها الخليفة! كيف حالك؟ هل كان كل شيء على ما يرام؟ أأنت بصحة جيدة؟ وهل تعرضت لأي إصابات في أثناء رحلتك بسبب الشتاء والجليد؟ فأنت شيخ عجوز. ثم هل انتظرت هنا لفترة طويلة؟». فكر القس بسرعة وقرر ألا يذكر رحلته القصيرة خارج المعسكر وأجاب: «أيها الخان، أطال الله عمرك. الآن بعد أن رأيت طلعتك البهية تحول الشتاء إلى ربيع. حمداً لله على سلامتك وصحتك». ضحك نادر وأمر النسقجي باشا أن يوفر للقس إقامة جيدة قائلاً: «فلترعه جيداً فهو رجل عجوز وضعيف».43

كان الانطباع القائم بأن نادر يعرف بالضبط ما كان يحدث. وكان نادر يريد أن يدرك رجاله أنه على علم بكل شاردة وواردة وأنه يعرف كل شيء عن قصور الإقامة وما يدور فيها. وبعد ذلك بدأ نادر يوجه للقس بعض الأسئلة عن سلوك المسؤولين عن يريفان وعن الحرث والزرع. وقد عرف القس فيما بعد أن نادر كان بالفعل قد أرسل رجاله إلى القرية سرّاً ليتقصوا عن استعدادات الزراعة في العام المقبل.

لم يكن القس واثقاً مما إذا كان نادر يختبر صدقه أو أنه كان مهتمّاً بشؤون الأراضي والفلاحين الأرمن ومستقبل الحصاد (كان هناك عجز في البذور والحيوانات اللازمة للحرث). لكنه أعطاه إجابات صادقة فطمأنه نادر قائلاً: «لا تقلق، أنا أعرف كل شيء. الله كريم، ولن تحتاجوا إلى شيء أبداً».44 ثم سمح للقس بالعودة لخيمته، وفي اليوم التالي

أرسل له حملاً ليأكله. وبعد عدة أيام أرسل للقس رداءين مزينين بمشاهد من حياة المسيح. ويبدو على الأرجح أنهم نهبوها من جورجيا.

يشير هذا الجانب الصغير من الأحداث إلى مدى اختلاف طبيعة إدارة نادر عن أسلوب فرض الضرائب الذي كان مفروضاً تحت حكم الشاه سلطان حسين وطهماسب. لقد كان نادر مشهوراً بذاكرته القوية وانتباهه للتفاصيل. ويقال إنه كان يعرف أسماء جميع رجال جيشه بمن فيهم الجنود في أدنى الدرجات، كما كان يعرف التفاصيل عن رتبهم ورواتبهم. وإذا ما ذهبوا إليه يشكون من رواتبهم فقد كان يجري حسابات على مسبحته وكان يكتشف إذا ما حاول أحدهم خداعه. لقد كان يضع الجواسيس في كل المدن، وكان يعين أحد رجاله ليراقب حاكم كل مدينة ومقاطعة، وذلك لكي يتابع أعمال الحاكم ويكتب عنه التقارير. وكان على هؤلاء المراقبين الانتباه للأمور المالية وأية علامات تدل على عدم الأمانة. لكن الهدف الحقيقي من تلك الإجراءات لم يكن ضمان رفاهية ورخاء الشعب بقدر ما كان زيادة الدخل اللازم لدفع رواتب الجيش في الموعد المقرر. فمهما كانت معاناة الشعب كان من الواجب دفع رواتب الجيش في موعدها.45

تعطي رواية القس مثالاً آخر على اهتمام نادر الشديد بتفاصيل العمل داخل إدارته كما تشير إلى سوء معاملة كبار موظفيه لرعاياه. وفي أثناء الاجتماع في القورولتاي، قام القس بعرض شكوى ضد الميرزا راضي جامع الضرائب (ظابط) في مقاطعة نخشوان الذي قمع القرى الأرمنية وقبل منهم الرشاوى. كما أنه سمح لأحد خدمه بأن يختطف فتاة مسيحية ويكرهها على الدخول في الإسلام ويتزوجها ضد إرادة والدها.

وكان كل من الميرزا راضي وخادمه والفتاة حاضرين في الاجتماع، وقد تبعهم والد الفتاة إلى هناك طلباً للثأر. وقد ذهبوا جميعاً لعرض قضيتهم على نادر، وكذا وجه القس اتهامه إلى الميرزا رازي. أمر نادر بضرب جابي الضرائب في الحال فقام ستة رجال بضربه بالعصي بقسوة شديدة بدءاً من رقبته حتى قدميه. وحاول أن يدافع عن نفسه ولكن دون جدوى. وأمر نادر رجاله بضرب الميرزا راضي بالفلكة وبالفعل قاموا بضربه على قدميه. إلا أن القس شعر بالندم إزاء شكواه بعد أن هاله ما رآه من عذاب. وبدأ يناشد نادر أن

يتوقف عن الضرب لا بالكلمات وحسب وإنما برفع يديه، والدموع تنهمر من عينيه.

بعد أن أدرك نادر رغبة القس في إيقاف الضرب- وهي الرغبة التي خاف أن يصرح بها- أمر نادر رجاله بالتوقف. وقام الرجال بجر الميرزا راضي أمام نادر الذي أمره بأن يعد سجلاً بجميع الرشاوى التي قبلها وأن يعود به. كما أمر نادر بتسليم الفتاة المخطوفة للقس الذي اغتنم الفرصة وجعل الرجل يوقع على وثيقة طلاق أمام الشهود، كما أمر مستشاريه بكتابة منشور مفاده أن الفتاة ستظل مسيحية وستتزوج من مسيحي وأنه لا يحق لخاطفها أن يرفع دعوى بخصوص هذه المسألة. ثم سلم الفتاة والمنشور للوالد الذي أسرع بها لتتزوج من «شاب مسيحي». ويبدو أن أحداً لم يهتم بسؤال الفتاة عن رغبتها.

ورجع القس إلى الميرزا راضي الذي تغطى بجلد ماعز ليخفف من ألمه، وساعده على كتابة حساباته. وحين سلم كشف الحساب لنادر لاحظ وجود تضارب وأعطى الرجل مهلة ثلاثة أيام لتحضير المبلغ بأكمله. وهنا تم العفو عن الميرزا راضي إلا أنه فقد منصبه، وكاد أن يفقد حياته لولا تدخل القس.46 لقد كان الضرب من المشاهد المتكررة في بلاط نادر وخاصة فيما يتعلق بأمور الضرائب.

وعلى مدار الأيام التالية وصل لفيف من كبار رجال الدولة إلى المعسكر في مُغان، ومن بينهم إبراهيم أخو نادر وطهماسب خان جالاير من مشهد وبير محمد خان من هرات وتقي خان شيرازي. وفي اليوم التالي كان على جميع الشخصيات البارزة والحكام وكبار المسئولين في المدن وضباط الجيش والنبلاء وزعماء القبائل ورجال الدين أن يستيقظوا مع طلوع الشمس وأن يتوجهوا إلى قاعة الزوار. أما نادر فكان قد حضر بعد بضع ساعات حيث أقيمت الصلاة ثم تحرك ثلاثة آلاف جندي جزايرجي في منطقة تحيطها الأسوار حول مقره، وهم يقفون بانتظام شديد في صفين أو ثلاثة، وكل منهم يحمل بندقية جزاير ضخمة مزخرفة بالذهب والفضة.

وكأن مشهد الجزايرجيين الصامتين لم يكن مرعباً بما يكفي، فكان هناك إلى جانب

ذلك 300 رجل من النسقجيين و300 تشاندافول[1] وثلاثمئة خانزاديجان[2] وعدد من الكشكشيين[3]. وما أن اصطفت القوات في مواقعها حتى بدأ جميع الجنود يمرون بجوار نادر في نظام صارم. وبعد ذلك استمتع الحاضرون بمشاهدة المصارعين أو الإبل المتصارعة ثم تفرقوا. أما نادر فراح ليستريح ويحتسي الخمر مع رفاقه ومنهم طهماسب خان جالاير وحسن علي خان من أصفهان وميرزا ذكي. وكان هؤلاء الرجال إلى جانب إبراهيم أخي نادر قد أعطوا نادراً رأيهم بخصوص إدارة الاجتماع. كما فعل الأمر ذاته كل من حسن علي خان وميرزا ذكي قبل خلع طهماسب.

ومع مرور الأيام عقد نادر عدة لقاءات خاصة مع مبعوثين آخرين في المساء، كان يشرب معهم الخمر ثم يقيم آراءهم ويضعها ضمن مخططاته- ولم يكن هؤلاء هم رفاق الخمر المعتادون فقد كان من بينهم الخانات الذين لم يكونوا ضمن بطانته الخاصة،47 فكان الجواسيس يسيرون وراءهم عندما ينصرفون حتى يتنصتوا عليهم من خارج خيامهم.

وبعد عدة أيام وصلت خيمة عملاقة من قزوين يبلغ طولها أكثر من مئتي وعشرين قدماً. وقام خدم نادر بنصب هذه الخيمة في المنطقة المحاطة بالأسوار والتي تم فصلها لتكون مكاناً خاصاً له ولرجاله. كان ولونها أرجوانيّاً، يحملها عشرون عموداً على قمة كل منها كرة فضية بحجم ثمرة البطيخ.48 وفي 14 فبراير/شباط، جاء موعد الاحتفال بنهاية شهر رمضان فذهب الجميع إلى تجمع خاص أقيم في الخيمة العملاقة حيث يقدم الشربات ويستمتعون بالغناء والموسيقى والرقص. وجلس نادر على سجادة غالية الثمن صنعت له خصيصاً في أصفهان وكانت مشغولة بالذهب واللآلئ التي جاءت من البحرين عبر الخليج.49 لم يكن كل ذلك ليقام بلا هدف وإنما أقيم ذلك الاستعراض والاحتفال لإبهار الحاضرين قبل الوصول إلى الأمور الجادة من أجل تذكيرهم بأن نادر كان شاهاً بالفعل حتى لو لم يحصل على اللقب بعد.

(1) حرس مؤخرة الجيش وكانوا يحملون فؤوساً فضية ويقومون بعمليات الإعدام.

(2) أبناء الخانات الذين كانوا يمارسون الضرب بناء على أوامر نادر.

(3) قوة حراسة قوامها ألف رجل مسلحة ببنادق المسكيت وكانوا يتناوبون على حراسة نادر على مدار الساعة.

وفي اليوم التالي تمت دعوة الجمع إلى ميدان على مسافة بعيدة من مقر نادر بدلاً من مقر الاجتماع العادي. وطلب سبعةٌ من المستشارين المقربين لنادر من بينهم طهماسب خان جالاير وميرزا مهدي من النسقجيين أن يحضروا لهم مجموعات من المبعوثين على التعاقب. وأبلغوا كل مجموعة من هذه المجموعات أن نادراً يريدهم أن يتباحثوا فيما بينهم ليقرروا اختيار الشخص الذي يرغبون فيه حاكماً لبلادهم. وقالوا إن نادر خلص بلادهم من أعدائها بمساعدة من الله عز وجل. والآن وقد عم السلام في البلاد وهو يشعر بالتعب ويتمنى أن يعود إلى كالات في خراسان. لذا فعلى المبعوثين أن يختاروا أميراً عظيماً وصالحاً من الصفويين[1] أو غيرهم ليكون حاكماً عليهم. وطلب منهم السبعة أن يتشاوروا فيما بينهم وأن يعطوهم القرار في وقت لاحق في ذات اليوم.50

أشيع قبل ذلك الاجتماع إلى أن عودة الحكم الصفوي أمر وارد.51 فشعر بعض المبعوثين محدودي الذكاء وذوي التفكير التقليدي ممن لا يزالون يرغبون في عودة الأسرة القديمة ببعض الحماسة لما تحمله رسالة نادر، وبدأوا يفكرون فيمن يصلح للحكم من بين أمراء الصفويين الموجودين على الساحة. ولكن الكثيرين من غير هؤلاء وبعد ما مروا به من كوارث وأحداث مروعة إثر الغزو الأفغاني رأوا في نادر مخلصهم، ورأوا أن ذلك الرجل القوي قد يكون الأصلح للحكم بالرغم من صرامة حكمه أو على الأرجح بسببها.

وبالفعل لم يكن هناك سوى اختيار واحد يطرحه المبعوثون. فقد كان كل ذلك عرضاً مسرحيّاً سياسيّاً ولم تكن تلك الخيمة وجنود الجزايرجي والصلوات والخطب إلا خلفية المسرح. إلا أن الجزايرجية والنسقجيين والرجال الآخرين كانوا حقيقيين. وكانت الكلمات مزيفة أما البنادق والسيوف والفؤوس فلم تكن خدعاً. ولم يُضع نادر الأسابيع الثلاثة الأولى من الاجتماع هباءً، فقد أعد جيداً لما هو آتٍ، بالتعاون ليس فقط مع أفراد دائرته وإنما مع الكثيرين من المبعوثين رفيعي المستوى، ولا بد أنه كان مستمتعاً بذلك إلى أقصى درجة.

خشي بعض النبلاء من أن يعطوا إيحاءً بعدم تحمسهم لطرح اختيارهم فأسرعوا بإعطاء

(1) دعي بعض الأمراء الصفويين المتحدرين من جانب الإناث إلى القورولتاي (Floor, Nader Shah).

الأجوبة قبل الموعد المحدد. واجتهد المستشارون السبعة في المرور على مجموعات المبعوثين لسماع أجوبتهم في حرص. حيث استغرقت تلك العملية وقتاً طويلاً فظلوا يمرون على الوفود حتى الغروب. إلا أنهم لم يجدوا صعوبة في جمع الإجابات- فقد جاءت الإجابات واحدة. فقد قررت جميع الوفود أنهم لن يختاروا لهم شاهاً سوى نادر. ثم تلقوا الأوامر بالانصراف.

وربما في ذلك الوقت، سمع أحد جواسيس نادر الذي كان يسترق السمع خارج خيمة، الملا باشي ميرزا أبو الحسن وهو يقول إنه رغم ما قيل في الاجتماع فإن الجميع لا يزالون يؤيدون الصفويين، وقد تنبأ بكارثة كبيرة تنتظر أي أسرة تستولي على عرشهم. وفي اليوم التالي أمر نادر بإحضار الملا إليه، وقد ربط حبل حول رقبته ثم أمر بشنقه.52 وفي ذلك الوقت أدرك جميع الحاضرين في ذلك الاجتماع الغرض الحقيقي منه.

وفي اليوم التالي حضر كبار الزوار إلى مقر نادر، ورافقهم رجال نادر إلى الساحة المفتوحة مرة ثانية حيث قسموهم إلى مجموعات صغيرة كما حدث في السابق، وجلسوا على الحشائش. وبعد برهة تمت دعوتهم جميعاً للوقوف في دائرة، وقام المستشارون السبعة بإبلاغهم رسالة أخرى من نادر. أفادت الرسالة أنه بما أن الجميع لا يريد لنادر أن يتنحى، فعليه إذن أن يضع ثلاثة شروط لاستمرار حكمه.

كان الشرط الأول ألا يؤيدوا أي ابن من أبناء الشاه السابق أو أي أحد من أقاربه، في حال ما إذا ظهر ذلك الشخص في وقت من الأوقات كمنازع على العرش. أما الشرط الثاني فكان أن يمتنع الفرس عن توجيه اللعنات لعمر وعثمان وأن يمتنعوا كذلك عن ضرب أنفسهم حتى تسيل من أجسادهم الدماء يوم الاحتفال بعاشوراء. أدى الشقاق بين السنة والشيعة والذي أشعل فتيله الشاه إسماعيل أو ملوك الصفويين إلى إراقة الكثير من الدماء بين الفرس والأتراك العثمانيين. وكان على الفرس أن يتقبلوا الشرائع والممارسات السنية وأن يعتبروا الإمام جعفر (الإمام السادس) هو الرمز الديني لطائفتهم. أما الشرط الثالث فكان أن يوافقوا على طاعة أبناء نادر وأقاربه بعد وفاته وألا يرتكبوا أية خيانة ضد حكمهم وأن يقبلوا تعاقبهم على الحكم. كان ذلك الشرط الأخير دليلاً على أن نادر لم يكن يرغب

في أن يكون دكتاتوراً في أثناء حياته فقط، وإنما أراد أن يؤسس عائلة حاكمة لتكون أسرته هي قلب الدولة. فما كان يحدث لم يكن مجرد تهميش مؤقت للصفويين، وإنما كان إنهاءً لوجودهم. وطلب من المبعوثين أن يفكروا في تلك الشروط وتم صرفهم لذلك اليوم.53

في 17 فبراير/شباط، اجتمع المبعوثون مرة ثانية في الديوان خان وبدأت المراسم مثلما حدث قبل ذلك. ثم دعا نادر أكثر المبعوثين أهمية وأرفعهم مستوى إلى تناول الغذاء معه. وفي أثناء تناولهم الطعام كرر نادر أسبابه المختلفة لرفضه توليه الحكم، وطلب منهم ترشيح شخص آخر حتى يستطيع أن يعتزل حياة السياسة ويعود إلى خراسان. لكن الخانات أصروا على أن يصبح هو الشاه الجديد، وجعلوا يتوسلون إليه ويمتدحونه. فأخبرهم نادر أنه رغم ما قالوه، فإنه يعلم أن الكثير من الخانات لم يرغبوا في توليه الحكم لأنه سلبهم ثروات طائلة من الذهب والفضة، وقتل ودمر وخرّب ونهب الكثير من الأراضي، فذكر نادر أنه سيعلن نهاية تلك الشرور، وأن الشعب سوف يتحرر من القهر والظلم في المستقبل:

> فرد عليه الخانات بالقول: «ما ذكرته حق، لكن كان عليك أن تتصرف بهذه الطريقة حتى تتمكن من الوصول إلى مكانتك هذه وكي تستطيع قيادة قواتك، إذ لو لم تكن حاسماً في جميع أمرك، فأنى لك أن تحقق كل إنجازاتك العظيمة؟ لذلك نطلب منك مرة ثانية أن تفعل ما فعلت من قبل، لأن الله منحك القوة لتحكم هذه البلاد. وجميعنا مدين لك وسوف نطيعك في جميع الأمر. ومن يتجرأ على معارضتك له العقاب. أما من يطيع أوامرك، فعليك مكافأته وإجزال العطايا له، وإلا لن تستطيع أن تحكم البلاد».54

كانت تلك هي اللحظة الحاسمة. حيث أقر نادر بصحة ما ذكروه ووافق على قبول المنصب الملكي. وكانت تلك لحظة عظيمة بالنسبة له- لحظة مميزة، وجد فيها أعداؤه أنه لا خيار أمامهم سوى الإصرار على منحه الجائزة التي أرادها، ولكنه لم يطلبها صراحة وكأن لهم الحرية في الاختيار. ولكن كان هناك الكثيرون- وقد يكونون الأغلبية- ممن شعروا بحماسة حقيقية وكانوا سعداء بحق لانتصارات نادر المذهلة على أعداء الفرس، وهؤلاء هم الذين رأوا الفرص التي قد تتاح لهم في ظل حكمه والذين بدا لهم واضحاً أن نادراً

الخيار الأمثل إذا لم يكن الوحيد لمنصب الشاه. ومن بين كل الحاضرين كان هناك شخص واحد يدرك خطورة الموقف ككل. كتب القس إبراهام فيما بعد: «همست مصلياً: «يا أبت، لقد ارتكبت خطيئة»». ثم تركونا نعود لمقارنا».55

وكتبت اتفاقية تنص على الشروط التي وضعها نادر والتي وقعها المبعوثون على مدار ثلاثة أيام. واستمرت المراسم اليومية حتى كان يوم 21 من فبراير/شباط حين دعا نادر القس ومعه المسؤولين عن مقاطعة يريفان. وطلب منهم نادر الاهتمام بالقس وأهله وبدير إكميادزين قائلاً إنهم تحت حمايتي. وكان القس رجلاً طيباً وشريفاً ومخلصاً، يجب أن يحترموه وأن يستمعوا إلى نصائحه. ولم يكن نادر يريد أن يسمع من القس أي شكاوى ضدهم.

أعجب نادر بالقس ربما لأمانته وتقواه وبساطته. وهكذا ظهر لنادر جانب آخر من شخصيته لم نكن لنعرفه لولا رواية القس. فبغض النظر عن جوهره إلا أنه لا يزال قادراً على اكتشاف الجوانب الطيبة في الناس وأن يستغل سحره الذي خدع به بابا علي خان وطهماسب.

بعد توقيع الاتفاقية قام نادر بتوزيع الهدايا. منح كل واحد من كبار المبعوثين «خلعات» تتفاوت قيمتها حسب أهمية مكانة ومنصب الشخص. وتكون الرداء الذي أهداه للقس من معطف ثقيل من القماش الذهبي وغطاء رأس أسود اللون. فكّر نادر في هدية القس بعض الوقت، فحين قابل القس في المرة التالية:

> ابتسم وقال له «كنت أتساءل عما إذا كان الخليفة سيربط رأسه بهذا الغطاء فأنت لا تخلع القلنسوة السوداء التي ترتديها أبداً». وحين رأى أني ربطت الغطاء فوق القلنسوة فرح فرحاً شديداً وقال «إنها جميلة حقّاً! كم هي متماشية مع القلنسوة السوداء فوق رأسك».56

كانت الشروط الدينية جزءاً مهمّاً من معاهدة نادر مع الحاضرين في الاجتماع. وكانت المعاني الضمنية لشروط نادر أعمق مما تبدو. اتضح منذ البداية أن نادر عازم على مواجهة الدعم الديني الذي حظي به الصفويين من جانب المسلمين الشيعة وأنه يريد أن يضع حدّاً

للممارسات الدينية الشيعية المهمة. وكاد نظام حكمه أن يقضي تماماً على التقاليد الدينية والملكية. فإن تغيير الاتجاه الديني في فارس نحو السنة سيكون له أثر كبير خارج فارس، وكان نادر يعتزم أن يكون قبول الشروط الدينية في اجتماع القورولتاي برهاناً يقدمه للسفير العثماني جانج علي باشا. وقد اتضح ذلك لاحقاً عندما أجبر نادر البعوث على مجموعة من الشروط الجديدة، هذه المرة من أجل إبرام معاهدة سلام مع العثمانيين. وكانت الشروط كالتالي:

1) يعتبر الفرس- بعد أن تركوا معتقداتهم السابقة واتبعوا المذهب السني- مذهباً خامساً يسمى الجعفرية.

2) حيث إن لكل إمام من الأئمة الأربعة عموداً في الكعبة منسوباً له فيجب إنشاء عمود خامس للإمام جعفر.

3) يجب تعيين فارسي أمير الحج على درجة أمراء الحج السوريين والمصريين نفسها والسماح له باصطحاب الحجاج الفرس إلى مكة.

4) يتم تبادل المسجونين من الجانبين ولا يتم بيع أو شراء أي منهم.

5) ترسل كل دولة سفيراً لبلاط الأخرى من أجل تنظيم العلاقات بين الإمبراطوريتين ودعم السلام بينهما.57

ولم تكن لجانج علي باشا السلطة الكافية للتفاوض حول أية اتفاقيات سوى الاعتراف بالحدود التقليدية بين البلدين، لذا فقد اقترح أن يرسل نادر مبعوثاً لإسطنبول ليطرح تلك الشروط. ووافق نادر وعاد جانج علي باشا إلى العاصمة في 6 مارس/آذار وبصحبته مجموعة من الفرس الذين تم ترشيحهم لعقد المفاوضات بمن فيهم الملا باشي الجديد. ويبدو أن نادراً كان قد قرر أن الهدف الرئيسي من هذا الجمع قد تحقق- فقد سمح لابنه رضا قولي بالرحيل لكي يضطلع بمهام منصبه الجديد كحاكم لخراسان، كذلك رحل القس إبراهام.58 ومن بين المناصب الأخرى كان المنصب الذي تقلده إبراهيم أخو نادر حيث عين مسؤولاً عن جميع الأراضي التي أعيد غزوها في أذربيجان، أما الميرزا مهدي فعين مؤرخ نادر الرسمي. وأقيم حفل التتويج في 8 مارس/آذار 1736 في اليوم والموعد الذي

رأى المنجمون أنه يبشر بالخير والنجاح.59

وفي يوم التتويج استقبل نادر البقية الباقية من المبعوثين بالطريقة نفسها. وجلس نادر ومن حوله أخوه إبراهيم وابنه الأصغر مرتضى قولي وابن أخيه علي قولي وطهماسب خان جالاير وميرزا زكي وبقية رفاقه. رفع الميرزا زكي تاجاً كبيراً ذهبي اللون على شكل خوذة مرصعاً بالجواهر واللآلئ، ووضعه فوق رأس نادر. ثم بدأت الصلاة وبعد ذلك أحضر الخدم ماء الورد والشربات في كؤوس ذهبية على صوانٍ ذهبية كذلك. وبعد ذلك أخذ الحاضرون ينحون أمام الشاه الجديد كما جرى التقليد. ثم رحل أغلبهم بعد ذلك وبدأ الأولاد والبنات يقدمون الأغاني ويعزفون الموسيقى ويؤدون الرقصات. ثم رحل بقية الحاضرين بعد نصف ساعة. وبعد ساعتين شعر نادر ببعض الإحراج فخلع التاج ووضع مكانه قبعته العادية ولفها بشال أبيض. وانطلقت الطبول والأبواق لمدة ثلاثة أيام دون توقف.60 إلا أن الاحتفال كان له غرض آخر ولم يكن الغرض منه استعراض الفخامة، فقد انتشرت شائعات حول مقتل الشاه عباس الابن ولكن الشاه أرسله في الواقع ليلحق بأبيه طهماسب في الحبس في خراسان.61

كانت المخططات الدينية التي وضعها نادر مع تتويجه غير مسبوقة على الإطلاق.62 فقد كانت ثورية وتجديدية بقدر ما كانت غير متوقعة. ومن المشاكل التي واجهت نادر مشكلة شرعية حكمه بعد إطاحته بالعائلة الصفوية، لكنه تغلب على هذه المشكلة بقلب قواعد الشرعية ذاتها. فحظر جوانب مهمة في المذهب الشيعي كان الصفويون قد أدخلوها، والتي كانت في وقت من الأوقات هي الدعم الأساسي لشرعية حكمهم. إن إعدام الملا باشي شنقاً لم يكن فقط من أجل القضاء على شخص معارض ومنشق– فلا بد أن نادر كان يستطيع شنق آخرين لو أراد. ولكن قتل أحد أهم الرموز الدينية في فارس كان إشارة على القطيعة مع النظام القديم خاصة مع اختفاء ممارسات إراقة الدماء في اجتماع القورولتاي.

أثبتت شروط نادر لتوليه الحكم وموت الملا باشي القديم أن نادر لم يكن مستعدّاً لدخول منافسة مع الصفويين على تأييد شيعة فارس. فقد كان سيدهم وليس العكس. لكنه

اعتمد على جيشه حيث كان يجند المزيد والمزيد، من الأفغان السنة والأكراد والتركمان والبلوشين وغيرهم (الذين شعروا بالرضا للسياسة الدينية الجديدة بطبيعة الحال) كذلك اعتمد نادر على الشرعية التي اكتسبها القادة العسكريون الناجحون ممن اعتبر نجاحهم منحة من الله تعالى.63 وكما حدث وقت إطاحته بطهماسب حقق نادر نجاحاً سياسياً جيداً دون استخدام العنف. ولكنه هذه المرة، وبعد أن حكم البلاد لعدة سنوات بوصفه وصيّاً على العرش- لم يكن في حاجة لبيانات رسمية ولا قرارات تأييدية. فقد كانت المقاليد في يديه وكان بمنأى عن أي هجوم أو معارضة.

رغم أسلوب نادر الاستبدادي في مُغان إلا أن سياسته الدينية أعطت المتدينين الشيعة في فارس طريقاً للهرب. فقد كان جعفر إماماً شيعياً له أهميته. وهو لم يأمر الفرس باتباع المذهب السني كما كان الوضع في بقية العالم الإسلامي، فقد سمح لهم بالاحتفاظ بماهيتهم الدينية الخاصة. ولكنه حظر بعض الممارسات الشيعية على المستوى الداخلي خاصة المتطرفة التي كانت تمارس في الفترة الأولى من حكم الصفويين. وقد أصدر أوامره بأن يستمر تبجيل الإمام علي كما كان في السابق، ولكن دون أن تردد مقولة أنه نبي الله، لأن هذا هو ما خلق العداوة بين الشيعة والسنة.64 أما على المستوى الخارجي فقد قدم نادر سياسته على أنها تحول كلي إلى المذهب السني. ولكن بالطبع كان هناك اختلاف. فقد كان هناك مبدأ عند الشيعة يتفق مع ذلك الموقف تماماً- التقية أو إخفاء الشعائر والمعتقدات. وقد ظهر ذلك المبدأ كوسيلة تسمح للشيعة بإنقاذ أنفسهم من شرور الاضطهاد- فقد كان مسموحاً لهم بأن يتظاهروا بطاعة مضطهديهم مع التمسك بمعتقداتهم الشيعية. وكان الإمام جعفر واحداً من أوائل الداعين لمبدأ التقية. وفي أثناء إحدى المفاوضات الدينية مع العثمانيين عبر أحد المفاوضين العثمانيين عن اعتقاده بأن المسألة كلها كانت عبارة عن تظاهر سافر.65 وبوجه عام لم تستفز سياسة نادر الدينية المعارضة الشعبية داخل فارس فقد تكيَّف الناس معها. إلا أن إطاحته بالصفويين هو ما أثار استياء الناس.

كان نادر قد عقد العزم على أن يكسر قواعد حكم الصفويين القديمة. وقد سجل بعض معاصريه أنه رفض لقب الشاه نفسه، وطلب من الناس أن يدعوه «فالين مات» (ولي

النعم) بدلاً من ذلك.66 وكان اختياره للون الأحمر ليكون لون ملابسه مثالاً آخر على ذلك، مثلما ظهر في صوره. فتحت حكم الصفويين لم يكن الشاه يرتدي اللون الأحمر على الإطلاق إلا في حالة النطق بحكم الإعدام على أحد المذنبين. وكان ذلك واضحاً للجميع وبدا أن نادر يرتدي الأحمر متعمداً للتأكيد على السمعة المعروفة عنه بتنفيذه السريع للعدالة.67 كما اعتمد نادر على الترتيبات التي أعدها فترة وصايته على الحكم وبدأ في ضع ضوابط إدارية تختلف اختلافاً كبيراً عن تلك التي طبقها الصفويون. وكانت تلك التغييرات تتركز في الكفاءة وزيادة العائدات من الضرائب.68 إلا أن بعض هذه الترتيبات كانت تحمل معاني رمزية، فقد ترك نادر منصب كبير الوزراء شاغراً.

ويتضح مثال آخر من خلال موقفه من المرأة. فقد كان معروفاً عن الشاه السلطان حسين إقامته علاقات جنسية الكثيرة خارج الزواج، وكما هو متوقع قام العديد من النبلاء بتقليده. إلا أن نادراً حارب هذا الاتجاه:

> حين توليه العرش، قام نادر بنشر مرسوم يحكم بالموت على من يحاول إغواء أي زوجة أو يحاول أن يأخذ زوجة من زوجها، وهو السبب الذي يدفع كل من كانت لديه بنات جميلات أن للزواج في سن صغيرة حتى لا يتعرضن للعنف. ففي عهد نادر كان الرجال من ذوي النفوذ يستولون على من يرغبون فيهن من نساء سواء كن متزوجات أم لا، ولكن نادر نفسه كان ملتزماً أشد الالتزام بالقانون السابق ذكره، فقلما كان يتجرأ أحد على مخالفو ذلك القانون في عهده.69

كثيراً ما كنا نجد نادر يتدخل لمنع استغلال أو اغتصاب امرأة أو معاقبة من يرتكب أي من هاتين الجريمتين (باستثناء موقف واحد). ولقد أكدت هذه السياسة على السمعة التي اشتهر بها من أنه حاكم عادل وهو ما أسهم في خلق الاختلاف آخر بين طبيعة حكمه وحكم الصفويين، إلا أنها عكست كذلك دوافع نادر الشخصية العميقة.

كما وضع نادر نهاية لحبس أولياء العهد في جناح الحريم كما كان يفعل الصفويون. وبدلاً من ذلك أسند نادر لأبنائه المناصب الحربية والمحلية لكي ينمي مقدرتهم ويؤهلهم

لوراثة الحكم من بعده. وقد أرسل نادر طهماسب خان جالاير ومعه رضا قولي ميرزا من مُغان إلى مشهد ليعمل ناصحاً له من هناك، ويشرف على سير معاهدات الصلح في بلخ وغيرها. وعندما غادر نادر مُغان متجهاً إلى قزوين ذهب ابنه الشاب مرتضى قولي ميرزا بصحبة عمه إبراهيم خان في بعثة لتأديب قبيلة في غرب أذربيجان، وعاد منها الشاب «وهو يشعر بعظمة الفاتح الغازي».70 وفي ذلك الوقت كان عمر رضا قولي يقارب السبعة عشر عاماً وكان مرتضى ميرزا يصغره بعامين. ومثلهما مثل أبيهما، تعلّما مهنتهما في سن مبكّرة.

جاء إعلان مشهد- وهي في قلب سلطة نادر في خراسان- عاصمة لفارس بدلاً من أصفهان اختلافاً آخر مهمّاً عن حكم الصفويين. إلا أنه كان من المهم بالنسبة لخطة نادر لتوريث الحكم داخل عائلته- أن ينال حفيده شاهرخ شرعية إضافية بصلة الدم بالصفويين.

تربى نادر على المذهب الشيعي وفيما يبدو الآن أنه تحول لاتباع المذهب السني؛ إلا أنه لم يكن ملتزماً بأي من المذهبين.71 وقد تكهن البعض بأن نادراً لم يكن مؤمناً على الإطلاق، رغم استغلاله للخطاب الديني في تصريحاته العلنية. ذكر اليسوعي الفرنسي، وهو من أصبح طبيبه الشخصي فيما بعد، أنه كان من الصعب معرفة الدين الذي يعتنقه نادر، وأن الكثيرين ممن يعرفونه كانوا يقولون إنه غير مؤمن بأي دين على الإطلاق.72 وقد تناقل الدبلوماسيون الروس كلاماً مشابهاً لذلك، إذ عند ذكر إلحاد حاكم بروسيا فردريك الأعظم الذي عاصر نادر، قالت الإمبراطورة إليزابيث ذات مرة: «إنه يحتقر المقدسات ويسخر منها ولا يذهب للكنيسة على الإطلاق، إنه صورة أخرى من نادر شاه».73

كان تحول نادر إلى المذهب السنّي خطوة ذات دافع سياسي بحت.74 فقد كان يريد من وراء تحوله تحقيق الهيمنة على مستوى العالم الإسلامي ككل، وتأكيد مكانته السياسية الواسعة التي لم تكن لتتحقق لو أنه ظل مؤيداً للشيعة هو ونظامه. فلم تكن هناك أية دوافع دينية وراء تصرف نادر، وكان ما يدفعه هو رغبته في السيطرة على العالم الذي يعرفه كما فعل تيمور من قبله. يروى أنه كان يتحدث لرجل دين ذات مرة عن فكرة الجنة:

بعد أن وصف رجل الدين نعيم الجنة ونعمها سأله الشاه: «هل يوجد حروب وانتصارات على الأعداء في الجنة؟» وحين أجاب الرجل بالنفي علق نادر: «فأين النعيم إذن؟»75

مع ذلك، كا الفضول يدفع نادراً في الأمور الدينية بوجه عام، كما تؤكد حكاية زيارته لدير إكميادزين. وبعد عدة سنوات أمر مجموعة من رجال الدين والقساوسة الأرمن والمبشرين الغربيين بالعمل معاً على ترجمة الإنجيل إلى اللغة الفارسية مع إضافة تفسيرات بمفردات قرآنية. لكن آمال المسيحيين خابت في أن يعتنق نادر المسيحية حين يقرأ كتاب المسيح، ولم يتحقق شيء من هذه المقارنة الدينية. وتذكر بعض الروايات أنه حين تم الانتهاء من ترجمة بعض الأجزاء وقراءتها عليه سخر نادر من المسيحيين واليهود وسواهم، قائلاً إن الدين المسيحي به الكثير من التناقضات، مثله في ذلك مثل كل الديانات الأخرى. وزعم أنه سيؤسس ديناً أفضل من كل الأديان التي عرفتها البشرية.76 وكتب طبيبه الفرنسي يقول: إن نادر كان يرى نفسه في عظمة محمد وعلي، لأنهما اكتسبا عظمتهما من كونهما محاربين عظيمين، وقد حقق هو الآخر انتصارات حربية لا تقل عما حققاه.77

هذه النظرة إلى اتجاهات نادر الدينية تشير إلى أمر آخر- إنه نوع من السذاجة والجهل والانغلاق. فرغم ذكائه الشديد إلا أنه كان يصعب عليه فهم الدين. فربما كان في زيارته لإكميادزين والنجف رغبة ملحة في فهم شيء يجده بعيد المنال. وقد تكون تجربته مع الشيعية ضيقة الأفق والتي شاعت في ظل حكم الشاه السلطان حسين هي التي جعلته غير قادر على النظر للدين بطريقة لا تشوبها السخرية والاحتقار. ولكن هناك دلائل على أنه حاول بموجب القانون أن يخلق جوّاً من التسامح بين الأديان مما خالف التعصب الذي شاع في عهد الشاه السلطان حسين ويقال إنه في أحد المواقف اتخذ إجراءات من أجل إعادة اليهود الذين غيروا دينهم بالإكراه إلى اليهودية.78

فهل كان نادر يؤمن بالله في أعماقه؟ لقد نشأ نادر في مناخ كان الإسلام فيه جزءاً أساسياً وطبيعياً من الحياة اليومية- وهو ما يتضح في خطاباته وخطبه حيث لا ينفك يذكر الله تعالى. من المعروف أن الدين الإسلامي يتميز بتعاليمه القليلة البسيطة. فلا يعقل أن

صلاة نادر التي كان يؤديها قبل دخوله المعارك غير صادقة. وربما اكتشف أنه حين بدأ يصلي كان يفعل ذلك كنوع من التظاهر ومن أجل تحفيز قواته، إلا أنه يندمج في الصلاة بمجرد أن يبدأها. ولن يكون نادر أول أو آخر المشككين الذين يجدون بداخلهم إيمان جارف في أوقات الشدة. فحتى لو نظرنا بشك لاتهام بعض معاصريه له بعداوته للدين إلا أن أفعاله ضد الممارسات والمؤسسات الشيعية التقليدية تتحدث عن نفسها. فإذا كان مؤمناً حقّاً فإن إيمانه كان يشوبه الشك الشديد وازدراء الغيبيات والنفاق وعدم الاقتناع بأن أي دين جاء على يد إنسان يمكن أن يفسر ماهية الله بشكل صحيح.79

لم يكن نادر يعير اهتماماً للمعتقدات الدينية الخاصة برعاياه كما لم يكن يعير اهتماماً لرغباتهم وأمنياتهم. ففي دائرة أسرته الصغيرة وندماء كأسه وحراسه الشخصيين وفي ظل ازدرائه للمنافقين وسكان المدن المؤيدين للصفويين وغيرهم من الطاجيك من غير المحاربين، كان نادر واثقاً من أنه يكفي أن يفرض سيطرته بمساعدة جيش قوي، وأن يستخدم ذلك الجيش في جباية الضرائب اللازمة لإمداده وتجهيزه وكذلك لترويع معارضيه حتى يذعنوا له. كان ذلك ما فعله تيمور على أية حال،80 فحين كان يتطلب الأمر ذلك، كان تيمور ومن جاء بعده يقدم على القتل وعلى تدمير مدن كاملة وعلى القضاء على سكان مناطق كاملة لتحويلها إلى مراعٍ للخيل والخراف- وبهذه الطرق تمكن تيمور من غزو معظم دول العالم الإسلامي.

ولكن هنا يكمن الخطأ، فقد تغير الزمان. انتصر نادر في الحروب التي خاضها، لأن استخدامه للأسلحة النارية بأعداد كبيرة جعله يتفوق على أعدائه. وكانت المدافع والبنادق باهظة الثمن وتصنع في المدن. وكان من الواجب الاستمرار في تدريب الجنود الذين يستخدمون تلك الأسلحة وكذلك الاستمرار في دفع رواتبهم. وفي عهد تيمور كان نهب المدن وجباية الضرائب منها أمراً عظيماً إلا أن الجيش المسلح بالأقواس والسهام لا حاجة له بتلك الأموال. ولكي يهزم نادر الأفغان والعثمانيين فإنه لم يكن ليتخلى عن المدفعية والجزاير التي صنعها الحرفيون الشيعة في المدن. فلكي يدفع لهؤلاء الحرفيين وللجنود الذين يحاربون بتلك الأسلحة رواتبهم، كان في حاجة إلى ثروة لا يمكن أن يحصل عليها

سوى من التجار الشيعة وتجارتهم بين المدن. والثروة لا تتكون إلا من جباية الضرائب، وحتى تنتظم الحياة الاقتصادية في المدن يجب أن تدفع الضرائب بالتراضي على المدى البعيد. قد يكون هذا التراضي تحت إكراه أو مختلطاً بمشاعر الاستياء إلا أنه تراضٍ في النهاية، ولو أن الإرهاب والقهر زاد عن حده لدرجة أن الحرفيين والتجار سقطوا تحت طائلة ديون ثقيلة تمنعهم من دفع الضرائب، فباتوا عاجزين عن تدبير عيش أسرهم، ومن ثم فإن تدفق الأموال والمؤن والمدافع والأسلحة سوف يضعف ثم يتوقف.

ومع الوقت اتضح عدم توافق استخدام أسلوب تيمور الإرهابي وتحقيق الرضا الشعبي. وإن للإرهاب منطقه المروع، فهو مثل المخدر، يظل متعاطيه في حاجة إلى المزيد والمزيد من الجرعات الزائدة القاتلة والمدمرة حتى يحصل على الشعور نفسه بفقدان الإحساس. ولسوف تستمر الثروة وعوائد الضرائب التي يتم جمعها من الاقتصاد المدني في التضاؤل لتبدأ ثورة تلو أخرى. كان نادر على علم بذلك ولكنه اعتقد أن فتوحاته والثروات التي ينهبها فيها سوف تحميه من العواقب الاقتصادية للإرهاب وأن المال الذي يدفعه لجنوده ولمعداتهم سوف يحافظ على الحالة الاقتصادية في المدن أو على الأقل على النواحي الاقتصادية التي يحتاج إليها: من صناعة الأسلحة والمعدات الحربية. ولكن هل كان ذلك يجدي فيما استمر الجيش، الذي بدا وكأنه كائن طفيلي لا يشبع، في تحويل فارس إلى صحراء؟ لقد دفع تحامل نادر على سكان المدن لأن يعتقد أنه يمكنه دائماً الضغط عليهم، إلا أنه أدرك أنه تخطى حدوده بحلول عام 1736.

قبل أن يغادر مُغان أظهر نادر جانباً آخر من سياسته الدينية- قد تكون الدافع المحرك لكل سياساته بوجه عام. فقد كان من المتوقع مع الحاجة المستمرة إلى المال لكي يدفع رواتب قواته أن يسلك سلوك أمراء أوروبا في أثناء الإصلاح البروتستانتي. جمع نادر جميع رجال الدين الذين حضروا كمبعوثين إلى القورولتاي وسألهم عن كيفية توظيف العوائد الكبيرة التي يجمعونها. وأخبروه بأنهم يستخدمونها في الأغراض الدينية التي من أجلها وهبها أصحابها منذ البداية، من دفع رواتب رجال الدين الذين يقيمون الصلوات في المساجد وإصلاح المدارس الدينية، وصيانة عدد كبير من المساجد التي تقام فيها الصلوات

في كل ساعة وفي كل يوم من أجل الدعاء لجيوش الأمراء بتحقيق النصر وللإمبراطورية الفارسية بالرخاء.

هنا أخبرهم نادر أن صلواتهم لم تكن لتؤتي ثمارها، فعلى مدار خمسين عاماً كانت الأمة تتهاوى، حتى أدت بها الغزوات والثورات إلى الدمار والخراب، إلى أن جاء جيش الله المنتصر (ويقصد جيشه) ليخلصها. فإن جنوده على استعداد لأن يضحوا بحياتهم من أجل الدفاع عنه وتحقيق مجده. فقد ذكر أن هؤلاء القساوسة المساكين محتاجون (مشيراً إلى جنوده)، ويجب توفير حاجاتهم بأية وسيلة، ولذلك فإن رغبته الملكية هي أن تنتزع الأراضي وتكرس عوائد الضرائب لصالح الجيش. وبعد الاجتماع أخبر كبار المدعوين أنه لو أراد الناس أن يدعموا رجال الدين بوجه عام فعليهم أن يدفعوا ثمن ذلك الدعم من جيوبهم الخاصة في المستقبل.81

لم يكن التغيير الظاهري من الشيعية إلى شكل من أشكال المذهب السني بحاجة لأن يصاحبه الإطاحة بنظام ملكي قائم، إلا أن ذلك التلازم كان منطقياً. فقد كان لدى نادر عدد من الدوافع المختلفة التي تحركه نحو القضاء على الأنماط المتطرفة من العقيدة الشيعية إلا أن فكرة الثروة التي يمكن أن يستولي عليها من رجال الدين الشيعة الأذلاء كانت أقوى محرك له. وعلى المستوى السياسي فإن تغيير العقيدة أسهل من الإطاحة بالحكم القائم عن طريق تقويض شرعية المؤسسات القديمة التي استفادت من العائدات في السابق، فلقد أضعفت الإطاحة بالملك القائم سلطة رجال الدين وقللت من تأثير معارضتهم.

ولم يكن نادر راضياً عن كم الأموال التي صودرت. فقد كان التنفيذ متفرّقاً وبعض الأملاك كان قد نهبه الأفغان. لم يكن الدليل كافياً للحكم بشكل نهائي، ولكن قدَّرت إحدى الإحصاءات التي تمت في عهد نادر قيمة الأراضي والعائدات بما يعادل حوالي ثلاثة ملايين جنيه إسترليني،82 وهذا المبلغ أكبر مما كان متوقعاً عن ثروة المؤسسات الشيعية في السابق.

وقد بدا نظام الحكم الذي وضعه نادر في مُغان نظاماً تقدمياً، على المستويات المختلفة التي تشمل التأكيد على الكفاءة الإدارية وإضفاء النزعة الدنيوية على السياسة الدينية

والبعد المتعمد عن بعض ممارسات الحكام الصفويين، إلى جانب ترتيباته العسكرية، ولهذا كله كان حكمه بمثابة تنبؤ مسبق بالكثير من السمات السيئة لحكومات القرن التاسع عشر والقرن العشرين.83 إن الأسلوب الذي وصل به نادر للحكم بواسطة الموهبة المحضة في فترة عمت فيها الفوضى، حيث جاء مطابقاً لتطلعات الشعب في أن يحكمه قائد قوي ومحبوب يخرج بالبلاد من أزمتها لهو أسلوب حديث. كما ظهرت فيما بعد مظاهر أخرى تدل على حداثة أسلوبه- بخاصة تطويره لسلاح البحرية. ولكن رغم تلك النواحي التقدمية إلا أن نادر لم يهتم كثيراً بأن يحكم لصالح البسطاء من شعب فارس. فلو كان ما يحركه هو أن تكون مصلحته ومصلحتهم واحدة بأن يستمر في جباية الضرائب إذ ثبت أنها تسهم في رخاء الشعب على المدى البعيد فلربما كانت الأوضاع قد اختلفت كثيراً. فقد كان يعرف أن طريقة حكمه التيمورية الشديدة المدمرة لن تصمد كثيراً بل إنها ستشكل خطراً على توريث الحكم داخل أسرته. ولكنه- على الأقل وفي الوقت الحاضر- لم يكن حل هذه المشكلة من وجهة نظره أن يحكم حكماً معتدلاً. بل على العكس فقد سعى لخراب أراض جديدة ترعى فيها خيول الحرب.

ومن الآن فصاعداً صك اسم نادر على العملات المعدنية وتردد كذلك في صلاة الجمعة كما جرت العادة في الدول الإسلامية. وأمر أحد الشعراء بأن يؤلف له شعاراً بالعربية يحمل تاريخ تقلده الحكم (1148 هجرية- 1736 ميلادية) وذلك فيما يعرف بحساب الجمل. وألف الشاعر شعاراً ترجمته «الخير فيما وقع» وتم كتابة هذا الشعار على العملة الجديدة. إلا أنه للأسف مع تبديل أول حرفين يعطي الشعار المعنى المضاد: «لا خير فيما وقع». فأخذ الأذكياء ومحبو الفكاهة في التسلي باللعب بالألفاظ لتغيير معنى الشعار. كما صنع ختماً ملكيّاً جديداً مخطوطاً عليه:

بعد أن جوهرة الدين والدولة اختفت من مكانها

فإن الله أعادها باسم نادر الإيراني84

استمرت الاحتفالات بعد التتويج حتى وقت عيد النوروز وامتدت بعده. وكان الهدف العسكري التالي لنادر هو قندهار، وكانت له أحاديث مطولة مع الضباط الأفغان

حول المنطقة التي تحيط بالمدينة وإمكانية التحرك نحوها. وأخيراً غادر معسكر مُغان في 14 أبريل/نيسان 1736 متوجهاً إلى قزوين حيث مكث بها ثلاثة أشهر. ومن هناك، أصدر مرسوماً أرسله عبر البلاد يأمر فيه بوقف الممارسات الشيعية التي تسيء للمسلمين السنة.85

لقد حقق نادر الهدف الذي سعى من أجله والذي طالما حلم به منذ أن كان صبيّاً صغيراً يلعب في تراب دارا جاز– عرش فارس. ولأنه إنسان طبيعي، فلابد أن يفكر أحياناً فيما يقوله عنه الناس ممن استهزؤوا به وبأهله أيام الفقر. لكن الغرابة أننا بمجرد أن نصل إلى ما كنا نصبوا إليه نجده مختلفاً كل الاختلاف عما توقعنا.

الفصل السابع

إلى أبواب دلهي

(في مواجهة الدافع القوي الذي يحركنا تجاه الاستبداد، ليس العقل وحده أو المنطق ما ينهزم ويستسلم، بل ضمائرنا أيضاً)

نيتشه

بعد أن جرب نادر السلطة المطلقة للملكية في قزوين في أوائل صيف 1736، كان لديه شأنان رئيسيان: عقد اتفاق سلام مع الأتراك، والخروج في حملة ضد قندهار، وقد كان كلاهما مرتبطا بالآخر ولا شك. فلم يكن ليقدر على الخروج في حملة كبرى إلى الشرق بينما الحرب مستعرة في الغرب. وكانت الحملة الجديدة تهدف مذ بدايتها إلى الوصول إلى ما هو أبعد من قندهار. فقبل أن يغادر مُغان في أوائل مارس/آذار، تبادل القس أبراهام بعض الكلمات مع نادر حول نواياه، ربما بعد أن سمع شائعات حول المعسكر. حيث قال نادر مخاطباً إياه: «هل تعلم أيها الخليفة أني أخطط للمغادرة بعد غد؟» فأجابه القس: «أطال الله عمر الملك وحكمه. وإنني لأتمنى من الرب الخالق أن أراكَ غدا بعونه فاتحاً لقندهار وهندستان كما أراك اليوم فاتحاً لإيران». فضحك نادر مبدياً سعادته بهذه الإجابة وقال: «أحسنت أيها الخليفة، أحسنت!».

انتشرت الشائعات حول نوايا نادر غزو الهند في أوائل فبراير/شباط 1734،1 وكان نادر يفكر بالفعل في شيء من هذا القبيل في أوائل 1730، عندما بعث رسائل إلى البلاط المغولي مطالباً الإمبراطور المغولي بمنع الأفغان الفارين من الاحتماء بأراضيه. وقد كان تراخي المغول بشأن الأفغان الهاربين هو السبب الذي أدى في النهاية إلى غزوه للهند. ومع تفكيره في الهند باعتبارها هدفا أوسع، أصدر أوامره بإعداد العدة لحملة ضد قندهار، لكن كان عليه أولا وقبل كل شيء أن يحل بعض المشكلات التي تواجهه.

كان نادر قد أجرى اتصالات ومفاوضات متقطعة مع العثمانيين منذ أن هزم عبد الله كوبريلي في باغاورد في يونيو/حزيران من العام السابق. ولم تكن عروض الصلح المتفق عليها في مُغان، وتلك التي قدمها الفرس إلى إسطنبول في أغسطس/آب 1736، بمثابة مفاجأة. فقد كانت الحروب مع روسيا تتحول للأسوأ بالنسبة للسلطان العثماني، ومع مضي العام أصبحت الحرب مع النمسا أكثر حتمية. ورغم أن العثمانيين كانوا يسعون لإخراج فارس من حلفها مع روسيا وإحلال السلام، ورغم الأخبار الطيبة التي تترى بمنع نادر الممارسات الدينية المضادة للمذهب السني، فإن العثمانيين لم يكن بمقدورهم قبول عرض نادر نشر المذهب الجعفري.2 لكن تمت الموافقة سريعاً على المطالب الفارسية بتبادل السفراء، وإطلاق سراح الأسرى من الجانبين. كما قدم العثمانيون بالإضافة إلى ذلك تنازلاً كبيراً بالموافقة على طلب وجود أمير فارسي للحج.

ولم يكن من المعتاد وجود أمير للحج من خارج الأراضي العثمانية (رغم عرض السلطان العثماني لشيء مشابه على أشرف غلزائي عام 1728). حيث كانت مسؤوليات الرجل تمنحه بالضرورة بعض السلطة في التعامل مع المسؤولين المحليين العثمانيين. وقد اعتبر العثمانيون ذلك اختباراً يكشف نوايا نادر الحقيقية، حسنة كانت أم غير ذلك، فالعديد من الحجاج شيعة متمسكون بمذهبهم، وسيرغبون في زيارة المقدسات الدينية التقليدية في النجف، وغيرها من الأراضي العراقية التابعة للعثمانيين، بوصفها جزءاً من رحلتهم، وهو الأمر الذي كان يعيه العثمانيون تماماً.

غير أن وجود ركن جديد في الأماكن المقدسة بمكة، وإضافة مذهب خامس إلى المذاهب السنية الأربعة، كان من الأمور التي يستحيل على الجانب العثماني أن يفكر فيها. فقد كان حكمهم يقوم على مبدأ الدفاع عن ثوابت المذهب السني القويم، الذي يقضي بأن أي ابتداع في العقيدة، سواء بدافع سياسي أو بنية حسنة، لن يعدو أن يكون من الأمور الهدامة التي لا يمكن قبولها. وكان طلب نادر، حتى وإن أُخذ مأخذ الجد، من شأنه أن يزيد الخلاف بين السلطان ورعاياه، لدرجة أن أحد المفاوضين العثمانيين عقد بطريقة فظة مقارنة بين الأوضاع الدينية لكلا البلدين (وهو يرفض ضمنياً فكرة تقديم

العثمانيين أي تنازلات للفرس)، قائلاً: «في الوقت الذي قضت فيه الإمبراطورية العثمانية على مر السنين على أكثر من عشرة ملايين كافر، وأقامت حكمها على أساس من التقوى، لم تشترك الأسر الحاكمة الفارسية في مثل هذا الجهاد. بل تصرفوا «مثل امرأة لعوب... [أو] مثل المنشفة تنتقل من يد إلى أخرى»»3.

وقد قال كبير المفاوضين الفرس إن نادراً كان مستعداً لاعتبار نفسه تابعاً للسلطان العثماني، في وضع مشابه خان التتار في القرم، إذا وافق السلطان على المذهب الجعفري. ثم تساءل، هل يستحيل على العثمانيين أن يغضوا الطرف عن عاداتهم، خاصة عندما يتعلق الأمر بتحقيق السلام الدائم بين البلدين، والتحول المستديم من فرس مبتدعين في السابق إلى المذهب السني القويم؟ وعلى أي حال، لقد أصر العثمانيون على رأيهم، ولم يكن بمقدورهم النظر في عرض نادر إلى أن أعاد الاستقرار إلى كافة الأقاليم الفارسية. ولإطالة العملية وتجنب حدوث أية انتهاكات، اقترحوا إرسال مجموعة من الممثلين الدبلوماسيين إلى بلاط نادر، بينهم اثنان من علماء الدين، للنظر في أمر المذهب الجعفري بمزيد من التفصيل.

وفي أكتوبر/تشرين أول 1736، وقع العثمانيون والفرس اتفاقية في إسطنبول تقضي بأن نادراً هو الشاه، وتقر الحدود القديمة التي كانت قائمة في القرن المنصرم، وتؤكد على باقي النقاط المتفق عليها في المفاوضات، دون اقتراب من القضايا الدينية. ولم يصدق نادر على هذه الاتفاقية قط، وأخبر الروس- الذين غضبوا لما بدا كأنه خرق لما بينه وبينهم من التزامات، خاصة في ظل حروبهم المستعرة مع العثمانيين- أنه لم يكن ليعقد صلحاً من دونهم. ومع ذلك، فقد عُقدت هدنة بين الإمبراطورية العثمانية والفرس، واستمرت المباحثات حول عروض نادر، تاركة المجال لاحتمال استمرار الحرب في مراحل لاحقة. وكان ذلك يناسب أغراض نادر، وربما كانت تلك هي نواياه منذ البداية. فمن المحتمل جداً أنه كان يتعمد إقحام البنود الدينية في المعاهدة المقترحة باعتبارها أفضل وسيلة لإطالة المفاوضات عديمة الجدوى إلى ما لا نهاية. وقد كان هذا التوجه منسجماً بلا شك مع نظرته المزدرية للأمور الدينية، التي عبر عنها في غير موقف.

كان بإمكان نادر استئناف الحرب مع العثمانيين عام 1736. فلبعض الاعتبارات، كانت اللحظة مناسبة، في ضوء الحملة الروسية التي كانت ماضية قدماً على السواحل الشمالية للبحر الأسود. وقد كان الروس يضغطون عليه كي ينضم إليهم. لكنه كان يعلم أن المجهود الحربي المطلوب سيشكل حملاً ثقيلاً على شعب فارس، الذي يعاني الفاقة من أثر الحروب السابقة. هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى فإنه إذا كان يرغب في فرض سيادته على المسلمين ككل، وهو هدف سياسته الدينية غير المعلن، وتنفيذ ذلك لم يكن ممكناً إذا وجد له تحالف صريح مع القوى المسيحية. كما أنه كان في حاجة إلى فترة من الوقت تتعافى فيها البلاد، ومصدر نقد جديد لدفع رواتب الجيش، وذلك قبل معاودة الهجوم على العثمانيين. وكان ذلك هو الغرض من حملته إلى الهند.

وصل المزيد من الأخبار إلى نادر في قزوين حول استرداد جزيرة البحرين الواقعة على الساحل الجنوبي للخليج، لتصبح تحت حكم الفرس. وكان سلطان عُمان قد استولى عليها بين عامي 1718/1717، في وسط المِحن الأخرى التي ألمت بالشاه سلطان حسين. وكان استرداد السلطة الفارسية في الخليج مستمراً منذ عام 1734، عندما قام نادر بتعيين لطيف خان قائداً بحرياً، وأرسله إلى بوشهر، لإعداد أسطول ساحلي. وكان الغرض المباشر في ذلك الوقت تأمين أسر محمد خان بلوتش، الذي لجأ إلى جزيرة قيس، غير أن خطط نادر البحرية لم تكن مجرد نزوة عابرة.

عانى لطيف خان من مشكلات في الحصول على السفن، لكن بعد عدة محاولات لم تكلل بالنجاح، من بينها رحلة إلى البصرة عام 1735،4 أبحر إلى البحرين في 1736 في سفينة استعارها. وهناك كانت المقاومة قليلة، فعادت الجزيرة بعد مناوشات بسيطة إلى أيدي الفرس. وأرسل تقي خان الشيرازي، الذي كان يعتبِر لطيف خان تابعاً له، مفاتيح حصن الجزيرة إلى نادر، وحصل على حكم البحرين إلى جانب إقليم فارس مكافأة له.5 وقد دفع هذا النجاح نادر إلى التفكير في مغامرات بحرية أوسع. ونظرا لبُعد المسافات وصعوبة السفر براً، كان من الطبيعي أن يربط ذلك بخططه بشأن الهند.

لكن وصلت أنباء غير سارة أخرى إلى نادر في أثناء وجوده بقزوين. فقد أزعجه رفض

قبيلة بختيار عام 1730 تنفيذ أوامره بإعادة التوطين. ومنذ ذلك الحين، وهم يقومون بنهب المسافرين في الطرق المحيطة بأصفهان، بينما كان يعسكر في الأراضي العراقية التابعة للدولة العثمانية.6 وفي خريف عام 1735، اندلعت ثورة واسعة، يقودها علي مراد، وهو شاب أرعن يتزعم فرع شهار لانج من قبيلة بختيار. وبعد أشهر قليلة، أصبح لديه 20 ألف رجل، بمن فيهم رجال قبائل لور والقبائل الأخرى، وقد كان يتفاخر بأن بمقدوره القضاء على نادر، وتحرير طهماسب من سجنه في خراسان.

ولم يكن بوسع نادر متابعة فتوحات رئيسية جديدة في الشرق مع وجود ثورة خطيرة تستشري من خلفه، تماماً كما لو ترك التهديد العثماني دون حل. فسار بجيشه من قزوين باتجاه الجنوب، وأمر حكام المنطقة بمهاجمة المتمردين. وقد حارب البختياريون تلك القوات بضراوة، لكنهم هُزموا في النهاية، وانسحب علي مراد إلى حصون جبال المنطقة التي أتى منها، والتي تقع إلى الغرب من أصفهان. فأتى نادر، واستولى على حصن ليروك، الحصن الرئيسي للبختياريين، وقام رجاله بتعقب الهاربين في الكهوف والأودية الموجودة بين التلال، فأسروا نحو ثلاثة آلاف أسرة.

وقد خضع معظم المتمردين لنادر، الذي لم يجد رجاله علي مراد، إلى أن ألقت إحدى سرايا نادر القبض على امرأة قادمة من منطقة التلال لجلب الماء. وقد قاومت المرأة الاستجواب بشجاعة، لكنها اعترفت بعد أن مُنعت من النوم 24 ساعة أنها تنقل الماء إلى علي مراد وعائلته. وأبلغت رجال نادر بمكان الكهف الذي يختبئون فيه. وقد نجح علي مراد في الثبات عدة أيام، لكنه في النهاية قتل زوجاته وبناته، لئلا يقعن في أسر نادر، وسلم نفسه، ليُؤخذ إلى نادر في شوشتر.

ولا شك أن نادراً عانى أشد المعاناة من تمرد البختياريين. وقد أصابه البحث الطويل عن علي مراد باليأس والغضب. وظهر له أن ما أبداه من حلم في السابق لم يقابل بالتقدير، لذا فقد قرر الآن أن يضرب مثالاً فظيعاً لقسوته، خاصة وهو يضع نصب عينيه رحيله الوشيك إلى قندهار والهند، وحاجته إلى بقاء البلاد في وضع هادئ في أثناء غيابه. سملت عينا علي مرادوقطعت أذناه وأنفه ويداه وقدماه. وبعد يومين، طلب الشاب البائس وهو في

بركة من الدم جرعة من الماء، ثم مات. 7 وقد أُعيد توطين عدة آلاف من البختياريين في خراسان، وتم تجنيد أعداد كبيرة من مقاتليهم في جيش نادر.

ثم توجه نادر إلى أصفهان، التي وصلها في 15 أكتوبر/تشرين الأول بجيش قوامه 200 ألف من الجنود والتابعين، الذين «التهموا كل ما وقع تحت أيديهم، كأسراب الجراد». وقد أقيمت الاحتفالات والألعاب النارية، لكن الكآبة عمت عندما ضاعف نادر الضرائب المستحقة. وتم ضرب العامة، وإعدام بعضهم، ومصادرة الممتلكات، وتم إيواء 12 ألفاً من القوات في المدينة، وظهرت الأجسام في الساحة الخارجية للقصر. ويشير الإنجليز إلى أن المدينة «شارفت على الدمار». ووفقاً للهولنديين، أظهر تعداد سكاني أجرته سلطات المدينة قبل وصول نادر أن عدد الديار المأهولة التي بقيت في أصفهان بلغ ثمانية آلاف، في مقابل 90 ألفاً في عهد الشاه سلطان حسين، و40 ألفاً في عهد أشرف غلزائي. 8

كان عُمال نادر في جميع أنحاء فارس يقومون بجمع الأموال والمؤن والحيوانات وغيرها من الإمدادات من أجل الحملة الجديدة على قندهار. وفي كرمان، قام جامعو الضرائب بضرب التجار والمواطنين، والبقاء في منازلهم إلى أن يقوموا بدفع ما عليهم. وبالفعل، دفع التجار الهنود والبائعون 1500 تومان فضي، وتمت مصادرة العديد من حيوانات الجر حتى ركدت التجارة. 9 في إحدى الحالات على الأقل تم تجريد القوافل من الحيوانات على الطريق بأكبر قدر من الغلظة، وتُرك التجار ببضائعهم على جانب الطريق. وفي بندر عباس، تم الاستيلاء على كميات كبيرة من الطعام جعلت العديد من التجار يفلسون. وكعادته، أولى نادر اهتماماً كبيراً لاستعداداته. وكانت المؤن تُرسل إلى مخازن في الصحراء، على طول خط سيره.

وتمشيا مع ما اعتاد عليه، أغدق نادر على جنوده الأموال، ومنح ضباطه خلعات قبل خروج الجيش في حملته. وفي 11 نوفمبر/تشرين الثاني، وصل تقي خان من شيراز بهدايا ثمينة إلى نادر، مع إسهام كبير من إقليم فارس، من أجل الحرب المقبلة. فكافأ نادر رجله المقرب بجواد ممتاز، ووهبه خلعة. 10 وقد أدت المطالب الضخمة على المال والمؤن

وحيوانات الحمل إلى إلحاق دمار عظيم بالثروة الحيوانية والاقتصاد في جميع أنحاء البلاد.

وعندما كان نادر في أصفهان، التي تعد مقراً للبيروقراطية المركزية في عهد الصفويين، شرع في إدخال تغييرات واسعة الأثر على إدارة شؤون البلاد، كان من شأنها أن تحدث تطوراً كبيراً لو تم إكمالها. فقد اضطلع بمسؤولية الخدمات التي كانت بيد البيروقراطية الصفوية، وأعطى شكلاً جديداً لإدارته. فأذاب الفرق بين أراضي الدولة التي تدار مباشرة والأراضي التي يديرها حكام الأقاليم أو غيرهم ليُحِل نظاماً يجمع بموجبه حكام الأقاليم الضرائب محلياً، ثم يحيلونها إلى السلطة المركزية بعد خصم نفقاتهم الخاصة. وقد تم تصحيح انفتاح هذا النظام أمام تلاعب الحكام والمسؤولين بسمعة نادر المخيفة، وتعيينه مسؤولين جدد لمراقبة حكام الأقاليم، واستعانته بالجواسيس. ومع ذلك فإنه عندما كان بأصفهان، أمر بإجراء تقييم نظامي للملكيات العقارية، بداية من أقاليم فارس، وأصفهان وأذربيجان، دون تمييز بين أراضي الدولة، أو الممتلكات الدينية، أو ممتلكات المجموعات المحمية الأخرى. وقد كان تقي خان الشيرازي، الذي بدأت تلك الإصلاحات من إقليمه، على الأرجح هو صاحب هذه الفكرة، فمن الأمور ذات المغزى أنه استُدعي إلى أصفهان لتدشينها. وكان على الحكام والمسئولين تقديم كشوف حساب تفصيلية عن حصيلة جمع الضرائب والنفقات بصفة دورية، وكانوا يتعرضون لعقوبات قاسية عند وجود عجز في كشوف الحساب. ولا شك أن الغرض من ذلك كله كان يتمثل في تعظيم العائدات، لدفع رواتب الجيش. وقد اعتمد الحكام اللاحقون على السجلات الضريبية المحددة التي تم وضعها في عهد نادر. ومن المنطقي أن نرى في هذه الإصلاحات أول باعث لثورته العسكرية، ومظهرا عظيما من مظاهر الكفاءة الإدارية والاقتصادية في عصره.11

وقد غادر الجيش أصفهان في 21 نوفمبر/تشرين ثاني 1736. ولدى مروره بأرض معركة جولن أباد، ارتدى نادر، احتفالاً بهذه المناسبة، قلنسوة جديدة طُعمت خصيصاً بالذهب واللؤلؤ والمجوهرات. وكان قوام جيشه 80 ألفاً، معظمهم (أو ربما جميعهم) من الفرسان، وهو الأفضل لقطع تلك المسافات البعيدة والأراضي المختلفة التي سيمرون بها. لكن إلى

جانب الفرسان الحقيقيين، اصطحب نادر عدة آلاف من المشاة المسلحين بالبنادق على ظهر نوع من الخيول الصغيرة أو الإبل، ومئات من بنادق الزانبوراك، وبعض المدفعية المحمولة. ثم تبعه طهماسب خان جالاير بثلاثين ألفاً أو أكثر من خراسان. كما خرج جيش كبير آخر، بشكل منفصل، في حملة تأديبية ضد البلوش، بقيادة بير محمد خان، ليلحق بالقوة الأساسية فيما بعد في قندهار . 12

وقد وصل نادر إلى كرمان في 22 ديسمبر/كانون الأول، ثم تابع تقدمه بعد تسعة أيام قضاها في أعمال السلب والنهب. ومع مواصلة الزحف باتجاه الشرق عبر بام، وصل الجيش إلى جيرشك يوم 19 فبراير/شباط 1737. حيث استسلمت الحامية الأفغانية بها عندما دكت مدفعية نادر أسوارها، غير أن التقدم الأساسي باتجاه قندهار قد تباطأ بسبب الحاجة إلى علف الخيل. فرغم أن قوات نادر، التي كان معظمها أو كلها من الفرسان، كانت لها ميزة السرعة وسهولة التنقل، فإن عدد الحيوانات في الجيش فاق عدد الرجال، وهو ما احتاج إلى كميات ضخمة من الحشيش والكلأ وغيرها من أنواع الطعام يومياً، لإطعام هذه الحيوانات إذا أراد الجيش إكمال مسيرته. ومما فاقم المشكلة أنه عندما اقتربت هذه القوات من قندهار كان الوقت معاكساً لهم، فلم تكن حشائش الربيع قد ظهرت بعد. كما أن قوات حسين سلطان كانت قد قامت بإحراق ما تبقى من علف السنة السابقة. لذا فقد انحرف الجيش شمالاً، للحصول على العلف من قبائل الهزارا، ثم واصلوا مسيرهم إلى قندهار، حيث عسكروا على الضفة الغربية لنهر أرغنداب.

وفي الليلة التي تلت وصولهم إلى هناك، أقدم الغلزائيون على ما كان مخططاً له أن يكون هجوماً مفاجئاً، لولا أن بعض الأفغان العبدليين في جيش نادر قد اكتشفوا الأمر. وقد كان ذلك بخدعة قام بها العبدليون لمجموعة من الفرسان الغلزائيين الذين تم إيقافهم وهم يقتربون. فقد قام العبدليون بتحية الغلزاي (أهل قبيلة بشتونية كبيرة) باللغة البشتونية، متظاهرين في الظلام بأنهم من رفاقهم، ثم هجموا عليهم فجأة، فأخذ الغلزاي على حين غرة. وقتل العبدليون أعداداً كبيرة منهم، وغرق بعضهم في النهر في أثناء الفرار، بينما لاذ الباقون بالفرار. وقد انطلقت جماعة أخرى من الغلزاي باتجاه معسكر نادر، لكن حراسه

قاتلوهم، فانسحب رجال حسين سلطان إلى قندهار.13

ورغم امتلاء النهر عن آخره نتيجة لانصهار ثلوج جبال الشمال في فصل الربيع، فإن نادر خاض في مياهه، وعبره حتى وصل إلى المدينة، مستديراً إلى الجنوب حول الجبال المرتفعة التي تقابلها. حيث عسكر الجيش في الجانب الشرقي، على مقربة من قبر مير ويس، قائد ثورة الغلزاي عام 1709. وهناك احتفل نادر بعيد النوروز يوم 21 مارس/آذار. 14

ومثل هرات، كانت قندهار قوية التحصين. وربما كان ذلك هو أصعب حصار واجهه نادر طوال حياته العسكرية. وكالعادة، لم يكن لديه ما يكفي من المدفعية الثقيلة لاختراق الأسوار الطينية السميكة التي واجهته، فاضطر إلى اللجوء إلى الحصار[1]. وكما حدث في حصار بغداد، نصب حلقة من الأبراج لتحيط بقندهار، منتشرة بداخلها أبراج أصغر كل منها في مرمى طلقات بنادق الأبراج الأخرى. وفي ذات الوقت، أرسل مجموعات من الرجال لإخضاع الحصون والمدن القريبة، وتأمين طرق الإمداد الخاصة به. وفي التاسع من أبريل/نيسان، أعطى أوامره بالتقدم قليلاً إلى الجنوب الشرقي، والشروع في بناء مدينة جديدة بالكامل، بالأسواق، والميادين، والحمامات، وإسطبلات الخيول، والمقاهي، والمساجد، وأطلق عليها اسم نادر أباد. وكما حدث في بغداد، ساعد إنشاء هذه المباني على إسكان جنوده أثناء الحصار الطويل، وإلقاء اليأس في قلوب المحاصَرين، الذين اتضح لهم أن الفرس يعتزمون إتمام اللعبة إلى النهاية. وكان من الضروري أيضاً، في مثل هذا الحصار الطويل، توفير أوضاع معيشة صحية للقوات، فلولا ذلك لانتشرت الأمراض بين الجنود، ودب الوهن والضعف بينهم أكثر من المحاصَرين. وقد كانت هناك بلا شك بعض المناوشات، لكن رجال حسين سلطان بقوا بوجه عام داخل أسوارهم. وكان قد وصله العديد من التحذيرات بشأن الهجوم الفارسي، فقام بتوفير ما يكفي من المؤن لعدة أشهر.

---

(1) وقد كانت الأسوار الطينية للحصون الهنديه والشرقية الأخرى، إذا أُحكِمَ بناؤها، أكثر فعالية في صد قوة قصف المدفعية في أثناء الحصار، بشكل يفوق الأسوار الحجرية أو المكسوة بطبقة خارجية من الحجر، التي كان يشيع استخدامها في الحصون الأوروبية لصد المدفعية.

وفي الصيف، تلقى حسين سلطان أخباراً تفيد باستسلام حصن قلعة غلزاي، وقد كان بها أحد أبنائه، ومحمد سيدال خان، الذي تولى قيادة القوات ضد الفرس تحت إمرة محمود وأشرف، ثم ضد نادر في حملته على هرات عام 1731. وقد عامل نادر ابن حسين سلطان معاملة طيبة، بينما اعتبر محمد سيدال خان شخصاً خطيراً مثيرا للمشاكل، لذا أفقده بصره. 15

وتقول إحدى الروايات إن شاعراً من خراسان قد خرج في رحلة إلى قندهار، ليقدم قصيدة في مدح نادر. وبالفعل، ألقى أبياته في البلاط، لكنها لم تعجب نادر. وهو ما جعله يأمر أحد الحجاب بأخذ الشاعر في جولة حول المعسكر، عارضاً بيعه بوصفه رقيقا، لكن أحداً لم يشتره. فسأله نادر: «كيف وصلت إلى هنا؟»، فأجابه الشاعر: «فوق ظهر حمار». عندئذ أمر نادر بعرض الحمار للبيع. وعلى الفور، جاء مشترٍ بسعر مناسب، فتم بيع الحمار. ثم أعطى نادر المال للحاجب، وأمر بإخراج الشاعر من المعسكر، ليصبح محل سخرية. فلم يكن نادر محباً للفنون إلى هذه الدرجة. 16

وبعد عشرة أشهر، بدأ صبر نادر ينفد من جراء الحصار الطويل، وتحولت خيبة أمله بشكل متزايد إلى شك وغضب. فلم يعد يحب أبداً البقاء في مكان واحد فترة طويلة، ومن المحتمل أيضاً أن تكون بوادر مرضه الأخير، الذي قد يكون الملاريا، قد ظهرت في تلك الأثناء. وقد ذكر الهولنديون في أصفهان شائعة في بداية صيف 1736 تقول إن نادر نُقل مريضاً من قزوين، وكان يعاني من حين لآخر من مشاكل في الهضم. ولا شك كانت مشكلات الهضم إحدى الأمراض التي عانى منها مؤخراً، وهو ما يدعو إلى تصديق تلك الرواية. وقد كان نادر يخفي إصابته بأي مرض. 17

وفي صيف وخريف 1737، بدأت قوات نادر تزداد نتيجة لعودة عدد من القيادات التابعة له بعد نجاحها في المهام الأخرى الموكلة إليها، غير أن بعضها قد عانى من خيبة أمل نادر وحدة طباعه. بل وصل الأمر إلى إعفاء أحدهم من القيادة، وتعرضه للضرب بالفلقة، عقوبة على استغراقه وقتاً أكثر من اللازم في حصار مدينة قريبة.

ولم يتوقف الأمر في هذه المرحلة عند القادة الصغار بل تجاوزهم للكبار أيضاً، وكان

في مقدمتهم بير محمد خان الذي عبر نادر عن ثقته فيه غير مرة، من ذلك مدحه له عند تقديمه للقس أبراهام أثناء المجلس المنعقد بشأن مُغان. وكان الرجل بعد أن سمح لقوات نادر بالدخول إلى مشهد، والاستيلاء عليها عام 1726، قد أثبت وفاءه وقدرته في أكثر من موقف. كما أنه كان أول حاكم لنادر في هرات. وفي أثناء حصار قندهار، كان يعسكر من أجله في بلوشستان. ويبدو أن الأمر قد استغرق معه وقتا أطول من اللازم، ربما لأنه كثير التدقيق أو الشك. فوصلت إلى نادر تقارير خبيثة تفيد أنه يعتزم التمرد، فأمر بضرب عنقه. وفي تلك الأثناء، كانت الحملة ضد البلوشيين قد نجحت تماماً، ووصلت قوات بير محمد إلى بلاط نادر أباد برأس قائدها السابق بعد ذلك بقليل. 18 وقد ندم نادر فيما يبدو على قتل بير محمد خان. لكن على أي حال، كانت تِلك الواقعة بداية لأخطاء فادحة تلتها.

وفي صيف 1737/1738، كان الأفغان في قندهار يأكلون لحوم خيلهم، ومع ذلك فقد بقيت لديهم كميات كبيرة من المؤن الأساسية. بينما ضاق نادر بالأمر ذرعاً. وانتشرت شائعات تقول إنه يعتزم ترك الحصار في قندهار في أيدي آخرين، والسير بالجيش الأساسي إلى الهند.

وفي ديسمبر/كانون الأول، أصدر نادر أوامره لحكام الأقاليم بتجنيد 18 ألفاً من الشباب الذين تتراوح أعمارهم بين 13 و25 عاماً، وإرسالهم إليه في قندهار، ليدعموا حسب وجهة نظره القوات المحاصِرة، ولإفساح المجال أمام ذهاب المخضرمين معه، وفقاً لهذه الخطة. وقد تقرر زحفهم ليلحقوا به عبر مشهد وهرات بحلول عيد النوروز. وكان على أصفهان والقرى المجاورة لها تزويد الجيش بخمسة عشر ألفاً من الصبية والشباب، لإكمال العدد المطلوب، وقد أظهرت عائلاتهم قدراً كبيراً من الحزن في أثناء رحيلهم. وقبل مغادرتهم بشهرين أو نحو ذلك، تحتم على الصبية أن يتدربوا يومياً على بنادق ثقيلة تضاهي أطوالها أطوال قاماتهم، فكانوا يجدون صعوبة في حملها، ناهيك عن استخدامها على النحو الصحيح. وقد تم إسكانهم في نزل بالمدينة، وفي المدارس التي تم طرد المعلمين منها. وعندما حل موعد رحيلهم، فرح شعب أصفهان لذلك، فقد «مارسوا جميع أشكال العنف في المدينة، ولم يحترموا أحداً». 19

وقبل وصولهم، قرر نادر أن الوقت مناسب لتغيير خططه. وفي نهاية يناير/كانون الثاني، أمر بشن هجوم شامل على حصون قندهار، ونجح فصيل من القوات الجسورة في الاستيلاء على عدد من القلاع النائية. كان أهمها على وجه الخصوص قلعة تقع على قمة أحد التلال، بالقرب من الطرف الشمالي للجبل الذي يقع خلف المدينة من الجانب الغربي. ومن هذا الموقع، استطاعوا الهجوم على قلعة أخرى في الطرف الشمالي من الجبل، تعرف باسم شيهل زينا أو برج الزانجي، وقد كانت جيدة التحصين، مزودة بالمدفعية. لكن رجال نادر نجحوا في الاستيلاء عليها أيضاً، وهو ما وفر لهم نقطة مرتفعة يمكنهم من خلالها الاطلاع على باقي حصون قندهار. وقد عانى الجنود من مشقة كبيرة في جرّ المدافع إلى أعلى، ليتمكنوا من قصف الأسوار والقلاع المحيطة. وكان أقربها قلعة أخرى، تتصل بسلسلة الحصون الرئيسية، تعرف باسم برج الديد، وإليها وجه الفرس نيران مدفعيتهم. 20 وخطوة بخطوة، أخذ الفرس يستولون على قلعة تلو الأخرى، ليقتربوا من أضعف نقطة في أسوار قندهار.

وربما يكون القصف المدفعي المتواصل على برج الديد قد أحدث أضراراً ظاهرية، إذ أدى إلى إزالة المتاريس، وكشف المدافعين أمام بنادق الفرس، غير أن المدافع الفارسية لم تتمكن من هدمه، أو إحداث فتحات كبيرة به. وقد كان الأفغان يعملون كل ليلة على إصلاح ما لحق به من أضرار خلال النهار. وفي 13 مارس/آذار، تم حشد 900 رجل للهجوم على القلعة في غارة ليلية، بعد قصف مدفعي تمهيدي آخر. وكان ثلاثمائة منهم من البختياريين الراغبين في استعادة سمعة قبيلتهم بعد تمرد علي مراد، لذا طالبوا بحق قيادة الهجوم. وشاركهم الهجوم أعداد مناظرة من الأكراد والعبدليين (وهي أشرس القبائل المقاتلة في جيش نادر). وقد اختارهم نادر على هذا النحو ليثير روح التنافس فيما بينهم.

ولكن لسوء الحظ، أدرك الأفغان ما كان يخطط له الفرس، فعززوا قواتهم في القلعة. وبدأ الهجوم، ليفقد الفرس 200 رجل، ما بين قتيل وجريح، قبل أن يدركوا استحالة الاستيلاء على القلعة. ومع ذلك استبسل رجالهم وبدأ في التو في الاستعداد لمحاولة ثانية. 21

وفي 21 مارس/آذار 1738، احتفل نادر مع قواد جيشه بعيد النوروز للمرة الثانية خارج قندهار، بإقامة الولائم وتقديم الهدايا كالعادة. وفي 23 مارس/آذار، أتم البختياريون وباقي القوات استعداداتهم النهائية لشن هجوم آخر على برج الديد. وقد شارك في هذه الغارة ثلاثة آلاف رجل، تم اختيار كل منهم بعناية من بين مجموعة كبيرة من المتطوعين. وتم إخفاؤهم جيداً داخل الخنادق، والكهوف، وخلف الصخور، على مقربة من هدفهم، لإخفاء استعداداتهم عن الأفغان. كما أمضى نادر نفسه سراً الليلة السابقة للهجوم في الخارج مع قواته، ووعد بمنح كل منهم مئة ألف روبية عند نجاح المهمة، إلى جانب الغنائم التي يستولون عليها من المدينة، وهدد بضرب أعناقهم، وإلقاء جثثهم للجوارح والكلاب، إذا عادوا خائبين. وهو ما أثار حفيظة الجنود، الذين استاؤوا من تهديداته وعدم ثقته فيهم.

وتقول إحدى الروايات إن نادراً رأى مُعلماً بين صفوف المغيرين، وكان من قبيلة بختيار، ويدعى أدينه مصطفي. فأراد أن يمنعه من المشاركة في الغارة متعللاً بخطورة ذلك على حياته، وعدم مناسبة القتال له باعتباره عالماً ومُعلماً. فأصر المُلا أدينه على المشاركة قائلاً: «جعلني الله فداءك، إن أمور البشر في هذه الحياة الدنيا لهي من صميم اهتمام المُعلمين والعلماء. وإن شاء الله سترى شجاعتي». 22

وتستمر الرواية لتؤكد أن نادراً خطط لجعل الغارة وقت صلاة الجمعة، بعد أن أخبره أحد الجواسيس بانخفاض عدد المدافعين عن البرج وقت الصلاة، لوجود العديد منهم في المساجد. 23 وبعد أداء صلاة أخيرة ظهيرة يوم 24 مارس/آذار من أجل نجاح المهمة، تم إعطاء الإشارة من قلعة شيهل زينا، وتدفقت جموع البختياريين بالسلالم المُعدة لتسلق الأسوار. فسقطت أعداد كبيرة منهم بنيران البنادق، لكن عدداً آخر نجح في الوصول إلى أسفل البرج، حيث قاموا بنصب السلالم، ليصلوا إلى القمة، ويشتبكوا مع المدافعين. وقد كان المُلا أدينيه أول من وصل إلى قمة السور. وبعد قتال حاد، نجح البختياريون في الاستيلاء على البرج، وتوجهوا إلى البرج الذي يليه في سلسلة الأسوار، مدعومين بباقي القوات التي تحركت للأمام من مخابئها خلفهم.

وسرعان سقطت الأبراج والقلاع واحداً تلو الآخر، وميزت الرايات التي ترفع فوق الأسوار تقدم الفرس. وأخذ الأفغان في إرسال المزيد من القوات للاشتراك في القتال، لكن البنادق الفارسية كانت تحصدهم بوابل من الرصاصات من الأبراج التي استولوا عليها. وفي النهاية، رأى حسين سلطان أنه لا أمل في النصر، فانسحب إلى القلعة مع عدد قليل من الأفغان، تاركين باقي السكان للقتل، أو الأسر والأغلال. 24

أما نادر فصوّب مدافع أسوار المدينة إلى القلعة، وزاد من الكرب الذي يعانيه حسين سلطان بدويّ قصف مدفعي سريع. وفي صباح اليوم التالي، أرسل القائد الغلزائي ابنته الكبرى زينب- «وهي أميرة ذات حكمة نادرة»- مع مجموعة من الضباط الأفغان، لتؤدي مراسم استسلام الأفغان. فوافق نادر على ذلك شاكراً. وفي اليوم التالي، ركع حسين سلطان نفسه أمامه، وهو ما جعله يحافظ على حياته، ويرسله هو وعائلته باعتبارهم أسرى إلى مازندران.

وفي سجن القلعة، وجد الفرس القائد العبدلي ذو الفقار وشقيقه، خصمي نادر في حصار هرات 1731/1732، اللذين فرا إلى حسين سلطان على أمل اللجوء إليه، لكنه زج بهما في السجن بدلاً من ذلك. فأرسلهما نادر إلى مازندران أيضاً.25 كما وجد رجال نادر صبيا عمره 15 عاماً في السجن، كان اسمه أحمد خان عبدلي، وكان ينتظره مستقبل عظيم. حيث ضمه نادر إلى جيشه، ليصل بعد ذلك إلى قيادة فرقة العبدليين.

وقد هُدم الحصن الكبير لقندهار، وتم إرسال ساكنيه للعيش في مدينة نادر أباد الجديدة، التي أصبحت عاصمة للإقليم[1]. كما أُعيد توطين عشيرة الهوتاكي التابعة لقبيلة الغلزاي، التي كان حسين سلطان قائداً عليها، في خراسان. حيث استقروا هناك في الأراضي المحيطة بنيسابور، والأماكن الأخرى التي كان يشغلها الأفغان العبدليون في السابق، بعد حصار هرات. وتم نقل العبدليين إلى الأراضي المحيطة بقندهار. وكانت جميع حركات الانتقال الكبيرة تلك تجري في منتصف أبريل/نيسان. وقد سُمح لباقي عشائر الغلزاي

(1) تغير اسم نادر أباد فيما بعد إلى قندهار، وبقيت الأساسات التي حفرها جنود نادر عام 1738 قابعة أسفلها. أما المدينة القديمة التي كانت تقع أسفل الجبل فلم تُسكن مرة أخرى.

بالبقاء، واختير زعيماً عليهم، وحاكماً لقلعة غلزائي، أحد زعمائهم الذين استسلموا النادر وقت حصار قندهار. 26 ثم أخذ نادر أعداداً كبيرة من شباب المحاربين الغلزائيين ضمن حرسه. وهكذا، انكسرت شوكة الأفغان الغلزاي، وتم الانتقام لما حدث من إذلال عند فتح الغلزاي أصفهان، وتمت استعادة آخر الأقاليم الفارسية التي سقطت في يد الشاه سلطان حسين.

استدعى نادر المُلا أدينه، وكافأه بكيس كبير اكتشف الملا بعد انصرافه أنه ممتلئ بالذهب. فعاد بالكيس ظناً منه أن هناك خطأ ما. فقال له نادر: إنه حتى إذا كان هذا الكيس ملوءاً بالمجوهرات الثمينة فذلك أقل ما يقدمه له. 27 وقد كان من الطبيعي بالنسبة لنادر أن يأخذ الأموال من المعلمين، ناهيك عن أن يعطيهم إياها، لكن خلال عام كان نادر مديناً للمُلا أدينيه بأكثر مما أعطاه. نعم لم يكن برج الديد الذي تم قصفه يطل على دلهي، لكن تبين أنه بوابة الوصول إليها. ورغم أن نادر قد استعاد في ذلك الوقت كافة الحدود القديمة لبلاد فارس، فإن طموحه لم يصل بعد إلى قمته.

وقد بقي نادر شهرين بعد سقوط قندهار، وفي 19 مايو/أيار 1738، استقبل مبعوثاً من إسطنبول. وكان هذا المبعوث قد استغرق أكثر من عام ليقطع هذه الرحلة عبر أصفهان وكرمان، برفقة اثنين من المرشدين و700 من الخدم والحشم. وقد توقف في أصفهان على الأرجح لإصابته بالجُدري. وعند وصوله إلى نادر أباد، قدم مجموعة رائعة من الخيول العربية، وعدداً من الهدايا النفيسة، التي أرسلها السلطان العثماني لتهنئة نادر على التتويج. لكنه حمل إليه أيضاً رسالة تفيد رفض السلطان الاعتراف بالمذهب الجعفري، أو تخصيص ركن خامس بالكعبة.

وقد ناقش نادر هذه النقاط بأدب مع المبعوث العثماني، وأوضح له أن القضايا الدينية جوهرية لإبرام المعاهدة المقترحة، ومنحه هدايا سخية، وأعاده إلى إسطنبول مع مبعوث فارسي آخر، بحيث يمكن إحراز تقدم أكبر في المفاوضات. 28 فسافر المبعوثان آلاف الأميال، وقدما الهدايا، ثم عادا مرة أخرى، وهكذا استمر الأمر أشبه بتمثيلية يخمن الناس مغزاها.

وعلى صعيد آخر، كان عدد من رجال حسين سلطان قد هربوا في العام السابق، عبر حدود إقليم قندهار إلى الأراضي المغولية، بعد مناوشات بالقرب من قلعة الغلزاي. وأصبح من الواضح أنه رغم الرسائل السابقة التي تطلب من البلاط المغولي عدم إيواء الأفغان الفارين، لم تتمكن السلطات المغولية أو لم ترغب في الاستجابة لذلك. وكان نادر قد أرسل مبعوثاً آخر إلى دلهي في مايو/أيار 1737 29 لتأكيد هذه النقطة، دون أن يأتي الرد. وكان لدى المبعوث أوامر بعدم البقاء أكثر من أربعين يوماً، لكن المدة انقضت دون أن يصل منه أي رد. وقد انتشرت شائعة تقول إنه مد إقامته، لانشغاله بإحدى الراقصات، لكن الأحرى بالتصديق أن محمد شاه ورجال بلاطه لم يقرروا التصرف الذي يتخذونه تجاه الأمر، وأبقوه معلقاً لديهم.

خرج نادر بجيشه من مدينة نادر أباد في 21 مايو/أيار 1738، متوجهاً إلى كابل. وبعد ذلك بفترة قصيرة، عبر الحدود المتعارف عليها بين الإمبراطوريتين الفارسية والمغولية[1]، ووصل إلى غزنة في 11 يونيو/حزيران. فانضمت إليه هناك فصائل أخرى كانت في حملات لإخضاع بعض قبائل الهزارا، شمال قندهار. حيث قتل الفرس أعداداً كبيرة منهم، وسبوا نساءهم، لكن كعادته في الرفق بالإناث، أطلق نادر سراح نساء الهزارا. وقد تكبد المشاق لإخضاع الأفغان الذين يسكنون الجبال حول غزنة أيضاً، قبل أن يواصل زحفه إلى كابول. 30 وقد كان أمامه ما هو أكثر بكثير ليقطعه، كما كان من الضروري أن يؤمن خطوط إمداداته قدر الإمكان. وكالعادة، فقد كان يبر من خضع له، ويغلظ مع من يبدون أكثر من المقاومة الرمزية، أو يخالفون اتفاقهم.

ورغم عدم تلقيه أي رسائل من مبعوثه الخاص، تقول العديد من الروايات إن نادر استلم عدداً من الرسائل الأخرى من البلاط المغولي، لصرفه عما أصابه من إحباط أثناء حصار قندهار. 31 وكان من أهم المبعوثين الذين ذكرتهم تلك الروايات «نظام المُلك»- نائب الملك في ديكان. وكان نظام المُلك كبير مستشاري الهند المغولية، لكن بعد عرض فاشل لإصلاح الملكية في أوائل عشرينيات القرن الثامن عشر في بداية عهد محمد شاه، تم

(1) بالقرب من موقور.

عزله من حياة البلاط ليحكم ديكان. وقد جاءت عائلة نظام المُلك من سمرقند في آسيا الوسطى، وكان يُعتبر زعيم التورانيين، أو فصائل آسيا الوسطى، في أوساط النبلاء. وتفيد بعض الروايات أن سعدات خان، حاكم أوَد، كتب أيضاً إلى نادر في تلك الأثناء. وينحدر سعدات خان من خراسان وكان شخصية بارزة في أوساط الفصائل الفارسية. وهناك أيضاً فئة هندوستانية من زعمائها قائد الجيش خان دوران[1].

كان هناك تنافس شديد بين هذه الفصائل والشخصيات، واندلعت عدة حروب أهلية في العقود الماضية. لكن الدولة المغولية كانت تعاني بالإضافة إلى ذلك من العديد المشاكل الأخرى ذات الصلة. ومنها وجود نبلاء أقوياء جداً، وسواهم، وحصلوا على أملاك كبيرة من الأراضي المغولية بفضل المناصب التي يتولّونها. وكانوا حريصين على مصالحهم الخاصة (ومن الأمثلة الأساسية على ذلك نظام الملك في ديكان) وتحويل أراضيهم إلى إمارات مستقلّة. وبحلول سنة 1738، لم يكن خاضعاً لسيطرة محمد شاه المباشرة سوى قطعة صغيرة نسبياً من الأرض. ومع تزايد شبه انفصال أجزاء كبيرة من الأراضي عن الدولة المغولية بهذه الطريقة، أصبح مالكو الأراضي والزعماء المحليون الآخرون أكثر حرية في زيادة استقلالهم: بالتعاون مع النبلاء العظام في بعض الأحيان، وضدّهم في أحيان أخرى، ولكن ضد مصالح الشاه المغولي على الدوام. 32 ومما يبدو متناقضاً في الظاهر أن نجاحات المغول في تعزيز إنتاجية الزراعة في القرن الماضي، عن طريق مشاريع الري وتشجيع المحاصيل النقدية على سبيل المثال، أدّت إلى زيادة قوة في العديد من مالكي الأراضي. لذا تسارعت عملية إضفاء اللامركزية على هياكل الحكم المغولي وتفكّكه.

كان الماراتا من المستفيدين الرئيسيين من تزايد ضعف الدولة المغولية، وهم عصابات من مليشيات المقاتلين الهندوس من الجنوب الغربي، يحكمها تحالف من العائلات الرئيسية، التي توسعت في مناطق ضعف السلطة المغولية. وفي 1738، وصل توسّع الماراتا

(1) ما أوردته عن عن الحالة المعقّدة لسياسات الفصائل والفئات وأحوالها في الهند مبسّط جداً بوجه عام، بسبب ضيق المجال. وكانت التحالفات بين الوجهاء تتحوّل وتتغيّر بمرور الوقت، ولم يكن تركيب الفصائل يتوافق دائماً مع الأصول التي أتى منها الوجهاء.

إلى حد جعلهم ينهبون ضواحي دلهي ذاتها، ويجبرون محمد شاه على التخلي عن منطقة مالوا. وسط تلك الأوضاع الصعبة، كان محمد شاه يؤلّب الفصائل بعضها على بعض، ويحافظ على موقعه في البلاط، دون أن يعالج هو ورجال بلاطه المشكلات الأعمق. 33 كان النظام المغولي يستجيب للأحداث والتحديات المباشرة، لكنه فشل في السيطرة على التغيرات العميقة في الأوضاع التي تضعفه.

كانت الرسائل التي تلقاها نادر (إن كان هناك مراسلات بالفعل) دليلاً على ضعف حالة الدولة المغولية، والانقسامات التي تدفعها إلى الانهيار. 34 وتقول بعض الروايات إن نظام المُلك وسعدات خان دعوا نادر مباشرة للغزو. وانتشر على نطاق واسع في السنوات التي تلت ذلك أن نظام المُلك على وجه الخصوص قد خان سيده. فالرسل الذين يحملون رسائل تافهة من نادر إلى محمد شاه يمكنهم أن يحملوا رسائل أخرى. من ناحية، ما الذي يدعو إلى وجود مراسلات بين نظام المُلك ونادر بخلاف كونها نوعاً من الخيانة؟ ومن ناحية أخرى، من غير المرجح أن نظام المُلك كان يفتقد إلى الذكاء، بحيث يوجه دعوة مباشرة إلى نادر. ربما طمأنت هذه الرسائل نادر تجاه حسن نوايا نظام الملك، وعرضت مساعيه الحميدة للعمل على حل الخلافات البارزة بين الملكين، لإرضاء نادر. ومع ذلك، فإن واجب الولاء الذي يدين به نظام المُلك لمحمد شاه، يجعل ذلك أيضاً من قبيل الخيانة، وربما قصد بها أن تعكس أكثر مما كان مكتوباً. ويبدو أن نادراً شعر بالرضا على العموم من عدم الوحدة التي تعكسها الرسائل، لكن نواياه لغزو الهند كانت مبيته بالفعل. ولم تغير الرسائل من الأمر كثيراً، ولو ظن مرسلوها أن بإمكانهم التقرب إليه، فقد جانبهم الصواب.

ومع اقتراب نادر من كابل، جاء وفد آخر لمقابلته. وكان من نبلاء المدينة الذين جاؤوا يعلنون خضوعهم. وكان الحاكم المغولي لكابل وبيشاور قد تقدّم من قبل بالتماس إلى أسياده في دلهي لكي يرسلوا إليه رواتب سنة واحدة على الأقل من رواتب الخمس سنوات المتأخّرة لصالح القوات حتى يتمكّن من الدفاع عن كابل أمام نادر. لكن خان دوران استخفّ بالرسالة في دلهي قائلاً إن هناك الكثير من الوقت ويمكن تاجيل الرواتب

إلى ما بعد موسم الأمطار، عندما تصل الأموال من البنغال. وهكذا لم يحصل الحاكم على ردّ على التماساته، فانسحب مع معظم قواته إلى بيشاور. وقام بعض المتشدّدين باحتلال القلعة بإمرة قائدها وحاولوا الصمود هناك.

قصفت قوات نادر القلعة عدة أسابيع، رغم توسلات سكان المدينة التي رجو عدم تعريضهم للمعاناة بسبب عناد قلة قليلة. ومع استمرار الحصار، وفقاً لإحدى الروايات، أمر نادر ببقر بطون 80 من جنوده، لحضورهم اغتصاب امرأة هندية، وعدم تدخلهم للحيلولة دون ذلك. وفي تلك الأثناء، كان تأثير مدفعية نادر الخفيفة على القلعة طفيفاً، لكن مفعول مدافع المغول الكبيرة عوض على غير المتوقّع غياب مدفعية نادر الثقيلة، حيث إن ارتدادها أحدث انهياراً بأحد الأبراج وجزء من السور.36 فاستسلمت القلعة والمدينة بعد ذلك بقليل، في أواخر يونيو/حزيران.

وقد أرسل نادر خطاباً إلى محمد شاه، مبدياً اعتراضه على عدم التزام الأخير بعدم إيواء الأفغان الهاربين. وعلل استيلائه على كابل باضطراره لمطاردة الهاربين بنفسه، ومع ذلك فقد كان رحيماً بأهل كابل، وترك لهم ممتلكاتهم. وبعكس جميع المظاهر الخارجية، أكد نادر على صداقته لمحمد شاه. وقد تم إرسال الرسالة مع مبعوث فارسي إلى دلهي، لكن الرجل التعيس الحظ لم يصل أبداً، فقد قُتل في الطريق بالقرب من جلال أباد.37

سار نادر برجاله من كابل متجهاً نحو الشمال، إلى إقليم شاريكار[1] لأخذ قسط من الراحة في منطقة يتوفر بها العلف، والماء، وغيرهما من الضروريات. وفي أثناء ذلك، ذهبت طوائف من الجند لإخضاع القبائل الأفغانية المحيطة، وانضم إلى الجيش المزيد من المجندين، بعد إدراك فرص الثراء الشخصي التي تنتظر جيش نادر في الهند. ثم تحرك الجيش مرة أخرى في أوائل سبتمبر/أيلول قاصداً جانداماك، وجلال أباد، وبيشاور. وكان هذا الطريق هو نفسه الذي تجرع فيه الجيش البريطاني، قبل قرن من الزمان، واحدة من أسوأ هزائمه، وأكثرها إذلالاً، على أيدي الأفغان الغلزاي.

(1) بالقرب من موقع مطار باجرام، وقد كان لهذا الموقع أهميته في الحرب الروسية الأفغانية فترة الثمانينات من القرن العشرين. وكذلك عندما ساعدت القوات الأمريكية تحالف الشمال على هزيمة طالبان عام 2001.

عندما كان نادر في الطريق، سمع بمقتل رسوله، فأصدر الأوامر بانطلاق حرس متقدم مسلح بالبنادق فوق ظهور الجياد إلى جلال أباد. ففاجؤوا حاميتها، واحتلوا القصر، واستولوا على كميات كبيرة من الحبوب الثمينة، وارتكبوا مذبحة عقابية. لكن الزعيم الأفغاني الذي قتل رسول نادر فر إلى معقله الجبلي القريب. فواصل الفرس مطاردتهم له، وأوقعوا به، بعد قتال مرير في قلب الخنادق التي حفرها الأفغان بين التلال. حيث قتل جميع الرجال، وأخذت جميع النساء مكبلات بالأغلال، بمن فيهن زوجات الزعيم وأخواته. 38 وجدير بالذكر هنا أنه يوجد معقل آخر في منطقة ليست بالبعيدة، إلى الجنوب من جلال أباد: مجمّع الكهوف في تلال تورا بورا، حيث أخفق القصف الأمريكي، وقوات التحالف، في قتل أسامة بن لادن، أو أسره، في ديسمبر/كانون الأول 2001.

وقد توقف الجيش الرئيسي قبل جلال أباد، حيث عسكر في بهار صوفيا، على بُعد أميال قليلة إلى الجنوب الغربي. وبينما هم هناك، انضم إليهم، في 7 نوفمبر/تشرين الثاني 1738، الابن الأكبر لنادر، رضا قولي ميرزا، الذي وصل من بلخ بناءً على أوامر من أبيه. فقد رغب نادر من ناحية في رؤيته مع بقية أبنائه وأحفاده، الذين صارت دعوتهم لزيارته مع تقدمه في السن متكررة. وليجعله من ناحية أخرى نائباً عنه على فارس أثناء غيابه.

وكان رضا قولي قد تولى المسؤولية عن خراسان قبيل تتويج نادر مباشرة عام 1736. وقد أمره نادر بالتعامل مع المتمردين في أندخوي وبلخ، وهما مدينتان تقعان شمال الجبال الأفغانية، إلى جنوب نهر الأكسوس[1]، التي عادة ما تتبع العرش الفارسي. وأرسل معه طهماسب شاه جالاير، لإرشاد الشاب، وتجنيبه أي أخطاء متهورة. فتقدم الشاب الطموح والرجل المخضرم القوي إلى أندخوي في أواخر ربيع 1737. حيث استسلم أهلها بعد ستة أسابيع. وقد كان المتمردون مجموعة أخرى من الأفشار المنشقين، تحول بعضهم إلى الجانب الملكي عند بداية الحصار. وتذكرنا هذه الواقعة بحقيقة جلية مفادها أنه رغم نجاح نادر، فإن العديد من أقاربه، وأبناء قبيلته الأفشار، الذين يتذكرون الضغائن القديمة منذ أيام نادر الأولى في أبيورد، واصلوا معارضتهم الشديدة له ولحكمه.

(1) يعرف أيضاً باسم أمو داريا.

ثم تحرك الجيش الصغير بقيادة رضا قولي حتى وصل إلى بلخ، التي استسلمت أيضاً بعد قتال. لكن بدلاً من التوقف هناك، أراد رضا قولي أن يكمل حتى يتجاوز نهر الأكسوس، مخالفاً بذلك أوامر نادر. وبدلاً من ثنيه عن ذلك، كما كان ينبغي له، حثه طهماسب خان على مواصلة ما تحقق لهم من نجاح. 39 فعبر رضا قولي نهر الأكسوس في أغسطس/آب مع نحو 8500 رجل. ثم تحرك حتى وصل إلى قارشي، التي كانت من المدن الهامة التابعة للحاكم الأوزبكي أبي الفيض البخاري، حيث استعد الفرس لفرض الحصار. وفي الوقت ذاته، طلب أبو الفيض النجدة من خوارزم، وخوجاند، وطشقند، وسمرقند، وغيرها، وزحف لإنقاذ قارشي.

كان ذلك تماماً ما يخشاه نادر، لكن رضا قولي وطهماسب خان كانا على قدر المسؤولية. نشبت المعركة، وأجبر الهجوم الأوزبكي قوات الفرس على التراجع في بادئ الأمر، بيد أن المدفعية الفارسية لعبت دروها بعد ذلك. فلم يكن الأوزبك وجيادهم معتادون على ضجيج وصدمات المدفعية، فقتلت أعداد كبيرة منهم، بينما انسحب من تبقى منهم إلى المدينة. ولا شك أن رضا قولي كان مبتهجاً في تلك هذه اللحظة، فقد كان ذلك من الأمور المثيرة لشاب في التاسعة عشرة من عمره. لكن الأوامر وصلت من نادر بعودته إلى الجانب الآخر من نهر الأكسوس. وكانت هذه الأوامر واضحة، فقد اتهم نادر غاضباً طهماسب خان جالاير بتضليل ولده، وذكّره بالأوامر التي وجهها له بعدم تجاوز بلخ. وقد خاطبه في الرسالة بقوله: «أيها القواد الخَرِف..»، وهدّد بضرب عنقه. 40

وفي الوقت ذاته، كتب نادر رسالة إلى أبي الفيض، يؤكد له فيها احترامه لسلطة الخان على بخارى. وبحلول الشتاء، عاد الفرس إلى الضفة الجنوبية لنهر الأكسوس. لكن الثنائي الجسور لم يتوقّفا مع ذلك فشنّا حملة في قندوز، شمال جبال هندو كوش. بل وصلا إلى منطقة باداخشان الجبلية بعيداً في الشرق، إلى أن أمرهما نادر مجدداً بالعودة إلى بلخ. وعندما عادا، استدعاهم للانضمام إليه في جلال أباد، فذهبا إليها سريعاً عبر قندوز وكابل.

لم يقم نادر بتوبيخ رضا قولي عند عودته. فقد كان يشعر بحب جم تجاه ولده. 41 وكان فخوراً باندفاعه، وما أبداه من حماسة عسكرية مبكرة. لكنه قام باستعراض

القوات القادمة من بلخ، ومنحهم بعض الجياد العربية الجميلة التي كان مولعاً بها، وأسلحة ودروعاً جديدة. أما طهماسب خان جالاير فقد كان أكثر قسوة معه، فانتهره في البداية، لكن ما أبداه طهماسب من أسف عميق جعل نادر يعفو عنه في النهاية.

كانت لنادر مخاوف أخرى بشأن الموقف عند نهر الأكسوس، فقد بلغه أن البارز صاحب خوارزم يحشد جيشاً من التركمان لمهاجمة خراسان (التي يحكمها علي قولي ابن شقيق نادر الأصغر). كما أنه قد عزم بعد جولته في الهند على أن يغزو بلاد ما وراء النهر بنفسه، حيث لم يشأ أن يفخر أحد غيره، حتى لو كان ابنه، بإخضاع مسقط رأس تيمورلنك العظيم. لذا جعل رضا قولي نائباً له على بلاد فارس في غيابه، وأعطاه حق ارتداء الريشة الملكية على الجانب الأيمن، لتشير إلى وضعه الملكي[1]. وأعطاه أوامر صارمة باتخاذ الوضع الدفاعي حتى لو تعرض لهجوم من البارز، وتشديد الحراسة على طهماسب، وغيره من أفراد العائلة الملكية الصفوية في سبزوار. وكان عليه الرجوع للضباط والمستشارين الذين عينهم له، والعمل وفقاً لمشورتهم، وعدم استبدالهم بمستشارين آخرين، وأن يلتزم بتلك الأوامر ما لم يصله جديد منه لمدة ستة أشهر. وقد غادر رضا قولي في 17 نوفمبر/تشرين الثاني عائدا إلى بلخ. 42

أحب نادر ابنه، ومنحه ثقته. ولا شك أن الكثير من الآباء يفرطون في تدليل أطفالهم، إذا توفر لهم المجال لفعل ذلك. وكان نادر يثق على العموم في أفراد عائلته، التي تمثل حلقة داخلية داخل حلقة حلفائه الذين يثق بهم. وبمرور الزمن، كان يمضي معظم وقت فراغه مع نسائه وعائلته. 43 وقد رفض خيار حبس بنيه في مقصورة الحريم، كما كان يفعل الصفويون، حتى يمنحهم فرصة الاضطلاع بدور حيوي في إدارة شؤون المملكة. لذا كان تصريف رضا قولي شؤون الحكم بوصفه نائباً عن أبيه بمثابة امتداد طبيعي لهذا النهج. لكن رغم اعتبار ذلك النهج هو الأفضل، حيث إنه مسلك أكثر رشداً، لو قُدر لأسرة نادر الحاكمة أن تزدهر، ولأن الخيار الآخر كان منفراً بالنسبة له من جميع الأوجه، فإنه قد انطوى على بعض المخاطر. نعم كان من الضروري أن يتولى شخص ما حكم بلاد فارس

(1) كرّم مرتضى، ابن نادر الثاني بالطريقة نفسها بعد يومين.

في غيابه، وكان هذا النوع من تقسيم المسؤوليات داخل الإمبراطورية هو الأقل مجازفة من التقسيمات الأخرى التي كانت قائمة. لكن تكليف ابنه الشاب بهذه المسؤولية كان بمثابة حمل ثقيل على عاتقه. فهناك ماكرون على استعداد لاستغلال أي انقسامات، أو حالات من سوء التفاهم. وكما بينت حالة الإحباط الناتجة عن حصار قندهار، فإن نادر نفسه كان يتغير بسبب ضغوط الحكم، وربما بسبب ظهور أول أعراض المرض. وكان يبدي ميلاً أكبر إلى سرعة الانفعال والشك.

لم يرسل نادر طهماسب خان جالاير مع رضا قولي. ولعله ظن أنه رغم سلوك ابنه المندفع، فقد كبر سنه بحيث لم يعد في حاجة إلى معلم. وعند عودته إلى جبهة نهر الأكسوس، كان رضا قولي مفعماً بالنشاط ويقظاً من التهديد الذي يمثله البارز صاحب خوارزم، لكن قبيلة التركمان انقسمت نتيجة للتنافس والخلافات، فذهبت ريحهم في نهاية الأمر. لذا عاد رضا قولي وابن عمه علي قولي إلى مشهد، بعد أن اتخذا من أبيورد مقراً لهما. 44

وفي اليوم الذي تلى رحيل رضا قولي، تحرك جيش نادر مجدداً، حيث عسكر في الجانب الشرقي من جلال أباد. وبينما هم هناك، وصلت أخبار تفيد أن الحاكم المغولي لكابل وبيشاور قد تجاسر في النهاية، رغم غياب الدعم من قادته في دلهي، ليصمد ويقاتل دفاعاً عن الإقليم. وقد اتخذ من ممر خيبر موقعاً له، بقوة قوامها 20 ألفاً من الأفغان، يسدون الطريق المؤدي إلى بيشاور. ورغم تفوق قوة الجيش الفارسي، فإن أعدادهم لم تكن لتحدث فرقاً كبيراً في وادي خيبر الضيق. وكان الهجوم وجهاً لوجه بمثابة تبديد للجند الذين لم يكن نادر ليستغني عنهم، كما كان سيمثل مجازفة بإمكانية التعرض لهزيمة ذات عواقب وخيمة، لوقوعها وسط جبال الأفغان. فإذا فقد الفرس اعتبارهم، وبدا عليهم الضعف، قد تتحوّل القبائل الخاضعة لهم، أو غير المعادية، إلى العداوة. وكما حدث في مناسبات سابقة، قرر نادر التغلب على تلك المشكلة بحل مبتكر. وهو ما كان، فقد أخبره دليل محلي بوجود طريق صعب جهة الجنوب يمكن المرور منه، عبر ممر تساتسوبي، ويسمح للفرس بالالتفاف حول القوة المغولية التي تعترض الطريق، ومهاجمتها من الخلف.

في 26 نوفمبر/تشرين الثاني 1738، أنهى الفرس معسكرهم، وتوجهوا إلى باريكاب،

على بعد 20 ميلاً من الجانب الشمالي الغربي لممر خيبر. حيث قسم نادر الجيش هناك، تاركاً معظم رجاله مع ابنه مرتضى ميرزا. وبعد أن دفع بعض النقود إلى زعماء القبائل المحلية حتى يضمن إذعانهم، أرسل 12 ألفاً من الرجال إلى ممر خيبر على طول الطريق الرئيسي، حتى يخفي نواياه، ثم اتخذ طريق الجنوب بقوة قوامها 10 آلاف من الفرسان ذوي الأسلحة الخفيفة. وفي المساء، أراح رجاله لفترة من الوقت، ثم واصل زحفه تحت ضوء القمر، مستغرقاً عدة ساعات في عبور أكثر أجزاء الممر وعورة وانحداراً في الظلام. وفي الصباح، ظهروا في وادي بازار، وانعطفوا نحو الشمال. أما على الجانب الآخر، فقد وصلت إلى القائد المغولي الأخبار التي تفيد بأن الجيش الفارسي يتجه نحو خيبر، قادماً من جلال أباد. وبينما كان ينظم رجاله لملاقاتهم، ظهرت قوات نادر، وهاجمت مؤخرة جيشه فجأة، بعد زحف مرهق مسافة تبلغ نحو 50 ميلاً. ومع أن الهجوم كان مباغتاً تماماً للقوات المغولية، فإنها قاتلت باستماتة بعض الوقت، إلى أن وقع قائدهم، وعدد من زعمائهم، في الأسر. عندئذ، هرب من تبقى منهم، تاركين وراءهم أعداداً كبيرة من القتلى والجرحى. ومن ثم، أصبح الطريق ممهداً لدخول بيشاور وسهل البنجاب. 45

تقدم الجيش الرئيسي عبر ممر خيبر، وبعد توقف مؤقت لمدة ثلاثة أيام نزل بهم نادر إلى بيشاور، التي فتحت أبوابها له على الفور. فاستراح الفرس هناك حتى أوائل يناير/كانون الثاني 1739.

وفي أثناء وجود نادر في بيشارو، بلغته أخبار مريرة عن مقتل شقيقه إبراهيم في أثناء قتال المتمردين اللزجيين في القوقاز. من الواضح أن إبراهيم، بعد أن وصلته أخبار نجاح رضا قولي عند نهر الأكسوس (وربما لتذكره مناسبة سابقة تفوق فيها الولد على عمه)، قد قرر السعي لتحقيق مجد لنفسه في جبال القوقاز. ويبدو أن ذلك كان المكان غير المناسب. إذ استدعى القوات من جورجيا وشيروان ومدن أخرى، وزحف للهجوم على اللزجيين في الجبال. وقد حالفه الحظ في المعركة الكبيرة، لكنه وقع في كمين بعد ذلك في أحد الوديان المشجرة مع الحامية المرافقة له. وبعد أن عَلِق على نحو غير موات في هذا الوادي الضيق، ولم يستطع المناورة، فأصيب بعدة طلقات. وفي النهاية أصيب بطلقةٍ في صدره،

وسقط على الأرض. فأعطاه أحد مرافقيه جرعة ماء وهو يرقد هناك، ليموت بعد ذلك بقليل. وقد تمكن عدد قليل من رجاله من الهرب. أما اللزجيون فقد تعاملوا باحترام مع جثمان إبراهيم في بادئ الأمر، لكنهم بعد ذلك أخرجوه من تابوته، وعلقوه على شجرة، ثم قاموا بإحراقه.

استقبل نادر الأخبار على نحو سيئ. فقد مر هو وشقيقه بالعديد من الأوقات العصيبة سوياً، وكان إبراهيم دائم الوفاء، دون أن يكون دائم الحذر. وكان لا بد من الانتقام لتلك الضربة الموجهة لعائلته. لذا وضع داغستان ضمن قائمة حملاته المستقبلية، بعد الهند وتركستان. 46

وفي 6 يناير/كانون الثاني 1739، غادر نادر بيشاور متوجهاً لعبور نهر السند، وهو أول أنهار البنجاب الخمسة. وقد تم إعداد جسر من القوارب عند منطقة أتوك، حتى يعبر عليه الجنود، الذين توجهوا بعد عبورهم إلى لاهور، ثم عبروا باقي الأنهار، واحداً تلو الآخر، ساحقين أية مقاومة. وانتشرت قوات نادر على نطاق واسع في إقليم البنجاب، فقامت بأعمال قتل ونهب واستيلاء على المؤن. كما قاموا بإحراق العديد من المدن.

عند وصول نادر إلى نهر رافي، وجد طريقه مسدوداً بالخنادق والتحصينات التي وضعها حاكم لاهور. وفي 21 يناير/كانون الثاني، انحرف ليدور حولها، ويهاجم القوات التي جمعها الحاكم للدفاع عن المدينة من اتجاه غير متوقع. فاستمر القتال لليوم التالي، وعندها دعا الحاكم إلى عقد اتفاق. ويخمن البعض أن ذلك تم بناء على رأي نظام المُلك، الذي قام بجهود ظاهرية، لمنع نادر من الاستيلاء على لاهور. وحتى إن صدق ذلك التخمين، فإنه لا يضير نظام الملك في شيء، فقد أدت اتفاقية السلام المشروطة إلى عدم تعريض المدينة للنهب. وإذا كانت مقاومته الفرس غير شاملة، فذلك يرجع إلى أنه يميل إلى حماية لاهور أكثر من التضحية بها من أجل النظام المتخاذل في دلهي. ومن جانبه، كان نادر سعيداً بإزالة هذه العقبة من طريقه. وضمن إسهاماً قدره 20 لاك روبية[1]، وأبقى الحاكم اللبيب في منصبه. 47

(1) اللاك الواحد يعادل 100 ألف روبية، وكان مبلغ 20 لاك يعادل نحو 250 ألف جنيه إسترليني في ذلك الوقت.

أدى استيلاء نادر على كابول إلى حدوث حالة من الذعر في دلهي، حيث استدعى محمد شاه نظام المُلك إلى بلاطه. لكن خان دوران كان المسيطر هناك، فلم تجد مشورة نظام المُلك الاهتمام الكافي. وتم إرسال الرسائل إلى جميع أنحاء شمال الهند طلباً للمساعدة، بما في ذلك الماراتا. فأرسل باجي راو زعيم الماراتا قوة معتبرة، رغم حملاته الكثيرة على محمد شاه، لكنها لم تصل أبداً. وكان الحال كذلك مع قوة وعد بإرسالها ابن نظام المُلك. أما سعدات خان فقد رد من أوَد، ووعد بالزحف سريعاً إلى دلهي بقواته. ومرة أخرى، نتيجة للخلافات والانقسامات، كان التقدم بطيئا في حشد الجيش وتسييره على طول هذه المسافات الشاسعة في شمال الهند لمواجهة القوات الفارسية المتقدمة.

في 13 ديسمبر/كانون الأول، غادرت قوات المغول دلهي. وقيل إن عرضها أثناء الزحف غطى مساحة ميلين، وغطى طولها مساحة 15 ميلاً. لكن الجيش لم يصل إلى أبعد من حدائق شاليمار، التي تقع إلى الشمال مباشرة من المدينة، حتى حلول 12 يناير/كانون ثان. ثم انضم إليهم محمد شاه بنفسه في نهاية الشهر، بيد أن الجيش الذي أثقلته الأعداد الكبيرة من الخدم والحشم لم يتقدم إلى أبعد من كارنال باتجاه الفرس، وتقع شمال دلهي بنحو 75 ميلاً فقط. وهناك توقفوا تماماً لاستراحة طويلة، وأقاموا معسكرهم عند منتصف فبراير/شباط تقريباً. 48

علم نادر وهو في لاهور أن قوات المغول قد خرجت من عاصمتها. فخرج في 6 فبراير/شباط، ووصل إلى سرهند في السادس عشر من نفس الشهر، وهناك علم أن محمد شاه في كارنال بجيش قوامه 300 ألف رجل، وألفا فيل، وثلاثة آلاف مدفع. وإن كان الإجمالي الفعلي للحشد المغولي، بما في ذلك المرافقين غير الرسميين، قد يصل إلى مليون.49 فأرسل نادر طليعة قوة بلغ عددها 6 آلاف من الأكراد، من أجل الاستطلاع، والعودة بأسرى إن أمكن، ليخبروه بالمزيد عن موقع المغول. وبينما كانوا بعيداً، تقدمت القوات الفارسية أكثر. وترك نادر حريمه وأمتعة الجيش مع حامية لحراستها في أمبالا. ثم واصل الجيش الرئيسي زحفه إلى أن عسكر في شاه أباد يوم 19 فبراير/شباط، على بُعد 35 ميلاً فقط من معسكر المغول في كارنال.

وفي نفس الليلة، هاجم الأكراد حرس المدفعية المغولية في كارنال، وأسروا بعضهم. ثم قفلوا عائدين إلى الشمال، وأرسلوا الأسرى إلى نادر. فأرسل الأخير أوامره مجدداً إلى الأكراد باستطلاع أكثر للأراضي المحيطة بمعسكر المغول. وفي 22 فبراير/شباط، تحرك الجيش الرئيسي إلى ثانسار. حيث ترك نادر القيادة لابنه مرتضى ميرزا هناك، وتقدم بعدد قليل من الرجال إلى سراي عظيم أباد، التي لا تبعد سوى اثني عشر ميلاً عن كارنال. فواجه بعض المقاومة في قلعة قديمة مبنية بالآجر، لكن حاميتها استسلمت عندما أحضر المدافع. ثم التقى بضباط كتيبة الاستطلاع الأكراد، الذين أتوا بمزيد من الأسرى المغول، فاستطاع أن يكوّن فكرة أوضح عن مواقع العدو.50

وعلى الجانب الآخر، شغل الحشد المغولي الضخم، الذي يجد صعوبة في التنقل لضخامته، مساحة كبيرة من سهل كارنال شمال المدينة، وأحاط نفسه بسور طيني بلغ محيطه 16 ميلاً[1]. ثم وضعت المدافع الكبيرة في أماكن متفرقة من هذا السور. وأحيط الجانب الشرقي من المعسكر بقناة مائية، بينما كانت هناك غابات كثيفة وأدغال جهة الشمال، تمتد فوق مساحة شاسعة على جانبي الطريق بطوله الممتد إلى موقع الفرس في سراي عظيم أباد. لكن كان هناك نقص في إمدادات الطعام داخل معسكر المغول، كما انتشر المرض بين الجند، وتمرد بعضهم لعدم دفع رواتبهم. 51

ومن ناحيته، لم يكن نادر يرغب في شن هجوم على هذا الموقع القوي، ولم يعجبه ضجيج الاقتراب منه، وهو ما جعله يأمر قوات الاستطلاع بدراسة الجغرافيا المحيطة جيداً. وقد كان المجال مفتوحاً أمام قوات الاستطلاع لعدة أميال، وهو ما مكن نادر من وضع خططه بعناية، والعلم سريعاً بتحركات قوات العدو، وهو الأسلوب الذي كان يعجبه. وعلى العكس، لا يبدو أن المغول قد قاموا بعمليات استطلاع كثيرة. بل إن بعض رجالهم كانوا عندما يخرجون من المعسكر بحثاً عن المؤن من حين لآخر، تقوم فرق

(1) ذكر Fraser (ص 152 و20) أنه بلغ سبعة أكواس، وأوضح أن الكوس الواحدة يبلغ 4000 ياردة. وهو ما يعطي محيطاً أقل من 16 ميلاً (ذكر Lockhart 1938, p. 133 أنه بلغ 14 ميلاً). بينما ذكر محمد محسن صديقي (ص 7) خمسة فراسخ – والفرسخ الواحد يعادل المسافة التي يمكن أن يقطعها الرجل مشياً في الساعة، وعادة ما تقاس بثلاثة أميال إلى ثلاثة أميال ونصف.

المناوشة الفارسية بقطع الطريق عليهم. وعند حدوث ذلك أول مرة، عاد الناجون بمن فيهم بعض الجرحى إلى المعسكر مذعورين، وانتشر الخبر: «لقد أتى نادر! لقد أتى نادر!» 52 ووفقاً لإحدى الروايات، فإن رؤية فرسان الجيش الفارسي ذوي التسليح الخفيف وحدها كانت كفيلة بإلقاء الرعب في قلوب قوات المغول المفتقدة للروح المعنوية. وقد كان الفرس يرتدون أغطية رأس رباعية الجوانب، يصل ارتفاعها إلى 18 بوصة، محاطة بجلد الماعز أو الغنم، وعباءة صوفية فوق عواتقهم، وقميصاً مفتوحاً ليكشف الصدر، وبناطيل قصيرة، وأحذية جلدية طويلة. كما كان كل منهم مسلحاً بسيف، وبندقية ذات زناد فتيلي، وبلطة. 53 وكان المشاة، الراكبون منهم والراجلون، يرتدون نفس الملابس، رغم أنهم كانوا يرتدون معاطف طويلة، حمراء اللون، تلتف حول الخصر بوشاح، بدلاً من العباءة. وقد كان الفرسان ذوو التسليح الثقيل يرتدون درعاً من الزرد والصفائح، وخوذة فولاذية في أعلاها طرف مدبب، ليشتت ضربات السيوف.

قرر نادر الدنو من معسكر المغول من الجانب الشرقي. فتحرك الجيش الفارسي إلى الجنوب الشرقي في صباح 23 فبراير/شباط، وعبر القناة من إحدى النقاط الواقعة إلى الشمال من مواقع المغول، ثم أقام معسكراً شمال شرق كونجبورا، جاعلا نهر يامونا (جُمنا) خلفه. ومن هناك، اعتلى نادر ظهر فرسه، وأسرع به بصحبة نخبة من القوات لحراسته، كي يلقي نظرة على سهل كارنال. 54

كان هناك سهل منبسط قبل قرية كونجبورا، يمتدّ ما بين ثلاثة وأربعة أميال، ويقع إلى الشرق من كارنال ومعسكر محمد شاه. فاستطاع نادر، من ذلك السهل، رؤية رايات المغول ترفرف مع النسيم، والمدافع التي نصبوها فوق الأسوار الطينية. وقرر الزحف ماراً بالمعسكر من هذا الجانب، وقتال المغول في السهل إذا اعترضوا زحفه. ودون ذلك، فسيواصل زحفه إلى بانيبات ودلهي في الجنوب. لكن نادر كان على ثقة بأن التحركات الجانبية سوف تدفع المغول للقتال.

عاد نادر إلى معسكر الفرس، وجمع ضباطه. وسألهم وهو يعدهم بمكافآت إن أظهروا شجاعة في المعركة المقبلة، عن أي الطرق التي يرون فيها نجاتهم، إذا انهزموا واضطروا

إلى الفرار من المعركة، وهم على هذه المسافة البعيدة من المنزل؟ فكان أن قالوا إن الأفضل لهم أن يقاتلوا جميعاً بضراوة. فأمرهم أن لا يخلعوا دروعهم في أثناء الراحة، وأن يظلوا مستعدين في أثناء الليل. وفي نفس الليلة، بلغ الفرس خبر وصول سعدات خان إلى بانيبات، على بُعد 20 ميلاً جنوب كارنال. 55 وكان قد قطع المسافة من أوَد بسرعة، رغم ما كان يعانيه من جرح لم يلتئم في قدمه. فأرسل نادر قوة من الفرسان لاعتراضه.

في تلك الأثناء، كان قوام الجيش الفارسي نحو 160 ألفاً، من بينهم التابعون غير الرسميين والخدم. ورغم تسليح عدد كبير منهم، وكونهم جميعاً راكبين، فقد كان قوام القوات المقاتلة الحقيقية 100 ألف فقط من هذا العدد. وتقول إحدى الروايات إن من بينهم أربعين روسيّاً وثلاثة من الإنجليز، لكن مشاركة الإنجليز مشكوك في صحتها. والروس إن وجدوا فإنهم من المهندسين، وخبراء بناء الجسور، والمتخصصين في المدفعية، والمستشارين. ولإعطاء انطباع بزيادة العدد، كانت النسوة اللاتي يخدمن في المعسكرات يرتدين ملابس الرجال، باستثناء حجابهن. وبالإضافة إلى الرجال الذين زحفوا من أصفهان، وأولئك الذين انضموا إليهم في قندهار وبهار صوفيا، كان هناك العديد من رجال القبائل الأفغانية مع الجيش. مع مراعاة تخلف آخرين باعتبارهم حاميات في الأماكن التي استولى عليها نادر طوال الطريق. 56

وفي صباح 24 فبراير/شباط 57، قسم نادر جيشه إلى ثلاث فرق، فجعل على الميمنة طهماسب خان جالاير، وعلى القلب ابنه مرتضى (بصحبة مجموعة من الضباط المخضرمين)، وعلى الميسرة فتح علي خان كاياني، والزعيم الأفشاري لطف علي خان.58 وكانت الأوامر لمرتضى أن يتقدم على محور من جهة الجنوب الغربي، ويعسكر بالقرب من كارنال. بينما يحرس طهماسب خان ولطف علي خان جناحيه، بحيث يتمركز الأخير لمواجهة أي تدخل من معسكر المغول. وفي أثناء تنفيذ ذلك التمركز، بلغ نادر أن سعدات خان قد هرب من القوة الفارسية التي أرسلت لاعتراضه، وأن اجتهاده في الزحف نجح في الوصول به إلى معسكر المغول في الليلة الماضية، في العاشرة مساء. حيث تم الاحتفال بوصوله المنتظر منذ فترة بفرح عظيم بين القوات المغولية وخدم المعسكر.

كانت قوات سعدات خان، البالغة 20 إلى 30 ألف رجل، لا تزال ممتدة على طول خط زحفها. وكانت أعداد كبيرة منهم تسعى في غير انتظام للوصول إلى معسكر المغول في الصباح التالي. وبينما هم كذلك، هاجمت القوات الفارسية المرسلة لاعتراض سعدات خان مؤخرة ذلك الجيش، واستولت على الأمتعة. وكان سعدات خان قد قدم نفسه لمحمد شاه في صباح 24 فبراير/شباط، ثم انسحب إلى خيامه. 59 وهناك، بلغته أخبار الهجوم على مؤخرة قواته، واستيلاء الفرس على 500 بعير بأحمالها. فنشط على الفور مجدداً، واستدعى رجاله، وغادر المعسكر على ظهر الفيل، لإنقاذ رجاله واستعادة الأمتعة. ومن فرط الإرهاق، لم يتبعه سوى 1000 فارس، ومثلهم من المشاة، ثم استجاب 4000 آخرون لاستدعاء لاحق، دون أن يأخذ كل هؤلاء المدافع معهم.

ولدى خروجه من المعسكر عند الظهيرة، هاجم سعدات خان أول مجموعة من الفرس وجدها في السهل، وكانوا على الأرجح بعض الأكراد الذين يضطلعون بمهام الحرس المتقدم على مدار الأيام السابقة. وبعد أن أبدوا بعض المقاومة، تشتت هؤلاء الرجال، وفروا فراراً مختلقاً تدربوا عليه، ليسحبوا سعدات خان ورجاله جهة الشرق بعيداً عن المعسكر، مطلقين النار خلفهم وهم يبتعدون. وكانت حوافر الخيل تحدث سحابة من الغبار التي تحجب عن المغول رؤية الجيش الفارسي الذي أصبح أمامهم. أرسل سعدات خان رسالة إلى قادة المغول الآخرين، 60 يخبرهم بانسحاب الفرس، ويحثهم على الخروج لمساندته في القتال.

أحدثت رسالة سعدات خان خلافاً في معسكر المغول. حيث طلب محمد خان من قادته الخروج لمساندة سعدات خان، لكن نظام المُلك أشار بالحذر، قائلاً: «العجلة من الشيطان». وكان قادة المغول قد خططوا لعدم خوض المعركة في ذلك اليوم، بل في غضون يومين أو ثلاثة. ولأول مرة، وافق خان دوران على رأي نظام المُلك: لم تكن القوات جاهزة للمعركة، ولن يكون بالإمكان تجميع المدفعية لتشكيل الجبهة الأمامية، كما جرت العادة في الحروب. ولم يفته أن يتهم سعدات خان بالتهور، وأن يعلن أن أي قوات تُرسل لمساندته ستزيد من مرارة الهزيمة.

لكن محمد شاه لم يكن راضياً عن تصريف خان دوران لأمور الحملة، لذا وصفه بأنه «كسول متغطرس». ولدى سماعه هذا اللوم، ارتدى دوران عتاد القتال، واعتلى ظهر الفيل، واستعد للمعركة. وانضم إليه عدد كبير من النبلاء والفرسان المتحمسين الآخرين، ومن بينهم شقيقه وعدد من أبنائه. ووسط دوي الأبواق والطبول، تحركوا بجيش قوامه ثمانية إلى تسعة آلاف، معظمهم من الفرسان وبعض المشاة المسلحين بالبنادق، وقليل من المدافع، وبعض الرجال الشجعان المسلحين بالصواريخ المدفوعة بالبارود. ويبدو أن أعداداً أكبر من القوات المغولية قد غادرت المعسكر بعد انقضاء الظهيرة، من أجل الانضمام إلى خان دوران. لدرجة أن نادر قد كتب فيما بعد: «لقد كانت أعدادهم تحجب الأرض في كل اتجاه» 61

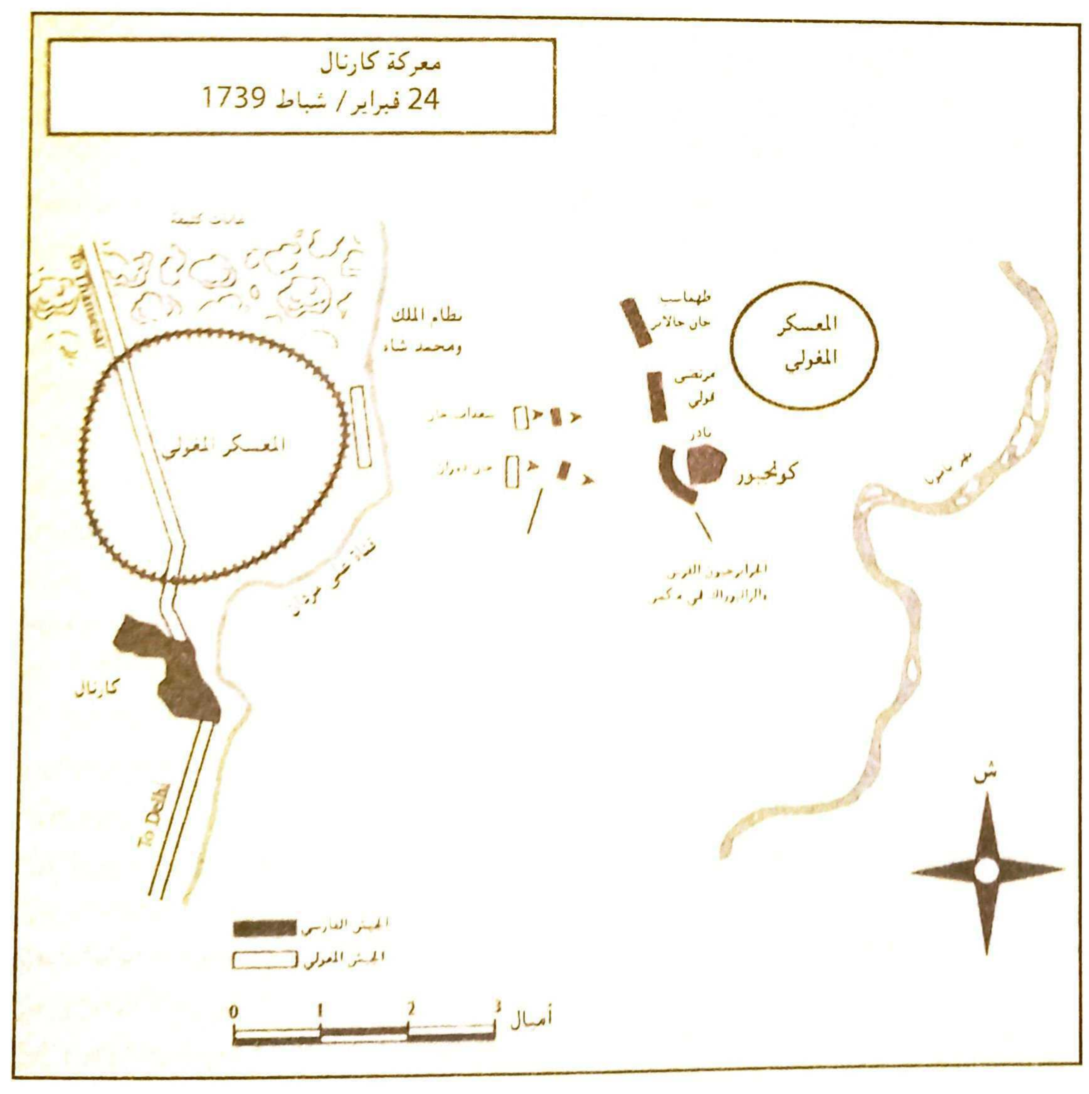
لم يكن جيش الفرس قد تقدم لمسافة كبيرة، عندما أمر نادر رجاله بالتوقف بعد أن رأى رجال خان دوران يخرجون من المعسكر المغولي. وقد ابتهج لرؤيتهم، وترك قواته التي تمركزت قبل ذلك في أماكنها، وأمر قادته بعدم الحركة. ثم استعد رجاله ببنادق الزانبوراك، ونشروا رايات القتال الخاصة به. 62 بينما ارتدى هو خوذته ودرعه، وتولى بنفسه قيادة ألف من فرسان الأفشار الذين يقومون بحراسته.

اختار نادر ثلاث وحدات قوام كل منها ألف رجل من الفرسان الأكراد والقاجار والبختياريين ببنادقهم، وعدد كبير من المدافع الخفيفة. ثم أمرهم بالارتجال، وأخذ وضع التخفي بين جدران وأشجار الحدائق الواقعة في الجانب الغربي من كونجبورا، ليشكلوا كميناً ينتظر قوات خان دوران. وأصدر أوامره لوحدتين قوام كل منهما 500 رجل مسلح ممن يثق بهم، بأن يمتطوا خيولهم، ويستدرجوا العدو لمزيد من التقدم جهة الشرق، واحدة لاستدراج قوات خان دوران باتجاه كونجبورا، والأخرى لاستدراج قوات سعدات خان باتجاه قلب الجيش الفارسي. وبهذه الاستعدادات، توجه نادر «داعياً الخالق الكريم» إلى العدو، وراياته ذات الحواف الحمراء خفاقة فوق رأسه.

كان سعدات خان قد أخر تقدمه حتى يلحق به رجال خان دوران. ويبدو أن كلا القائدين كان يشعر بالغيرة الشديدة تجاه الآخر، ما حال دون تنسيق التعاون فيما بينهما

بالشكل الصحيح. ومن ثم استدرجهم جند الفرس بسهولة في اتجاهين متعاكسين، فتحرك خان دوران إلى الأمام مسرعاً، دون توجيه الأوامر لجنوده على النحو السليم. وهكذا ابتعد القائدان كثيراً عن معسكر المغول بحيث يتعذّر عليهما تلقي أي دعم من هناك.

مع تقدم سعدات خان، تقهقر رجال نادر أمامه، متجهين إلى قوات قلب الجيش الفارسي، التي كانت تنتظر المغول مستعدة بالبنادق التي تم تصويبها نحوهم. وعندما أصبح جنود المغول على مقربة، تنحى الجنود المتوثبون جانباً على نحو سريع، وبمجرد أن انقشع الغبار، انطلقت جميع الأسلحة النارية من قلب الجيش الفارسي دفعة واحدة. فارتفعت سحابة كثيفة من دخان البارود بين صفوف الجنود، بينما سقط العديد من رجال سعدات خان عن سروج خيولهم. ثم تدفق الناجون المندفعون منهم للقتال بالأسهم والسيوف. جرى قتال مرير، وقع فيه رجال مرتضى قولي تحت ضغط كبير. وعندما رأى نادر ذلك من موقعه جهة اليسار، بعث برسالة إلى ابنه بأن ينزل عن صهوة جواده، ويصلي من أجل



النصر[1]. ففعل مرتضى ذلك، ثم امتطى جواده مرة أخرى. وبدأ الفرس يتحركون حول أجنحة قوة سعدات خان التي كانوا يتفوقون عليها عدداً، حتى يطوقونها.

ومع اقتراب دوران خان من كونجبورا، اختفى الفرسان الذين كان يطاردهم هو الآخر، فأطلق الجنود من مكمنهم وابلاً من الرصاص نحو رجاله. فأصيبت قواته بالصمم، وارتبكت صفوفهم من هول صدمة طلقات الفرس التي استمرت دون انقطاع. حيث كانت فوهات البنادق تومض بشرر قوي يخترق سحب الدخان الكثيف الناتج عن البارود.[63] فسقطت أعداد كبيرة من جنوده، الذين كان زد بنادقهم غير ذي أثر، وفر بعض الناجين، وحاول آخرون الاقتراب من الفرس. لكن معظمهم سقطوا برصاص البنادق قبل أن يتمكنوا من الاقتراب. وانتظر نادر دون حراك خلف رجاله المسلحين بالبنادق، يشاهدهم وهم يستخدمون البنادق الملتهبة، فيطلقون الرصاص، ثم يعيدون تعميرها سريعاً، ليعاودوا إطلاق الرصاص مجدداً، كما تدربوا تماماً.

وفي المعسكر المغولي، كان بوسع محمد شاه سماع عنف نيران البنادق الفارسية. فألح على نظام المُلك الخروج ومساندة خان دوران. لكن رغم خروج القوات المغولية المتبقية، واتخاذها مواقع خلف القناة، فإنها لم تبرح ذلك المكان. حيث تجاهل نظام المُلك، وفقاً لإحدى الروايات، كافة المطالب بالتحرك، وجلس فوق الفيل الذي كان يركبه يشرب القهوة. ولعله تذكر حينها واقعة حدثت في البلاط منذ سنوات قليلة، عندما سخر منه خان دوران وأتباعه، قائلين: «انظروا كيف يرقص قرد ديكان».[64] ولذلك ترك خان دوران ورجاله يلقون مصيرهم.

نظراً لارتفاع أفيال المغول وهوادجها عن مستوى القتال، كان طبيعياً أن تجذب نيران البنادق، والمدافع الصغيرة للفرس. ومع أن الأفيال الكبيرة الخاصة بالنبلاء كانت محمية بدروع معدنية، وكذلك الهوادج، فإن الطلقات الثقيلة كانت تخترق الدروع المعدنية عند إطلاقها من مدى قريب. وما كاد شقيق خان دوران يدرك ذلك حتى لقي حتفه،

(1) يقول بي دبليو (BW) إن نادر نفسه نزل عن صهوة جواده، وسجد على الأرض، متوجهاً إلى الله بالدعاء (ص 164).

عندما كان يقفز من فوقها.65 كما قُتل الابن الأكبر لخان دوران، ووقع آخر في الأسر. وأصيب خان دوران نفسه بعدة جروح، ثم أصيب في وجهه برصاصة بندقية، سقط على أثرها ينزف داخل هودجه دون حراك. وقد حاول العديد من رجاله الفرار باتجاه القناة، لكن ألفاً آخرين من أشجع الفرسان نزلوا عن خيولهم، وقاتلوا حتى الموت، وقد انضموا معاً بربط حواف معاطفهم الطويلة.66 ومن ناحيتهم، اجتمع بعض من أوفى رجال خان دوران حول فيله، وعادوا به إلى مكان آمن عبر الدخان، والجثث، وجو الارتباك. وعلى العموم، قُتل العديد من نبلاء المغول المصاحبين لخان دوران، وأسر عدد آخر منهم.

بعد ساعتين تقريباً، كان القتال في القلب لا يزال مستعراً، والقادة على ظهور الأفيال يمثلون أهدافاً سهلة هنا أيضاً. كان رجال سعدات خان الذين تناقصت أعدادهم جداً لا يزالون يقاتلون بضراوة، عندما جُرح الفيل الذي يحمل ابن أخيه. ومثل مركبة عملاقة لا يمكن السيطرة عليها، هجم الفيل الهائج على فيل سعدات خان، فاندفعا في غمرة الارتباك إلى وسط القوات الفارسية، وقد تشبث راكباهما بهودجيهما في يأس. ومع ذلك، واصل سعدات خان القتال، مطلقاً سهامه باتجاه العدو، لكن جندياً خراسانياً مثله في جيش الفرس أوقفه، حيث صعد إليه بحبل كان متدلياً من جانب الفيل، وأقنعه بالاستسلام. فسلم معظم الناجين ممن كانوا تحت قيادته أنفسهم، وفر من استطاع منهم الفرار. ناوش الفرس القوات المغولية المهزومة نحو ساعتين ونصف حتى أعادوها إلى مرمى مدافع معسكرهم، ليقطعوا على الفارين كل السبل.

ومع انقضاء النهار، واجه نادر ورجاله ما تبقى من القوات المغولية خلف القناة، من مسافة آمنة. وقد قُتل نحو 10 آلاف هندي، أو يزيدون، بينما قُتل نحو 400 فارسي، وجُرح 700 آخرون. وكان ذلك كافياً، لذا تمهل نادر في الهجوم على من تبقى تحت نيران مدفعيته من قوات المغول عبر القناة. وحمد الله على النصر، ومنح ابنه مرتضى اسماً جديداً، هو نصر الله، تكريماً لمشاركته في تحقيق هذا النصر.67 وأرسل قوات لتطويق معسكر المغول وحصاره، لمنع وصول أي مؤن، أو هروب أي أحد.

وقد أحدثت أخبار أسر سعدات خان، والاعتقاد بمقتل خان دوران، قنوطاً شديداً في

معسكر المغول، فانهار النظام بداخله. فنُهبت الخيام، والحيوانات، وغيرها من ممتلكات النبلاء الذين قتلوا أو أسروا، واستولى عليها الرعاع. وعندما أُحضر خان دوران إلى المعسكر لم يجد مكاناً يضع عليه رأسه.68 فمات بعد ذلك بقليل- لكن قبل أن يموت زاره غريمه نظام المُلك، ليسخر منه انتقاماً لإهانته في السابق.

وهكذا لم يهزم نادر سوى جزء من قوات المغول، لكن خزي الهزيمة، ومقتل العديد من أعلام النبلاء، وأسر سعدات خان، كل ذلك كان بمثابة ضربات مدمرة لمكانة الدولة المغولية. وقد كان بوسع المتأمل لأوضاع هذه الدولة حينها أن يدرك بسهولة أن الظروف الأسوأ كانت قادمة لا محالة. فالإمبراطورية المغولية كانت تعيش في عالم وهمي لفترة طويلة من الوقت. وليس أدل على ذلك من الأفيال التي كانت أهدافاً سهلة للمدفعية، والمدافع الثقيلة التي يصعب تحريكها وتستغرق إعادة تعميرها وقتاً طويلاً! ولا شك أن المرء يعتقد أحيانا أنها لم تكن إلا لأغراض التفاخر، وهو الأمر الذي دأب عليه رجالات هذه الدولة! فقد كانت عائقاً، أكثر منها ميزة، عند التعامل مع خصم لديه الخبرة الكافية التي تجعله لا يخشاها. 69 كما أن عدداً قليلاً من قوات المغول هو الذي تدرب على استخدام البنادق على نحو يقترب من مستوى مهارة الفرس. أما معظم جنود الجيش الذين تسلحوا بالبنادق فقد كانت مستويات مهارتهم أقل من ذلك بكثير. ورغم استخدام الجيشين أسلحة من العيار الثقيل، مقارنة بتلك المستخدمة حينها في أوروبا، فإن معظم أسلحة المغول كانت من البنادق ذات الفتيل، بينما كان تسليح العديد من الفرس يتم ببنادق المسكيت أو الكربين ذات الزند المصوّن كآلية لإطلاق النار. وهو ما يجعلها أسهل في الاستخدام من فوق ظهور الخيل، ولعلها كانت تسمح بمعدل إطلاق أسرع. ومن الملفت والمضحك في آن ترفع العديد من نبلاء المغول الذين جمعوا الخيل عن القتال إلا بالسيف- السلاح الأبيض، مثلما كان يفعل الأرستقراطيون المعاصرون في أوروبا! وقد أصاب أحد المعاصرين كبد الحقيقة، عندما علق على التفوق العسكري للفرس في هذه المعركة، من حيث الفاعلية، مؤكداً أن القوات المغولية قاتلت بشجاعة، لكن «السهم الذي يخرج من القوس لا يمكنه مقاومة رصاصة البندقية» 70- فلخص بدقة أثر إصلاحات نادر العسكرية.

وبالإضافة إلى ما تقدم، كانت القوات الهندية تعاني أيضاً من سوء الإمداد. إذ كان عليهم العثور على الأموال اللازمة للطعام والعتاد من نفقتهم الخاصة. وكان رجالهم المسلحون بالبنادق عادة لا يحملون ما يكفي من البارود والرصاص للإطلاق أكثر من مرتين أو ثلاث. وخلافاً لذلك، كان نادر دائماً ما يأخذ على عاتقه الإعداد لحملاته، وتزويد رجاله بكل ما يحتاجون إليه وتجهيزهم بأجود العتاد. وكان لديهم من الذخائر والخبرة التدريبية ما يمكّنهم من الفوز بالمعارك الطويلة.

لا شك أن عدد قتلى الفرس في معركة كارنال لم يكن قليلاً، وهو ما يدل على أن المغول قاتلوا بضراوة، وتميزوا بالشجاعة والغلظة، لكنهم كانوا تحت قيادة سيئة. فقد أخفق القادة في استخدام مدافعهم، وتنسيق جهودهم، أو مساندة بعضهم بعضاً، وكانوا بوجه عام مهتمين بتحقيق المجد الشخصي أكثر من الانخراط في تحقيق الأهداف المشتركة. بالإضافة إلى أنهم وضعوا أنفسهم فوق أكثر وسائل القتال عرضة للخطر وعدم الاستقرار! ولعل عدواً لديه حس فكاهي ينطوي على سوء القصد هو الذي أشار عليهم بها! 71

كان تصرف نادر في المعركة طبيعياً بالنسبة له، حيث اعتمد بشدة على أعداد صغيرة من أكثر قواته التي يعوّل عليها، والتي انتشرت في وحدات صغيرة يمكن المناورة بها، وكان عدد كبير منها تحت قيادته مباشرة[1]. وقد اعتبرت هذه المعركة في السنوات التي تلت بمثابة أعظم إنجازاته العسكرية. وقد بالغ بعض المعلقين في القول بسهولة تحقيق النصر[2]، مقللين من أعداد قوات المغول التي التحم معها، ومسلطين الضوء على انتشار الفوضى بين صفوفهم. لا شك أن سوء إدارة قادة المغول لقواتهم قد جعل الأمر أسهل بالنسبة لنادر، لكن النصر كان ثمرة استعداداته الدقيقة، والانضباط بين صفوف قواته، ورزانة

(1) دمر نادر القوات المغولية بخطط مشابهة لتلك التي كان أمان الله خان الأفغاني يستخدمها ضد قبائل لور، بقيادة علي مردان خان، في جولن أباد عام 1722. وعلى نفس النحو، كان أسلوب توجيه الأفغان الغازين للفرسان المسلحين بالبنادق في معركة بانيبات عام 1761 يتشابه مع توجيه نادر لجنوده المسلحين بالبنادق في معركة كارنال. ويعود الفضل لنادر شاه في كثير من الابتكارات الأفغانية العسكرية، التي درسها جومانز (Gommans 2001). وعلى أي حال، فإن مؤيدهم أحمد شاه دوراني قد تلقى العلوم العسكرية في جيش نادر.

(2) لاسيما ساركر ولوكهارت.

قراراته في ذلك اليوم. لقد كان بالفعل نصراً حاسماً على قدر كبير من الأهمية.

بعد انقشاع الغبار، وانتهاء المعركة بالنصر له، أمر نادر بإحضار سعدات خان أمامه في مساء 24 فبراير/شباط، وسأله عن أسهل الطرق التي يحصل بها على فدية من الإمبراطور المغولي، ليعود إلى فارس. فأوصاه سعدات بأن يستدعي نظام المُلك، ويتفاوض معه. فأرسل نادر رجلاً إلى محمد شاه يحمل معه نسخة من القرآن، دليلاً على السلام. وقد كان محمد شاه يفكر في مواصلة القتال، لكن مستشاريه أقنعوه باستحالة ذلك، نظراً لمقتل العديد من كبار النبلاء، ولما قد يسببه الحصار الفارسي من تحويل نقص الطعام السابق إلى مجاعة في معسكر المغول. طلب رسول نادر من الإمبراطور إرسال نظام المُلك للقاء مرسله، وبالفعل غادر نظام المُلك معسكره في مساء الليلة التالية، مع بعض النبلاء، للتباحث مع نادر.

ذكر أحد شهود العيان أن الوفد المغولي قد مر، في أثناء ذهابه، بجنود الفرس في ساحة المعركة، وهم يقتحمون صناديق الأمتعة التي تركها المغول المنهزمون، وينهبونها. وعند وصولهم إلى النقطة المحددة كان الظلام قد حل. وكان نظام المُلك، ومن بصحبته من النبلاء، يركبون على ظهور الأفيال المدرعة، ويرتدون هم أنفسهم دروعاً معدنية وزرداً، من رؤوسهم إلى أخمص أقدامهم. 72

ووفقاً لرواية شاهد عيان آخر، استقبل نادر نظام المُلك بترحيب حار، وجرت بينهما مناقشة طويلة، بدأها نادر بسؤال عن سبب احتجاز سفيره، وعدم إعطائه أي رد على الرسالة التي كان يحملها. وهو ما اضطره للزحف إلى الهند بجيشه، وكلفه الكثير، كي يطرح هذه الأسئلة شخصياً. فأجابه نظام المُلك بأن الإمبراطورية لم يكن بمقدورها تنفيذ طلباته، وأن سبب صمتهم يرجع جزئياً إلى رغبتهم في رؤية نادر شخصياً، ليفوزوا بشرف تقبيل قدميه!

فتبسم نادر عند سماع ذلك، وأكمل سلسلة من الادعاءات الفارسية ضد الدولة المغولية. ثم أضاف أن الإمبراطور المغولي لا يزال مديناً للتاج الفارسي بثمن عرش أرسله تيمورلنك إلى دلهي. حيث زعم أن جد محمد شاه طلب مساعدة عسكرية من الفرس، وحصل عليها في صورة 10 آلاف فارس، دون أن يدفع أبداً مقابل تلك القوات. وفي

النهاية، اتفق الفرس والمغول على عقد معاهدة للتعاون المتبادل، يساعد بموجبها الطرفان أحدهما الآخر في حالة تعرض أي منهما للهجوم. وقد تعرضت بلاد فارس لاحقا للعديد من الحروب المدمرة، لكن الإمبراطورية المغولية لم ترسل لها المساعدة التي وعدت بها. وعلى أي، كان نادر لا يزال يسدد فوائد الأموال التي اقترضها لتمويل حروبه، لاستعادة الأقاليم الفارسية من الأتراك العثمانيين، فمن سيسدد له تلك الأموال؟

كانت المطالب الفارسية مشكوكاً فيها، وتنطوي على كثير من المبالغة والخيال، وهو ما كان واضحاً للوهلة الأولى، غير أن نظام المُلك لم يكن في وضع يمكنه من الاحتجاج. فوافق على أنها مجرد مطالب، وتعهد بالتحدث إلى الإمبراطور، نيابة عن نادر بعد أن أخبره أن رأسه بين يديه، لذا سيذعن لأوامره. وقد ذكر نادر أن نظام المُلك تحدث بشكل جيد، وهو ما جعله يحافظ على حياة الإمبراطور وقواته. وقبل أن ينصرف نظام الملك، أمره بإخبار الإمبراطور بضرورة التقاء الملكين شخصياً في اليوم التالي بين الجيشين. 73 وهناك، تم الاتفاق مؤقتاً على أن يدفع إمبراطور المغول لنادر جزية كبيرة كي يعود إلى فارس.

في 26 فبراير/شباط، قدم محمد شاه للقاء نادر حسب الاتفاق، محمولاً على محفة، أو داخل هودج فخم. وقد التقى بطهماسب خان جالاير على الطريق برفقة حامية، فأقسم الأخير بالقرآن ألا يَلحق به أي أذى. وعندما وصلوا إلى المعسكر الفارسي، قابلهم نصر الله ميرزا، وأدخل محمد شاه إلى حيث ينتظره نادر خارج خيمته، فأخذ بيد الشاه وقاده إلى الداخل. جلس الرجلان معاً على أريكة طويلة، وقُدمت لهما القهوة. وقد قدم نادر الفنجان لمحمد شاه بنفسه، علامة على كرم الضيافة. ثم تحدثا باللغة التركية، بناء على طلب نادر، لتأكيد أصولهما التركمانية. وعند تلك النقطة فقط، سلَّم محمد شاه إمبراطوريته لنادر. وقد جاء رد نادر على ذلك على النحو التالي: «تحياتي لعرشك وإمبراطوريتك. ورغم أني السيد عليها، فإني أمنحك إياها، إذا لبيت مطالبي». 74 ثم أحضر الخدم الطعام، وتبادل نادر الأطباق مع محمد شاه، ليظهر عدم وجود سم بها. لينتهي اللقاء على نحو ودود، ويعود محمد شاه إلى معسكره في المساء.

لم تقنع الهزيمة في كارنال نبلاء المغول بالاتحاد ضد العدو! فعند العودة إلى معسكرهم،

شب الخلاف بينهم حول إعادة توزيع المناصب التي كان يشغلها في السابق خان دوران، خاصة منصب مأمور صرف الرواتب. وكان نظام المُلك قد ضمن ذلك المنصب لأحد أبنائه، وهو ما أثار الغيرة في نفوس بعض صغار النبلاء. لذا حاول محمد شاه حل هذه المشكلة بتقليد هذا المنصب لنظام المُلك نفسه، إلى جانب منصب القائد الأعلى للجيش (أمير الأمراء). أغضب هذا الحل سعدات خان، ما دفعه إلى إخبار نادر أن بإمكانه استخلاص المزيد من محمد شاه، أكثر من المبلغ الذي تمت مناقشته مع نظام المُلك، إذا ذهب شخصياً بجيشه إلى دلهي. مضيفاً أن نظام المُلك هو العقبة الوحيدة في سبيل تحقيق ذلك، فإذا أوقع به نادر، فسيصبح كل شيء بين يديه بعد ذلك. 75 لكن نادراً شكر سعدات خان على نصيحته، ويبدو أنه لم يكن في حاجة إليها على الأرجح، فهو لم يقطع كل هذه المسافة ليخدعه أحد، ويحول دون حصوله على غنائم دلهي بأكملها. ومن جانبه، نقل سعدات خان ما تبقى من ممتلكاته وأتباعه إلى معسكر نادر، تعبيراً عن تحويل الولاء إليه.

ومع مضي الوقت، جرت العديد من الزيارات بين النبلاء على كلا الجانبين، وازداد الجوع داخل المعسكر المغولي، ولم يتم دفع الجزية. وكانت القلة الشجاعة التي فرت من المعسكر قد قتلت، أو أُسرت على أيدي الفرس، أو هوجمت من قبل قطاع الطريق. وفي النهاية، استُنفد الطعام بأكمله، وبدأ الناس يتضوّرون جوعاً.76 وفي 5 مارس/آذار، استدعى نادر نظام المُلك مجدداً، وأخبره بضرورة حضور محمد شاه لزيارة أخرى، وبأنه يريد أكثر بكثير من المبلغ الذي تم الاتفاق عليه في السابق. فاعترض نظام المُلك، فتم احتجازه في معسكر نادر، إلى أنه وافق في النهاية على الكتابة إلى محمد شاه، ناقلاً له طلب نادر زيارته مرة ثانية.

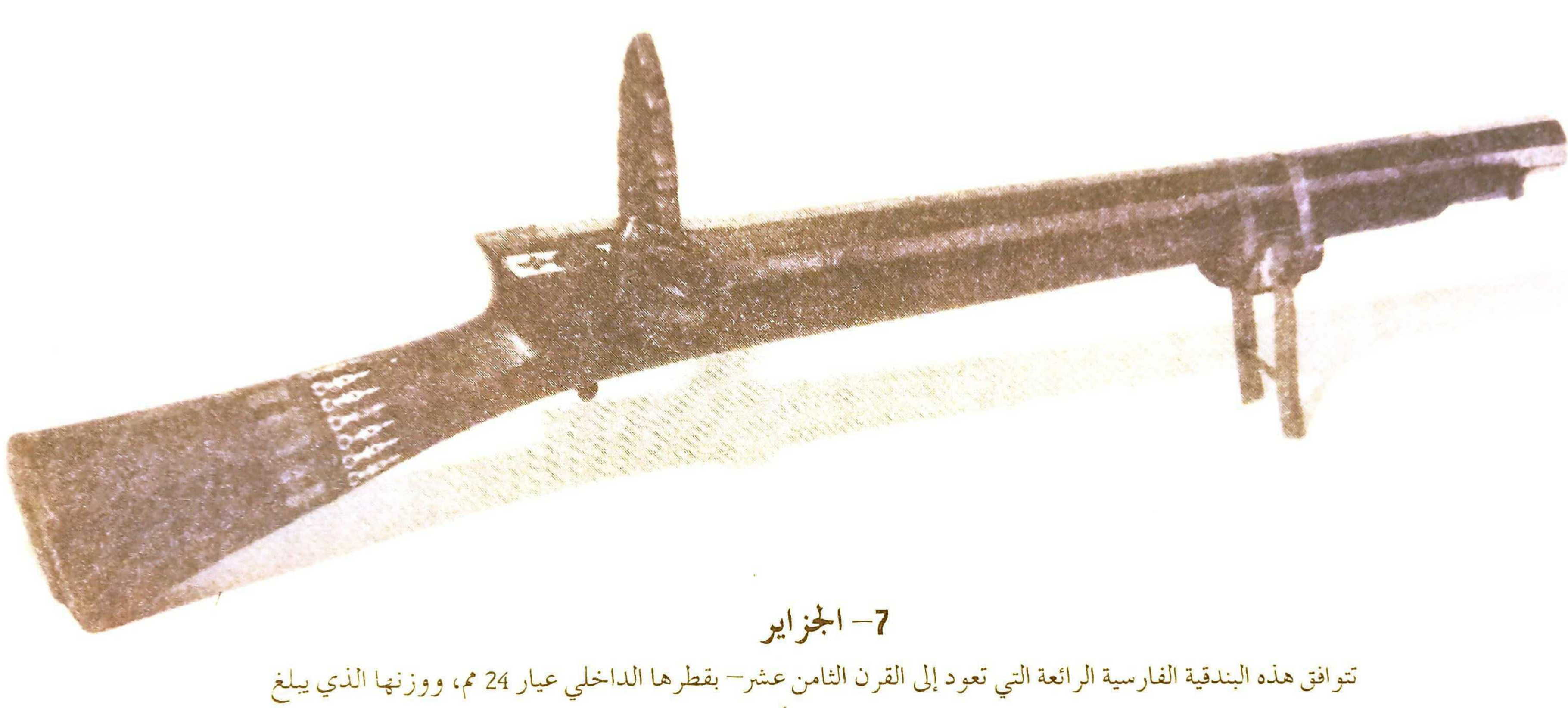
وبالفعل، أتى محمد شاه ممتثلاً للمرة الثانية في 7 مارس/آذار، وكان معه نساؤه، وعدد كبير من المرافقين، وكمية كبيرة من الأمتعة، حيث «وجد أنه من المستحسن البقاء» هناك، مع مجموعة كبيرة من نبلاء المغول. وقد ترك نادر محمد شاه ينتظر إلى الغسق قبل أن يأتي للقائه. ولاحقا، وضع عليه حراسة من الشرطة العسكرية. ومنذ تلك اللحظة فصاعداً، أصبح، وفقاً لأكثر الألفاظ المتاحة تأدباً، أسيراً لدى نادر. 77

وفي اليوم التالي، دفع نادر رواتب الجند، والخدم، والأتباع، بالإضافة إلى منحة تعادل راتب 3 أشهر! ودخلت قواته معسكر المغول، وأزالت المدافع، تاركة النبلاء ومتقلدي المناصب على حالهم. وفي ظل المجاعة وغياب القيادة، تم إخبار مجموعة القوات، ومن تبقى بمعسكر المغول، بأنهم أحرار في العودة إلى ديارهم. وقد أوضح أحد ضباط نادر أن المعسكر كان يحتوي على العديد من الحيوانات والخيل النفيسة: حيث مُنح جنود المغول ربع هذه الكميات، وسمح لهم بالانصراف، لكن ذلك لم يكن ينطبق على خيولهم. وقد برر نادر ذلك بقوله:

> لقد أعطيت هؤلاء القوم الربع من كل شيء، وتركت لهم خيولهم، لأن قوتهم يعتمد عليها. وسيكون معظمهم في ظروف بائسة ومعوزة، إذا فقدوا خيولهم، وسيتحولون، هم وعائلاتهم، إلى الفقر المدقع والمجاعة. ولن يكون من الإنسانية أن نعاملهم معاملة سيئة، وهم تحت رحمتنا الآن، لذلك لا تضايقوهم، أو تهينوهم، تحت أية ظروف.

تشتت القوات المغولية،78 وهوجمت أعداد كبيرة منها، وتعرضت للسطو والقتل طوال الطريق، على أيدي عصابات متنقلة من الفرس الرحل، أو قطاع الطرق، أو الفلاحين بالقرى.

في 12 مارس/آذار، بدأ نادر زحفه إلى دلهي، يتبعه على بُعد ميلين محمد شاه وحاشيته. ليصل إلى حدائق شاليمار في 18 مارس/آذار. ومن هناك، تقدم طهماسب خان جالاير وسعدات خان مع 4000 جندي من القوات الفارسية، بعد أن تلقى الكتوال (صاحب الشرطة) الأوامر من نادر ومحمد شاه بأن يفتح لهم البوابات، لتأمين قصر حصن شاه جهان. وفي 19 مارس/آذار، أرسل محمد شاه إلى المدينة، من أجل الإعداد لاستقبال نادر. ثم عاد سعدات خان إلى حدائق شاليمار ليصحب نادر إلى المدينة، التي دخلها الأخير بنفسه في 20 مارس/آذار 1739. 79



7– الجزاير

تتوافق هذه البندقية الفارسية الرائعة التي تعود إلى القرن الثامن عشر– بقطرها الداخلي عيار 24 مم، ووزنها الذي يبلغ 27,5 كجم، وحاملها المتشعب (كان في الأصل أطول من ذلك قليلاً) وزنادها المصوّن– مع الوصف الوارد للأسلحة التي كان يستخدمها جنود نادر المدربين على أعلى مستوى. وهي أثقل بكثير من الأسلحة المشابهة التي كانت تستخدم في أوروبا في ذاك الوقت، حيث كانت البنادق تزن 5 كجم عادة، وتطلق رصاصات عيار 18 مم.

(متحف التاريخ في بيرن)

الفصل الثامن

خراب فارس

«ربما هناك قوة خفية تهيمن علينا وتقودنا إلى طريق خطر ومدمر ما كانت أقدامنا لتطأه لولاها، وما دام الأمر كذلك، فالمؤكد أن هذه القوة قد تلبّست رداء أنفسنا، وصارت ذاوتنا إذ لولا ذلك ما استمعنا إليها ولم يعد هناك حيّز داخلنا لهذه القوة كي تنجز أعمالها الخفية».

«إيتا هوفمان»

مكث نادر في دلهي قرابة شهرين عقد خلالهما مجموعة من الاجتماعات الرسمية مع الإمبراطور محمد شاه ونبلائه وزوّج ابنه «نصر الله» من أميرة مغولية واستمتع أيما استمتاع بمغازلة المطربة «نور باي»، وعيّن ضمن طاقمه الطبيب الحكيم والمتمرس «علوي خان» لعلاج ما يطرأ عليه من أعراض العلل المزعجة والمتزايدة. لكن أهم أحداث تلك الفترة هو المذبحة التي وقعت بعد يوم من وصوله فضلاً عن تحصيله جزية ضخمة من الذهب والفضة والمجوهرات ومقتنيات ثمينة أخرى تُقدر قيمتها بنحو 700 مليون روبية. ولعل من الصعب استيعاب ضخامة المبلغ، لكن لوضعه في سياق ما نذكر أنه تم احتساب التكلفة الإجمالية للحكومة الفرنسية في حرب السبع سنوات (1756–1763) بما في ذلك الإعانات التي تدفع للحكومة النمساوية فضلاً عن تكاليف القتال في ساحات القتال أو في البحر وقدرت بما يعادل نحو 1,8 مليار جنيهٍ فضيٍّ. وهو ما يعادل نحو 90 مليون جنيه إسترليني في ذلك الوقت أي ما يعادل تقريبا الغنائم التي حصل عليها نادر من دلهي[1] والتي قدرت بنحو 87,5 مليون جنيه إسترليني. وعلى الجانب الآخر من المقياس، فإن

(1) الدين غير المحتمل الناجم عن نفقات هذه الحرب والذي تضاعف تقريبًا في وقتٍ لاحقٍ نتيجةً للمبلغ المدفوع للدعم الفرنسي للمستعمرين الأمريكيين في «حرب الاستقلال» تسبب في الأزمة المالية التي أدت إلى الثورة الفرنسية. وتجدر الإشارة إلى أن 90 مليون جنيهٍ إسترليني في القرن الثامن عشر تعادل 5,4 مليارات جنيه إسترليني اليوم.

العامل العادي في إنجلترا يكون محظوظاً إذا حصل على 20 جنيهاً إسترلينياً في السنة.

لقد جاء انتصار كارنال وإخضاع دلهي ليجعل من نادر شخصية دولية. ففي مختلف أرجاء العالم الإسلامي تناقل التجار أخبار فتوحات نادر وظن كثير منهم أن ذلك مخاضٌ لحقبة جديدة من الهيمنة الفارسية. كما قام ممثلو الشركات الأوروبية والبعثات التبشيرية في الهند بكتابة تقارير تروي فعال نادر وأرسلوها إلى عواصمهم التي تلقتها بمزيد من الشغف واللهفة لمعرفة المزيد عن الملك الفارسي وإنجازاته. حتى إن الصحف اللندنية كتبت عن مآثره كما أن نادر نفسه أرسل بعد بضعة أشهر هدايا قيمة من المجوهرات والفيلة مع السفراء إلى البلاطين العثماني والروسي[1] مضفياً على مجد انتصاراته مزيداً من السطوع والبريق.1 وفي غضون بضعة أشهر ظهرت كتب تتحدث عن نادر بكافة اللغات الأوروبية الرسمية وظل اسمه معروفاً على امتداد جيل كامل بين المثقفين– إن لم يكن مشهوراً لدى العامة والجماهير. وتجدر الإشارة إلى أن دلهي مثلت ذروة نجاحات نادر.

وربما كان نادر يعتزم العودة بنفسه أو بإيفاد أحد أبنائه إلى الهند في مرحلة لاحقة لإقامة حكم فارسي دائم هناك، وذلك رغم إعادته محمد شاه إلى منصبه قبل أن يغادر دلهي. كما أنه أكد قبل مغادرته ضمه الأقاليم المغولية السابقة غربي نهر الإندوس ربما سهّلت ذلك، وكذلك توسّعه البحري في الخليج العربي. وثمة مؤشر آخر على نيته إقامة حكم فارسي دائم في الهند ألا وهو عملية إعادة صك العملة التي أمر بها في كافة الأقاليم التابعة له بحلول نهاية عام 1739: فقد أتم سحب جميع العملات الفضية السابقة وأعاد سكها من جديد لتكون العملة المشتركة مع الروبية الهندية.[2] وتعكس هذه الوحدة النقدية إلى حد ما نظام التجارة الذي كان قائماً بين بلاد فارس والهند. فمعظم التجارة الفارسية ظلت لحقبة طويلة من الزمن تتجه شرقاً حيث التجار الهنود، لكن العملة الجديدة مثلت أيضاً إمكانية قيام إمبراطورية هندية إيرانية تسبق التوسع الاستعماري الأوروبي في شبه القارة الهندية وتجهضه[3]. ولعل هذه الفكرة أكبر الوقوع في شركها دون النظر في مدى

(1) المجوهرات التي أرسلت إلى روسيا التي تعد جزءًا صغيرًا من كنوز المغول وهي اليوم من أعلى معروضات مجموعة الأرميتاج قيمة في «سانت بطرسبرج».

القبول الذي ستحظى به وممن ستحظى به.

إن المذبحة التي ارتكبها نادر عندما كان في دلهي وراح ضحيتها 3 آلاف شخص لم تكن بادرة ميمونة لإقامة حكم فارسي دائم هناك وإنما نذير سوء لما قد يحدث لاحقاً ليس في الهند فحسب وإنما في فارس أيضاً. فقبل المذبحة، قلما التجأ نادر إلى العنف (خلافاً للعديد من أسلافه)، بل كان ملاذه الأخير. إلا أن وحشيته في مراحل لاحقة تعاظمت وصارت أشد فظاعة بشكل مخيف. فإصدار نادر الأمر بارتكاب مثل هذه الفعال الجسام جعل وازع الطيبة الذي تحلى به نادر فيما مضى يبدو عبثياً وغير معقول. فالمذبحة التي وقعت في دلهي لم تكن مجرد صدمة في حد ذاتها، بل وضعت نادراً نفسه في موقع جديد أصبحت فيه الوحشية التي لم يكن يتصورها في السابق أمراً ممكناً بل وطبيعياً (لاسيما في أوقات خروجه عن شعوره بسبب المرض أو الإحباط). وخلافاً للإرهاب السياسي الذي مارسه نادر في فترة لاحقة من حكمه، فقد اعترف هو نفسه بأن مذبحة دلهي فرضتها الظروف، وهو مبرر بدا صحيحاً بالنظر إلى أنه لم يكن ليُكتب له النجاح في فرض هيمنته على المدينة ومن ثم جمع الجزية من دونها، لكن المذبحة تظل نقطة تحول في موقفه من العنف.

غادر نادر دلهي في 16 مايو/أيار 1739، وتوقف هو ورجاله للاستراحة ليلاً عند حدائق شاليمار، وكرر أوامره بإعادة آخر الأسرى من النساء. وفي طريقه صوب الشمال في 17 مايو/أيار انشغل نادرٌ بجنوده وبحرارة الجو وبالعودة بكنزه سالماً إلى بلاد فارس. فقد حمل الجيش معه عشرات الآلاف من الجمال والبغال المحملة بالكنوز فضلا عما لا يقل عن 300 فيل وكميات كبيرة من الذهب والفضة التي تم صهرها في سبائك كبيرة يوجد في وسط كل منها ثقبٌ بحيث يمكن إيلاج حبل عبره ومن ثم حمل السبيكة، وكان كل جمل يحمل سبيكتين من تلك السبائك مثبتة على جانبي السرج[4]، كما حمل الجيش معه العديد من الصناديق المليئة بالذهب والآلاف من الصناديق الأخرى المليئة بالعملة المسكوكة حديثاً.

كانت تلك الأحمال من الذهب والمجوهرات هي الغرض الأساسي من وراء حملة

نادر إلى الهند فقد مكنته من إعلان إسقاط الضرائب في بلاد فارس طيلة ثلاث سنوات، وإعطاء الشعب والاقتصاد فرصة للانتعاش وهو ما مكنه في الوقت نفسه من الإنفاق على الجيش. فكان هناك ما يكفي لتمويل تكاليف حربين أخريين– حملات في تركستان وداغستان– فضلاً عن استئناف حربه المحتومة ضد العثمانيين. إلا أن أكثر ما كان يشغله في تلك الأثناء هو الوصول بهذه الكنوز إلى بر الأمان. ونظراً للعدد الضخم من الحيوانات التي تحمل تلك الكنوز فقد بات من الصعب حمايتها ناهيك عن انتشار خبر نقل الجيش الفارسي لكل هذه الكنوز في كافة أرجاء البلاد. ومن ثم تسلل الفلاحون وقطاع الطرق ليلاً على جانبي القافلة ومؤخرتها وسرقوا 1000 من الحيوانات المحملة بالكنوز مع اقتراب الفارسيين من لاهور. وإزاء ذلك أحرق نادر القرى المجاورة فضلاً عن الدمار الذي خلفه جيشه خلال رحلته الخارجية.[5] وحين مر على ساحة معركة «كارنال» منح زعيم البلدة 5 آلاف روبية لإنشاء قرية جديدة في موقع معسكره السابق على أن يطلق عليها اسم «فتح آباد»، أي موقع الانتصار. ولا شك أن مبلغ 5 آلاف روبية غير كافية بالمرة لإقامة قرية جديدة إلا أن نادراً كان يحتاج إلى المال لتحقيق مزيد من الانتصارات.

وبعد رحيل نادر أعاد الناجون في دلهي حساباتهم وظل محمد شاه إمبراطوراً إلا أن هيبة دولة المغول تعرضت لضربة موجعة يمكن للمرء مقارنتها بالآثار التي لحقت بالإمبراطورية الإسبانية بعد استيلاء البريطانيين على هافانا عام 1762 أو بالخسائر التي لحقت ببريطانيا بعد خسارتها سنغافورة عام 1942 لصالح اليابانيين.6 ولكن:

> «حتى هذه الضربة التي تكفي لإعطاء انطباع عن النفخة الثانية للصور يوم القيامة لم توقظ هؤلاء الذين كانوا يغطون في سبات عميق من الأمن والكسل والخمول، وكانوا سكارى بخمر الكبرياء والخيلاء، فتشاطروا الكره والبغضاء بعضهم لبعض وامتلأ حديثهم بالإهانة والحسد».[7]

في خضم الصراع على السيادة داخل البلاط، ظهر على السطح «نظام الملك» الذي تولى منصب القائد العام للجيش بعد موت أكبر منافسيه خان دوران وسعدات خان. فظلت سطوته ظاهرة لفترة وجيزة، وراوده شعور بأن مكره ورسائله إلى نادر قد تكللت

بالنجاح. فهل أبرم صفقة مع نادر؟ ربما لن نتمكن من معرفة ذلك أبداً. فعلى ما يبدو أن نظام الملك خصه بطريقٍ أيسر لجمع الجزية بخلاف غيره من النبلاء، وربما كان تحذير نادر لمحمد شاه بشأن نظام الملك مجرد مزحة أو خدعة مزدوجة.

بعد رحيل نادر لم يعد محمد شاه يحب «نظام الملك» كما كان في السابق. ولم يمض وقت طويل حتى اضطر نظام الملك إلى العودة إلى ديكان لتسوية الخلافات التي نشبت بين أبنائه، فاستحوذ آخرون على منصبه الرفيع في البلاط. فضلاً عن أنه لم يتبق في عمر «نظام» الكثير بعدما بلغ الثمانين من عمره فصار هَرِماً ضعيفاً. ولم تمض سوى سنوات قلائل حتى مات لتنقطع بموته آخر صلة بأيام الإمبراطور العظيم «أورانجزيب». لم يبذل الكثير لاستعادة هيبة دولة المغول فصار لا يراود أعداءها أي شكوك بشأن قوتها أو إرادتها في المقاومة. وحصلت كل من «أوَد» و«ديكان» والبنغال على استقلالها. وتمكن محمد شاه من صد الهجوم الأفغاني الذي وقع عام 1748 لكنه توفي بعد ذلك. ولم يلبث أن تبعه نادر فصارت دلهي بمرور عقد من الزمن دميةً يتقاتل عليها الأفغان والماراتا. وفي نهاية المطاف، تمكن الأفغان من الاستيلاء على دلهي وهزيمة الهندوس في معركة بانيبات سنة 1761.

سلك نادر في أثناء عودته من الهند سبيلاً غير التي أتى منها فولى وجهه شمال الطريق السابق عند «سيرهند» سعياً للهرب من حرارة الجو بتسلق سفوح الهيمالايا. وذلك يعني مروره بجانب لاهور من دون أن يدخلها، لكن حاكمها خرج إليه وبحوزته جزيةٌ تقدر بنحو عشرة ملايين روبية تجنباً لوقوع مزيد من الدمار. ولم يكن نادر ينوي دخول لاهور هذه المرة على أي حال.. فقد شُغل عنها برجاله الذين يموتون جراء الإجهاد والحرارة حتى إن خوذاتهم بدت أفراناً ملتهبة».[8] كما أن اجتياز الأنهار كان أكثر صعوبة من الرحلة الخارجية، نظراً لتزامن الاجتياز مع فترة الفيضان. وبينما كانت القوات تعبر نهر «تشيناب» انقطعت الأسلاك الحديدية تحت ضغط المياه فاخترقت المياه جسر القوارب وعلا هدير الماء إلى درجة لم يحتملها الجنود وسقطوا من على الجسر وغرق كثير منهم. فبات ضرورياً أن يتوجه الجيش نحو مصب النهر لجمع القوارب والطوافات ومن ثم نقل الرجال والحيوانات على مهلٍ فوق النهر مما تسبب في تأخرهم مدة طويلة.

وزاد من تأخرهم أن نادراً أمر بتفتيش رجاله وأمتعتهم وأعلن عدم سماحه بأن يأخذ أحد شيئاً معه من الهند سوى ما تعادل قيمته قليلاً من المال أو المقتنيات الثمينة، كما أمرهم بترك جميع المجوهرات حتى التجأ بعض الرجال إلى دفن غنائمهم أو إلقائها في النهر بدلاً من تسليمها. وربما لا تزال بعض تلك الغنائم هناك حتى الآن. ولعل نادراً قد أمر بذلك لأنه أراد أن يظل جنده معتمدين على ما يدفعه لهم من رواتب وربما خشي إن هو لم يفعل ذلك أن يتركه كثير منهم. لكننا إذا ما حاولنا استشفاف ما وراء هذا التبرير المنطقي فسنجد أن دافعه هو الجشع المطلق: الرغبة في امتلاك ثروة دلهي بأكملها. وبعد وصول جميع الرجال إلى الضفة الغربية من النهر عبره نادر في 14 يوليو/تموز فانطلقت المدافع ابتهاجاً بهذا الحدث.[9]

عبر جيش نادر جيلوم تحت الأمطار الغزيرة وواصل سيره على طريق روالبندى قاصداً نهر الإندوس رغم تعرضه لهجمات قبائل يوسف ضي. وقد جنّد نادر الدائم الاهتمام بموارد بشرية عسكرية جديدة بعض هؤلاء في جيشه. وأحدثت الفيلة له متاعب نظراً لكميات العلف الكبيرة التي تتناولها. وأمر نادر أن تسير الفيلة في مقدمة القافلة لسد العجز في صفوفه إلا أن 75 منها قد قضت بين كابل وهرات.[10] وانطلاقاً من الإندوس سلك الجيش طريق بيشاور وممر خيبر حتى بلغ كابل يوم 2 ديسمبر/كانون الأول 1739.

وكان مقرراً أن تصبح كابل مركزاً إدارياً للأراضي التي أضافها نادر إلى حدود إمبراطوريته غرب الإندوس. وكان من المهم إعلان نقل السيادة واتخاذ الترتيبات اللازمة لحكم الأراضي الجديدة. ولتحقيق هذه الغاية جاء جميع رؤساء القبائل الأفغانية لمبايعته بُعيد وصوله إلى كابل. وقد اصطحبوا معهم 40 ألف رجلٍ وشجعهم على ذلك ما سمعوه من قصص عن انتصارات نادر في الهند والثراء الذي ينتظرهم تحت إمرته. فتم إدراج المجندين الجدد في الجيش الذي توجه صوب هرات وفي حوزته الكنوز والمقتنيات الثمينة فضلاً عن المدافع الكبيرة المجلوبة من الهند. وربما أرسل نادر قدراً كافياً من قواته الأساسية لحماية الكنوز بالإضافة إلى التحضير للحملة القادمة في تركستان. واحتفظ بقوة صغيرة منها معه. وأبقى نادر على الحاكمين المغوليين في كابل وبيشاور بعدما هزمهما عند ممر

خيبر في نوفمبر/تشرين الثاني 1738.

إلا أن أحد الوجهاء الأفغان، وهو خضير خان حاكم السند، لم يمتثل لاستدعاء نادر له إلى كابل. فرغم الرسائل الودية والمشجعة التي سبقت غزو نادر للهند، شعر خضير بمرارة في قلبه ما إن علم أن محمد شاه سيمنح نادراً الإقليم الذي كان تحت إمرته[11]، بينما لم يفرغ نادر من الهند.

والمؤكد أن خضير خان ظن أن نادر الذي وصل كابل بسلام لن ينتقل عبر الجبال مجدداً لتعقبه لاسيما وقد انتصف الشتاء. لكن ما إن انقضت أيام ستة حتى غادر نادر كابل مرة أخرى لتصحيح ظن خضير المتفائل. وانحدر رجال نادر سائرين عبر الممرات الجبلية[1] قاصدين وادي كورام تحت جو شديد البرودة وعبروا السيل 22 مرة ما أفقدهم العديد من الحيوانات المحملة بالأمتعة.[12] وفي 5 يناير 1740، شعر الفرس بقدر من الراحة مع حلول مناخ أكثر دفئاً على سفح الجبل فوصلوا بعد ذلك إلى «ديرا إسماعيل خان» قبالة نهر الإندوس بعد خوض بعض المعارك مع القبائل المحلية. وأذعن مالكو الأراضي المحليون لنادر الذي ترك الإندوس متوجهاً على متن قارب إلى «ديراغازي خان» في ظل تكرار تجاهل خضير لاستدعاءٍ ثانٍ منه. توجه نادر صوب لاركانا وعلم هناك بأن خضير خان قد هرب إلى الجنوب. ورحب الزعماء المحليون بمقدم نادر وأعلنوا الخضوع لسلطته فترك نادر أمتعته في لاركانا مع «نصر الله ميرزا» واصطفى ثلة من سلاح الفرسان وسار بها أسفل مجرى نهر الإندوس لتعقب خضير خان. وحين وصوله إلى «شاه دابور» قدَّم له رسول من «خضير» هدايا من سيده وأخبره أن الهارب لجأ إلى حصن «عمر كوت» المعزول الذي يتعذر الوصول إليه تحيط به الصحراء من كل جانب.

في 26 فبراير/شباط خرج نادر لا يلوي على شيءٍ آمراً رجاله بجمع العلف وسار بهم يوماً وليلة في الصحراء متوجهاً إلى «عمر كوت». وكان خضير خان قد خبّأ كنوزه واستعد

---

(1) يسير ممر كورام العلوي بين التلال البعيدة حيث هاجمت طائرات قوات الائتلاف والقوات الخاصة - وحقّقت نتائج مختلطة - بقايا تنظيم القاعدة وحركة طالبان داخل كهوف تورا بورا وزوار كيلي ووادي شاهي كوت في ديسمبر/كانون الأول 2001 والأشهر الأولى من عام 2002.

لمواصلة الهرب فهاله مرأى سحابة الغبار الناجمة عن زحف قوات نادر فاضطرب. فقد دفع الإصرار والتصميم نادراً إلى ترك ثلوج الجبال الأفغانية والقدوم إلى صحراء السند الحارقة في الجنوب قاطعاً رحلة تقدر بنحو ألف ميل في نحو شهرين فقط. وأدرك خضير خان أن نادراً لن يتراجع عن مراده تحت أي ظرف من الظروف. وسرعان ما ألقى نادر ورجاله القبض على خضير ووضعوه في الأصفاد وأجبروه على تسليم ما يخفيه من كنوزه التي ضمّت مجموعة من المقتنيات الثمينة تعود إلى الشاه سلطان حسين التي نهبها الغلزاي من أصفهان وتم إخراجها من مدينة قندهار قبل أن يستولي عليها نادر فاشتراها خضير كلها. وعاد نادر إلى لاركانا ومعه خضير والمقتنيات الثمينة.[13]

وفي لاركانا استقبل نادر حاكم لاهور الذي لبى استدعاء نادر – فثمة علاقة وطيدة بين حكومته القوية في لاهور وحكومة هندوستان[14]– وذلك لدعم تحركاته في السند ومنع فرار الهاربين. واصطحب حاكم لاهور ابنه الذي كان محبباً إلى قلب نادر، فبدا سلوكهما كما لو أنهما تابعين له وليس لإمبراطور المغول، وكان من المتوقع وصول زائر آخر لكنه لم يصل.

وقبل ذلك ببضعة أشهر أمر نادر «تقي خان شيرازي» بجلب 25 ألف جندي من فارس للانضمام إليه في السند ربما لأنه كان يفكر في شن حملات على غرار التي شنها الإسكندر من البر والبحر في مكران وسهل الإندوس ورغبة منه في اختبار جدوى الاتصالات البحرية بينه وبين الأقاليم الجديدة في الهند. فتوجه بعضهم براً كما أبحر أسطول يحمل مزيداً من القوات باتجاه الشرق. وساهم الهولنديون بسفينة كبيرة فيما تمت مصادرة مجموعة من السفن الأخرى على طول ساحل الخليج العربي. لم يكن تقي خان مثل الإسكندر، لكنه واجه عدداً من الصعوبات التي واجهها الإسكندر نفسه. فقد عانى رجاله من نقص الإمدادات والمؤن والماء وهزمتهم القبائل البلوشية قرب كيش في صحراء مكران. وفشلت الحملة فشلاً ذريعاً فعاد تقي خان إلى بندر عباس في 16 أبريل/نيسان ومعه كثير من القتلى.[15] وعندما علم نادر بما حدث بعث برسالة شديدة اللهجة إلى تقي خان يأمره بلقائه في نادر آباد (قندهار).

رغم فشل تقي خان فقد كان نادر سخياً خلال تواجده في لاركانا وكان ذا مهابة كبيرة لدى السكان المحليين الذين قدموا له فروض الطاعة والولاء. وأخذ نادر قسطاً من الراحة محتفلاً بعيد النوروز وسط أجواء من السمو والرفعة. واحتفالاً منه بهذه المناسبة قرر إعادة خضير خان الذي أبدى ندمه وتوبته عما بدر منه في السابق وأطلق عليه شاه قولي خان. قسم نادر السند إلى ثلاثة أجزاء وعين خضير خان حاكماً على «ثاتا» الواقعة في الجزء الواقع في الجنوبي الشرقي حول دلتا نهر الإندوس. أما الجزء المتاخم لبلوشستان الفارسية فوضعه تحت إمرة حاكم ذلك الإقليم فيما منح الجزء الشمالي لزعيم قبيلة داوود بوترا التي قدمت فروض الطاعة والولاء له في ديرا إسماعيل خان. وكان على خضير خان أن يرسل عشرة ملايين روبية سنوياً والمساهمة في جيش نادر بألفي فارس تحت إمرة ابنه.[16] فنادر مستعد دائماً لإعطاء خصومه المهزومين فرصة ثانية لخدمته.

في أثناء وجود نادر في لاركانا، أرسل إليه حاكم بلخ كمية كبيرة من البطيخ الذي كان نادر مولعاً به إلى درجة تجعله يأمر بتوفير إمدادات من البطيخ إلى المكان الذي يسافر إليه ليستمتع به مع حاشيته، وكانت هذه الإمدادات تأتي من هرات ومرو وبلخ. وتلقى نادر أيضاً بعضاً من الخيول العربية الجميلة التي أرسلها له رضا قولي خان الذي كان يعلم جيداً إلى أي مدى يقدر والده الحصان الجميل. وجاءه رسول محمل بالهدايا من محمد شاه فأرسل نادر معه بعض الخيول ومئتي جمل محملة بالبطيخ إلى دلهي رداً للهدية.[17] لكنه خص نفسه بأفضل الخيول: فما الجدوى من إهدارها على أحمق مثل محمد شاه.. وأخذ نادر قسطاً من الراحة بعد كل تلك الجهود التي بذلها مستمتعاً بدفء الجنوب، وربما تكون أعراض مرضه قد تبدت إلا أن إشراف طبيبه الجديد علوي خان والبطيخ الحلو الذي يحوطه والخيول التي أهداها له ابنه المحبوب والكنوز التي حصل عليها من عمر كوت واحترام كل من حوله بصفته فاتح الهند، كل ذلك أعطاه شعوراً بالرضا والسعادة.

غادر نادر لاركانا في منتصف أبريل/نيسان «تغمره السعادة بالثروة الكبيرة وسلطة سليمان»[18] وأعاد الشاه قولي خان في حلّة جديدة إلى دياره ومعه هدية من الخيول. وأرسل أمراً إلى رضا قولي ميرزا الذي توجه إلى طهران لقضاء عيد النوروز لمقابلته في هرات.

وكان نادر قد اختار هرات لتكون قاعدة لحملته القادمة عبر نهر الأكسوس وأمر بإرسال الحيوانات والمؤن والجند إلى هناك من كافة الأراضي الخاضعة لسيادته. ووصل نادر آباد في 4 مايو/أيار 1740. قبل الوصول إلى نادر أباد، اكتشف نادر أن الشاه طهماسب السابق وابنيه إسماعيل وعباس قد قتلوا بأمر من رضا قولي ميرزا. وعندما وصل نادر إلى «نادر أباد» رأى تقي خان وسحب منه ولايته على شيراز جراء فشل حملته البحرية وهزيمته في مكران، لكنه ربما سمع منه عن تصرفات رضا قولي بوصفه الوالي في غياب والده فبقي تقي خان في البلاط.

كان تقي خان قد دخل في صراع مع رضا قولي مرات عديدة خلال السنتين السابقتين. فرغم كون رضا قولي والياً على بلاد فارس فإن تقي خان بدا وكأنه يتمتع بنفس السلطة في فارس والمناطق الجنوبية من البلاد الأمر الذي ساهم في احتدام التنافس بينهما. وكانت الكراهية المتبادلة بينهما فتيلاً أشعل بينهما عديداً من النزاعات والخلافات. ففي إحدى المناسبات شعر رضا قولي بالإهانة جراء إرسال تقي خان أصغر أبنائه عوضاً عن أكبرهم ليكون ممثلاً ببلاط رضا قولي. وبينما كان الابن في الطريق من أصفهان أمر رضا قولي حاشيته بتجريده هو ومن معه من الخيول والمتعلقات الثمينة وإعادتهم إلى بندر عباس مخزيين.[19]

لم يكن التقرير الذي بعث به تقي خان إلى نادر مبشراً على الإطلاق فقد طرد رضا قولي بعض المستشارين الذين أرسلهم إليه نادر وأفرط في فرض عقوبات قاسية وتعسفية حتى إن قطع رؤوس الناس صار عقوبة الجرائم التافهة. فضلاً عن استئثاره بتجارة حرير قزوين رغم كون ذلك امتيازا ملكياً إلى حدٍّ ما. ولم تتأثر تجارة الحرير التي كانت تمر عبر موانئ الخليج العربي، لأن تقي خان كان يفرض سيطرته عليها. ولما كانت أرباح رضا قولي تأتي من الحرير، فقد جند 12 ألفا من الجنود الجزايريين وكان يُلبسهم ملابس مترفة منسوجة من القماش والذهب ويزودهم بالأسلحة المطعمة بالذهب والفضة.

من جهة أخرى، تمكن رضا قولي من الحفاظ على السلام داخل فارس خلال وجود نادر في الهند وهو ما كان أهم مسؤولياته. وثارت بينه وبين تقي خان بعض المهاترات

والخلافات لأن «رضا خان» اكتشف ما يقوم به تقي خان من ظلم وابتزاز ومنعه من القيام بذلك. إلا أن رضا قولي ارتكب خطأً كبيراً في غياب والده.. فخلال ربيع وخريف 1739، انتشرت في بلاد فارس شائعات تفيد بأن نادراً قد مات في الهند وأنه مدعوٌ لاجتماع في سهل «مُغان»– على غرار ما حدث خلال مراسم تتويج نادر سنة 1736– وذلك لتنصيبه شاهاً. فصنع رضا قولي لنفسه شارة ملكية (جيك) جديدة مرصعة بالمجوهرات فضلاً عن قوالب جديدة لصك عملة جديدة وخاتماً جديداً في دلالة واضحة على اعتزامه اعتلاء العرش.[20]

ووفقا لأوثق الروايات، فإن حسين خان قاجار المسؤول عن احتجاز طهماسب وابنيه في سبزوار ذهب إلى رضا قولي في مشهد وطلب منه إذناً بقتلهم قائلاً له بأنه لو صحت شائعات موت نادر فإن أهل سبزوار سيثورون ويزيدون من قوة حراس الأمراء الصفويين ومن ثم ينصّبون طهماسب شاهاً من جديد. وكان من المفترض أن يكون رضا قولي على معرفة أوثق بأحدث أخبار والده[21] مقارنة بعامة الناس، بيد أن الاتصالات انقطعت بينهما في ربيع 1739 وعاودت انقطاعها ثانية في الخريف بينما كان نادر يكافح ويناضل في البنجاب. وكان هناك عديد من المتملقين يحيطون برضا قولي ويحرصون أشد الحرص على إثارة المشاكل والمتاعب. وربما يكونون هم من أوعز إليه بأنه حتى في حال عودة والده فإنه لن يأسف على قتل طهماسب وابنيه.

تردّد رضا قولي في بادئ الأمر، لكن حلمه بأن يصير الشاه القادم حسم الأمر فأذن لحسين خان قاجار بالإجهاز عليهم. فقفل الأخير عائدا إلى سبزوار. ساورت الريبة طهماسب الجالس وسط حريمه، حينما وصل قاجار: فرفض الخروج لملاقاته وتشبثت النساء به آخذات في البكاء وقد سيطر عليهن الخوف. وبعد أن كرر محمد حسين طلبه من الشاه السابق طهماسب دون أن يلق استجابة دخل على الأخير وسط حريمه دافعاً إياه إلى أحد الأركان وخنقه بحبلٍ غير آبهٍ لصراخ النساء ثم انثنى بسيفه إلى عباس بن طهماسب الذي لم يتجاوز عمره 9 سنوات. وحاول إسماعيل، أصغر أبناء طهماسب، الفرار بالقفز في أحد الآبار لكنهم أخرجوه وهو يصرخ متسائلاً عن والده وشقيقه وحين

رآهما مستلقيين «كزهرتي توليب ملطختين بالدماء» ارتمى عليهما وهو يصرخ ويبكي بكاءً شديداً فأمر محمد حسين خان أحد رجاله بقطع رأس الصبي غير آبه بالتوسلات. وثمة شكوك حول توقيت هذه الأحداث إلا أن دلائل جديدة تشير إلى الاغتيال تم في مايو/أيار أو مطلع يونيو/حزيران 1739 قبيل أن يتلقى رضا قولي أخباراً من كارنال.[22]

ظل مآل طهماسب وولديه خفياً عن شقيقته «فاطمة بيجوم»، زوجة رضا قولي، وثمة رواية تقول بأنها رأت ممرضتها تبكي في مأدبة طعام أقيمت للاحتفال بانتصار نادر في كارنال وحينها فقط علمت ما حدث وانتحرت.[23]

ربما بلغت مسامع نادر أخبارٌ مقلقةٌ عن تصرفات ابنه في أثناء وجوده في الهند، لكن ربما كان ما بلغه مزيجاً من تصرفات جيدة وأخرى سيئة لكن أسوأها على الإطلاق كان خبر اغتيال طهماسب وابنيه. من «نادر آباد» توجّه نادر إلى هرات التي وصلها في 5 يونيو/حزيران فنصبت له خيمةٌ كبيرةٌ مرصعةٌ باللؤلؤ والمجوهرات كان قد جلبها من الهند وأودعها كثيراً من الكنوز وعرش الطاووس المقلّد الحديث الصنع. وكان نادر منذ مغادرته الهند قد أمر باستخدام مجموعة من المقتنيات التي استولى عليها من محمد شاه في تزيين الخيمة، وشملت هذه المقتنيات تجهيزات للخيل والسهام والدروع والسيوف المرصعة بالمجوهرات. وقد تم عرضها داخل الخيمة، وسُمح للسكان المحليين وعابري السبيل بدخول الخيمة ومشاهدة هذه المقتنيات. وبعد عدة أيام، وصل ابنه الثالث إمام قولي في صحبة حفيده «شاهرخ» وابن شقيقه علي قولي للترحيب به ولم يظهر أي أثر لرضا قولي.

كرم نادر الأمراء الشباب على مدار عدة أيام وقدم لهم أساور وأحزمةً مرصعةً بالأحجار الكريمة. وقد أصبح علي قولي قد شاباً يافعاً في مثل سن رضا قولي تقريباً. وكان نادر قد عيّنه حاكماً على مشهد منذ مدة ورتب زواجه من الأميرة الجورجية كيثيوان في شتاء 1736–1737. وبعد مقتل شقيقه إبراهيم، اعتنى نادر بابن أخيه أيما عناية وأحبه حباً شديداً، وكان يُوكل إليه مهمات عسكريةً وإداريةً مثلما كان يفعل مع أبنائه، لكن علي لم يُظهر نفس الحماسة التي أظهرها رضا قولي وكان يقضي أوقاته في مشهد في اللهو والتسلية بدلاً

من متابعة شؤون الإقليم. ووعده نادر بأنه ما أن تنتهي حملة تركستان فإنه سيتوجه إلى داغستان أخذاً بثأر إبراهيم. لكن لم يظهر أي أثر لرضا قولي حتى الآن. أبقى نادر معه علي قولي وأرسل «نصر الله» وغيره من الأمراء إلى مشهد واستعد لمغادرة هرات.[24]

أخذ نادر يعيد التفكير فيما كان على استعداد للتغاضي عنه من تصرفات رضا قولي بوصفها اندفاعاً ورعونة شباب فوجد في تصرفات ابنه دلائل على سعيه لاعتلاء العرش مكانه. فكانت تلك الشائعات تنتشر خلال غياب نادر وما إن بدأ نادر يظهر استياءه وامتعاضه من سلوك ابنه حتى أخذ تقي خان وغيره يهمسون في أذنه بأن ثمة خيانة تلوح في الأفق ليؤكدوا بذلك شكوكه. وبدا أن عصيان ابنه وامتناعه عن شن حملة في تركستان عندما علم أن والده يعتزم شن الحرب بنفسه، وبذخه وإسرافه وعزله المستشارين الذين عينهم نادر، واغتيال طهماسب وابنيه، وأخيراً تأخره في المجيء لتحية والده، مؤشرات على على شيء ما.

غادر نادر هرات في 20 يونيو/حزيران 1740 مصطحباً جيشه وبعد خمسة أيام أقام معسكراً على بعد 60 ميلاً شمالي هرات التي بلغها رضا قولي. ودخل على أبيه مزهواً ومحدثاً صخباً برفقة 12 ألف من رجال الجزايرجي في زيهم البراق زاهي الألوان. فاستعرض نادر بهدوء موكب ابنه ورحب به على الملأ إلا أن المشهد أكد انطباعه بأن الأفكار التي تجول بفكر رضا قولي تنمو وتزداد. وكان نادر يكره الخيلاء والغلو في الزهو–[25] وقد ذكره ذلك المشهد بأصفهان والشاه سلطان حسين وطهماسب.

وبعد أن استعرض نادر الموكب أمر بتسريح الجزايرجيين وتقسيمهم إلى مجموعات صغيرة تحت قيادته هو. بعد ذلك تناقش مع رضا قولي فيما أتاه من أفعال وقرارات بوصفه والياً وحاول تهدئته لفقده جنوده موضحاً له أن الإمبراطورية لا يسعها دعم جيشين وبلاطين– فالناس لن يستوعبوا ذلك الأمر. وأخبر ابنه بأن العظمة والتباهي لا يتناسبان معه وأن عليه أن يتخذ مسلكاً لا يدع لأحد مجالاً لانتقاده. وازداد نادر غلظة في حديثه مع رضا قولي ووبخه على اغتيال طهماسب ثم أمر بعزله من منصبه وتعيين «نصر الله» والياً على مشهد مكانه. أما رضا قولي، فقد رافق نادر في حملته في تركستان، وشعر بالإذلال

لأن طبيعته تميل إلى الجموح والغطرسة.[26]

بعد ثلاثة أيام عبر نادر أندخوي قاصداً بلخ فبلغها في نهاية يوليو/تموز. وكان نادر قد أرسل مجموعة من حرفيي دلهي لبناء القوارب التي تمكن جيشه من عبور نهر الأكسوس، وحين وصل في يوليو/تموز وجد بانتظاره أكثر من ألف قارب جاهزة. وفي 10 أغسطس/آب وضع نادر طليعة الحرس على النهر عند «كيليف» وزود القوارب بالمؤن والمدافع. وسار الجيش بعدها باتجاه مصب النهر نحو «كركي»، حيث أرسل نادر رضا قولي على رأس 8 آلاف جندي إلى «تشاهارجو» قبل وصول الجيش الرئيس بيومين، وكان علي قولي يواكبه على الضفة الشمالية للنهر. كان نادر يهدف من وراء إرسال وحدات متنافسة من قبائل متناحرة لمهاجمة عدو عنيد أن تدب روح العداوة والتنافس بين أولاد العمومة وذلك كي يثبت لـرضا قولي أن منصبه ليس حقاً مكتسباً بل لابد له من السعي لاقتناصه. وعندما بلغ الجيش الرئيس تشاهارجو انضم فيلق نادر الذي يضم 12 ألف محارب إلى بقية القوات على الضفة الشمالية لتأمين رأس الجسر. بعدها قام المهندسون ببناء جسر من القوارب محاطٍ بحصون على الطرفين لحمايته وفقاً لما اعتادوا فعله في الأراضي المعادية. أما بقية الجيش ومعه حريم نادر وحرسه فواصلوا الزحف على الجانب الآخر في 6 سبتمبر/أيلول.

في هذا الوقت، أرسل عامل بخارى أبو الفيض وزيره إلى نادر سعياً منه لتجنب الحرب. استمع إليه نادر لكنه أصر على أن يبايعه سيده ويقدم فروض الطاعة والولاء بنفسه. أراد أبو الفيض الامتثال والإذعان لكنه لاقى صعوبةً في السيطرة على أتباعه الأوزبكيين الذين اجتمع عدد كبير منهم في بخارى للثأر من الهزيمة التي ألحقها بهم رضا قولي قبل ثلاثة أعوام. وانتظر أبو الفيض قدوم الفرس مرتعداً، وكانت قواته ترابط قرابة «قاراكول» جنوب غربي بخارى. وعلى ما يبدو فإن بعض جنوده هاجموا جيش نادر في 11 سبتمبر/أيلول تقريباً، لكنهم اندحروا تحت نيران المدافع وزانبوراكات نادر، ما أخمد روح الحماسة لدى الأوزبك فأذعن أبو الفيض في 12 سبتمبر/أيلول ومعه مسؤولوه وتابعوه.[27]

سمح نادر لأبو الفيض بالاحتفاظ بخانيته بوصفه تابعاً للدولة الفارسية ودافعاً للجزية.

وقرئ اسم نادر في الخطب داخل مساجد بخارى وصكت العملة باسمه، لكنه لم يسمح لجنوده بارتكاب أي أعمال نهبٍ أو سلبٍ. وأخذ معه آلاف الأوزبك لخدمته وأرسلهم إلى خراسان. وضم كافة أراضي أبو الفيض جنوبي نهر الأكسوس، لكن في 6 أكتوبر/ تشرين الأول أعاد إليه خاتمه وشارة الملك (جيك) ونصبه شاهاً. وبعث في الوقت نفسه ثلة من رجاله إلى سمرقند حيث أخذوا لوحاً كبيراً من اليشم يعلو مقبرة تيمور وقاموا بنقله إلى مشهد إلا أنه انكسر نصفين خلال هذه العملية.[28]

عادت صحة نادر لتكون سبباً في المتاعب، فحينما يمرض يتعكر مزاجه ويصير عرضةً للكآبة والغم وربما تعتريه حالات هياج شديدة. إلا أن طبيبه الهندي «علوي خان» عالج كثيراً من أعراض مرضه وأوصاه باتباع نظام غذائي محدد. وطلب منه تقليل كميات الكحول التي يتناولها. ولم يكن نادر مريضاً سهل المراس إلا أن علوي خان كان لديه من الحنكة ما يعينه في أداء مهمته. فعندما يفقد نادر صوابه ويسوء مزاجه كان علوي يؤنبه ويعطيه نصائح تتجاوز المسائل الطبية. وحينما كانت تسنح لنادر فرصةً للتأمل والتفكر فإن احترامه لصراحة طبيبه كان يبقي بينهما كل ود وتناغم. ويعد علوي خان أحد القلائل الذين كان بوسعهم السيطرة على نادر وكبح جماحه. وما بين الأب المصاب بعسر الهضم وابنه الشكس، كان التوتّر يغلب على الحياة في البلاط.[29]

كان لغزو تركستان أهمية رمزية عظيمة بالنسبة لنادر، ودعماً لموقفه في تركستان فقد حرص نادر على امتزاج دماء جنكيز في عائلته عن طريق المصاهرة، كما أدخل دماء تيمور عن طريق زواج «نصر الله». لم يكن أمام «أبو الفيض» سوى الانصياع والخضوع لنادر. ووقع الاختيار على اثنتين من بنات «أبو الفيض» بحيث يتزوج رضا قولي من البنت الكبرى ويتزوج علي قولي من البنت الصغرى. لكن رضا علم أن البنت الصغرى أكثر ذكاءً وجمالاً وجاذبية من أختها فطلب من والده أن يسمح له بأن يتزوجها بدلاً من أختها. رفض نادر ذلك وقال له إن في ذلك إهانة لأبيها. وكان رضا قولي يشعر بامتعاض واستياء حيال علي قولي والطريقة التي كان يعامل بها على قدم المساواة معه. فرد على والده بوقاحةٍ قائلاً إن كانت رغباته لا تلقى أي اعتبار لدى أبيه فإنه لن يتزوج

على الإطلاق. فما كان من نادر الذي استشاط غضباً من رضا قولي إلا أن تزوج هو من البنت الكبرى وزوج الصغرى لعلي قولي.[30] وكانت تلك الحادثة منعطفاً آخر في دوامة سوء النية بين الأب وابنه.

وبينما كان نادر في بخارى، أرسل رسلاً إلى البارز صاحب خوارزم، يدعوه إلى القدوم إلى بلاطه ليقدم فروض الولاء له. لكن البارز أمر بقتل الرسل فأعد نادر العدة لشن حملة على خيفا، وحين أصبح على مقربة من مدينة تشاهارجو، جالت بخاطره الصعاب التي مرت بطفولته ومعاناته الطويلة في خراسان تحت وطأة غارات النخاسين التركمان. وبينما هو في طريقه انتهى إلى مسامعه أن مجموعة من التركمان والأوزبك يتجهون شرقا بأوامر من البارز وأن لديهم تعليمات بتدمير جسر القوارب المقام على نهر الأكسوس. فما كان من نادر إلا أن ترك أمتعته وغادر المعسكر في جنح الليل ومعه قوة من سلاح الفرسان متوجهاً إلى الجسر على وجه السرعة. وعندما وصل في الصباح الباكر، تأكد من أن جميع رجاله بخير وفي أمان، ثم أقام معسكراً على الجانب الآخر. وفي اليوم التالي رأى فريق الكشافة بجيش نادر عموداً من الغبار الأسود ناحية الغرب إيذانا بوصول التركمان. ودونما تردد، أمر نادر رجاله بالزحف نحو العدو الداني. واقترب سلاحا فرسان الجيشين من أحدهما من الآخر، وزاد الفرس من عدو خيلهم شاهرين رماحهم «فأصابت أمواج تلك القوات المنتصرة» التركمان بالربكة وأجبرتهم على الفرار.[31]

بعد ذلك أخذ نادر ورجاله قسطاً من الراحة إلى أن جاء بقية الجيش. وبينما كان الجيش يقيم معسكراً عند تشاهارجو، ذهب رضا قولي إلى نادر وطلب منه الإذن له بالعودة إلى مشهد. وكان مؤرخ نادر حريصاً على تسجيل تبرير رضا بأنه يتلهف لرؤية أخيه «نصر الله»، لكن السبب الحقيقي يرجع إلى عدم شعور رضا قولي بالسعادة في بلاط والده. رأى نادر في ذلك خير خلاص منه فسمح له بالذهاب. وفي نفس التوقيت غادر أيضاً تقي خان بعد أن ضمن أن نادر سيعيده إلى منصبه حاكماً على فارس. وعلى ما يبدو فقد ازداد تقي خان رخاء نتيجة لهذا المناخ السام إذ زادت ثروته في مقابل تضاؤل ثروة رضا قولي. ويبدو أن تقي خان كان يوجّه ملاحظاته الشاخرة على حساب رضا قولي في الحوار غير

المريح. وقد وُصف تقي بأنه مستشار الشاه الأول والمفضل[1]، وأن نادر لا يسمح لأحد بانتقاده. وعاد علي قُلي إلى مشهد[32] ومعه زوجته الجديدة التي أحسن عمه إليه بتزويجه إياها كما أن رضا قُلي شعر بالرضا رغم ما تعرض له من مهانة وإذلال.

في 19 أكتوبر/تشرين الأول تقريباً، غادر الجيش تشاهارجو وحملت المدافع على القوارب مرة أخرى. وسار الجند بمحاذاة ضفة نهر الأكسوس تحيطهم سحابة كثيفة من الغبار حتى عجز الجنود عن تمييز من يقترب منهم بغير الصوت. وعانى كثير منهم من مشكلات في البصر. فقسم نادر الجيش إلى أربع فرق لإحباط أي غارات أو كمائن: فرقة أمامية وأخرى في المؤخرة واثنتان على جانبي الأمتعة في صفوف طويلة تأخذ شكل مستطيل طويل لحماية الركب. وفي حال تخلف أي رجل عن الصفوف لأي سبب فإن رأسه يقطع عقاباً له على فعلته. وقام نادر بتشكيل صفوف منفصلة لتسير خارج التشكيل الرئيسي وتكون على استعداد لتقديم العون لأي عنصر من عناصر الجيش يتعرض للهجوم. وقد حاول التركمان في مرات عديدة مهاجمة الفرس لكنهم كانوا ينسحبون عندما لا يجدون ثغرة يتسللون من خلالها إلى مسيرة الفرس المنتظمة.[33]

وعندما وصل نادر إلى وادي ديف بويون المتاخم لخوارزم، أمر بإقامة مستودع محصن ولبث هناك برهة على أمل أن يخرج البارز لقتاله. إلا أنه لم تنشب بين الجانبين معركة كاملة رغم وقوع عدد من المناوشات العنيفة مع تركمان قبيلة يوموت. وبقي البارز متحصناً داخل قلعته في هزاراسب وغمر المناطق القروية المحيطة بالمياه لمنع نادر من جلب مدافعه. وصل نادر إلى هناك في 6 نوفمبر/تشرين الثان وبدا واضحاً له أن البارز سيبقى متحصناً. وبينما كان نادر يضرب حصاره حول البارز، نما إلى علمه أن أسرة البارز ومعهم متعلقاتهم الثمينة يقبعون في خانقاه، وهي أحد الحصون الخمسة في خوارزم، فتوجه إلى هناك في محاولة لدفع البارز إلى التخلي عن حصنه.

(1) لا توجد أدلة تشير إلى وجود علاقة شذوذ جنسي بين الرجلين (نادر كان يكره اللواط وفق هانواي المجلد الرابع صفحة 269). لقد كانت علاقة وطيدة بشكل غير عادي وفوق الشبهات. لكن في ذلك الوقت كان من الطبيعي في إيران أن يظهر صديقان من الذكور أن عاطفة تجاه أحدهما الآخر دون أن يقود ذلك أي شخص إستنتاجات أخرى.

نجحت حيلة نادر في إخراج البارز من مكمنه، فما إن شارف نادر على الوصول إلى خانقاه حتى علم أن البارز في طريقه إلى هناك بدوره. وخرجت فرقتان من طلائع قوات تركمان اليوموت و«تكة» لتهديد الفرس فتقدم نادر مسرعاً وهاجمهم هو وحراسه. وأوقع فيهم مقتلة عظيمة وأسر بعضهم، أما البارز فأعاد تشكيل قواته وتوزيعها في خانقاه ثم ظهر مرة أخرى لخوض المعركة ومعه قوة مختلطة من الأوزبك والتركمان والمشاة المسلحين ببنادق الفتيل وبعض المدافع التي خلفها الروس سنة 1716. وبادر نادر بالهجوم وسرعان ما انهارت قوة البارز ولاذت بالفرار بعدها فر البارز ليتحصن في قلعة خانقاه فما كان من نادر إلا أن ضرب حولها الحصار. وانصب غضب المدافع الفارسية على الجدران طيلة ثلاثة أيام وتمكن المهندسون الفارسيون من تفجير عدد من الألغام المزروعة تحت هذه الجدران.

ومع تأهب الفرس لشن هجوم في 14 نوفمبر/تشرين ثان استسلمت غالبية الحامية الأوزبكية وتم سحب البارز خارج القلعة في اليوم التالي. وربما سعى نادر إلى إبداء قدرٍ من الرحمة حياله إلا أن أقارب مبعوثيه الذين اغتالهم البارز احتجوا على ذلك فحاول البارز بجبن إنكار مسؤوليته عن ذلك قائلاً إنهم قتلوا بغير علمه. فقال له نادر: «إن كنت عاجزاً عن حكم أتباعك القليلين فأنت لا تستحق العيش». وأمر نادر بنحره هو وعشرين أو ثلاثين من أتباعه من المغيرين والعبيد سيئي السمعة.[34]

بعد قتل البارز استسلمت بقية حصون خوارزم عدا «خيفا» التي ظن مواطنوها أن قوة جدرانها وأسوارها تمنعهم من نادر وجنده، لاسيما في ظل رغبتهم في تجنب خسارة عدد كبير من العبيد الفارسيين الذين اختطفهم التركمان وقاموا بزراعة الأراضي المحيطة بهم. زحف نادر باتجاه المدينة وضرب حصاراً جديداً عليها. ولم تكد تمر أيامٌ أربعةٌ حتى استنزف الفرس مياه القناة المحيطة بالسور وتمكنوا من فتح ثغرات فيه باستخدام الألغام. وبحلول 25 نوفمبر/تشرين الثاني كان الفرس على أهبة الاستعداد لشن الهجوم على خيفا، فاستسلم سكانها بعدما تثبتوا من عدم جدوى المقاومة وما يمثله استمرارها من خطورة.

وجد نادر في تلك المدينة والمناطق المجاورة لها عدداً كبيراً من العبيد أتى معظمهم

مثله من شمال خراسان. فأغدق عليهم المال وزودهم بالمؤن والخيول وأصدر مرسوماً بإنشاء مدينة جديدة لهم جنوبي أبيورد وأطلق عليها اسم «خيفا قاباد». كما وجد هناك عدداً كبيراً من الروس ممن نجوا من حملة بطرس الأكبر في خوارزم سنة 1716. ومنحهم نادر أموالاً وخيولاً، فقفلوا عائدين إلى الأراضي الروسية. بعد ذلك ضم نادر أربعة آلاف من شباب الأوزبك إلى جيشه وعين طاهر خان، الذي تربطه صلة قرابة بـ «أبو الفيض»، حاكماً على خوارزم، وكان التاجران الإنجليزيان «طومسون» و«هوج» ضمن الأجانب الذين وجدهم نادر في خيفا، فمنحهما نادر جواز سفر وتصريحاً بممارسة التجارة في الأقاليم التابعة له. وحثهما على التوجه إليه مباشرة متى صادفتهما مشكلة. وقد روى هذان التاجران أنه حتى أقل جنود نادر مكانة كانوا يتمتعون بأزياء حريرية ولديهم كثيراً من النقود الهندية.[35]

رغم جشع نادر في انتزاع الأموال من التجار، فإنه من جهة أخرى كان يدعمهم ويشجع التجارة. وثمة مؤشرات على أنه كان يوفر الحماية للتجارة لاسيما بعد عودته من الهند، فكان حريصاً على تأمين طرق القوافل للتجار والتي كانت آمنة في العادة خلال فترة حكمه. وقد ظهرت في مواقف عدة رحابة صدره في تلقي التماسات التجار لتعويضهم عما لحق بهم من ضرر على يد اللصوص أو ما يلقونه من معاملة جائرة من جانب المسئولين.[36]

تُبرز إحدى هذه الروايات ما عُرف عن نادر من دعمه واهتمامه بتأمين الطرق. فتذكر أن أحد التجار الفارسيين كان مسافراً من كابل فتعرض للسرقة قرب نيسابور في خراسان، فتقدم ذلك التاجر بشكواه إلى نادر الذي سأله إن كان شخص غيره حاضراً حينما وقعت السرقة. فأجاب الرجل بأنه لم يكن هناك غيره، فسأله نادر عما إذا كان ثمة أشجار أو حجارة أو شجيرات؟ فرد التاجر بالإيجاب، فقد كانت هناك شجرة واحدة كبيرة استظل بها التاجر من حرارة الشمس حينما وقعت السرقة. فما كان من نادر إلا أن أرسل اثنين من جلاديه لجلد الشجرة كل صباح إلى أن تعيد المسروقات أو تكشف أسماء اللصوص. فصارا يضربانها كل صباح وخلال أسبوع تم العثور على جميع المسروقات بجوار الشجرة. فقد

ارتعد السارقون خوفاً مما تعرضت له الشجرة من ضرب وجلد وحدّثوا أنفسهم بأن ما حدث للشجرة سيكون مآلهم إذا ما افتضح أمرهم فأعادوا ما سرقوه. وعندما سمع نادر بالأمر ابتسم قائلاً: «كنت أعلم ما سيأتي به جلد الشجرة».[37] ويبدو من القصة أن نادراً أسند إلى جلاديه مسئولية الذود عن سلامة الطرق وأمنها.

وفي 29 نوفمبر/تشرين الثاني أصدر نادر مرسوماً بتغيير لقبه في المراسلات والخطب من «أمير الإحسان» إلى «ملك ملوك العالم» (شاهنشاه)، نادر عصره ومانح سلطة بلاد فارس ومانح عرش هندوستان وخوارزم أرض الأوزبك.[38]

غادر «ملك الملوك» خيفا في 9 ديسمبر/كانون الأول قاصداً مشهد عبر «تشاهارجو» ومرو. وجرياً على عادته في توخي الحذر، فقد أمر نادر قبل أسابيع من وصوله بملء الآبار بالمياه لتزويد الجند بما يحتاجون إليه منه على امتداد طريقهم وسط الصحراء.[39] وبينما كان في مرو عين أحد القاجاريين حاكماً بدلاً من حاكمها الأفشاري وأمر بقتل العديد من الأشخاص، منهم «رحيم سلطان» الذي قيل إنه شجع «رضا قولي ميرزا» على قتل الأمراء الصفويين وتنصيب نفسه شاهاً.

ومن مرو توجه نادر في زيارة إلى عدد من مواطنه القديمة في أبيورد وكالات و«دارا جاز» وكوبكان و«خابوشان». وأمر بإقامة نصب تذكاري في مكان ولادته تعلوه قبة عليها سيف ذهبي- بحيث يبدو كأن السيف قد صدر من هذا المكان.[40] ويبدو أن العمال سألوه عن تاريخ مولده حتى يقوموا بنحته على النصب إلا انه طلب منهم وضع تاريخ يوم إقامة النصب بدلاً من تاريخ ميلاده مما يشير ضمنياً إلى أنه لم يكن يعلم تحديداً تاريخ مولده. وعندما كان نادر هناك ألقى خطبة أمام ضباطه أخبرهم كيف قضى الجزء الأول من حياته وحدثهم عن الفقر الذي كانت تعانيه أسرته وعن الحمار والجمل اللذين كانت تمتلكهما وكيف كانوا يطعمونهما. وقال: «الآن كما ترون الرفعة والمجد التي أنعم المولى عز وجل علي بها لابد أن تأخذوا من ذلك عبرة بألا تحقروا فقيراً في يوم من الأيام».[41]

وفي كالات، أصدر نادر أوامره بإقامة مبانيَ جديدة إلى جانب القائمة بحيث يصير هناك ميادين ومنازل وحمامات عامة ومساجد داخل القلعة فضلاً عن خزانته التي تحفظ

كنوز الهند بالإضافة إلى ضريح من الرخام الأسود وقصر. وتحسنت إمدادات المياه فانتشرت الحدائق الواسعة. وزار نادر أيضاً «خيفا قاباد» وقدم هدايا من الأطعمة والملابس والنقود إلى الوافدين الجدد. وانتهى به المطاف في مشهد يوم 17 يناير/كانون الثاني سنة 1741.

مكث نادر قرابة شهرين في مشهد[42] التي صارت عاصمته. فهي تقع في قلب خراسان موطنه الأصلي ومركز التجنيد الرئيس لجيشه في فارس. وبدا نادر متسامحاً في مشهد أكثر منه في أصفهان، وهو ما اتضح عندما علم أن جنوده تكبدوا أموالاً طائلةً نظير الحصول على الطعام والضروريات الأخرى. واجتمع في مشهد بأبنائه وابن أخيه وأخذ يُعدُّ لحملته المقبلة في داغستان فقام بمراجعة حسابات الإيرادات، وكانت إحدى نتائج هذه المراجعة أن تم تنفيذ حكم الإعدام في عدد من مسؤولي جباية الضرائب لديه.

ووفقاً للتعهدات التي قطعها نادر على نفسه في الهند وتركستان فقد قدم هدايا ثمينةً لضريح الإمام الرضا تضمنت مصابيح وسجاداً وقفلاً مرصعاً مزخرفاً بالأحجار الكريمة. ووصل إلى نادر الحجر المأخوذ من مقبرة تيمور في سمرقند وحمل إليه فراح يتأمله برهة. ولعل نادر قد صدم حين علم بانكسار الحجر في أثناء نقله فربما رأى سخفاً في سرقة حجر مقبرة تيمور العظيم. ولم تكن تلك المرة الأولى أو الأخيرة التي يغير فيها رأيه بعد القيام بأمرٍ جلل. فقد كان نادر منجذباً انجذاباً غير مريح إلى مظاهر الخيلاء التي كانت واحدةً من الأشياء التي تورثه التردد. فاستبدل بحجر تيمور آخر من الذهب تكسوه المجوهرات فيما أعيد حجر اليشم مرة أخرى إلى موطنه في سمرقند.[43]

وأقام نادر مقبرةً جديدةً له في مشهد كتب عليها بعض الهازلين ما مفاده أنه موجودٌ في كل بقاع العالم إلا أن البقعة التي تليق به لا تزال خاليةً. وسرعان ما أزيلت الكتابة مخافة أن يعلم نادر بها فيأمر بقتل كثير من الناس عقاباً لهم على هذه الفعلة– ويرجح أنه قد نما إلى علمه أمر الكتابة الساخرة إلا أنه لم يقتل أحداً في عاصمته الجديدة المفضلة.[44]

وكان نادر منشغلاً في ذلك الوقت بخططه لإنشاء أسطول في الخليج العربي لكنه اكتفى بمجرد التوجيه تاركاً تنفيذ الأمر ومباشرته إلى «لطيف خان»– أميرال الخليج العربي

الذي أعاد البحرين عام 1736.[1] وفي عامي 1737 و1738 أرسل «لطيف خان» حملات إلى عمان لدعم سلطانها ضد المتمردين هناك. فنجح الفرس إلا أن تقي خان الذي رافق الحملة الثانية تشاجر مع كل من السلطان و«لطيف خان» ودبر قتل الأخير مسموماً.

بعد اغتيال «لطيف خان» انفرط عقد قوات الحملة- فقد كانت خبرة تقي خان في الشؤون المالية وحياكة المكائد بين أفراد البلاط أكثر من خبرته في اللوجستيات البحرية والإستراتيجيات العسكرية. وغرقت بعض القوات العسكرية الفارسية وتمرد بحارة الأسطول الفارسي من أجل توفير المؤن لهم حتى إنهم لجؤوا إلى القرصنة. وقد خضع المتمردون للضرب في معركة بحرية وقعت في يناير/كانون الثاني 1739، قبل أن يتمكن الفرس من تدعيم جهودهم في مسقط وأمر نادر تقي خان بالإبحار إلى السند ليلحق بالحملة التي انتهت بكارثة في مكران[2].

وبعد تلك الكارثة تمرد البحارة العرب مرة أخرى نظراً لامتناع تقي خان عن دفع رواتبهم أو إمدادهم بالمؤن. وأثار التمرد قلقاً حقيقياً إلا أن المتمردين توصلوا في 1741 إلى اتفاق مع الفرس وأوقفوا تمردهم. وقرر نادر بذل مزيدٍ من الجهد فيما يخص خططه بشأن الخليج. فصار من الضروري له الاستيلاء على مسقط ومضيق هرمز ما دام يعتزم التواصل مع أقاليمه في الهند عبر البحر كما أن ذلك سيمكنه من ابتزاز كافة قوافل التجارة الداخلة والخارجة من الخليج - بما في ذلك حركة التجارة بالموانئ التي يسيطر عليها العثمانيون. ولتحقيق هذه الغايات قرر نادر قبول عرض من شركة الهند الشرقية لبناء سفن له في «سورات» حيث تمتلك الشركة سفناً صنعتها في خليج «كامباي» على الساحل الغربي للهند.[45]

وصلت الدفعة الأولى من تلك السفن عام 1741 وكانت سفناً ممتازةً لكنها باهظة الثمن، لذا شرع نادر في إنشاء مرافئ لبناء السفن تكون ملكاً له في بوشهر. إلا أن نقص المهرة من صناع السفن كان أحد الصعوبات التي واجهت ذلك المشروع كما أن ساحل الخليج

(1) انظر الفصل السابع أعلاه

(2) كما وصف سابقاً في هذا الفصل

بأكمله كان خالياً من الأخشاب لذلك أمر نادر بجلب الأشجار من غابات مازاندران الكثيفة التي تبعد 600 ميلاً إلى الشمال. وبسبب سوء الطرق وعدم وجود طرق أصلاً في بعض المناطق لم يكن هناك حل سوى حمل الأخشاب على أكتاف الحمالين بطول الطريق تقريباً الأمر الذي أدى إلى وفاة عديد منهم بسبب الإجهاد الشديد.[46]

اندلع مزيد من الاشتباكات البحرية مع القراصنة والمتمردين في عام 1741، ولكن بحلول الشهور الأولى من 1742 صار الأسطول الفارسي يضم خمس عشر سفينة قوية معظمها بنيت في «سورات». وقد بني صالب سفينة كبيرة حوض سفن نادر في «بوشهر»، وفي الوقت نفسه اندلعت من جديدٍ اضطرابات في عمان الأمر ما استدعى تدخل القوات الفارسية. وحملت الراية الجديدة التي رفرفت على سفن القوات البحرية الفارسية الجديدة سيفاً أحمر اللون وخلفيةً بيضاء.[47]

وكانت الحرب القادمة في داغستان وانتقامه من قبائل لزجي التي قتلت أخاه إبراهيم[48] من بين المشروعات الأخرى التي تشغل بال نادر في مشهد أوائل 1741 فضلاً عن نيته استئناف الحرب ضد العثمانيين. وفي 14 مارس/آذار 1741 غادر نادر مشهد متوجهاً إلى داغستان ودفع رواتب الجيش لمدة سنة كاملة مقدماً. وأسند حكومة خراسان إلى نصر الله في حالة غيابه وأخذ معه رضا قولي و«إمام قُلي» واحتفلوا بعيد النوروز بالقرب من «خابوشان» وزحفوا صوب «أستار آباد». وطبقاً لإحدى الروايات، ارتدى نادر تاجاً جديداً رائعاً خلال احتفالات عيد النوروز وحل محل ريشة الملك الحزين التي كان من المعتاد وضعها دلالة على الملك. وفي التاج أربعة أشرطةٍ مرصعةٍ بالجواهر ولم تمثل هذه الأشرطة الأقاليم الفارسية والهندية والتركستانية التي احتلها فحسب وإنما تمثل أيضاً الإمبراطورية العثمانية التي اختارها لتكون وجهة غزوته القادمة (بعد سحق اللزجيين) إلا أن نادر بشخصيته وطبيعته التي تميل إلى عدم حب التاج دفعته إلى تركه فلم يضعه على رأسه إلا مرة واحدة.[49]

يقول المؤرخ الرسمي لنادر إن الفترة التي مكثها نادر في خراسان مرت وسط احتفالات[50] مستمرة، لكن الخصومة العمياء طفت على سطح حياة البلاط ولم تختف.

فيما تقول رواية أخرى إنه عندما كان رضا قولي في مشهد انتقد نادراً قائلاً:

«والدي يريد أن يغزو أطراف العالم ولهذا يضطهدنا ويقمع بلاد فارس بأكملها، ولا يكف عن القتال في حدب وصوب، وليس لدينا سبيل لأن نتحرر منه، نحن وبلاد فارس برمتها والدول والممالك المجاورة حتى يغلبه الموت».

وبطبيعة الحال نقل الوشاة كلمات الابن الساخط إلى والده.[51]

قبل وصول الجيش إلى «أستار أباد» مرت قواته بأوقاتٍ عصيبة في وادي جورجان جراء الأمطار الغزيرة. فقد اضطر الجند إلى عبور النهر أكثر من مرة فيما غرق بعض الرجال والحيوانات. وفي يوم من الأيام حينما كان الجيش معسكراً اجتاحت مياه الفيضانات المفاجئة المعسكر وقتلت آلاف الرجال والحيوانات. كما ضاعت خزينة نادر التي كانت تقدر بنحو 500 ألف تومان. وواصلت المياه الارتفاع حتى إن نادر نفسه الذي كان يخيم على تلة صغيرة رافضاً الانتقال إلى مناطق أعلى انعزل عن بقية الجيش وجلس على عرشه المحمول يرقب المياه وهي ترتفع. ارتفعت المياه أكثر وأكثر... ثم هبطت. فعبر نادر إلى بر الأمان على ظهر فيل وواصل التحرك، أما رجاله فراحوا يبحثون عن الأمتعة التي جرفتها مياه إلى أسفل الوادي. فنجحوا في استرداد بعضها وأتموا دفن موتاهم وبمرور يومين أو ثلاثة توجه الجيش إلى «أستار أباد».[52]

وبينما كان رجال نادر يرتاحون في «أستار أباد» اكتشف نادر أن قوة من العبدليين قد خرجت لملاقاة اللزجيين في داغستان وأنها حققت بعض الانتصارات وأجبرت العديد من قبائلهم على الاستسلام- على الرغم مما تكبده العبدليون من خسائر في الأرواح بسبب الثلوج في أثناء انسحابهم. فأرسل نادر إلى قادة العبدليين 200 ألف روبية ودروع شرفٍ مكافأة على ما حققوه من انتصارات.[53] وبالنظر إلى تجارب سابقة أدرك نادر أن الحملة التي تنتظره في داغستان ستكون صعبة لكن ذلك شجعه على المضي قدماً.

غادر الجيش «أستار أباد» زاحفاً صوب «ساري» عبر غابات مازاندران الكثيفة. وانتهى بهم الطريق إلى منطقة «سواد كوه» قبل أن يعبروا فوق جبال ألبرُز ويهبطوا إلى

طهران. وكالعادة شق نادر طريقه في عزلة نسبية وراء جيشه الرئيس، فعندما كان يسافر لم يكن يسير بصحبة أفراد الحاشية أو كبار ضباط الجيش، لكنه يفضل صحبة نسائه. ونظراً لأنه كان دائم الترحال والتنقل من مكان إلى آخر فإن ذلك يعني أنه كان يفضل صحبة النساء في أغلب ساعات يقظته وأيضاً خلال ساعات نومه وعلى ما يبدو فإن هذه النزعة باتت أكثر وضوحاً في الجزء الأخير من حياته.

وكان يتولى حراسته في سفره وتجواله مع حريمه مجموعة من الخصيان كحرس مراقبة (الكشكجي)، ويسيرون أمامه على بعد ميل أو أكثر لتنفيذ تقاليد القُرُق. وكانت النساء يمتطين الجياد البيض والمغنيات لا ينقطعن عن الغناء طوال الرحلة، وربما وصل عدد مرافقات نادر إلى 60 امرأة (ما بين زوجات وخليلات وخادمات ومغنيات وراقصات) فضلاً عن 60 من الخصيان.54 وعندما كان نادر ورفقته يتسلقون وادياً ضيقاً من الأشجار في 15 مايو/ أيار 1741، إذا بالركب يسمعون دوي طلق ناري أطلق من مدى قريبٍ وأصاب ذراع نادر فجرح إبهامه وهو ماسكٌ بلجام فرسه ثم اخترقت رصاصة رقبة الفرس بالقرب من عموده الفقري ليهوي الفرس بنادر إلى الأرض. فقد كان ثمة قاتل محترفٌ على بعد عشرين خطوة من الجيش يتخفى بين أشجار الغابة الكثيفة المتشابكة الأغصان كي لا يراه الحرس الذين راحوا يمشطون المنطقة بحثا عن القرق، الذي أطلق الرصاص نادر.

ووفقاً لإحدى الروايات، كان بوسع نادر أن يصف المعتدي ومن ثم فقد رآه قبيل أن يطلق عليه النار، فإما أن يكون القاتل قد تأخر في إصابة هدفه حينما وقعت عينا نادر عليه، وإما أن يكون نادر نفسه قد تقدم باتجاهه أو ربما كان نادر منطلقاً على ظهر جواده بسرعة كبيرة. نهض نادر وأقبل الحرس على صراخ النساء وهرب القاتل. وكان رضا قولي قريباً بدوره فجاء لتقديم المساعدة لكنه آخر من يتمنى نادر أن يراه وهو يكافح للنهوض - فصاح به كي لا يقترب ويغرب عن وجهه. ثم امتطى نادر جواداً آخر وانطلق إلى المكان الذي أطلق الرجل منه النار عليه لكنه لم يعثر له على أثر. وفتش رضا قولي المكان مع الحرس لكن بمرور الوقت بات تعقب القاتل الخفي وسط الأدغال المنيعة غير ذي جدوى.

بدت إصابات نادر طفيفةً فواصل سيره بعد تأخر وجيز قضاه في تضميد جرح إبهامه

متوجهاً إلى المكان الذي اختير لإقامة معسكر الجيش. لكنه في اليوم التالي أقام بعيداً عن صحبته ولم يأت إلى الديوان كالعادة. وبعد ثلاثة أيام أرسل في طلب القادة ووصف لهم الشخص الذي أطلق عليه النار- طويل القامة داكن البشرة ذو لحيةٍ خفيفةٍ. وسألهم عما إذا كان أي منهم قد رأى هذا الرجل بين صفوف الجيش فنفوا ذلك. وانتشر الجنود في القرى المجاورة بحثاً عن المشتبه فيهم وألقوا القبض على أشخاصٍ حاول بعضهم تقديم رشوة للجنود لكي لا يأخذونهم للمثول أمام نادر وأبلغ الجنود نادراً بأن في ذلك دلالة على كونهم مذنبين إلا أنه قال: «لا». وأمر بإطلاق سراحهم قائلاً إن الرجل الذي أقدم على مثل هذه الفعلة لابد أنه يتمتع بشجاعة متميزة تعادل شجاعته هو شخصياً.

استدعي الرسامون من أصفهان لرسم صورةٍ للرجل بحسب وصف الشاه وزّعت في عموم أرجاء الإمبراطورية. وأصدر نادر أوامر بأنه في حال العثور على ذلك الرجل فيجب إحضاره للمثول أمامه دون أن يمسه أحد بسوء، وأعلن أنه سيخلي سبيله لو كان أميناً معه وأخبره عن حقيقة مؤامرة اغتياله. فأتى أخوان، ابنا ديلاوار خان تيماني، وأبلغا نادراً بأنهما كان لديهما خادم تتطابق أوصافه مع وصف نادر للمعتدي، وقالا له: «إنه كان شجاعاً وقناصاً بارعاً بدرجة تتيح له أن يصيب عظمة عنق الحية في الظلام». وأخبراه بأنه اختفى منذ فترة فما كان من نادر إلا أن أمرهما بالعثور على ذلك القناص وإحضاره.55

عبر نادر مناطق تجمعات مياه الأمطار بين جبال ألبرُز وتوجه بجيشه نحو طهران وهناك سمح لرضا قولي بأن يبقى ومنحه الحرية والتمتع بعائدات الإقليم، لكنه عين حرساً لمراقبته. أصيب رضا قولي مرة أخرى بالخزي، إذ إن نادراً كان يشتبه بتواطئه في محاولة اغتياله.56 وفي طهران اجتمع نادر والمبعوث الروسي كالوشكين. وذكر الروس عن نادر أنه في مباحثاتهم معه كان مصمماً على الاحتفاظ بحرية التصرف فضلاً عن إمكانية إجباره على شيء مطلقاً قائلين: «إنه بدا متشدداً للغاية في حديثه بخلاف ما كان عليه في السابق، بل إنه لم يعد ودوداً على الإطلاق تجاه العثمانيين أكثر من أي وقت مضى، ولم يكن كالوشكين متأكداً من أن نادر سيحافظ على صداقته مع الروس أم لا.57 وغادر نادر طهران قاصداً قزوين التي وصلها مطلع يونيو/حزيران تقريباً.

وفي داغستان، فقد نادر شقيقه إبراهيم وخرج يطلب الانتقام. لكنه الآن راح يفقد كثيراً من أقاربه ورفاقه من حوله وفي بعض الأحيان تجبره ظروفه على الانفصال عنهم. وعلى ما يبدو فإنه فقد في تلك الفترة أيضاً أمه التي شاركته الفقر والإهانة في زمن شبابه والتي أحبها حبا شديداً إذ ماتت بدورها بينما كان في الهند. وجدير بالذكر أن والدة نادر– التي كانت مختفية بين أوساط الحريم– قلما ورد ذكرها في أي من الروايات المعاصرة التي تناولت حياة نادر، ولعل مما يدل على هذا الغموض هو عدم تسجيل تاريخ وفاتها. وربما يكون هذا الإغفال قد وقع من جانب مؤرخ نادر الرسمي نفسه. إلا أن ثمة رواية تشير إلى أن أخبار وفاة أمه قد تركت أثراً عميقاً في نفسية نادر نظراً لارتباطه الوثيق بها خلال فترة طفولته ولعلها هي من أورثته دماثته حيال النساء بشكل العام. ولعل نادراً أحد هؤلاء الذين قد يتبدى على سلوكهم الخارجي مظاهر الارتباك والشعور بالوحدة بعد وفاة أحد الوالدين، ولا شك أن لذلك دوراً في التغيرات التي وقعت في عالم نادر الداخلي في تلك الأثناء. وعلى ما يبدو فإن نادراً قد انفجر باكياً لدى سماعه خبر وفاتها «وكان يملؤه حزن حقيقي» وبعد عودته من الهند أقام مسجداً على قبر والدته.58

ومن بين رفاقه ومستشاريه في الماضي «طهماسب خان جالاير» الذي سانده ودعمه كثيراً خلال حملاته في داغستان 1734، وقد كان خلال تلك الفترة في كابل والسند يرعى الأقاليم الهندية التي تخضع لحكم نادر. كما كان لديه «نصر الله» الذي كان ذراعه الأيمن في معركة «كارنال» وانتقل بدوره إلى مشهد. فضلاً عن أن رضا قولي–الذي كان في فترة ما ابنه المفضل– صار الآن يحيا في خزيٍ تحت الحراسة في طهران. أما مهرجه المحبب تقي خان فكان في شيراز.

كما أن «علوي خان»، طبيبه الهندي الذي قدم الكثير لتخفيف آلام نادر وتهدئة روعه وثوراته منذ أن غادر الجيش دلهي، طلب من نادر في قزوين السماح له بالذهاب إلى مكة المكرمة لأداء فريضة الحج. وكان نادر قد وعده بالسماح له بالذهاب إلى الحج منذ كان في دلهي فأذن له على مضض بالذهاب. فقد بذل «علوي خان» قصارى جهده لتخفيف حدة طبع نادر فضلاً عن أعراض مرضه ويبدو أنه نجح في ذلك إلى حدٍّ ما إذ ظل نادر قرابة

أسبوعين دون أن يأمر بضرب أحد، ناهيك عن التشويه أو الإعدام. وبعد تلك الفترة حكم نادر دون دعم أو نصيحة أو ضبط لنفس، وعلم وهو في قزوين أنه رغم الانتصارات التي حققها العبدليون في مواجهة بعض قبائل اللزجيين، فإن بعض هذه القبائل قد اجتاح أجزاء من جورجيا. فأثارت تلك الأخبار حفيظته وتوعد بالانتقام من قبائل داغستان، وأعلن أنه سيجعل من جميع بنات زعمائهم عاهرات ثأراً لموت أخيه وأنه سيقطع رأس خمسة آلاف لزجي.59 وأرسل كتيبة أخرى من الأفغان لاستعادة النظام في جورجيا.

عندما وصل نادر إلى شيروان، أحدثت ذكرى حملته السابقة في المنطقة ووجوده على رأس جيش قوامه 150 ألف جندي[1]، خوفاً كبيراً لدى العديد من زعماء قبائل اللزجيين المتمردين. فنزل زعماء القبائل من الجبال مهرولين لتقبيل قائمة عرشه واعدين بتقديم فروض الطاعة له. وبحلول منتصف أغسطس/آب، كان نادر ورجاله في «قم» حيث أبدى عدد من اللزجيين ولاءهم له، ومن بينهم العنيد سورخاي الذي لم يستسلم قبل ذلك قط. واستقبل نادر زعماء القبائل بحفاوة ومنحهم الهدايا ومكث في «قم» شهراً كاملاً ظناً منه أن جميع اللزجيين سيأتوه مسالمين.

وبينما هو في «قم»، جاءه رسولٌ من مشهد يخبره بأن عصابةً من الأوزبك قد ثارت في خوارزم واستولت على «خيفا» وأن كافة التدابير التي اتخذها من أجل حكم ذلك الإقليم في نهاية العام الماضي قد راحت أدراج الرياح[2]. فأرسل أوامره إلى «نصر الله» ومستشاريه بالتحرك ضد المتمردين. وفي سبتمبر/أيلول تحرك مجدداً بين ممرات جبلية ضيقةٍ وفي ظروف صعبة لمعالجة آخر بؤر المقاومة اللزجية في جبال أفاريا حول قلعة «خُنزاخ» في أقصى بقاع داغستان. ولم تكن أرض هذه البقعة مستوية أبداً كما لم يكن ثمة ممرات تسمح لجنديين أن يسيرا فيها جنباً إلى جنب، كما كانت الثلوج تغطي الأرض في ذروة الصيف.60

---

(1) كانت غالبية الجيش من الأفغان والأوزبك والهنود (Bazin, p. 289).

(2) في الواقع انهارت الثورة في خيفا في غضون سنة وتم طرد المتمردين. والتقى ممثلو أهالي «خيفا» نصر الله في مرو صيف 1743 وأعلنوا طاعتهم (JN, vol. 2, p. 136)

بعد أن قدم جل اللزجيين فروض الطاعة والولاء، لاسيما بعد جهود العبدليين التي سبقت وصول نادر، تمكن نادر من إجبارهم على الخضوع دون مقاومة تذكر وصار على مقربة من النصر بمحافظته على سياسة الترغيب والترهيب. لكن نادراً تنازل عن مبادئه التي التزمها طويلاً. ومع تجدد تململه وتأمله بسبب المرض انتابته حالة من الرضا الذاتي بعد خنوع القبائل المتمردة، وربما كان انشغاله بشكوكه وارتيابه حيال ابنه سبباً في أنه لم يمض في حملته بنفس الإقبال والقوة التي كان عليها منذ خمس أو عشر سنوات. ثم جاء أهم أجزاء حملته وأكثرها حسما إذ كانت هذه المواجهة ضد آخر الحصون في منطقة وعرة أعلى التلال وهي المنطقة الأكثر عرضة لقسوة الشتاء القارص الذي لا يزال في بدايته. ويضاف إلى انخفاض همته أنه ربما يكون قد تأخر كثيراً. لذا لم يطق صبراً على ذلك الصراع الأخير وأراد أن ينحاز إلى مناطق أكثر راحة. وربما اعتقد أن هذه الحملة حتى ذلك الوقت سهلة وأن بإمكانه ترك هذا الحصن إلى أن يحين موسم الحملات المقبل. وبحلول نهاية سبتمبر/أيلول اضطرته الرياح القاسية والثلوج الكثيفة والأمطار الغزيرة إلى الانسحاب. فانسحب بجيشه شرقاً قاصداً دربند والأراضي المنبسطة قرب بحر قزوين.61

ومع انسحاب نادر هاجمت جماعة من اللزجيين القرقيتاق بعض المجندين في أثناء عبورهم الغابات الجبلية للانضمام إلى نادر في دربند وألحقوا بهم الهزيمة واستولوا على الخيول والحيوانات المحملة بالأمتعة فأثبتت هذه الجماعة أنها ليست لقمة سائغة لجند نادر. وكان هؤلاء المجندون ممن استسلموا من قبائل اللزجيين ومن غيرها من القبائل التي طردت من وديانها ليعاد توطينها في خراسان. فكان من جراء فعلة اللزجيين أن أحرق نادر العديد من القرى. ولعل هذه المعاملة (التي تشير إلى تحول نحو الأسوأ بعيداً عن سياسة العفو الناجحة التي حافظ عليها نادر سابقاً مع الشعوب المستسلمة) قد أصابت اللزجيين بالفزع والرهبة الأمر الذي دفعهم إلى الاعتقاد بأن نادراً لن يظهر أية رحمة تجاههم حتى لو استسلموا وأعلنوا دخولهم في طاعته ومن ثم لم يكن أمامهم أي خيار سوى مواصلة القتال. فقوّى ذلك من عزيمة القرقيتاق وغيرهم ممن ثابروا وظلوا صامدين أمام نادر وقواته.

وكانت هذه الجماعة من اللزجيين مزيجاً من القبائل التي نعمت بالهدوء وتلك التي عانت القسوة والوحشية وأعوزتها القوة الكافية لمواصلة المقاومة في «أفاريا»، لاسيما في ظل ذكرى الهزائم التي عانوا منها قبل ست سنواتٍ فضلاً عن الهيبة والمكانة المرعبة التي اكتسبها نادر من غزوه للهند ومن تهديداته الرهيبة للزجيين. وإزاء تراجع نادر وانسحابه أخذ الشك يدب في قلوبهم حول الهالة الأسطورية التي أحاطت بنادر فتحول كثيرٍ من اللزجيين إلى المقاومة، وأصبحوا أعداء أكثر خطورة بعدما خبروا تكتيكات نادر في حملته الأخيرة على القوقاز. وتجنّبوا مواجهته في معركة مفتوحة.

تذكر إحدى الروايات أن معسكر نادر تعرض للإغارة ليلاً فيما كان ينسحب صوب دربند حتى إن اللزجيين الوقحين اقتحموا مخدع الحريم واستولوا على بعض المقتنيات الثمينة فضلاً عن أنهم أسروا عدداً من الحريم. وكانت الإغارة وخطف النساء الرياضة المفضلة لشباب العديد من قبائل القوقاز. وقد أثارت هذه الأحداث حفيظة نادر فأمر بشنق عددٍ من ضباطه وحراسه لما رآه تقصيراً منهم، وأقسم على ألا يتراجع حتى يقمع جميع المتمردين. عسكر نادر في دربند في 16 أكتوبر/تشرين الأول لكنه غادرها مرة أخرى في 25 من الشهر نفسه. وأمر رجاله ببناء حصون تبعد بعضها عن بعض مسيرة ساعتين أو ثلاث ساعات في كل أنحاء البلاد ثم عاد إلى دربند يوم 19 نوفمبر/تشرين الثاني.62

ومنذ تلك اللحظة، بعد تلاشي فرصة شن حملة عقابية سريعة، زادت مشاكل نادر وإحباطاته في داغستان. ومن أهم هذه المشكلات أنه بعد تصاعد مقاومة القبائل صار إمداد نادر قواته بالمؤن أمراً صعباً، فداغستان بلد فقيرٌ وعرٌ وذو كثافة سكانية كبيرة ومن ثم فهي تعجز عن إمداد جيش نادر الضخم بما يحتاجه من مؤن حتى إذا كان سكانها ودودين. كما أن الجبال والوديان والغابات أرض مثاليةً لحرب العصابات ضد قوافل المؤن وكان من الجلي أن جلب المؤن إلى دربند عن طريق البحر هو الحل، بيد أن الفرس لم يكن لديهم في بحر قزوين سفن كبيرة بالقدر الكافي.

حاول نادر الحصول على سفن من الروس إلا أنهم رفضوا لعلمهم بأنهم لن يستردوها

ثانيةً. كما أنهم لم يعودوا مرتاحين لما يقوم به نادر قرب حدودهم فضلاً عن موقفه العدائي على نحو متزايد حيال مبعوثيهم. ونظراً لأن الروس لا يزالون حلفاء بالاسم، فقد سمحوا لتجارهم بجلب بعض المؤن للجيش الفارسي ولكن بكميات محدودة للغاية وبأسعار باهظة. واستولت الحكومة الروسية على تلك السفن التي تؤدي هذه التجارة للسيطرة عليها بشكل أكثر فعالية. وفي صيف 1742 تمكن نادر من إبرام اتفاق مع القبطان «جون إلتون»، وهو تاجرٌ إنجليزي على نقل الأرز من جيلان إلى دربند على متن سفينة الشركة الإنجليزية الروسية في «قازان»، إلا أن هذه الخطوة أثارت استياء الروس بشكل أكبر[1]. وبناء على توصيةٍ من كالوشكين أرسل الروس مزيداً من القوات لحراسة الحدود على نهر «تيريك» والقلعة في «كيزليار» ولتعزيز حاميتهم في أستراخان.63

وفي يناير/كانون الثاني 1742، وصل السفراء العثمانيون إلى معسكر نادر شمال دربند ومعهم رد على الرسائل التي سبق وأرسلها نادر إلى إسطنبول من «نادر أباد» في مايو/أيار 1738. وحتى تلك اللحظة لم يكن قد طرأ أي تغيرٍ في موقف العثمانيين فالسلطان العثماني لا يزال رافضاً الاعتراف بالمذهب الجعفري. ورد نادر برسالة أخرى ذات نبرة أكثر تهديداً وتوعداً. وذكرت الرسالة التي كتبت بلغةٍ دبلوماسية أن الإمبراطورية الفارسية كانت فيما مضى تضم عدداً من أقاليم الأناضول وتركستان والهند، لكنها ضاعت إبان حكم الصفويين، لذا فإن نادراً يخطط ويسعى لاسترداد كافة هذه الأقاليم وإعادتها إلى قبضة الفرس، باستثناء تلك الأقاليم التي يحكمها السلطان العثماني. وكان لدى نادر بقية من أمل في قبول السلطان عرض نادر الذي يقضي باعتراف السلطان بالمذهب الجعفري، حتى تتسنى استعادة علاقة الود والصداقة بين الإمبراطوريتين وإزالة أسباب الخلاف بينهما. أما إذا ما رفض السلطان عرضه فسيذهب نادر حاملاً روح الصداقة والود إلى تركيا على أمل أن يسهم مؤتمر مشترك بينهما في حل كافة القضايا الهامة وتسويتها من

(1)استمر «إلتون في خدمة نادر وبنا له أسطولاً صغيراً على بحر قزوين كان بحلول عام 1745 يضم فرقاطتين بهما نحو 18 مدفعاً وأربع سفن أصغر حجماً. لكن الروس الذين اتخذوا موقفا استحواذياً حيال أي شيء يتعلق ببحر قزوين استشاط غضبهم من أنشطة إلتون الذي قتل في جيلان عام 1751.

أجل الوصول إلى حل يرضي الطرفين. وكان نادر يفكّر في مؤتمر بينه وبين السلطان على غرار اللقاءات التي أجراها مع محمد شاه و«أبو الفيض».64

وسعياً منه إلى تعزيز موقفه في هذا الخلاف مع السلطان العثماني وإلى تأكيد الصبغة الدينية لدولته أعاد نادر استدعاء كبار رجال الدين في إمبراطوريته وأصدر مرسوماً من دربند يتناول الشعائر الدينية. فكان ذلك المرسوم ذا طابعٍ سنيٍّ أكثر من أي مرسوم سابق إذ أثنى فيه على الخلفاء الراشدين بمن فيهم الصحابة الثلاثةُ الذين يسبهم الشيعة وانتقد شاه إسماعيل أول شاه صفوي في فارس لإثارته النزاعات التي تساهم في تقسيم المسلمين وإضعافهم. فثمَّنَ كافة المجتمعين تصحيحه هذه النظرة إلى الخلفاء وأثنوا على ذلك داعين جميع رعاياه إلى التخلي عن أية عقائد خاطئة تخالف الحقيقة وإلى إظهار الاحترام والتوقير الواجب لكافة الخلفاء الراشدين في صلاتهم- «وإلا تعرّضوا لغضب الله واستياء العلماء الشديد».65

قبل أن يعود نادر إلى الدخول في عداوات مع العثمانيين، بات لزاماً عليه إنهاء الحرب مع اللزجيين. لكنه لم يظهر نشاطه وحيويته المعهودة في القيام بذلك ربما لكونه مهموماً بأوجاعه وأمراضه وعدم استقرار صحته لاسيما في ظل ارتفاع الرطوبة. وفي مايو/ أيار تحرك نادر لمواجهة المتمردين في «طبرسران» إلا أن تكتيكات الكر والفر التي اتبعها اللزجيون حالت دون حسم الأمر، مما ساهم في تفاقم شعوره بالإحباط أكثر وأكثر.

وفي يوليو/تموز أراد تأمين قاعدة تتصدى للغارات المتواصلة فأقام معسكراً محصناً على مقربة من الساحل شمال غربي دربند. وأسماه بمرارة شديدة «إيران خراب» (خراب فارس): الأمر الذي كان مثبطاً لهمم الجند. ولعل المفارقة في هذا الاسم المنعطف الرهيب الذي اتخذه مسار الإمبراطور وتبيّن أنه أكثر إنباء مما توقعه نادر نفسه.

أخذ جنود نادر يكسبون القتال ببطء في سفوح « طبرسران» فأحرقوا قرى المتمردين وواصلوا الزحف صوب «أفاريا» ثانيةً. إلا أن 6 آلاف جندي من طليعة جيشه تعرضوا لكمين وهزموا في وادٍ ضيقٍ في أغسطس/آب، فيما يعد تكراراً للهزيمة التي قتل فيها شقيقه. فأمر نادر وقد اعتراه الغضب بإعدام عددٍ من ضباطه الذين حملهم مسؤولية

الهزيمة. وفي سبتمبر/أيلول تحركت قوة أخرى قوامها 3 آلاف جندي تحت قيادته شخصياً ليشقوا طريقهم عبر الغابات حاملين معهم فؤوساً، إلا أنهم أجبروا على التراجع بدورهم. تواكب مع ذلك استيلاء قوة فارسية أخرى على حصن القرقيتاق في قوريش وإجبارها القبيلة على الخضوع في نهاية المطاف. بعد ذلك هُدم حصن قوريش عن بكرة أبيه. ورغم هذا الخبر السار، كانت «أفاريا» وحصن «خُنزاخ» لا يزالان صامدين. ولم يتقدّم نادر كثيراً عما كان عليه منذ عام مضى فانسحب إلى معسكر «إيران خراب» في شهر أكتوبر/ تشرين الأول وهو في قمة الغضب.66

وخلال الصيف أحضر رجال نادر شخصاً يُدعى «نك قادام» ألقوا عليه القبض قرب هرات واعترف بمحاولة اغتيال نادر في «سواد كوه». وهو نفس الشخص الذي ذكره ابنا «ديلاوار خان» طبقاً لوصف نادر.

وعد نادر «نك قادام» بأنه لن يقتله إذا ما أخبره بالحقيقة كاملةً أما لو حاول الكذب فسيقتله على الفور. فحكى الرجل قصته وذكر أنه كان صديقاً لبعض خدم رضا قولي. وفيما كان نادر على وشك العودة من الهند، أبلغ هؤلاء الأشخاص رضا قولي عن براعته في الرماية، وهو ما أثبته «نك قادام» بالفعل لرضا. فسأله رضا إذا كان بوسعه اغتيال شخصٍ ما لصالحه فرد عليه «نك» بالإيجاب حتى لو كلفه ذلك حياة أطفاله مقابل إنجاح المهمة. وطبقاً للرواية فقد سأل رضا الرجل: «هل تستطيع أن تقتل الشاه وهو راكب جواده؟». وقال الرجل لنادر إن عدداً من الرجال كانوا حاضرين عندما طلب منه رضا قولي ذلك، من بينهم محمد حسين خان قاجار.

طلب «نك قادام» ساعةً واحدةً للتفكير في الأمر ثم عاد وأقسم أن باستطاعته أن يتم المهمة وسيتمها. فحاول انتهاز فرصة لقتل نادر قبل أن تبدأ حملة تركستان لكنه لم ينجح. بعد ذلك مرض فترة من الوقت. إلى أن واتته الفرصة في أدغال «سواد كوه» وكاد أن ينجح لولا أن الله عز وجل لم يكن قد قدر نهاية نادر.67

أبلغ نادر «نك قادام» بأنه لن يقتله كما وعده إلا أن تصويبه كان دقيقاً جداً، لذا لابد أن تُقلع عيناه.68 ثم أرسل نادر إلى طهران لإحضاؤ ابنه إليه. ولتجنّب إثارة شكوك

رضا قولي، استدعى أيضاً «نصر الله» و«إمام قولي» و«شاهرخ» من مشهد في الوقت نفسه. فتلاقى الأمراء في طهران وسافروا معاً إلى داغستان. وبلغوا دربند في أكتوبر/ تشرين الأول 1742، وما إن اقتربوا من معسكر نادر حتى أتاهم أمر ببقاء رضا قولي في مكانه حتى الصباح على أن يواصل الأمراء الباقون سيرهم إلى هناك مباشرة. وأبدى نادر مظاهر الترحاب المعتادة بالأمراء الثلاثة بعكس استقباله الفاتر لرضا قولي لدى وصوله في اليوم التالي. وقبل أن يدخل خيمة والده ترك سيفه وقوسه وجعبة سهامه كالعادة لكنه عندما دخل لاحظ نادر أنه لا يزال يحتفظ بخنجره حول وسطه. فصاح نادر: «انزعوا عنه هذا السلاح».. فاستل رضا قولي الخنجر من غمده وهمّ بألقائه على الأرض غاضباً، فانتزعه أحد الضباط المرافقين له. وبكى نادر لأن ابنه فقد صوابه وأمر بأخذه بعيداً على أن يظل تحت الحراسة.69

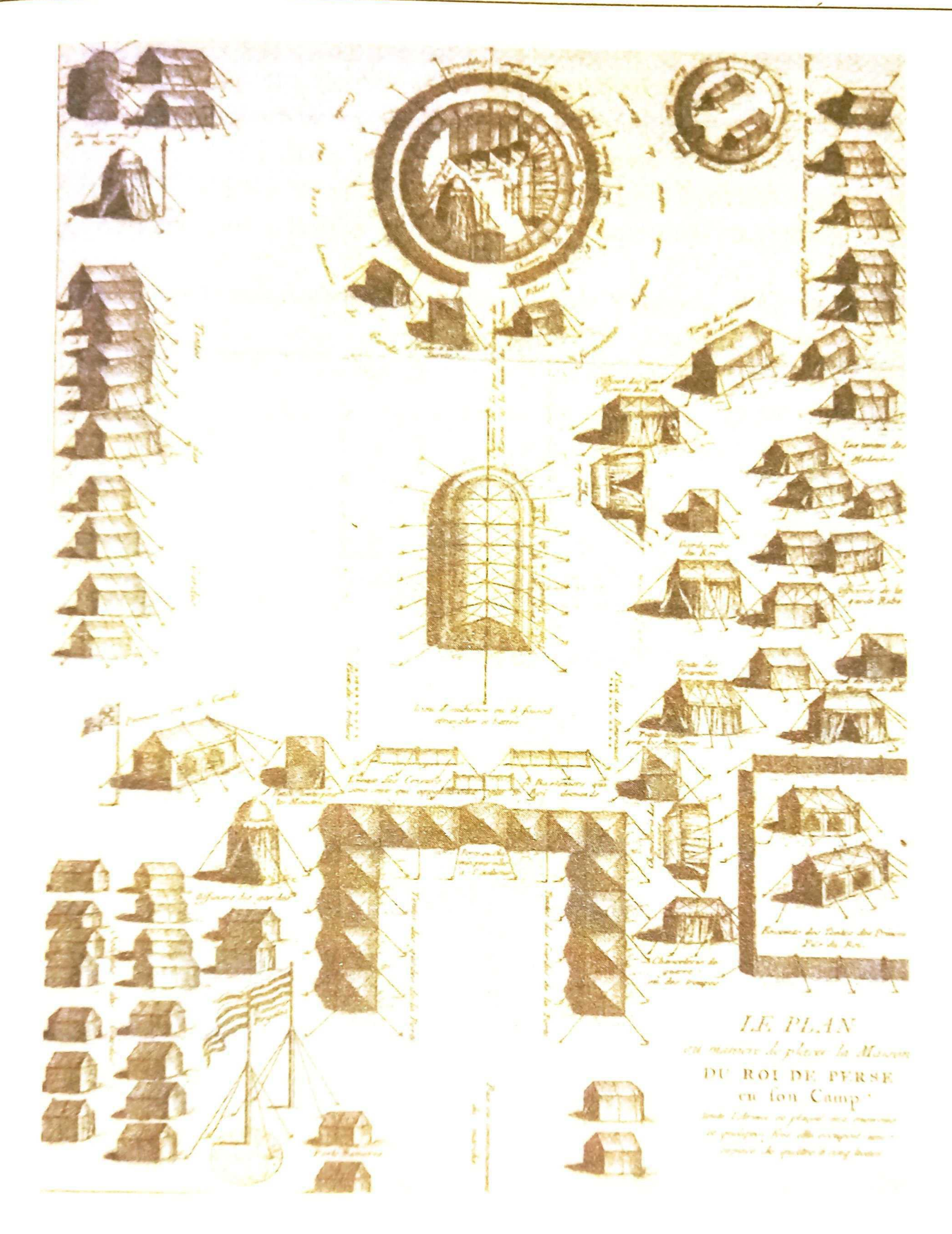
في الأيام القليلة التالية70، تحدث بعض مستشاري نادر المقربين ورفاقه، ومنهم «زكي ميرزا» و«حسن علي خان» والملا اباشي، مع رضا قولي في محاولة لحمله على الاعتذار وطلب العفو والغفران من والده. إلا أن رضا كان عنيداً مصمماً على إثمه، ونفى أن يكون قد ارتكب أي خطأ. كما نفى أن يكون قد سعى لقتل والده، مؤكداً أن والده هو من سعى لقتله. وتقول إحدى الروايات إنه انتقد أيضاً الحرب التي شنها والده في داغستان قائلاً إنها كانت ضرباً من العبث، وإن الجيش خارت قواه من الكر والفر ونقص المؤن والإمدادات، وأضاف أن شعب فارس راح ضحيةً للغرور الأجوف لدى أبيه. لكن نادراً صار مقتنعاً تماماً بأن ابنه مذنب، في ظل اعتراف «نك قادام» والأخبار التي نقلها له الجواسيس. لكنه لم يتخذ قراراً بشأن كيفية معاقبته– هل ينبغي أن يُقتل، أم تقتلع عيناه، أم يكتفي بنفيه أو سجنه، كما حدث مع طهماسب. حتى هذه اللحظة كان نادر على استعداد للعفو عن ابنه إلا أن غرور رضا قولي وغطرسته فاقت الحد فأبى أن يطلب العفو والغفران من أبيه.

حاول نادر التحدث مع ابنه حاثاً إياه على الاعتراف وطلب العفو، لكن أصر رضا قولي على إنكار ما نسب إليه من السعي لقتل والده والاستيلاء على العرش من بعده، قائلاً

إنه لو أراد ذلك لفعله لنصّب نفسه شاهاً عندما كان نادر بعيداً في الهند. فلماذا ينتظر عودة والده وإمساكه بزمام الأمور من جديد حتى يقتله؟ ووسط حالة من التضارب بين الغضب والحنان، حاول نادر إقناع ابنه بطلب العفو والغفران وأن يقسم على الطاعة، لكن محاولاته ذهبت أدراج الرياح. وكلما زادت قسوة نادر في استجواب ابنه أصر الأمير على براءته. فاستشاط الاثنان غضباً. وهدده نادر باقتلاع عينيه. وتذكر إحدى الراويات أن رضا قولي رد عليه صائحاً في وجهه: «اقتلعهما ولتضعهما في فرج زوجتك».71

واصل مستشارو نادر محاولاتهم لتخفيف حدة الخلاف بينهما، وقالوا إنه ربما يكون هناك قلة خبيثة نشرت أكاذيب حول ذلك لأنه في حال اقتلاع عيني رضا أو قتله فستكون الخسارة فادحة لأنه لن يكون بوسع نادر أن يجد وريثاً آخر بنفس قدراته. لكن بعضهم رأى احتراماً لغضب نادر أنه لو كان الأمير مذنباً فلابد من أن يعاقب. ولسوء الحظ لم يكن هناك أي شخص في البلاط يملك قوة شخصية «علوي خان» الذي كان بوسعه تهدئة روع الشاه وجنونه بحكمة بالغة. أخيراً، أمر نادر باقتلاع عيني ابنه وإحضارهما إليه، فلما أحضروهما إليه نظر إليهما وأخذ يبكي.

وكما فعل عندما وقع حادث إطلاق النار في «سواد كوه»، أوى نادر إلى حريمه ولم يخرج طيلة ثلاثة أيام وعندما عاود الظهور في الديوان خان، وبخ رجال الحاشية لعدم تدخلهم لإنقاذ الأمير قائلاً: «ليس هناك أي رحمة أو عدل بين الإيرانيين، وأخذ يبكي ويصيح حزيناً: «ما الأبوة؟ وما البنوة؟»».72



8- صورة معسكر نادر

رافق هذا المخطط النسخة المنشورة من رواية بازين التي تناولت السنوات الأخيرة من حياة نادر. في الوسط تقع خيمة الجمهور الكبيرة والديوان خانة.

أما في أعلى الصورة فيظهر مخدع الحريم وفي أسفل الصورة يقع السوق

(مكتبة جامعة كامبريدج)

الفصل التاسع

أبراج من الجماجم
... غير أني مقيد
على عجلة من نار.. تحرّق دموعي
مثل الرصاص المصهور

الملك لير

بعد ثلاثة أيام من أمر فقء عيني رضا قولي، ذهب نادر لزيارة ابنه فأسند رأس الأمير على صدره، وقبّله ثم انفجر في البكاء، فبكى معظم أفراد الحاشية الحاضرين هناك أيضاً. وفي البداية رفض رضا قولي أن يتكلم لكنه قال أخيراً: «يجب أن تعرف أنه باقتلاعك عيني أصبتَ نفسك بالعمى ودمرتَ حياتك».1

ويبدو أن رضا قولي لم يكن يشعر بالذنب لاعتزامه قتل والده[1]، ولعل الأمر الذي يصوره على أنه مذنب تأكيده أنه قد خطط لقتل والده حتى قبل عودة نادر من الهند وقبيل اجتماعهما قرب هرات في يونيو/حزيران 1740. فإذا كان رضا قولي قد خطط لقتل والده بالفعل ألم يكن حرياً به أن يتصرف بصورة أكثر حذراً في ذلك الاجتماع؟! إذ لم يكن من المعقول في تلك الظروف أن يقف أمام والده بهذه القوة ليثير سخطه. ويبدو أن الأمر المعقول هو أن رضا قولي قد بدأ يشعر بالمرارة الحقيقية تجاه والده آنذاك، مع إنهاء سلطته بوصفه نائبا للملك بصورة نهائية، وتسريح حرسه الشخصي.

والتفسير الأكثر رجاحة هو أن مجموعة من أفراد الحاشية التي تشكلت حول رضا قولي خلال تلك الفترة بوصفهم أوصياء على العرش قد قرروا عندما ثبت بطلان الشائعات بخصوص وفاة نادر في الهند، أنه من الأنسب أن يموت نادر، وأن يحل رضا قولي محله.

(1) كان هذا هو رأي عدد من المعاصرين، بمن فيهم الميرزا مهدي وبير بازين، ومن ثم السير جون مالكولم في وقت لاحق.

ولعل محمد حسين خان قاجار (قاتل طهماسب وعائلته) وبنا ديلاوار خان «تيماني»، كانوا من أهم أفراد هذه المجموعة. وعندما اختاروا «نك قادام» لهذه المهمة، ورسموا خطة له، كان في قبضتهم، لذا فإنه لو رفض لقتلوه، ومن ثم فإنه بعد فشله أحسوا بالذعر، ففر بعض أفراد قبيلة «تيماني» من جيش نادر إثر فشل محاولة الاغتيال، الأمر الذي أثار شكوك نادر، فرأى المتآمرون أن السبيل الوحيد أمامهم للإفلات من غضب نادر هو الإنحاء باللائمة على رضا قولي، وقد سهّل ذلك عليهم حالة الفتور الموجودة بين نادر وابنه، وهكذا سلّموا «نك قادام» إلى نادر بعد أن حبكوا له قصة من شأنها تجريم رضا قولي. واضطر «نك قادام» إلى مسايرتهم وإلا فإن من سيدفع الثمن هم رؤوس أولاده. وقد كان رجلا شجاعا نجح في إقناع نادر فجاءت الخطة بالنتيجة المرجوة ويسّر ذلك موقف رضا قولي العنيد والاستفزازي أمام والده.

لكن عندما أصيب الابن بالعمى، هدأ غضب نادر، وأدرك أنه إن لم يكن رضا قولي بريئاً فقد شجعه على ذلك الآخرون على الأقل وساعدوه. قُتل بعض المتآمرين بالفعل لاشتراكهم في قتل طهماسب وعائلته، وقتل نادر الباقين بمن في ذلك أبنا ديلاوار خان2، لكنه قرر الصفح عن محمد حسين خان قاجار، ربما لتجنب المتاعب مع القاجاريين في أستر أباد، لكن المرء قد يشك في أنه إذا انتابت نادر نوبة من الغضب، فإنه لن تردعه أية مخاوف من حدوث تمرد. لذا قد يكون السبب في بقاء محمد حسين خان على قيد الحياة أنه قد أبرم صفقة مع نادر بعد قتل طهماسب، وأنه قد تصرف بوصفه جاسوساً لنادر داخل دائرة رضا قولي بعد ذلك، إذ لابد أن يكون لديه جاسوس واحد من هذا القبيل على الأقل. فقد قال أحد شهود العيان الذي التقوا بمحمد حسين خان في مايو/أيار 1744: «لقد شعرتُ بثقة عظيمة مع الملك وتشرفتُ باللقب البهي (وزير الوزراء العالي الجبار وشريك المملكة والأقرب إلى العرش)»[1].3

لذلك إن لم يكن رضا قولي مذنباً تماماً، ربما لا يكون بريئاً تماماً. ففي ثورة غضبه وذله إبان عودة والده من الهند ازداد تفكيره بتدبير قتل والده، لذا لابد أن تكون لديه فكرة ما

(1) كان محمد حسين خان أيضاً والد تشوكي، إحدى المفضلات لدى نادر في الحريم، وربما تزوّجها.

عما كان يدور في مخيلة أتباعه، كما أنه بالتأكيد لم يحاول أن يذهب إلى والده ليشجب ما حاولوا القيام به، بالرغم من أنه كان بوسعه القيام بذلك. لم يكن رضا قولي غبياً ولم يكن الأمير الأول الذي يسمح لأتباعه بالقيام بمثل هذه المخططات المشبوهة التي ربما تظاهر بأنه ليس لديه أي علم بها.

بعد بضع سنوات وعقب وفاة نادر أصبح مؤرخ بلاطه ميرزا حراً في تدوين الآراء الحقيقية لسيده السابق التي لم يستطع أن يدونها من قبل فكتب:

> منذ بداية عهد نادر شاه، وحتى عودته من خوارزم، وزحفه باتجاه داغستان كان مشغولا تماماً بالعناية بإمبراطوريته، وإحقاق العدل بصورة كان الإيرانيون على أتم استعداد للتضحية بأرواحهم للإبقاء عليه[1] لكن بعد ذلك تغير سلوكه كلياً، فقد أصغى هذا الملك إلى الجواسيس من أصحاب النية السيئة مدفوعا بالروح العدائية لابنه، ففقأ عيني أفضل وأعز أبنائه رضا قولي. وسرعان ما ندم نادر شاه ندماً شديداً بعد تصرفه هذا وأصبح كالمجنون، وقد زاد من حدة غضبه الأخبار السيئة المتعاقبة التي تلقاها بعد ذلك بشأن المشاكل التي تحدث في أجزاء مختلفة من الأقاليم التي يحكمها4.

وقد يقول قائل بأن فشل نادر في حكمه في نهاية المطاف كان أمراً حتمياً بسبب نهمه الشديد للغزو، وعدم كفاية بلاد فارس اقتصادياً لدعم خططه الكبيرة، وإخفاقه في إضفاء صفة رجل الدولة ووالد البلاد إلى مواهبه العسكرية الفذة. لكن الناس يتغيرون، والأشخاص الأذكياء مثل نادر يتكيفون مع الظروف. فرغم أن نادراً كان رجعياً في بعض النواحي إلا أنه في الحرب تخلى عن الأساليب القديمة وتبنى طرقاً جديدة بطريقة مبدعة لافتة. وقد كان من الممكن له أن يتكيف وأن يغيّر من أساليبه، وأن يكون حكمه مزدهراً وطويلاً، وأن يورث الإمبراطورية لأحد أبنائه أو أحفاده. ويظهر تخفيفه الضرائب في أثناء وجوده في الهند أنه كان على الأقل مدركاً للتوتّر بين أساليبه وأهدافه.

وخلال السعي لمعرفة الأسباب المنطقية للأحداث التاريخية، يمكن للمرء بسهولة أن

(1) ربما ما كان مواطنو أصفهان يوافقون على ذلك، لكن كثيراً غيرهم يوافقون، بمن فيهم أبناء العديد من مجموعات الأقلية.

يدرك الأحداث غير المتوقعة والمصادفات التي تميز الوجود البشري، والطبيعة الفوضوية للمسبِّب، والنتيجة التي يمكن أن تؤدي إلى تغيير مجرى أحداث القضايا الكبيرة لأبسط الأسباب. فنحن في بعض الأحيان قد نرفع من قيمة هذه القضايا بصورة كبيرة، ونصور نوعاً من الإرادة الجديدة في كتب التاريخ التي تعتمد على طريقة تفكير المؤرخ، وليس على طريقة تطور الأحداث في الواقع. فالإفراط في تصوير الإرادة والتصميم في التاريخ يؤديان إلى الإخفاق في تصوير الطابع الحقيقي للتجربة الإنسانية التي يلعب فيها الاختيار والمصادفة والنزوة دوراً مهماً، إن لم يكن دوراً مهيمناً. كما أنه يمكن دائماً أن توجد مسارات بديلة للأحداث. فقد كان بوسع نادر أن يسعى إلى تحديث بلاد فارس وتحسينها إدارياً واقتصادياً مدفوعا بالحاجة الملحة لآلته العسكرية إلى المال والعتاد في أعقاب ما سمي بالثورة العسكرية في أوروبا. وقد كان هذا الخيار متاحاً أمامه، أو بعبارة أكثر دقة كانت كل الخيارات التي من الممكن أن تساعده على إنجاح هذه المساعي متاحة أمامه.

ورغم أنه قد بدأ، كما رأينا بالفعل، التقدم في هذا الاتجاه، فإنه لم يأخذ بهذه الخيارات، ولعل مرضه من أسباب ذلك. لكن «علوي خان» تمكن من علاج مرضه وخفف من آثاره عليه وعلى سلوكه في الحكم، ولو تمكن نادر من إيجاد «علوي خان» آخر لعلاجه لكان قد تجاوز الأزمة التي حدثت له في بداية العقد 1740. لكن لم يحدث ذلك لأنه كانت هناك مشكلة أكثر عمقا وهي آلامه النفسية بسبب ابنه رضا قولي. فقد أدى تسببه بعمى ابنه بزعزعة مشاعر اليقين التي كان يتمتع بها نادر، والتي كانت تدعم ثقته بنفسه ونجاحاته السابقة. وكان ذلك الأمر مؤثراً في العمق، ولم يعد كما كان سابقاً[1]، فبدأ يسير في مسار تعذيب الذات والمرارة والغضب، فأضحى قاب قوسين أو أدنى من الجنون.

لكن لماذا تأثر إلى هذا الحد بفقء عيني رضا قولي؟ يمكن للمرء أن يعلل ذلك ببساطة بأنه كان يحب ابنه، أو أن هدفه من البداية كان إعلاء شأن عائلته وتأسيس سلالة له، وأنه

(1) كتب عبد الكريم الكشميري أن نادرا الذي كان يصلي بورع وإيمان في العلن في الحملات السابقة لم يعد يقوم بذلك في داغستان، ما يوحي بأنه إن لم يفقد إيمانه فإنه على الأقل صار يشعر ببغض تجاه البشر عن طريق مثل هذه الإشارات الدينية (ص 164).

بفعلته هذه قد منع نفسه بنفسه من تحقيق هذا الغرض، أو أنه قد حدد مشروع حكمه لإمبراطوريته صراحة بناء على النموذج الصفوي القديم. وكان يعتزم تكرار إحدى أفظع مظاهر القسوة للملوك الصفوية المتمثلة بتسبب الشاه عباس بعمى أبنائه×. ويمكن للمرء أن يربط بين تسببه بعمى ابنه ووفاة والده، مما يشير إلى أن الضربة كانت من القوة بمكان بحيث إنها دمرت رغبته في منح أبنائه الحب الأبوي الذي حرمه منه القدر عندما كان طفلا. فقد قوّى من تعلق نادر بعائلته شعوره بالغربة التي شكّلت الحصن الحصين له ضد العالم المعادي له، لكنه حطم الآن ذلك الحصن من خلال أفعاله.

قد يكون في هذه النظريات بعض الحقيقة. لكن كل ما يستطيع المرء قوله على وجه اليقين هو أن تسببه بالعمى قد جاء في وقت يشعر فيه بالإحباط والمرض، الأمر الذي تسبب في تدمير شيء في أعماق نفسه على نحو لم يعد يستطيع أبداً أن يعود كما كان سابقاً. وطالما استشهد الطبيب النفسي والوجودي فيكتور فرانكل بصفته أحد الناجين من أوشفيتز بقول نيتشه بأن من لديه سبباً للعيش يستطيع أن يتحمل جميع المشاكل تقريباً، لكن أولئك الذين فقدوا هذا الشعور المركزي بالهدف لن يتمكنوا من البقاء على قيد الحياة5. ومن هذا المنطلق فقد نادر كل أسباب البقاء وديناميكية الحياة الخاصة به بتسببه بعمى رضا قولي ميرزا في إيران خراب.

وبعد إصابة رضا قُلي بالعمى ضُمّدت جروحه كي تلتئم بشكل صحيح، وأرسله نادر ليعيش في قلعة في كالات، ومع اقتراب شتاء 1742/1743، أدى شعور نادر بالكرب والضغينة إلى إلقاء اللوم على الروس لمشاكله في داغستان، ومن المرجح أن الروس قد قاموا بما هو أكثر من مجرد الحد من تدفق الإمدادات إلى قوات نادر لإعاقة حملاته ضد اللزجيين. وقد كان هناك تقليد في القوقاز أن تزود روسيا اللزجيين بالأسلحة والذخائر للتصدي لنادر6. ففي مرحلة سابقة، كان الروس قلقين من أن يتقدم نادر إلى المنطقة الواقعة إلى جنوب الحدود على نهر تيريك. وبسبب شعور نادر بالمرارة بدأ يتحدث عن كيزليار نفسها، وهي حصن الحدود الروسية، مدعياً أنها كانت في الماضي من بلاد فارس، وكانت هناك تكهنات بأنه قد يزحف من هناك ربما بمساعدة

من الشيشان نحو شبه جزيرة القرم.

في نوفمبر/تشرين الثاني 1742، انطلق نادر بجيشه في اتجاه الشمال من إيران خراب نحو الحدود مع روسيا. ومن المثير للاهتمام التكهن بما يمكن أن يحدث عندما يواجه الجيش الروس إذ لم يسبق لنادر أبداً أن خاض معركة مع أي عدو مدرب ومجهز وفقاً للنظم العسكرية الأوروبية. وقد يفترض البعض أن من المنطقي أن يتغلّب النظام التكتيكي الغربي على قواته: وهو نظام منتصف القرن الثامن عشر القائم على التدريب والزي الرسمي للجنود والتكتيكات الخططية والمناورات المنظمة. لكن لننظر في معركة جينا في عام 1806 التي انهزم فيها الجيش البروسي الذي يستخدم نظام القرن الثامن عشر أمام النظام الفرنسي المحدث الذي يركّز على تدريبات المشاة، والزي الرسمي، والسرعة في المناورة، والأعداد الكبيرة للجنود، والتسلسل القيادي الشديد التكامل، مع الاهتمام بالقوات والمناوشين الذين يتميزون بالخفة (سواء أكانوا مشاة أم فرسان)، وفيلق مدفعية قوي لإنهاك العدو قبل اللحظة التكتيكية الحاسمة، واحتياطي قوي من الفرسان أصحاب المهارات العالية للقيام بالهجوم المفاجئ في تلك اللحظة. وهذا الوصف الأخير ينطبق كثيراً أيضاً على النظام العسكري لنادر شاه. وقد أدت الإصلاحات في مجال الممارسات الحربية في أوروبا في نهاية القرن الثامن عشر إلى جعل الجيوش الغربية قريبة من النموذج الشرقي في نواح عديدة (وإن كان ذلك نتيجة لأسباب مستقلة لا علاقة لها بالتقليد الواعي). وبعد تجربة قوات نادر في داغستان لم تعد هذه القوات في أفضل أحوالها في نوفمبر/تشرين الثاني 1742، لكن لا أحد يعرف ما الذي سيحدث في حال حدوث مواجهة بين جيوش نادر والروس!

بعد أن تحرك نادر شمالا أدرك أن العثمانيين كانوا ينقلون الجنود إلى منطقة القوقاز، وجاء مبعوثان عثمانيان إلى معسكره يحملان رسالة أخرى من السلطان مضمونها الرفض مرة أخرى لمقترحات نادر الدينية. فأرسل نادر رداً يكرر فيه تهديده بالتوجه إلى السلطان لحل هذه المسألة شخصيا، وأرسل أيضاً رسالة أخرى إلى أحمد باشا في بغداد يأمره بتسليم هذه المدينة المتنازع عليها، فرد عليه أحمد باشا بإرسال بعض الخيول العربية الأصيلة كهدية مع رسالة تتسم بالمراوغة ولا تتضمن أي رفض لطلب نادر.

في 10 فبراير/شباط 1743، أدرك نادر عدم جدوى مهاجمة الروس مع وجود العدو العثماني القديم المسلح في عمقه، فانتقل إلى الجنوب مرة أخرى متجها إلى سهل مُغان، وترك حامية كبيرة من الأفغان خلفه في دربند، وساء الطقس مع تساقط الثلوج والأمطار الغزيرة، فانهمرت السيول الغزيرة من أعلى الجبال عبر طريق الجيش ومات الكثير من الدواب من البرد والتعب، وشحّت المؤن وضاع بعضها في الوحل والفيضانات. كما مات الكثير من الرجال أيضا، واحتاج ما تبقى من الجيش إلى أربعين يوما شديدة الصعوبة للوصول إلى نهر كورا في سهل مُغان. وأصبح الحرير الهندي الذي يرتديه بعض الجنود في حالة يرثى لها7.

كان الاحتفال بعيد النوروز في معسكر نادر بسيطاً في تلك السنة، لكن أفراد الجيش شعروا بالارتياح لانتهاء حملة داغستان. ورغم أن اللزجيين لم يهزموا الجيش الفارسي في المعركة، فإن الفرس هُزموا ولم يتمكنوا حتى ذلك الوقت من التغلب على مراكز مقاومة اللزجيين. فمن بين جميع القبائل والشعوب التي تقاتل معها نادر في حياته كان اللزجيون فقط الذين أجبروه على التراجع وبقوا يتحدونه، وقد كان ذلك درساً في حرب العصابات نسيه مثل غيره من القادة على مر العصور ابتداء من نابليون في إسبانيا وانتهاء بالولايات المتحدة في فيتنام، واضطروا إلى تعلّمه مراراً وتكراراً.

تقدم نادر مرة أخرى مع جيشه في أبريل/نيسان في اتجاه الجنوب، فتجاوز تبريز وأقام معسكره في مريفان في 18 مايو/أيار حيث اجتمع نصر الله وإمام قولي وشاهرخ الذين انتقلوا مرة أخرى من مشهد للقائه، ووصل معهم مبعوث من دلهي جلب معه باباً كبيراً من خشب الصندل مزينا بصورة معقدة وغيره من الهدايا، فسافروا جميعا إلى سنندج. وفي إطار تحضير نادر للهجوم على بغداد، أرسل مدفعيته القوية التي يستخدمها في الحصار مع مئات التجهيزات الجديدة عبر مدينة همدان الإيرانية إلى كرمانشاه8. وكان نادر ينوي أن تكون حملته هذه حاسمة ونهائية ضد العثمانيين، وأن تتوج مساعيه بأن يصبح خليفة العالم الإسلامي، فقام بالاستعداد على نطاق هائل.

وقد أورد أحد كتبة نادر في سجلاته عدد جنود الجيش الذين كانوا تحت قيادة نادر في

بداية حملة 1743 بحسب تقسيم المناطق التي ينتمي إليها هؤلاء الجنود. ويوفر هذا التقييم مع وصف هانواي للجيش الذي أعطاه بعد ذلك بعام صورة لجيش نادر وهو في أوج قوته. فقد بلغ العدد الكلي لعناصر الجيش رقما مذهلا هو 375 ألفا من الرجال لا يشكل الشيعة الفرس إلا أقلية فيهم كما كان سابقاً، ويشمل هذا العدد 60 ألفا من التركمان والأوزبك، و70 ألفا من الأفغان والهنود، و65 ألفا من خراسان، و120 ألفا من بلاد فارس الغربية (كردستان، وهمدان، ولورستان، وفارس، وخوزستان)، و60 ألفا من أذربيجان والقوقاز. ومن الممكن أن يشمل هذا العدد الإجمالي عددا من الخدم أو التابعين الذين يلحقون بالعسكر ليتكسبوا منهم. وقد جاء في السجلات أن الجنود هم من يدفعون أجور خدمهم على نفقتهم الخاصة، ما يشير إلى أن معظم هذا العدد الضخم للجنود الذين سُجّلوا في السجلات لمتابعة دفعاتهم، إن لم يكن كلهم، هم من القوات المقاتلة9. ولا يشمل هذا المجموع الكلي الأعداد الكبيرة للجنود المتواجدين في ثكنات المقاطعات مثل الأفغان الذين تركهم نادر وراءه في دربند على سبيل المثال وجنود مدفعية الحصار الجديدة الموجودة في كرمانشاه والذين يجب أن يتم إحصاؤهم بشكل منفصل. وقد كان نادر على دارية بأن أية مواجهة جدية مع العثمانيين تتطلب أعدادا كبيرة من رماة البنادق من المشاة المدربين، إضافة إلى الفرسان الذين يتميزون بخفة الحركة الذين يتقدمون للسيطرة على القرى والمدن الصغيرة في العراق العثماني، ومدافع للحصار باهظة التكاليف من أجل المدن الكبيرة. ونشط نادر في الأشهر السابقة لجعل حكام المقاطعات يرسلون المجندين إلى المقاطعات الغربية ليحلوا محل أولئك الذين فُقدوا في داغستان للتحضير للحملة الجديدة. وقد بذل نادر جهداً كبيراً في تكوين جيش بهذا الحجم إذ كان أكبر من جيشي بروسيا والنمسا مجتمعين، وهما اللاعبان الرئيسيان في حرب السنوات السبع التي بدأت في أوروبا في العقد الذي تلا ذلك10. لكن تكلفة ذلك كانت مرتفعة.

وهناك دلائل تشير إلى أن مرسوم نادر بتخفيف الضرائب، الذي صدر عندما كان في دلهي بفضل الثروات التي نهبها هناك، إضافة إلى عدم وجود جيش من بلاد فارس ابتداء من عام 1736 وما تلاه، أدى إلى تمتع البلاد بفترة وجيزة من الانتعاش الاقتصادي، بل حتى

رخاء متواضع في بعض مناطق البلاد على الأقل11. لكن على الرغم من أن نادر قد دفع بعض أو كامل نفقات حملة تركستان من الثروات التي نهبها من الهند فإنه أثقل كاهل الشعب بتسديد ضرائب ضخمة مرة أخرى من أجل تمويل تكاليف حملة داغستان، ولا ريب أنه يعلم ماذا سيكون أثر ذلك لكنه لم يعد يهتم لأنه ربما يريد معاقبة البلاد ككل بطريقة ملتوية وغير سوية على ما فعله هو بابنه.

وقد أدت الاستعدادات للحملة ضد بغداد إلى المزيد من المعاناة التي تفاقمت بمرور الوقت مع إجبار محصّلي الضرائب الناس على بيع بيوتهم وبضائعهم مقابل جزء ضئيل من قيمتها في كثير من الأحيان وتركهم في فقر مدقع. فمر الاقتصاد بفترة ركود بسبب زيادة الطلب على النقود، وأفلس الكثير، وفرّ البعض إلى المناطق الصحراوية والجبلية النائية على أمل ألا يجدهم محصلو الضرائب هناك. كما هاجرت أعداد كبيرة من الناس غربا إلى بغداد والبصرة، وشرقا إلى الهند. وقد قُدِّر أن إجمالي حجم التبادل التجاري انخفض إلى خمس مستواه السابق في أربعينيات القرن الثامن عشر من خلال المقارنة مع الفترة التي سبقت العام 1722،12 كما أن إجمالي حجم السكان قد انخفض بنسبة الثلث أو أكثر. وقد كانت فارس تعيش بسلام داخلي نسبي منذ مغادرة نادر إلى قندهار في 1736، لكن سرعان ما أدى فرض الضرائب الجائرة والسخط واليأس إلى اندلاع ثورات جديدة كتلك التي حدثت في ثلاثينيات القرن الثامن عشر.

ويبدو أن نادراً كان يبرر أفعاله لنفسه على أساس تصرفات جنكيز خان13 وتيمورلنك اللذين دمرا بلاد فارس في القرنين الثالث عشر والرابع عشر. وتقول إحدى الروايات بأنه قد تم إطلاق سهم في إحدى المرات على خيمته كان يحمل رسالة تتهمه بالطغيان والزندقة وتتساءل هل هو شيطان أم إله أم طاغية أم ملك أم نبي. فأجاب نادر: «لست بإله ولا شيطان، ولا نبي ولا طاغية، لكنني شخص أرسله الله لمعاقبة الجيل الظالم من البشر»، وأمر بأن تُكتب كلماته وأن تُعرض في المعسكر مع الرسالة الأصلية14.

ومن الأدلة الأخرى في هذا السياق أن نادراً اختار اللون الأحمر لملابسه، وهو اللون التقليدي للعقوبات الملكية الذي يرتديه الشاهات الصفويون عندما يصدرون حكما

بالإعدام على المذنبين. لذا قد يكون اختياره اللون الأحمر لخيمته وللزي العسكري لجنوده امتدادا لهذه الفكرة بهدف غرس الرعب والخوف والطاعة15.

بدأ نادر حملته الجديدة على العراق العثماني بإرسال مفارز لاحتلال بعض الأماكن حول بغداد والبصرة مثل سامراء والنجف وكربلاء، وشط العرب، وأصدر تعليمات لحكام وقوات المقاطعات الجنوبية الغربية بمحاصرة البصرة. فزحف نصر الله نحو همدان مع الأمراء الآخرين وأرسل نادر للجيش الكثير من الأمتعة والذخيرة في 1 يوليو/تموز كما وضع الترتيبات لإرسال كميات كبيرة من الحبوب. فهرب بعض المسؤولين العثمانيين لكن بعضهم الآخر استسلموا للفرس مع العديد من الزعماء الأكراد. وكان أحمد باشا يعرف أنه من الأفضل له ألا يواجه نادر في ميدان مفتوح فحافظ على موقعه الدفاعي. وصل نادر في 5 أغسطس/آب إلى كركوك التي تخلت حاميتها عنها وتراجعت إلى القلعة، ووصلت إلى جيش نادر مدفعية الحصار الجديدة ومدافع الهاون بعد ذلك بأيام قليلة فنشرها ودك بها القلعة من جوانبها الأربعة من الفجر حتى الغروب فاستسلم العثمانيون، وعاملهم نادر برأفة. بعد ذلك بوقت قصير أيضاً استولت مفرزة فارسية على إربيل على مقربة إلى الشمال وسيطرت على الطريق المؤدية إلى مدينة الموصل16.

وعندما كان نادر في كركوك تلقى رسالة تحد من السلطان العثماني أعلن فيها فتوى دينية تسمح لرعاياه المسلمين بقتل الفرس واتخاذهم عبيدا وأكد أن شيعة فارس بعيدين عن الإيمان الصحيح. وكان نادر يأمل أن يؤدي اتصاله مع أحمد باشا، إلى جانب احتلال معظم العراق العثماني إلى استسلامه. ولكن بدلاً من ذلك ازداد العثمانيون تحدياً، وقد كان ذلك تصرفا شجاعا منهم لأنهم كانوا يخشون من حدوث اضطرابات وتمرد مرة أخرى في إسطنبول بعد سقوط مدينة كركوك، وفي 23 سبتمبر/أيلول استُبدل الصدر الأعظم المسن. وتوجّه نادر بجيشه إلى الموصل التي وصل إليها في 14 سبتمبر/أيلول فحاصرها وأقام معسكره إلى الجنوب الشرقي منها على الضفة الشرقية لنهر دجلة.17

عندما وصل الفرس، خاضوا معركة شرسة مع قوة أرسلت من الحامية العثمانية في الموصل فهزموها وقطعوا عليها طريق الانسحاب والعودة عبر الطريق التي تمر قرب نهر

دجلة، فبُنيت جسور فوق وتحت المدينة، وأمر نادر بإقامة 14 بطارية مدفعية محمية مقابل أبراج وأسوار المدينة حيث كان لديه 390 مدفعاً بما في ذلك المدافع الخفيفة، و230 مدفع هاون. لذا لم يكن ثمة نقص في مدفعية الحصار، وحالما اتخذت المدفعية الفارسية مواقعها بدأت بقصف الموصل لمدة ثمانية أيام وتسببت مدافع الهاون بإضرام الحرائق وإلحاق ضرر هائل في المناطق الداخلية من المدينة. وكان العديد من المدافعين من المسيحيين من أهل المدينة واللاجئين من القرى المجاورة التي نهبها نادر وأحرقها، كما كان هناك لاجئون مسلمون ويزيديون انضموا بحماس إلى قوة الدفاع عن المدينة. وكما كانت الحال في داغستان أدت معاملة نادر القاسية لعامة الناس إلى تكثيف المقاومة ضده. وبعد القصف العام ركز نادر مدفعيته مقابل القطاع الشمالي الغربي من أسوار المدينة فنجحت نيرانها في النهاية في تدمير البرج وخرق السور، لكن المدافعين عملوا بوحي من قائدهم بصورة محمومة على إصلاح الأضرار ونجحوا في ذلك باستخدام طوب جديد.

قام الفرس تحت غطاء من قصف مدفعيتهم بحفر حفر تحت أسوار مدينة الموصل وضعوا فيها شحنات ناسفة، وعندما انفجرت هذه الألغام ألحقت أضرارا فادحة بالجدار، لكن لم يتم زرع الشحنات المتفجرة على نحو سليم في أحد القطاعات الحاسمة ، ما أدى إلى ارتداد جزء من قوة الانفجار إلى الخلف عبر النفق إلى الخندق الذي تحتمي به القوات الفارسية استعدادا للهجوم، فقُتل وجُرح الكثير من الفرس، وحتى في الأماكن التي كانت فيها عمليات التفجير أكثر نجاحاً قام الدافعون بسرعة بابتكار طرق دفاعية مرتجلة وجديدة لملء الأجزاء التي انهارت من الجدار، فشعر نادر بالإحباط وأمر بالقيام بسلسلة أخرى من المذابح والحرائق في القرى المحيطة بالموصل وترَكَ المدينة وشأنها لبضعة أيام. بعد ذلك أمر بشن هجوم كبير آخر من قبل آلاف الجنود الذين استخدموا 1700 سلما من الحبال للخروج من الخندق ثم تسلق الجدران، لكن عندما اقتربوا من القمة قطع المدافعون الحبال فأُحبِط الهجوم وفقد نادر أكثر من 5 آلاف رجل.

حاول نادر في هذه المرحلة التفاوض، لكن القائد العثماني تحداه وبذل المدافعون قصارى جهدهم لجعل المناطق الداخلية من المدينة تبدو عادية قدر الإمكان أمام رسل نادر

بحيث أنه عندما يسألهم عن انطباعاتهم عن حالة المدينة وإرادة سكانها في المقاومة تكون أجوبتهم مخيبة للآمال. وبعد المزيد من المفاوضات أذهل نادر الجانب العثماني عندما طلب منه تقديم مقترحات للسلام حيث أجرى هذه المفاوضات الملا باشي الفارسي الذي ألمح إلى أن الأمور قد تسير على ما يرام إذا قرر القائد العثماني تقديم بعض الخيول لنادر من إسطبله. فوافق العثمانيون على أن يرسلوا شروط السلام إلى قادتهم في إسطنبول، وأثنى الفرس على شجاعة المدافعين عن الموصل. فوصلت رسالة من السلطان العثماني تقول إنه إذا انسحب نادر إلى الحدود العثمانية الفارسية، عندها يمكن مناقشة شروط السلام مع أحمد باشا. وفي 20 أكتوبر/تشرين الأول 1743، سحب نادر جيشه من الموصل وعاد إلى كركوك ليعسكروا فيها. صحيح أنهم لم يزالوا داخل الأراضي العثمانية، لكنهم لم يكونوا بعيدين عن الحدود. وعندما وصلت الأخبار إلى إسطنبول، ابتهجتْ المدينة ابتهاجاً عظيماً[18]، لكن الحصار المفروض على البصرة تواصل وأُرسلت إليها مدافع حصار من الموصل.

ماذا حدث؟! لم يكن هذا نادراً الذي حاصر قندهار أكثر من سنة ولاحق خضير خان على طول نهر الإندوس وما ورائه. لقد كانت معه في العراق العثماني أكبر قوة تولى قيادتها على الإطلاق بمن فيهم قدامى المحاربين من حملته في الهند، وحول مدينة الموصل وحدها كان لديه أكثر من 200 ألف رجل. لذلك من الإنصاف أن نقول إن هذا الجيش ربما كان أقوى قوة عسكرية في العالم في ذلك الوقت من حيث العدد والنوعية. لقد كانت تحضيرات نادر للحملة ضد العثمانيين مضنية ومكلفة للغاية، وكان الهدف من هذه الحملة إخضاع السلطان العثماني كما فعل مع حكام دلهي وبخارى ليفي بالوعد الذي قطعه على نفسه عند تتويج عباس الثالث في عام 1732 عندما كان طفلا رضيعا[19]. ومع ذلك فقد نادر الأمل بعد حصار للموصل لمدة لا تتجاوز 40 يوماً.

فسر البعض سبب تغيير موقفه هذا باندلاع ثورات في شيروان ودربند اللتين دس فيهما العثمانيون أحد المدعين المزيّفين بأنه صفوي لإثارة القلاقل في وجه نادر، وربما سمع في ذلك الوقت أخبارا مثيرة للقلق عن زيادة الاحتقان في خوارزم وتصرفات «تقي خان «في عُمان، لكن هذه القلاقل كانت محدودة نسبياً في أكتوبر/تشرين الأول 1743 لأن نادراً لم

يعتبرها أمراً مهماً يستحق العودة إلى بلاد فارس على الفور. بل إنه لم يعبر الحدود عائداً قبل نهاية يناير/كانون الثاني 1744. ومن التفسيرات الأخرى أن الشجاعة الكبيرة لدفاع الموصل قد أثبطت همة الفرس وهزمهم20، لكن هؤلاء الفرس أنفسهم قد تغلبوا على أسوأ النكسات وانتصروا في حصارات أطول في الماضي.

مُني رجال نادر بخسائر جسيمة في الموصل، ولم تحقق المدفعية النجاح السريع الذي كان نادر يأمل بتحقيقه فخاب أمله بعد الاستثمارات المكلفة التي استثمرها في المدفعية. لم يكن نادر في أحسن حالاته عندما قام بعمليات الحصار التي تتطلب قبل كل شيء الصبر والرغبة في إحراز التقدم ولو على نحو بطيء، فهو لا يطيق الصبر لأنه يحبذ الجرأة والحركة. ومن المرجح أن أمراضه سبّب له الآلام والانزعاج، لكن حتى هذه الأمور لم يسبق لها أن استنزفت عزمه على مواصلة جهوده لإنهاء ما كان قد بدأه. لذا فإن التفسير الوحيد الملائم هو أنه بعد ما حدث في إيران خراب، فقد تصميمه وعزيمته على الاستفادة من القوة العسكرية الهائلة التي تمكن من تجميعها، وقد لا يكون من قبيل المصادفة أنه قد أوقف حصار الموصل في الوقت نفسه من العام الماضي الذي تسبب فيه بعمى ابنه. لقد كانت تلك نقطة تحول كبرى وضعت حداً لمسيرة نادر الطويلة في مجال الغزو. فقد أنهى الحرب باختياره هو نفسه وليس نتيجة لأي عامل آخر. كان الجيش العظيم الذي حشده وجهزه وأطعمه موجوداً هناك بحجمه المخيف وكفاءته العالية، وكان على استعداد للحاق بقائده إلى أي مكان شاء. وقد كان معظم العراق العثماني بين يديه، لذا من المؤكد أن المدن المتبقية ستقع أيضاً في الوقت المناسب. وهو يعلم أن ثمة من يؤيده بين سكان العراق العثماني وأن الحاكم نفسه أحمد باشا، كان أبعد ما يكون عن الإخلاص والموالاة للقضية العثمانية. صحيح أن الحكومة العثمانية قد ترسل جيشا آخر من إسطنبول لمجابهته لكنه هزم تلك الجيوش سابقاً (وسيهزمها مجدداً). فنظام السلطان محمود اهتز في السابق لتكبده العديد من الهزائم وهو دائم التعرض للاضطرابات في العاصمة، لذا فهو في حد ذاته عرضة للانهيار في حال وقوعه تحت ضغط مستمر. لقد كانت احتمالات نجاح غزو إسطنبول واقعية، وهي على الأقل واقعية بقدر ما كان عليه غزو دلهي فيما كان الجيش

الفارسي عالقا في قندهار في الفترة 1737–1738. وإسطنبول تخبئ لنادر المزيد من العظمة من كنوز جديدة، ومكاسب إقليمية هائلة، بل حتى ربما الخلافة نفسها والسيطرة على العالم الإسلامي بأكمله. لكنه دمّر ابنه الحبيب الذي كان ينوي أن يورثه كل تلك العظمة. انكسرت شوكة نادر، وقفل عائدا قبل حصوله على تلك الجائزة النهائية، وسمح للخيول والملبوسات المبهرجة بأن تصرف انتباهه عن خطورة القرار الذي اتخذه.

ترك نادر المعسكر والجيش، وذهب مع النساء وحرس شخصي مؤلف من كتيبة صغيرة من الفرسان لزيارة المزارات الشيعية مثل الكاظمين، والمعظّم وكربلاء والنجف. وقدمت زوجاته تبرعات سخية للمزارات حيث تبرعت راضية بيجوم، وهي ابنة شاه سلطان حسين بمبلغ كبير من المال لإصلاح الضريح في كربلاء. أما جوهر شاد، وهي ابنة علي بابا خان، فقد قدمت مبلغا أكبر لطلي قبة المسجد في النجف21. وتعتبر هذه من إحدى المناسبات القليلة التي تكلمتْ فيها المصادر المعاصرة عن زوجات نادر. وهناك من يرى أنه ثمة منافسة بين هاتين المرأتين لتقديم هدية أكثر إثارة للإعجاب، وقد يكون التنافس بينهما مفهوماً، فجوهر شاد هي ابنة حاكم أفشار ووالدة نصر الله، وكانت أختها زوجة نادر الأولى قبلها، وهي تعرف نادر منذ أيامه الأولى عندما كان ملازماً شاباً ومن رماة البنادق في أبيورد، أما راضية بيجوم فهي ابنة الشاه، لكنها جاءت من عالم البلاط في أصفهان الذي يحتقره نادر، وكانت عاقراً (بقدر ما نعلم).

يشير تبرع جواهر شاد بهدية إلى أنه كانت لها اليد العليا بين الحريم، لكن من المرجح أن النساء الأصغر سناً كن المفضلات لديه في ذلك الوقت. ومما يبعث على الأسف أننا لا نعرف سوى القليل عن حياة نساء نادر وعلاقاته معهم، فسجل نادر غامض ومحرّف، وبالتالي فإن ما نعرفه عن شخصيته محرّف أيضاً. فنحن نعرف الكثير عن هذا الرجل الطويل القامة والمعتد بنفسه ذي الصوت المرتفع، لكنه عندما يغلق باب خيمته ويذهب إلى الحريم، فإنه يختفي عن الأنظار، تماماً مثلما فعل معظم معاصريه. لكن ثمة تلميحات يمكننا أن نكوّن من خلالها فكرة حول الموضوع. فبعض الرجال قد يتصرفون مع حريمهم مثل الطغاة الذين يعجبون بهن لكنهم يفشلون عندما يكونون في عالم الرجال الأوسع نطاقاً.

ومن المحتمل أن يكون حال نادر على العكس من ذلك، وأنه كان يسترخي وربما يضحك مع النساء بشأن الأحداث والناس الذين تعامل معهم خلال النهار، ويسمح لهن بتهدئته من خلال الموسيقى الناعمة وأصواتهن الهادئة. لكن لابد أن النساء في الفترة الأخيرة قد وجدن صعوبة في التعامل معه حالهن حال الجميع. وربما كانت بعضهن على الأقل يرتحن إلى التعامل معه كراحته هو في التعامل معهن، لكننا لا نعلم أية تفاصيل عن ذلك.22

يبدو أن نادراً قد أدى طقوس المشي حول المزار في كربلاء لكنه لم يتمكن من إيجاد الأجوبة التي يبحث عنها. وترأس نادر في النجف اجتماعا ضم علماء مسلمين وفقهاء من العراق وجميع أنحاء إمبراطوريته من السنة والشيعة، وقال في مقابلة خاصة مع رسول من بغداد كان قد بعث به أحمد باشا لحضور الاجتماع والمشاركة به موضحاً الغرض منه:

> توجد في عالمي منطقتان هما أفغانستان وتركستان تصفان الإيرانيين بالكفار، إن الكفر كريه ومن غير اللائق أن يكون هناك أشخاص في بلادي يسمون بعضهم بعضاً بالكفار، إنني أجعل منكم الآن ممثلين عني كي تذهبوا وتزيلوا جميع تهم الكفر، وأن تشهدوا بذلك أمام المجموعات الثلاث، وأن تستفيدوا من كل ما يلزمكم لتحقيق ذلك. أعلموني بكل ما ستشاهدونه وتسمعونه وأحيطوا أحمد خان علماً بذلك23.

وكتب المندوب العثماني في وقت لاحق أنه على الرغم من أن نادراً لا يزال وسيماً، فإن وجهه يظهر علامات التقدم بالعمر والشيخوخة، وكانت عيناه مصفرتان، وتنقصه بعض الأسنان، وأكد أنه يبدو كرجل في الثمانين من العمر24. فقد تركت الأمراض والضغوط التي تعرض لها في السنوات الأخيرة أثراً كبيراً عليه، في ذلك الوقت تقريباً، عالجه الأب اليسوعي داميان الفرنسي من اضطراب في الكبد على ما يبدو، وهذا الوصف والأعراض التي ظهرت عليه في وقت لاحق تشير إلى أنه كان يعاني من اليرقان، وربما كان ذلك نتيجة لإصابته بالملاريا قبل بضع سنوات.

كان لمجلس النجف عدد من الأهداف المتداخلة، فقد كان يرمي كما قال نادر إلى تعزيز المصالحة الدينية الصريحة بين كبار رجال الدين في إمبراطوريته على نفس الأساس

الذي ذكره ألا وهو التخلي عن الممارسات الأكثر تطرفا المعادية للسنة وإقامة التوافق مع السنة. وقد كانت إزالة الخلافات مهمة لتجنب المتاعب بين السنة والشيعة من عناصر جيشه، إلى جانب آثارها الطيبة على شعوب إمبراطوريته عموما. وكان القصد من ذلك أيضاً أن يثبت للعثمانيين أن نادر قد قرّب الإمبراطورية الفارسية من المذهب السني وأن يحصل من السلطات العثمانية على الاعتراف والموافقة على مساعيه تلك للتغلب على آثار الفتوى التي أصدرتها إسطنبول في وقت سابق.

في أثناء تلك المناقشات أظهر الملا باشي أنه متوافق تماماً مع المذهب السني، لكن بعض علماء السنة الحاضرين كانوا متشككين من ذلك وشعروا في قرارة أنفسهم أنه لا يمكن للفرس الذين لعنوا سابقاً الخلفاء الراشدين الثلاثة الأوائل أن يعلنوا توبتهم الآن. لكن ضغط نادر الضمني ورئاسة الملا باشي للمجلس جعلتهم يبدون توافقاً ولو سطحياً في الآراء ويصدّقون على الوثيقة المكتوبة التي توثّق هذه الأفكار. ولإعطاء هذا الحدث أهمية وقدسية، جرت مراسم التوقيع تحت مظلة نصبت فوق قبر علي نفسه. لكن الوثيقة احتوت على عبارات غامضة من ضمنها عبارة شهيرة للإمام علي يمكن تفسيرها بمعنيين، الأول أن أول خليفتين من الخلفاء الراشدين كانا من الصالحين، وقد عاشا وتوفيا وهما مؤمنان إيماناً حقيقياً، والمعنى الثاني أنهما كانا ظالمين ومستبدين، وقد عاشا وتوفيا وهما ليسا على الإيمان الحقيقي. وعقب مراسم التوقيع لاحظ المندوب العثماني أن الملا باشي قد أمّ الصلاة بطريقة غير مألوفة، وعندما سأل الملا باشي عن السبب أوضح له أن الصلاة قد أقيمت وفقاً للمذهب الجعفري. فأصيب هذا الرجل القادم من بغداد بالفزع، ويبدو أنه لم يسبق أن أثير مثل هذا الموضوع المثير للجدل، لذا فقد شك ذلك المندوب بأن محاولات التوافق الظاهرة بين الفرس والمذهب السني تخبئ في عمقها التزاما بمعتقداتهم وممارساتهم القديمة كما كانوا دائماً25.

جمع نادر جميع رجال الدين معاً، وجعلهم يوافقون ظاهرياً، لكن عندما عادوا إلى بيوتهم عاد كل شيء كما كان من قبل. ولم يغير المجلس شيئاً ذا بال. فالشيء الوحيد الذي كان يمكن أن يجعله مهماً هو انتصار في حملة عسكرية على إسطنبول، حتى يجبر نادر

السلطانَ العثماني على الاستسلام، ويصبح خليفة الإسلام. لكنه حادَ عن هذا المشروع في الموصل، أما النجف فكانت عُرْساً بلا عروس.

طوال كل هذا الوقت كان نادر يتفاوض على شروط السلام مع أحمد باشا. لم تعرف التفاصيل الكاملة تضمنت فقط الانسحاب الفارسي من العراق العثماني، ويشير أحد المراجع إلى تراجع نادر عن إصراره على الركن الخامس في الكعبة،26 مع استمرار المطالبة بالحصول على اعتراف بالمذهب الجعفري. وتم الاتفاق على المعاهدة التي أحيلت إلى السلطان العثماني للحصول على موافقته. أرسل نادر أوامره برفع الحصار عن البصرة، وتم ذلك في 8 ديسمبر/كانون الأول، ورغم وصول المدفعية الثقيلة في نهاية نوفمبر/تشرين الثاني، وعمليات القصف العنيفة والاعتداءات الكثيرة، فإن نجاح الفرس هناك كان مماثلاً لما حدث في الموصل. سحب نادر كذلك قواته من إربيل أيضاً، واستقر بالقرب من الحدود في وضع جديد فاتر، منتظراً الاستجابة لمقترحات السلام. ربما أملَ في اعتراف السلطان بالمذهب الجعفري، وهذا الامتياز قد يسمح له بانسحاب مشرف. لكن لم تسرِ الأمور كما كان يأمل. ففي 30 يناير/كانون الثاني 1744 اتجه نحو كرمانشاه، منزعجاً من التقارير التي وصلته عن حركات التمرد التي أخذت تتعاظم في أجزاء مختلفة من بلاد فارس. 27 ومن هناك سافر إلى هَمَدان، حيث عسكر على مقربة من شمال المدينة، وبقي بعض الوقت يتلقي التقارير ويصدر أوامره للتعامل مع التمرد. واحتفل هناك بالنوروز في 21 من مارس عام 1744. وصل التاجر الإنجليزي جوناس هانواي إلى المعسكر يوم 28 مارس/آذار، وبقي هناك نحو عشرة أيام[1]. وقد وصف هانواي المعسكر وطريقة الحياة فيه في وقت لاحق.

---

(1) نشر كتاب هانواي الذي كتبه لدى عودته إلى إنجلترا في عام 1753، وظل سنوات عدة الرواية الرئيسية باللغة الإنجليزية عن حكم نادر، رغم أوجه القصور والانتحال والتحامل التي شابته. وبعد سنوات قليلة كتب هانواي كتاباً عن أسفاره في انجلترا، وعارض صموئيل جونسون حول طريقة شرب الشاي (رفض هانواي، أما جونسون فشرب كميات كبيرة)، قيل إن جونسون قال عن هانواي إنه اكتسب سمعة من بعض أسفاره إلى الخارج، لكنه خسر كل شيء بالسفر إلى وطنه (Taylor 1985, p. 54). ومع ذلك بقي هانواي حتى وفاته في عام 1786 ذا سمعة بأنه رجل جيد وفاعل خير نشط (من بين أعمال الخير الأخرى التي قام بها أنه ساعد في إنشاء مستشفى اللقطاء ومستشفى المجدلية للبغايا التائبات في لندن).

كان معسكر نادر يُقام دائماً على نفس النمط[1]، حيث تنتصب في الوسط «الديوان خانه»، وهي خيمة كانت تستخدم للمقابلات الرسمية وإصدار الأحكام وباقي الأعمال الرسمية التي كان يقوم بها الشاه. كان نادر يترأس المجلس في الخيمة من السابعة صباحاً حتى العاشرة ليلاً، تتخللها فترات استراحة قصيرة، وبحلول عام 1744 خفف نادر من شرابه،28 ربما بسبب التغيير الذي أحدثه «علوي خان» في زمانه بوصفه طبيباً للبلاط. ونظراً لتزايد ميله نحو تفضيل صحبة نسائه وأطفاله، ربما كان ذلك سبب تخليه عن حفلات الشراب الذكورية جميعها التي اعتاد أن يتسلى بها في مقتبل حياته. أما الآن فهو يذهب من الديوان خانه إلى الحريم مباشرة في نهاية اليوم. وكان الديوان خانه مصنوعاً من قماش أحمر ضارب إلى البني، منتصب على ثلاثة أعمدة كبيرة، على رأس كل منها كرة كبيرة مذهبة. وكانت مقدمة الخيمة مفتوحة دائماً، حتى في ظروف الجو السيئة. وكانت التجهيزات الداخلية بسيطة ومتقشفة، والوصول إليها يتم عبر ساحة كبيرة تستخدم لإنزال العقوبات وتنفيذ عمليات الإعدام. وعلى الجانب الآخر منها كانت هناك بوابة يتناوب على حراستها الحراس الذين يسمحون بالدخول لمن يستدعيهم الشاه إلى المقابلات الرسمية. وكان على الجانب الآخر من البوابة ساحة كبيرة أخرى مفتوحة، محاطة من ثلاثة جوانب بخيام يستخدمها الحراس. وفي أحد جوانب هذه الساحة المفتوحة وراء خيام الحراس، كان هناك مجمع لخيام أمراء الأسرة المالكة، وعلى الجانب الآخر انتصبت ساريتان كبيرتان للأسرة المالكة تحملان رايتين من الحرير، وكانتا من الثقل والارتفاع بحيث لا يستطيع أن يحركهما إلا اثنا عشر رجلا. وكان تحريك هاتين الساريتين في الصباح بمثابة إشارة لإنهاء المعسكر، والموقع الذي تزرعان فيه في نهاية مسيرة يوم هو الموقع الذي تضرب فيه خيام المعسكر الجديد. ويوجد وراء الساريتين منطقة مخصصة لسوق المعسكر، حيث تصطف صفوف من الخيام لبائعي الطعام والتجار.

وعلى بُعد خمسين خطوة وراء الديوان خانه، على الجانب الآخر، تقع أجنحة الشاه الخاصة، يحرسها عدة آلاف من الحراس أصحاب العمائم البيضاء (كشكشي)، على

(1) انظر الخريطة التي رسمها بازان لمعسكر نادر– لوحة 8.

نوبات بالليل والنهار، وكانت هناك خيمة أصغر يستخدمها الشاه للمقابلات السرية، ومن ورائها بوابة تؤدي إلى الحريم الذي كان محاطا بسور دائري، وبداخله علق ستار دائري كذلك، وحرس من الخصيان السود يقومون بدوريات بين السور والستار، كان هناك حوالي 60 أغا. وكانت تضرب للشاه خيمة ليوم واحد داخل هذا الحاجز المزدوج، وهي خيمة لنومه، بالإضافة إلى خيام عدة للنساء، وكثير من هذه الخيام كانت تقسّم الخيمة الواحدة منها حتى تسعَ عدداً أكبر. وعلى جانب واحد من مجمع الحريم كان هناك مجمع مشابه لكنه أصغر حجماً من الأول تستخدمه الرقصات والمغنون والعازفات الخاصة بالشاه، وضرب هذا المجمع بأكمله من الخيام الرئيسية في وسط المعسكر، وكان محاطاً بخيام الضباط والجنود ومرافقي المعسكر. ولم يلتق هانواي بنادر، لكن شاهده ذات يوم يمشي من الحريم إلى الديوان خانه، وكانت ملابسه بسيطة ومتقشفة، لكنها موشاة بعديد من الأحجار الكريمة.29

رغم أن هانواي لم يرَ سوى جزء صغير من جيش نادر بينما كان في المعسكر، قال إنه بلغ حوالي 200 ألف رجل في هذا الوقت. ووصف عُدْة الجنود وعتادهم ببعض التفاصيل. فمعظمهم كان يحمل بندقية[1] وسيفاً، أما الأوزبك وغيرهم ممن خدموا كفرسان بأسلحة خفيفة، فقد كان الواحد منهم يحمل رمحاً أو قوساً أو مسدساً، بالإضافة إلى سيف المبارزة. وقد أخبرنا أن الرجال كانوا يدفعون ثمن ملابسهم الخاصة، لكنهم كانوا يشترونها من نادر، وبذلك حقق بعض التماثل في مظهرهم. ونعرف من سجلات شركة الهند الشرقية الهولندية أنه كثيرا ما طلب ملابس لجنوده على دفعات كبيرة، وبصفة عامة كان الفرس يفخرون ببراعتهم في الرماية، مع الحرص على وزن البارود عند تعمير البنادق، إلا إذا كانوا في خضم المعركة. أما الأفغان فكانوا يحملون الرماح، ولا يفوت هانواي التنويه بشجاعتهم الفائقة. وكان في الجيش 50 ألفاً من الأفغان، 6 آلاف من الأوزبك و6 آلاف

(1) يشير هانواي ضمناً إلى أن أكثر البنادق كانت ذات زند مصوّن، ويقول إن بعض البنادق كانت ذات فتيل. لكنه يستخف بجودة مواسير البنادق، وإن كانت مصادر أخرى (وأمثلة حية أخرى) توحي بأن الأسلحة كانت جيدة الصنع ويعوّل عليها.

من التركمان و6 آلاف من البلوش. وتألفت قوات الحرس من ألف من «أبناء الشيوخ»، وألفين من «أبناء السادة»، و10 آلاف من الغلمان. وكانت هذه العناصر الثلاثة «أكثر العسكر تهذيبا» وفقاً لما ذكره هانواي. وربما خدموا في سلاح الفرسان، كما كانوا في ظل الصفويين. من ناحية أخرى خدم الكشكجيون في حراسة نادر على أقدامهم في المعسكر وفي أثناء المسير، وبدا أنهم لم يشاركوا في المعارك.

ذكر هانواي الجزايرجيين على أنهم جنود مشاة[1] وكانوا 12 ألفاً، ويقول إن نادر شكل بنفسه قوات الجزايرجيين بعناية: كانوا يلبسون ملبساً جيداً ويحملون بنادق ثقيلة جدا ذات مواسير واسعة، ويقول بنوع من المناصرة إنهم كانوا يشبهون إلى حد ما «المشاة الأوروبيين». وذكر هانواي أن 40 ألفا من «الكاراكشون» (الحراس السود) كانوا كذلك من جنود المشاة، حيث المظهر «غير معتدل» بالمقارنة، و20 ألف أفغاني من سلاح الفرسان. والقائمة مثيرة للاهتمام، لأنها تقسم الجيش حسب نوع القوات، خلافاً لقائمة الكتبة مدفوعي الأجر المكونة من 1743، والتي ذكرناها آنفا. لكنها لم تشتمل على البختاريين، أو اللور، أو القاجار أو الأكراد، وسواهم، حيث نعلم من مصادر أخرى أنهم كانوا موجودين في الجيش بأعداد كبيرة. ولا تذكر كذلك وحدات الزانبوراك المهمة وغيرها من وحدات المدفعية، رجح هانواي أن لا يقل مجموع الفئات التي ذكرها في قائمته عن 200 ألف: وتعوض العناصر التي لم يذكرها هذا النقص إلى حد ما.30

دفع الفضول هانواي إلى البحث عن التناقض بين عادات بلاد فارس وعادات أوروبا، وكتب لاحقا على نطاق واسع حول هذا الموضوع، لكنه تعلق تعلقاً قوياً بمعايير بلده وقواعده، أو بالأحرى عمد إلى إصدار بعض الأحكام المتزمتة عنها. فقد علق بإسهاب عن وضع المرأة في بلاد فارس، وسجل محادثة أجراها مع مُلا بشأن هذا الموضوع، فأخبره بدوره «أن قانونهم يسمح بتعدد الزوجات، ولا يضع حداً لعدد جواري الرجل، وهن بالتالي ينظرن إليه دائماً باعتباره الرجل الأكثر عفة، حيث اكتفى بزوجة واحدة ولم يتخذ

---

(1) نحن نعلم من حملة نادر على الهند أنهم كانوا أحيانا قوات مشاة محمولة، وقاتلوا على ظهور الخيل عند الاقتضاء. (انظر أعلاه، الفصل 5).

أي خليلة..». وصف هانواي طريقة الزواج التي يتم التعاقد بها، قائلا: «إنه من العسير أن تجد امرأة فوق السادسة عشرة أو الثامنة عشرة من العمر دون زواج»، لكنه أضاف قائلا «... لكن الزواج لا يمنحهن أي حرية، فالنساء كما يبدو يعتبرن أقل كثيراً من المخلوقات الذليلة التي خُلقت من أجل متعة سيدها وانغماسه».

لكن هانواي لم يكن سعيداً بالحريات الكبيرة التي قال إن النساء يتمتعن بها في أوروبا المعاصرة. فقد كان هو نفسه يعتقد أن النساء مخلوقات أدنى درجة، خلقن فحسب للحياة المنزلية والخضوع، بينما الرجال أوصياء عليهن وحُماة لهن بحكم العناية الإلهية: «وحيث يفشل هذا التعليم العبثي [كذا] في ترجيح عفّتهن، فسيثبت الحب دائماً العاطفة السائدة في صدر المرأة.. « ومن المغري أن نتصور أن هانواي، وهو نفسه قليل الكدح، كانت له بعض الصدامات مع النساء اللائي عرفن فيما بعد في لندن باسم المتعلّمات، واستنتج ما يلي:

> لو تعلمت النساء بصفة عامة منذ وقت مبكر من حياتهن لنعم العالم المسيحي بالسعادة، فهذا التمرد ضد الأزواج في أوروبا هو على الأقل جريمة كبرى كجريمة الاستبداد الآسيوي على الزوجات، فأفكارهن [كذا] يجب بالضرورة أن تجعل هؤلاء يرتجفون.31

وحينما عاد نادر إلى الأراضي الفارسية من العراق العثمانية، وأقام معسكراً للجيش قرب هَمَدان حيث رآه هانواي، كان قد أتم سحق المتمردين في داغستان وشيروان، الذين بدؤوا تمردهم تحت المدعي الصفوي «سام ميرزا» في وقت مبكر من خريف عام 1743. وبعد بعض النجاحات المبكرة، استطاعوا أن ينظموا جيشاً قوامه 20 ألفاً من الرجال، لكن عندما وصل نصر الله ميرزا من هَمَدان بأوامر من نادر ومعه تعزيزات لقوات الحكام المحليين، حسم مصير المتمردين، والتقى الجيش الملكي مع المتمردين في معركة قرب شاماخي في 20 ديسمبر/كانون الأول 1743 وانتصر عليهم. وبعد ذلك اندلع تمرد آخر في جورجيا المجاورة، وهرب سام ميرزا للانضمام إلى هذا التمرد، لكن الجورجيين الموالين لنادر هزموا المتمردين في 30 ديسمبر/كانون الأول، وألقي القبض على سام ميرزا بعد

ذلك بقليل، ثم ألقي في السجن ريثما يصدر نادرُ تعليماته.32

الأخبارُ التي دفعت نادر للعودة إلى بلاد فارس هي الأحداث التي وقعت في أستر أباد وشيراز حيث اندلعت الثورات فى وقت متزامن تقريباً في منتصف شهر يناير/كانون الثاني 1744. وقد شهد جوناس هانواي التمرد الذي اندلع في أستر آباد، حيث وصل إلى هناك لسوء حظه عن طريق البحر قبل بضعة أيام فقط من وصول المتمردين. فخسر بضاعته وتعرض لخطر القتل أو الأسر، لكنه تمكن من الهرب، واتخذ طريقه إلى معسكر نادر، مطالباً إياه بتعويض الخسارة التي تكبدها[1]. وكان المتمردون تحت قيادة الابن المنفي لفتح علي خان قاجار[2]، الذي حل محله نادر وأعدمه طهماسب في عام 1726. وقد ضم المتمردون ألفاً من التركمان اليوموت وألفين من القاجار، معظمهم من المشاة، واستولوا على أستر أباد يوم 28 يناير/كانون الثاني، بتشجيع من رسائل أرسلها سام ميرزا. وقد أرسل نادر أوامر لقيادته القديمة المكونة من 1500 فارس متمركزين في أبيورد، بالتحرك لإخماد التمرد بإمرة رئيسهم بهبود خان. ولما حانت ساعة القتال غيّر بعض القاجار مواقعهم وسرعان ما انهزم المتمردون، وفر نجل فتح علي خان عائداً إلى منفاه في الصحراء، ليعاود الظهور مرة أخرى بعد وفاة نادر.

انتقم كل من بهبود خان ووالي نادر، محمد حسين خان قاجار، اللذين عاودا الظهور بمجرد انتهاء القتال انتقاماً رهيباً في أستر أباد، حيث أقام كل واحد منهما برجاً مخروطي الشكل من الحجر الأبيض يبلغ ارتفاعه أربعين قدماً، نصبت عليه رءوس المتمردين وغيرهم في فجوات مقامة فيه. وكان هذا دليلاً على الضراوة التي مارسها تيمور من قبل، والحقيقة وحدها تجعل الاحتمال الأقرب أن يكون برجا الرءوس في أستر أباد قد أقيما بأمر مباشر

(1) لاحظ هانواي في رحلته أن الجميع، حتى على بعد أميال قليلة من معسكره كانوا يشتكون من الدمار والفقر في البلد بسبب حكومة نادر الجشعة، وكانوا يطلقون على الشاه نفسه «الوضيع» (كروم ساك)، (جزء 1، ص 240)، والواقع أن كلمة «كروم ساك» تعني الديوث». واشتكى تاجر كان قد قابل هانواي في قزوين من أن البلد كانت مُعدِمة، وأن فتوحات نادر الكبيرة قد تحققت على يد جيش من الفرس، لكنه الآن يحكم الفرس بجيش أجنبي من التتار.

(2) ينبغي عدم الخلط بين محمد حسن خان قاجار وعدوه محمد حسين خان. محمد حسن خان هو والد أغا محمد شاه، مؤسس الأسرة القاجارية.

من نادر، حيث استغل محمد حسين خان الفوضى لقتل أعداد كبيرة من خصومه القاجار وأعدائه، ولم يتمكن بهبود خان من كبح جماحه. وعندما عاد هانواي في نهاية شهر مايو/أيار، كانت عمليات الإعدام لا تزال قائمة. ولفّت البلاد المحيطة بأستر أباد صورة من الكآبة.33

زادت الاضطرابات في خوارزم في هذا الوقت، حيث اندلعت الحرب بين الأوزبك والتركمان اليوموت، ناهيك عن مزيد من القتال بينهما من جهة وبين قبيلة سالور التركمانية، وأتت الغارات وعمليات النهب والتدمير على الإقليم بكامله، وطلب العميل خان الذي عينه نادر العون، فأمر نادر ابن أخيه علي قولي بالانتقال من مشهد إلى هناك،34 ولم يستطع علي قولي تهدئة خوارزم بالشكل الصحيح حتى العام القادم.

وقع التمرد الأكثر خطورة في شيراز، بقيادة تقي خان، نديم نادر السابق. فبعد المحن البحرية التي تعرض لها «تقي خان «في السابق، استطاع أخيراً تحقيق انتصار في مسقط عام 1743. وعندما ثار رعايا سلطان عُمان مرة أخرى، طلب السلطان مساعدة من «تقي خان «، كما من قبل. وتوصل إلى معاهدة مع الفرس يقومون بموجبها بإعادته إلى السلطة في مقابل اعترافه بالسيادة الفارسية على عُمان. في الوقت نفسه تقدمت الحملة إلى الأمام بنجاح، وعبر «تقي خان «إلى الشاطئ الجنوبي للخليج في وقت لاحق من هذا العام. وكانت مسقط نفسها لا تزال يتولاها رعايا السلطان، لكن تحرك الفرس إلى هناك وسيطروا عليها بخدعة. واستسلم آخر المتمردين في يوليو/تموز عام 1743، وعادت عُمان إلى السيطرة الفارسية.

لكن لسوء الحظ كانت الصعوبات التي واجهت نادر بعد ذلك تعني إهمال الأسطول والقوات في سلطنة عمان. بعد أن عاد «تقي خان» إلى بندر عباس في نوفمبر/تشرين الثاني 1743، كانت الجزية التي يدفعها المتمردون السابقون قد نضبت، وهي التي كان من المفترض أن تبقى القوات الفارسية في عمان. وفي نهاية المطاف استسلمت الحامية الفارسية في مسقط للمتمردين الذين استعادوا قوتهم، وتمكن قائدهم من تأمين أراضي سلطنة عمان كلها، وأبرز نفسه سلطاناً منتخباً في أواخر عام 1744، ليؤسس أسرة البوسعيد.

واستطاعت حامية فارسية تكاد تكون منسية من الصمود في جُلفار إلى ما بعد وفاة نادر، لكن بحلول الوقت دُمِّرت السفن المهملة من أسطوله أو بليت بعيداً في الميناء35. وبحلول صيف عام 1743 توقف بناء السفينة الوحيدة، التي بدأ بناؤها في أحواض بناء السفن في بوشهر، ولم تستأنف بعد ذلك أبدا[1].

بغض النظر عما كان سيحدث في سلطنة عُمان في وقت لاحق، عاد «تقي خان «إلى بندر عباس في نوفمبر/تشرين الثاني 1743 مُكللا بالنجاح. ربما كان ينوي على فترة طويلة من الزمن أن يشق لنفسه طريقاً إلى السلطة، وكان الجهد الذي بذله ليفسد العلاقة بين نادر ورضا قولي جزءاً من ذلك. ففي ديسمبر ويناير، حيث كانت شيروان وأستر أباد وخوارزم تحت التمرد، كان يجب أن تبدو التوقعات جيدة، لكن ربما دُفِعَ «تقي خان «إلى التمرد بسبب إجراءات نادر الخاصة- إما بطلب مستحيل من أجل المال، وإما إصدار أمر بإلقاء القبض عليه36. على أي حال قام بقتل شقيق زوجة نادر، قلب علي خان، وانطلق إلى شيراز في 16 يناير/كانون الثاني 1744 في تمرد علني مع ستة آلاف جندي، وزاد هذا العدد على طول الطريق من قبل رجال القبائل الذين قتلوا جباة ضرائب نادر. ولما وصل شيراز كانت مع «تقي خان «قوة كبيرة، فاحتل المدينة قبل أن يرسل نادر قوات لصده بفترة طويلة حتى ينضم للقوات المحلية التي كانت لا تزال على ولائها.

كانت ثورة شيراز مسألة خطيرة، فهي واحدة من أهم المدن في بلاد فارس، والمركز الإداري لإقليم غني في قلب إمبراطورية نادر. وقد عكس الجيش الملكي الذي تجمع لاستعادة السيطرة على مدينة شيراز أهمية هذه المهمة- فقد كان هناك 40 ألف جندي. وبعد أربعة أشهر ونصف الشهر، استماتت فيها شعب شيراز في الدفاع عن المدينة ضد جنود الشاه الذي يحكمهم، سقطت المدينة، وسُمِحَ للقوات المحاصِرة أن تعيث فيها نهباً وسلباً. وقد حاول «تقي خان «الفرار في هذه الفوضى، لكن سرعان ما تم القبض عليه، وأُرسِل إلى أصفهان مع عائلته كلها. وكانت شيراز، وهي مدينة مشهورة بالشعراء من أمثال سعدي وحافظ، قد زيّنت بحدائق جديدة وآلاف من الأشجار بأوامر من نادر

(1) كانت بقاياها لا تزال تُرى في بوشهر في أواخر عام 1811، كذكرى حزينة لطموحات نادر.

بعد أن طرد الأفغان في عام 1730. والآن حل دمار الدمار الكبير بالمدينة، وربما أعدم آلاف الأشخاص، وخرّبت الحدائق. وتم استبدال الأشجار الظليلة، حيث نُصب بُرْجان مروعان من الرءوس البشرية كما في أستر أباد، ولما توقف النهب، تفشى الطاعون ومات 14 ألف شخص بسبب المرض.37

عندما وصل «تقي خان «إلى أصفهان اسْتقبِلَ بالإذلال عن طريق مراسم استقبال وهمية، واصطفت حشود من الناس يطلقون صيحات الاستهجان له. يبدو أن نادر قد أقسم أن لا يقتل «تقي خان «– كان ذلك في أيام السعادة، عندما كانا صديقين مقربين، أما الآن فقد بعث أوامره بإنزال العقوبة التي كانت لا تقل تطرفا عما يمكن أن يبتدعه عقل مشوش، باستثناء القتل، فقد خُصِيَ «تقي خان «وفقئت إحدى عينيه، وأعطى نادر أوامر صارمة بأن لا يموت جراء ذلك، وتُرِكت عينُ تقي خان الأخرى حتى يرى ما ينبغي عليه أن يراه، فقد أعدِمَ العديد من أقربائه وأصدقائه، بينهم شقيقه وأبنائه الثلاثة، ثم دُفِعَ بأحب زوجاته إليه إلى الجنود لاغتصابها أمامه، خلافاً لاحترام نادر المعتاد تجاه النساء.38

غير أن اغتصاب المرأة لإذلال صديق نادر السابق يبين كيف انحدرت شخصيته ومبادئه السابقة وتحولت إلى بُغض وحقد للجنس البشري. ومن المرجح أن نادر أنحى باللائمة على تقي خان ليس بسبب حركة التمرد فحسب، ولكن بسبب مكائده ضد رضا قولي، ولدوره في الأحداث التي أدت إلى كف بصر الأمير. وقد بيع ما تبقى من عائلة تقي خان وعياله كعبيد، وأُرْسِلَ هو نفسه في الأغلال إلى بلاط نادر. وعندما وصل تقي خان، بدا كما لو أن غضب نادر قد برد، ورغم البؤس الذي بدا على تقي خان، كان أحد الناجين، ولم يفقد قدرته على الالتفاف حول سيده القديم. ورغم تلك الظروف، ربما تكلم مزاحاً، ثم قام نادر بتحرير من بقي من أسرة تقي خان من العبودية، ممن لم يلقوا حتفهم، وعيّنه والياً على كابل. ويتعجب بعض المؤرخين من عملية إعادة التأهيل الواضحة، التي أعقبت تلك القسوة، لكن إذا كان صحيحاً أن نادر أقسم على الحفاظ على حياة تقي خان، فإن كابل كانت المكان الأكثر أماناً له، بعيداً عن الفتن واحتمالات المؤامرات التي فتنته عن الولاء لموطنه في إقليم فارس، حيث يصبح محاطاً بأقرب حلفاء نادر وأكثرهم ولاءً، وهم الأفغان

العبادلة. لكن موقف القادة الأفغان تجاه خَصِيّ أعورٍ مُهان سيقوم على الازدراء أكثر منه على الشفقة والرحمة.39

طوال كل هذا الوقت كان نادر في انتظار رد إسطنبول على مقترحات السلام التي كان قد تفاوض عليها مع أحمد باشا والي بغدادوقد أبلغت الحكومة العثمانية أحمد باشا في فبراير/شباط 1744 أن تلك المقترحات غير مقبولة لهم، لكن لا هم ولا هو فكر في أن الأمر ملحٌ بالنسبة لنادر. وفي مارس/آذار، علم نادر بأن العثمانيين يدعمون مدعياً صفوياً آخر، هو صافي ميرزا. تظاهر هذا الرجل مثل سابقه بأنه أحد أبناء الشاه سلطان حسين، لكن في الحقيقة لم يكن أكثر من فرع من الأسرة الصفوية مثل سام ميرزا. أرسل صافي ميرزا رسائل من «قَارْس» لمؤيديه المحتملين في مقاطعات الشمال الغربي من بلاد فارس يشجعهم على التمرد باسمه. وقد بلغت نادر بعض هذه الأخبار، مما أشعل غضبه على العثمانيين، فانتقل مرة أخرى مع الجيش، متجهاً نحو الشمال الغربي، وأعطى أوامره بفقء إحدى عيني سام ميرزا، المطالب الآخر بالعرش، وأرسل إلى قَارْس برسالة ازدراء مفادها أنه طالما أن المطالب بالعرش هناك بالفعل، فسيكون بوسع الأخوين الوهميين أن يلقي كل منهما نظرة على الآخر.40

عندما اتجه نادر شمالاً، وصلته بعض الأخبار السارة، حيث استطاع تيموراز وابنه إيريكل، وهما أميران من أصول ملكية قديمة في جورجيا الاستيلاء على كمية كبيرة من المقتنيات الثمينة التي بعث بها العثمانيون لمجموعة متنوعة من زعماء اللزجيين كحافز لهم على التمرد. فمنح نادر تيموراز وإيريكل حُكم كارتلي وكاخيتي من الأراضي الجورجية مكافأة لهما. وبعد أن وحد قواته مع قوات نصر الله ميرزا، ترك نادر أمتعته على بُعد 20 ميلاً من نهر أربا تشاي في 23 يوليو/تموز وعسكر خارج قَارس. وفي 21 أغسطس/آب جُلبت أمتعة ومواد حربية ثقيلة، وبنى نادر الحصونَ والخنادق المعتادة التي تحيط بالمدينة، واستقر الفرس على حصار آخر. وقد حاول نادر حرمان الحامية العثمانية من إمدادات المياه عبر تحويل مجرى مياه (على نحو ما فعله في آخر مرة حاصر فيها المدينة)، ولكن هذه المرة نجح العثمانيون في منعه، وفي 9 أكتوبر/تشرين الأول رفع الحصار، بسبب اقتراب فصل الشتاء

على ما يبدو، وكانت قَارْس شديدة البرودة.41 لكن المرء يشك كما في السابق، عندما كان في الموصل، أن السبب الحقيقي كان يرتبط أكثر بحالة نادر السوداوية، ومرضه المتواصل وقلقه المتبلد، حيث استطاع في السنوات السابقة مواصلة الحصارات والحملات في أشهر الشتاء تحت أقسى الظروف.

بعد انسحاب نادر إلى الشرق، ها هو ذا مرة أخرى لا يقر له قرار، حيث وجه رجاله في أربعة صفوف في الشتاء في حملة مفاجأة ضد اللزجيين، واستولى الفرس على أعداد كبيرة من الخيول والحيوانات الأخرى، وأحرقوا العديد من القرى. لم تكن القبائل تتوقع هذا الهجوم، ودفع الدمارُ الذي خلفته قوات نادر معظمَ زعماء القبائل إلى الخضوع. وفي 14 يناير/كانون الثاني 1745، عاد إلى دربند، ومنها عاد إلى مقرّه الشتوي الذي أعد في جنوب كورا. لكن في غضون بضعة أسابيع، على مقربة من عيد النوروز، تحرك عائدا إلى الشمال من النهر، حيث كانت مراعي الكلأ أفضل لخيوله، ومكث هناك ما يقرب من ثلاثة أشهر كاملة.42 كل هذه التحركات كانت بلا هدف ولا مغزى، وهو ما عكس فقدان نادر الإحساسَ بالهدف.

في يونيو/حزيران عاد نادر مع الجيش إلى الجنوب الغربي، لكنه أصيب بمرض خطير في الطريق وكان لا بد من حمله على المحفة. تعافى بمساعدة بعض أطبائه، وعسكر الجيش بالقرب من يريفان. وبينما كان هناك علمَ أن قوتين عثمانيتين كانتا تتقدمان باتجاه الحدود الفارسية، إحداهما مباشرة باتجاهه في قَارْس، والأخرى باتجاه الجنوب بالقرب من الموصل. وقد بعث نادر نصرَ الله على رأس مجموعة كبيرة من القوات لصد العدو الأخير، واستعد لمواجهة الأول بنفسه. وقبل إنهاء المعسكر أقام احتفالات زواج ابنه إمام قولي وابن شقيقه إبراهيم خان، ثم أرسلهما لحكم خرُاسان وهَمَدان على التوالي، ثم أعاد الأمتعة شرقا، وغادر يريفان في 7 أغسطس/آب متجهاً صوب الغرب، وأبلغته الكشافة أن الجيش العثماني قد غادر قَارْس بالفعل. في تلك الليلة عسكر الجيش الفارسي في ميدان قتال باغاورد القديم، حيث كان قد هزم العثمانيين قبل عشر سنوات. وفي اليوم التالي وصل الجيش العثماني بقيادة يَكَن محمد باشا على مقربة سبعة أميال أو ثمانية، وبدأ في

بناء معسكر حصين.43

في 9 أغسطس/آب،44 خرج العثمانيون من المعسكر، واصطفوا وتقدموا لمقاتلة الفرس، ومعهم 100 ألف فارس و40 ألفاً من المشاة الانكشارية. تقول إحدى الروايات أنهم أمروا بالتشكيل القتالي وقاتلوا على الطريقة الأوروبية.45 ولم ترد تفاصيل أخرى، لكن خلال فترة ولاية يَكن محمد باشا كصدر أعظم في أواخر عام 1730 وثق عمله مع المنشق الفرنسي بونيفال Bonneval، الذي دخل في خدمة السلطان لإصلاح الجيش العثماني، حيث طوّر بونيفال المدفعية، وأعاد تنظيم الجند الانكشارية إلى وحدات تكتيكية أصغر، وحسّن التدريب على البنادق (يرجع الفضل في ذلك، إلى حد ما، إلى هزيمة القوات العثمانية للجيش النمساوي في البلقان هزيمة حاسمة في معركة كروسكا عام 1739، ما أدى إلى تسليم النمساويين بلغرادَ في وقت لاحق). تحرك العثمانيون قدماً بمشاة الانكشارية في الوسط، بخطين أو أكثر، وتخللت المدفعية بين الوحدات (وليس في الجبهة كما كانت ممارساتها التقليدية)، وارتكز سلاح الفرسان على الأجنحة من أجل حماية جناحي المشاة.

هذا يعني أن نادر واجه خصماً أكثر قوة من آخر مرة التقى فيها العثمانيين في ميدان باغاورد، لكن التدريب الذي تلقته قوات المشاة كان له الفضل في تأكيد عمل الوحدات الصغيرة القادرة على المناورة وتحسين ضبط إطلاق النار، وبقي أن يعرف إذا كان هو أو بونيفال ويَكن باشا قد قام بعمل أفضل. وعندما أعد نادر رجاله لمواجهة تقدم العثمانيين، أمر المشاة أن يطلقوا وابلاً واحداً من النيران على العدو، ثم يقوموا بهجوم مفاجئ بالسيوف جنبا إلى جنب[1]. وهذا من شأنه أن يبطل أي أفضلية للجند الانكشارية في الرماية بالبنادق.

التحم الجيشان واشتبكتا، لكن الفرسان من كلا الجانبين تراجعوا في حالة تقهقر، واستمر نضال المشاة بعض الوقت، كل فريق يهاجم ويصد الهجوم المضاد، وأرسل قادة الجيشين في طلب مدد جديد إلى أرض المعركة. وتقول إحدى الروايات إن نادراً خلافا

(1) تكتيك كان يفضله سكان المرتفعات الاسكتلندية في القرنين السابع عشر والثامن عشر.

لعادته قاد جيشه في هذه الحملة ضد العثمانيين من على عرشه داخل المعسكر، وكان يتلقي تطورات الأحداث ويصدر أوامر لقواته عن طريق الرسل. وفي بداية ظهيرة ذلك اليوم كان رسله لا يزالون يخبرونه أن القتال لم يُحسم بعدُ، فصمم على أن يتدخل بنفسه.46 فلبس نادر دروعه وركب فرسه وقاد 40 ألفاً من فرسان العبدلي في هجوم عنيف على جناح الجيش العثماني، وكان لا يزال القتال حتى ذلك الحين مستعراً وقُتِلَ اثنان من خيول نادر تحته، لكن وجوده شجع الفرس لبذل مزيد من الجهد، وأخيراً بدأت تنهار المقاومة العثمانية، ولاذ بالفرار 15 ألفاً من القوات غير النظامية الآتية من أقاليم آسيا الصغرى، وتقهقرت القوات العثمانية في ارتباك نحو الاستحكامات المؤمنة حول معسكرهم، فتعقبهم نادر، لكنه انسحب مع رجاله إلى معسكراته عند غروب الشمس.

في الأيام التالية أرسل نادر مفارز لقطع أي إمدادات قد يحاول العثمانيون من خلالها جلبها من قارْس، وأحكم الحصار على يَكَن باشا في معسكره مع رجاله، الذين تفاقم تمردهم عليه، ووقعت هناك بعض المناوشات بين الجيشين، لكن العثمانيين فشلوا في تقديم أي انطباع تجاه الحلقة الحديدية التي ضربها نادر حولهم. وتقول إحدى الروايات إن قصفاً بالمدفعية وقع وأثبت فيه الفرس تفوقا، وأطلقوا نيران مدافعهم على نحو أسرع وأكثر دقة، حتى سقط كثير من رجال المدفعية العثمانيين قتلى، وتحطمت محاور المدافع العثمانية وعجلاتها وتناثرت عرباتها تحت نيران المدافع الفارسية، حتى سكتت أكثر مدافعهم، ولم يعد لها نفع وأضحت كتلا خاملة من البرونز ملقاة على الأرض».47

الآن أصبح العثمانيون قاب قوسين أو أدنى إلى التمرد، ولحق الهاربون من الجيش العثماني بالفرس، قائلين لهم إن الجيش العثماني على وشك الانسحاب. وذات ليلة انسحب العثمانيون بهدوء تاركين ورائهم الخيام مضروبة كما هي والنيران مشتعلة في معسكرهم، لكن تبعهم الفرس وأعادوا ضرب حصار حولهم.48 عند هذه النقطة، في 19 أغسطس/آب، تلقى نادر رسائل من ابنه نصر الله يعلن فيها أنه قد ألحق هزيمة نكراء بجيش من العثمانيين والأكراد بالقرب من الموصل، وعرض نصر الله بفخر أن يتقدم أكثر في عمق الأراضي العثمانية وضمها إلى فتوحات نادر.

بعث نادر برسائل نصر الله إلى يَكَن باشا مبيناً له عدم جدوى مواصلة القتال، لكن حينما وصل الرسول إلى معسكر العدو حدثت ضجة كبيرة من الصراخ بين القوات العثمانية واندلعت أعمال شغب وتمرد، ولما انقشع الغبار تبين أن يَكَن باشا قد مات، وربما يكون قد انتحر، لكن الأرجح أنه قتل على يد جنوده، ولاذ العثمانيون بالفرار بشكل جماعي وهم بغير قيادة يائسين، والجنود يصرخ بعضهم لبعض: «ارجعوا، ارجعوا، يا أتباع محمد!»49 وتبعهم الفرس وضربوا العديد منهم بالسيف، وألقوا القبض على بعضهم، بينما أطلق نادر سراح الجرحى من الأسرى وأرسلهم إلى قَارْس، وأرسل الآخرين إلى طهران وتبريز.

هُزِمَ العثمانيون وفقدوا في المعركة حوالي 28 ألفاً من الرجال، قتل منهم ما يصل إلى 12 ألف، وفقد الفرس حوالي 8 ألف رجل، وبخاصة في المراحل الأولى من الاشتباك الأول50.

وقد نهض نادر بنفسه في لقيادة الهجوم الحاسم للعبدليين في 9 أغسطس/آب، لكن كان هذا تقريباً الفورة الأخيرة من طاقته القديمة. وأظهر تفوق المدفعية الفارسية على وجه خاص الدرجة الرائعة التي وصلها الجيش الفارسي من التدريب والتجهيز، حيث أشار أحد المراجع صراحة إلى برنامج لإعادة تجهيز المعدات خلال السنوات الثلاث السابقة51. كذلك حاول العثمانيون تحديث قواتهم حتى تصل إلى مستوى جديد لمثل هذه المواجهات، لكنهم فشلوا. والحق يقال إن نادراً كان لديه حتى هذا الوقت الجيش الأشد بأساً في العالم والذي كان يتباهى به. ولم يكن عرض نصر الله المسيرَ صوب الأناضول العثمانية وقهرها من قبيل التبجح الفارغ، لكن لمرة واحدة خاض هذا الجيش معركة دفاعية، كرد فعل على الغزو العثماني، وليس كجزء من حملة فارسية للهجوم، ولم تعد لنادر إرادة لمواصلة القتال.

في أثناء استراحته بعد النصر، أرسل نادر مقترحات جديدة للسلام مع الأتراك الجرحى في قَارْس، وبعد ذلك أرسل سفيراً للتباحث معهم في إسطنبول. وأعلن لأول مرة بنفسه استعداده للتخلي عن طلب الاعتراف بالمذهب الجعفري وبالركن الخامس في الكعبة،

وفي المقابل طالب ببغداد والبصرة والنجف وكربلاء وكردستان العثمانية وفان.52 ورغم ميل العثمانيين في البداية إلى رفض مقترحات نادر الأخيرة، إلا أن وصول السفير الفارسي يبدو أنه فعل شيئا حتى غير السلطان رأيه وربما ألمح المبعوث إلى أن المطالب الإقليمية تتسم بالمرونة، فضلا عن المقترحات الدينية. وكان نادر يتخلى عن خططه لاحتلال الأراضي العثمانية وتفوقه على المسلمين جميعاً. بعد هذه الهزيمة، لم يجرؤ السلطان أن يأمل في أن تكون سنوات الحرب مع الفرس قد أوشكت على الانتهاء على نحو مواتٍ، وأُرسِلَ سفير عثماني إلى بلاط نادر، وفي الوقت نفسه سار نادر ببطء نحو العودة عن طريق هَمَدان إلى أصفهان، حيث وصلها في 28 من ديسمبر/كانون أول.53

لكن لسوء الحظ، لم يوازن نادر بين رغبته الجديدة في السلام مع السلطان العثماني وأمانيه في تخفيف الضغط عن رعاياه الذين يعانون. وقد أصبحت الآن قسوته وجشعه وسواسيين، فبمجرد وصوله إلى أصفهان شرع في ضرب المواطنين للحصول على أموالهم. وعلى النمط الذي أصبح مألوفا في كل الأماكن زارها خلال الأشهر التالية، طلب نادر من والي أصفهان تدبير 10 آلاف تومان، وأرسل رجاله لتعليق «الفلكة» حتى يسمي الوالي أسماء الناس الذين يمكن أن تؤخذ منهم الأموال. وقد أفاد أحد شهود العيان الذين ذهبوا إلى أصفهان في هذا الوقت أنه وقف لفترة من الوقت خارج القصر حيث كان نادر يخاطب الحضور. وبينما كان ينتظر إذ أخرج مرافقوه سلسلة متوالية من الناس، بعضهم مقطوع الأنف وبعضهم مقطوع الأذن، والبعض الآخر أخرجت أمخاخهم وآخرون مخنوقون.54

وفي 2 فبراير/شباط عام 1746 غادر نادر أصفهان، ووصل إلى مشهد بعد سبعة أسابيع، وعلى طول الطريق كان يستمع إلى روايات ويستجوب مسؤولين في كل مكان توقف فيه، ودعا الآخرين إليه من أماكن أخرى أبعد من ذلك، كل واحد كانت توجه إليه أسئلة افتتاحية ثابتة: كم أكلت من أموالي؟ ومن يملكها الآن؟!55 وقد تعرض كثير منهم للتعذيب والتشويه، وبعضهم ضُرب على الرأس بالعصي بشدة حتى اسودت وجوههم «مثل ذئب». وتحولت ذاكرة نادر المذهلة وذكاؤه إلى سرعة غضب مجنون بسبب ما أبداه الكتبة واحداً بعد الآخر من خشية وأعذار تافهة، ووصل سلوكه إلى حد لم يكن أحد يشعر

بالأمان، حتى أولئك الأكثر ولاءً له.

في مشهد، حيث كان نادر في السابق أكثر ليونة من أي مكان آخر، قام بإعدام 100 من المسؤولين والمواطنين، وطالب المدينة بدفع مبلغ هائل يبلغ 500 ألف تومان[1] في غضون سنة واحدة، وأمر بتجهيز المدفعية المحفوظة في مستودع كبير في مَرْو استعداداً لحملة أخرى في تركستان. احتفل نادر بعيد النوروز في 21 مارس/آذار ووزع أعداداً كبيرة من الخلعات الثمينة، لكن القليل ممن أخذوها شعروا براحة البال.56

وبينما كان في مشهد اندلعت ثورة جديدة في سيستان بقيادة والي سيستان، فتح علي خان قاياني، وهو أحد أبناء مالك محمود، الذي انتزع منهم نادر مشهد عام 1726. فقد ثار بعد استدعائه إلى البلاط وفرض ضرائب فاحشة على ولايته، مثل تلك التي تُجْبى في أصفهان ومشهد، وانضم إليه العديد من أبناء ولايته، بالإضافة إلى أعداد كبيرة من رجال القبائل البلوشية. كما ثار والي كرمان، لأسباب مماثلة، لكن بعض القوات الموالية أعدمته في قلعة المدينة، ما جعل من السهل نسبيا على التعزيزات أن تقوم بقمع هذا التمرد بعد ذلك بوقت قصير.57

وفي يوم 12 أبريل/نيسان، ذهب نادر من مشهد إلى كالات وأبيورد و«دارا جاز»، كما في الزيارات السابقة، وتفقد في كالات المباني والتحصينات، وأمر ببعض التحسينات، ويبدو أنه أمضى أيامه هناك في احتفالات وبهجة، وأودع 4,5 مليون تومان من الذهب والفضة في بيت المال، هذا بالإضافة إلى المجوهرات والكنوز الهندية الأخرى التي كانت موجودة بالفعل هناك. وأصبحت كالات بقعة أرضية من الثروة المستحيلة، وسط عاصفة كبيرة من الفقر والبؤس في جميع أنحاء إمبراطورية نادر. وزار النصب التذكاري لمولده والذي كان قد اكتمل بناؤه، وأعلن عن رضاه به، وبعد توقف قصير آخر في مشهد عاد نادر غربا. 58

وفي كوردان على بعد نحو 40 ميلا إلى الغرب من طهران في الطريق إلى قزوين، التقى نادر والوفدُ المرافق له السفير العثماني، واقترحوا أن يجتمعوا به في الاتجاه المعاكس. وقد

(1) تعادل 937،500 جنيهاً إسترلينيا في ذلك الوقت.

أعطى السلطان العثماني توجيهاته لسفيره بالسعي إلى السلام على أساس الحدود القديمة الأولى التي وضعت عام 1639، ووضع حد للمذهب الجعفري. وبعد خمس جلسات، حقق المفاوضون مشروع المعاهدة على أساس ما أراده السلطان. وفي 4 سبتمبر/أيلول عام 1746 وُقّعت المعاهدة، وفي الحفل أدى نادر واحداً من عدد قليل عروضه الرائعة، حيث كان يجلس على كرسي العرش المصنوع على هيئة طاووس، وقد وشى لباسه بكل ما أبدعته الهند من روعة: كانت قبعته، وحزامه وملابسه جميعها مرصعة بالماس.

تضمنت المعاهدة التزامات متبادلة لتجنب الأنشطة التي قد تشكل خطرا على السلام، والإفراج عن جميع السجناء، وعلى تبادل السفراء، مع تكرار الالتزام الفارسي بالكف عن الممارسات المسيئة للمسلمين السّنة وإظهار الاحترام للخلفاء الثلاثة الأُوَل، والتزام من العثمانيين بتسهيل حرية تنقل الحجاج الفرس إلى مكة المكرمة. كما عبرت المعاهدة عن الأمل- في ظل هدوء اضطرابات الحرب وعودة السيوف إلى أغمادها- في أن تحل نعمة الله على الإمبراطوريتين وأسرتي العاهلين. 59

في هذه الأثناء أرسل نادر اثنين من مساعديه الموثوق بهما إلى إسطنبول مع المعاهدة، كان أحدهما مؤرخه الرسمي الميرزا مهدي، وحملا معهما هدايا للسلطان عبارة عن عرش ذهبي مكسو باللؤلؤ وفيلين مدربين على الرقص عند سماع الموسيقى.60 ولعل نادر كان يقصد بالعرش أن يرمز لسخائه في إعادة الملك إلى مالكه السلطان بسلطة المبسوطة على أراضي بلاده، وخاصة الشرقية منها. لكن من الملائم أكثر لمقتضى الحال القول إن الفيلين كانا سيرقصان على خطط نادر التي تخلى عنها من أجل هزيمة السلطان العثماني، وتنصيب نفسه سيدا للعالم الإسلامي.

من كوردان سافر نادر جنوباً. وعندما ذهب وصلته تقارير تفيد بأن الثورة في سيستان كانت تنتشر، وكانت هناك دلائل جديدة عن القلاقل في خُراسان. وعندما وصل إلى أصفهان في بداية ديسمبر/كانون الأول دفعه الشك والغضب إلى نوع من الهيجان، فنهب جنوده المدينة والقرى المحيطة بها دون رحمة أو قيد. وضربوا جماعات كثيرة من الناس غير القادرين على الدفع وأجبروهم على النزول إلى الشوارع، وكانوا بين 20

أو 30 شخصا في وقت واحد. حيث دوت أصفهان بالصراخ، وبدا الأمر كما لو أنها قد عصفت بها العواصف ونهبها جيش الأعداء. فتجد كل يوم ما يقرب من 30 جثة ملقاة خارج القصر، ماتوا إما خنقا بأوامره وإما قتلا على يد قواته.61

قبل أن يغادر نادر أصفهان قام بجرد الأشياء الثمينة في القصر ليكتشف اختفاء واحدة من سجاد القصر، فاتهم الرجل الذي عُهِدت إليه الأشياء الثمينة، لكنه أنكر ارتكاب أي مخالفة. أمر نادر بضرب الرجل فقال إن سَلَفه هو الذي باع السجادة قبل بضع سنوات، فسأل نادر عن هذا الوقح الذي اشترى ممتلكات ملكية، وبعد أن ضُربَ الرجل كثيراً، أفاد أنهم ثمانية تجار- اثنان من الهنود، واثنان من الأرمن وأربعة من اليهود، عُثِرَ على التجار، وأُلقيَ القبض عليهم، وخضعوا للتحقيق، وأُعْميتْ عينٌ لكل واحد منهم، ومع ذلك لم تسفر طريقة الاستجواب الوحشي عن أية معلومات مهمة، حيث كان هناك شبه يقين على براءة التجار، وكانوا مقيدين معاً من أعناقهم، وفي اليوم التالي أشعل نادر ناراً كبيرة في ساحة أصفهان أمام القصر، وألقى التجار الثمانية فيها حرقاً حتى الموت.62



9- منظر من الغرب

تمثل هذه اللوحة الميلودرامية، التي تظهر فيها أبراج من الجماجم والعدلُ مداساً بالأقدام وأنثى عارية الصدر تطير في الهواء، في وضع يمكن تفسيره على أنه تهديد، واجهة كتاب جوناس هانواي عن نادر شاه، ما يعطي شعوراً مسبقاً عن وجهة نظر هانواي في نادر. وقد أصبحت رواية هانواي عن الأحداث التي نشرها عام 1753 محوراً لمعظم الروايات التي كتبت بالإنجليزية لاحقاً.

(مكتبة لندن)

الفصل العاشر

العودة إلى المبتدأ

يمكن القول إنه يحسُن استخدام القسوة (إن كان من المناسب التحدث بهذه الطريقة عن ماهية الشر) مرة واحدة دون تكرارها.. مع عدم الإصرار عليها كي لا تستحيل إلى أحد الممارسات الخيرة للفرد. والقسوة التي يُساء استخدامها، رغم أنه من النادر أن يبدأ الإنسان بها، تزداد شدّة وحدّة بمرور الزمان بدلاً من أن تختفي وتتوارى. هؤلاء الذين يستخدمون النهج الأول، يستطيعون بفضل العون الإنساني والإلهي، العثور على بعض الوسائل لتعزيز مواقعهم ومواقفهم، بينما لا يستطيع أصحاب المذهب الثاني المكوث طويلاً في سدة السلطة.

مكيافيللي

ضاعف المرض الجسدي الذي لحق بنادر، وازدادت خطورته من جديد في الأشهر الأخيرة من عام 1746، من اضطرابه العقلي. وقد وجد طبيباً جديداً كبيراً في أصفهان، هو الفرنسي اليسوعي بير بازان))، الذي اعتنى به حتى وافته المنتية. وكان نادر، وفقاً لقول الطبيب بازان الذي قبل هذه المهمة على مضض، يتمتع ببنيان قوي دائماً، لكنه أصبح يعاني في الفترة الأخيرة من مجموعة متنوعة من الاضطرابات، أولها داء الاستسقاء الذي جعل جسده ينتفخ من السوائل. كما أنه لم يكن يستطيع أن يحافظ على الغذاء في معدته باستمرار، ويتقيأ بشكل منتظم بعد ساعة من تناول الطعام. وكان يعاني إضافة إلى ذلك من إمساك حاد واضطرابات في الكبد وجفاف دائم بالفم. ومن المرجح أن هذه الأعراض كانت ناجمة عن متاعبه المتكررة في الكبد والمرارة، الناجمة أساساً عن إصابته بالملاريا في وقت سابق، والتي ربما تفاقمت بسبب الإفراط في معاقرة الخمر في شبابه. وكان الطبيب

بازان حريصاً على دقة تشخيص مرض نادر، فطلب شهراً مهلة لإيجاد الأدوية اللازمة وتحضيرها. ورغم مرضه، وصف بازان نادراً بأنه قوي البنية، طويل القامة، ذو وجه بيضوي لوّحته الشمس، وأنف معقوف، وفم متناسق، وشفة سفلى نائئة قليلا، وعينين صغيرتين ثاقبتين، وتعبير حيوي، وصوت جَهْوري قوي، يستطيع أن يخفضه ويكسوه حلاوة عندما يلزم الأمر.1

تفاقمت مشاكل الدولة مع اضطرابات نادر البدنية، فتطور الشغب والتمرد في الولايات الشرقية لدرجة تطلبت حضوره شخصياً، حيث غادر أصفهان في 23 يناير/كانون الثاني 1747، متجهاً شرقا عبر يزد وكرمان نحو خُراسان. وتضاربت الأنباء القادمة من سيستان. لكن المؤكد أنه قُبض على «فتح علي خان كياني»، زعيم الثورة هناك، وتم التعامل معه. وقد تمكن أحد المتمردين من الهرب إلى قلعة «كوه خواجه» القديمة، ومنها تحدى قوات نادر. فأرسل نادر ابنَ اخيه علي قولي في 40 ألف جندي لمواجهة المشكلة، ثم أرسل لاحقا طهماسب خان جالاير.

وألحت حاجة نادر للمال إلحاحاً جنونياً أكثر من أي وقت مضى، حتى وصل الأمر إلى حاشيته من الأصدقاء القدامى وأفراد الأسرة. وكان قد صادر ممتلكات الأخ الأصغر لعلي قولي، وفرض مساهمات مستحيلة على أميري جورجيا: تيموراز، وإيركل. كما أصدر قائمة تحريم طويلة على أشخاص محكوم عليهم بالإعدام، وبلغ جموحه حداً لم يعد أحد يعرف من سيقع تحت سَورة غضبه القادمة. فأرسل في طلب 100 ألف تومان لعلي قولي[1]، و50 ألفاً مماثلة لطهماسب خان. ولما لم يرد أي منهما جواباً تزايدت شكوكه، وجُن جنونه، وبعث أوامر جديدة بسرعة إليهما ليلقي كل منهما القبض على الآخر، مفترضاً منطقاً مجنوناً، تمخصه أن واحداً منهما سيكون وفياً، وينجح في قتل صاحبه، أو يُقتل هو في أثناء محاولته تلك.

وبدلا من الامتثال لألاعيب نادر الخرقاء، تحدث علي قولي وطهماسب خان جالاير أحدهما إلى الآخر عن محنته. واتفقا على صعوبة موقفهما، ووصلا إلى أنهما سيكونان

(1) يتم جمعها من سكان سيستان، التي لا تزال على تمردها.

أكثر أمانا وهما معاً عما إذا ظلا منفصليْن. فماطلا وتفاديا مزيداً من استفسارات بلاط نادر. وشيئا فشيئا، أصبح واضحاً أنهما توليا قيادة التمرد في سيستان. وكان هذا التمرد أخطر من أي تمرد سابق- فهذان الرجلان عسكريان في الجيش من ذوي الخبرة، ومعهما جنود قدامى تحت إمرتهما. كما كانت لهما صداقات طويلة الأمد، وعلاقات قرابة مع عديد من الضباط والمسؤولين المقربين من نادر. ولا بد أن نادر تذكر بمرارة عميقة فضائله وتساهله مع ابن أخيه.

ويبدو أن علي قولي تأكد أن ولاء قوات نادر الأفغانية هو العقبة الرئيسية أمام ثورته. ففي أبريل/نيسان 1747، ذهب إلى هرات في محاولة لجذب رؤساء العبدلي هناك، ولقي بعض النجاح. أما طهماسب خان جالاير فكان، رغم أمر نادر باعتقاله، أقل تساهلا مع حركة التمرد من علي قولي، ولا عجب فقد كان الملازم موضع ثقة نادر من قبل أن يولد علي قولي، وخاض معه العديد من المعارك. وبدا واضحاً أن طهماسب خان قد أظهر أمارات تدل على رغبته في العودة إلى الولاء، وحاول إقناع علي لتغيير رأيه. لكن الأخير لم تساوره الشكوك، فقد عرف أنه لا عودة إلى الوراء بعد أن أحرقت الجسور.2

وكعادته، ارتكب نادر مزيداً من الفظائع والأعمال الوحشية على طول الطريق إلى خُراسان. وفي كرمان، احتفل بعيد النوروز خارج المدينة في 21 من مارس «مع المعتاد من أمارات الازدهار والثروة»، ولم يخل الأمر من الضرب وبتر الأعضاء بحثا عن الثروة التي لم يعد لها مكان هناك. وقد كان نادر يحس بالضغينة تجاه كرمان، وذلك للانتفاضة القصيرة التي انتفضتها في السنة السابقة. كما وقعت عمليات إعدام جماعية. فقد أقيم برجان مروّعان آخران وزيّنا بالرؤوس المقطوعة. وفي نهاية مارس/آذار تحرك الجيش. وكانت حالة نادر الصحية آخذة في التحسن، وفقاً لما ذكره الطبيب بازان، لكن المرجح أن هذا المرض كان دورياً على أي حال، وأن التحسن كان جانباً واحداً من المرض فحسب، وليس نتيجة لدواء بازان.3

وعند كل منعطف، كانت الأحداث تذكر نادر بأخطائه الماضية. فبعد مسيرة من العقاب عبر صحراء دشتي لوت، قضى فيها عدد من الرجال ونفقت كثير من الحيوانات

من العطش، وصل نادر ورجاله إلى تاباس في خُراسان، حيث كان في استقباله 16 من أبنائه وأحفاده. فراح يحدق بهم لوقت طويل، ويفكر في ابنه الآخر الذي دمر حياته، ويسأل نفسه بمرارة: من منهم سيكون الخائن القادم؟ ثم طلب نادر من الثلاثة الكبار: نصر الله، وإمام قولي، وشاهرخ، واحداً بعد الآخر، أن يأخذوا التاج. لكن اعتذر ثلاثتهم، بحجة أنهم ما زالوا شباباً يفتقرون إلى القدرة والخبرة، فطلب منهم الاستمرار. وقد أدرك الذين شهدوا الواقعة أن من المستبعد أن يتخلى نادر حقاً عن العرش، وأنه إنما قدم هذا العرض لمعرفة ما إذا كان من شأنه أن يغري الأمراء، وأنه إذا ما أظهر أي واحد منهم رغبة في الحكم فسيلقي القبض عليه. وكان نادر دائم التلاعب بفكرة الاعتزال إلى كالات، ويبدو أنه في هذا الوقت بدأ يفكر جدياً في فعل ذلك. لكنّ الاستمرار في السلطة التي حازها لنفسه كان أقوى بكثير مما كان يمكن أن يفعله. ومن تاباس، ذهب نادر إلى مشهد، ووصل مع جيشه وعصابته في نهاية أبريل/نيسان. حيث بدأت هناك من جديد الدورة السوداء ذاتها من الابتزاز والجلد وبتر الأعضاء.4

وفي مشهد، تآمر كل شيء على نادر مما زاد قلقه وغضبه. فقد اعترض المتمردون رسله، وكان الخبر الوحيد الذي وصل إليه سيئاً. وأمل كثير من الناس، حتى أقرب أتباع نادر ومرافقيه، في أن ينجح علي قولي، وينتشل البلاد من محنتها. وكانت هناك مخططات وشبهات تحيط بمخططات في كل مكان. وقد أخبره جواسيسه على الأقل بجزء من ذلك. وبالغ بعض ضباطه في خطورة الوضع عندما حملوا الأخبار إليه، حيث كانت طويتهم الخبيثة تستمتع برؤيته وقد استعر اكتئابه وغضبه. وكانت آثار الردع التي زرعها نادر بداخلهم، والتي تكونت من مشاهد الضرب والإعدامات المريعة، قد فترت الآن، ونمت في مقابلها مشاعر الاستياء الوحشية. إن الأعداء الذين جمعهم حوله في غطرسة، بحجة أنهم سيكونون أقل خطورة إذا ما قربهم إليه، حيث يمكنه أن يُبقي عينه عليهم، بدؤوا الآن يلمسون الضعف الذي يدب في أوصاله. وخلافا لأيامه الأولى في خُراسان، افتقد نادر الاعتماد على شقيقه إبراهيم، أو الملازم طهماسب خان جالاير، الذي كان موضع ثقته. ولما عاد إلى موطنه وإقليمه، عُزل على نحو خطير، وها هو ذا يعود غريباً مرة أخرى.

وكان نادر الآن، بالنسبة لمعظم الناس، قد استنفد رصيده من الثقة الذي منحوه إياه، عندما توج نفسه عليهم قبل أكثر من عشر سنوات. فهو لم يقم بالواجبات الرئيسية للشاه، وفقاً للأفكار التقليدية للملكية، التي تقوم على نشر العدل والحفاظ على النظام. 5 وإن كان الناس في بداية عهد نادر قد شعروا بالامتنان للأمير ذي البأس العسكري القادر على درء أعداء البلاد، وإجبار رؤوس التمرد في الولايات المختلفة على الإذعان والامتثال. ورأى كثير منهم في قسوته صرامة وحزماً لا بد منهما، ولم يداخلهم شك في أنه يحكم بالعدل. وبدت انتصاراته العسكرية لهم كما لو كانت إعجازاً. ورغم أنه كان مهيب الجانب، فإن معظم الناس قالوا: إن الظالمين وأعداء البلاد هم من عندهم سبب لخشيته.

لكن بحلول السنوات الأخيرة من حكمه، كان قد تغير كل ذلك، فتدهورت حالة نادر البدنية والعقلية على نحو خطير، حتى صار مجرد حطام من بنيانه السابق. وراح يتصرف بقسوة لا تتناسب البتة مع الجرائم الحقيقية أو المتوهمة، وعوقبت أعداد كبيرة من الأبرياء مع المذنبين،6 مما لم يدع أحداً يشعر بالأمان. وبدلاً من أن يتصرف مثل الآلهة، ويسمو فوق هموم الناس التافهة التي كان من المفترض أن يكون الشاه عليها، إذا به يفرط في السعي إلى الاستحواذ على ثروة رعاياه، كما لو كان لصاً مخبولاً. وتابعته جيوشه في هذا المسلك، فبدلاً من أن تكون الحامية للإمبراطورية، الوصية على النظام العام، أخذت تتصرف مثل عصابات قطاع الطرق، دافعين الناس دفعاً إلى براثن الفقر والهجرة والعبودية. وفي جو كهذا، ومع شاه مُنفر حتى لأقرب رفاقه وأقاربه، أصبح من المستحيل أن يتمكن من الحكم لفترة أطول.

ولما كان نادر يدرك للخطر المحدق به، فقد أرسل نصر الله، وشاهرخ، والأمراء الآخرين، وحريمه، إلى كالات طلباً للسلامة. لكن البعض اعتبر هذا التصرف دلالة على سجن الأمراء، وربما التنبؤ بعقوبة كتلك التي عانى منها رضا قولي، مما سبب مزيداً من الاستياء.7 وقد عمَ التمرد، حتى إن أعداء نادر القدامى من أكراد خابوشان أعلنوا تأييدهم للتمرد الذي يقوده علي قولي، وداهموا مزرعة خيوله، الواقعة بين مشهد وخابوشان. وربما كان ذلك خدعة متعمدة اتفقوا مع علي قولي عليها، لاستغلال حب نادر المعروف

للخيول، وإخراجه من مشهد. وبالفعل نجحت الخدعة، فقد خرج نادر في حوالي 16 ألفا من الرجال لسحق الأكراد، الذين فر بعضهم إلى التلال، وتراجع بعضهم الآخر إلى قلعة خابوشان. وفي مساء 19 من يونيو/حزيران عام 1747، عسكر نادر على تل صغير في فتح أباد، على مسافة سبعة أميال أو ثمانية من المدينة،8 استعدادا للهجوم الجديد على المتمردين الأكراد من خابوشان، بغية إخضاعهم، وها هو ذا يعود إلى حيث بدأ.

وفضلا عن الأكراد، ساورت نادر مخاوفُ من داخل معسكره، فلم يعد يثق في كبير آل بيته، صالح خان، وكان أكثر اشتباهاً في الكشكجي باشي محمد قولي خان قرقلو. وكان الأخير، وهو من الأفشار ومن العائلة المالكة، موضع احترام ضباط الجيش الآخرين، وكان يمتاز بإجراءاته السريعة الحاسمة في الماضي. لذا تولى قيادة فرقة من ألف رجل من حرس نادر الشخصي من قبيلته أفشار. وقد عرف نادر بسخطه، وتقول بعض الروايات إن محمد قولي كان على اتصال سري مع علي قولي.9 وفي ليلة كانت فيها فرقة الأفشار التابعة لمحمد قولي خان في الخدمة، حدثت تلك الدراما الملفتة للنظر التي تشابهت شخصيات أبطالها من الأقارب والأفشار الخراسانيين والأكراد إلى حد كبير، مع أولئك الذين كانوا في الحلقات الأولى من سيرته، عندما كان في طريقه إلى أبيورد. فالحقد الذي ترعرع بداخلهم تجاهه أثناء الخلافات الوحشية والخيانات والقتل في تلك الأيام الباكرة لم يذهب بعيدا، وظل متواريا مكبوتا بداخلهم، فلما خارت قوته، وأصبح رجلاً وحيداً في معسكره، حانت ساعة استحقاق الحسابات القديمة.

قرر نادر في ذلك المساء القضاء على التهديد الذي يشكله محمد قولي خان وغيره من ضباط حراسته، فاستدعى أحمد خان عبدلي، قائد الجنود الأفغان في الجيش والذين يبلغ عددهم أربعة آلاف جندي، فجاء مع بعض الضباط الأفغان إلى خيمة أقامها نادر لاستقبال خاصة زواره. وقد ظل نادر لسنوات يحتفظ بتعداد غير متوازن في صفوف قوات جيشه بين الفرس وغير الفرس، والمسلمين الشيعة والسنة، لكيلا يعتمد كثيراً على قبيلة أو طائفة أو فصيل دون غيره. وكان يستخدم المنافسة ليحفز كل مجموعة لمزيد من الحماسة والجهد.

وفي خيمته الخاصة تلك، قال نادر للأفغان إنه يشتم رائحة الغدر في حرسه، وأعلن ثقته في الأفغان، وقال إنه يريد منهم القبض على ضباط الحرس في صباح اليوم التالي، وقتل من يقاوم منهم. وقد اختار نادر أحمد خان عبدلي رغم صغر سنه، فقد كان سنه حينذاك حوالي 24 عاماً، لأنه كان نقيباً موهوباً. كما أنه كان مدينا بالفضل لنادر، فهو الذي أفرج عنه من زنزانة كان حبيسا فيها عندما سقطت قلعة قندهار في يد الفرس في عام 1738. وقد تأكد أحمد خان أن نادر يريد مذبحة للضباط الفرس، فرجاله يميلون إلى معاداة الفرس في الجيش، بما في ذلك قوات الحرس، وهم موالون لنظام الشاه. لذا وعده بالانصياع لأوامره، ثم غادر الخيمة هو وضباطه الأفغان.

عند هذه النقطة ينبغي أن نتوقف قليلا ونتساءل عن حقيقة ما كان يجري. فتصرفات نادر تدل على أنه كان يدرك الخطر الذي يحدق به. وغريزة المحافظة على النفس عادة ما تكون، ولا شك، حافزا قويا للتفكير الواضح، لكن يبدو أن نادر لم يعد يتصرف بعقلانية. فلو أنه استدعى الضباط الذين كان يشتبه في أمرهم، حينما كان الأفغان معه، لأمكنه التعامل مع المشكلة على الفور. لماذا لم يأمر الأفغانَ بإلقاء القبض على ضباط الحرس على الفور؟ إن رسالة حياته كلها، وكل النجاحات التي حققها، تمثلت في اتخاذ الإجراءات الفورية. ولماذا يعطي أعداءه في هذه الأزمة الليلَ بطوله حتى يستبقوا أمره؟ إن الأمر يبدو كما لو أنه قرر ما قرره بنصف عقله فقط- رغم أنه أعطى أوامر بتدمير أعدائه- وقرر بالنصف الآخر أن تكون هذه هي نهاية الطريق. ومن ثم، أعطاهم عن عمد الفرصة كي يقتلوه.

سمع أحدهم بلقاءَ نادر والأفغان، وأخبر به محمد قولي خان، الذي أسرع إلى صالح خان، يخبره بذلك، ويتفق معه على اغتيال الشاه في تلك الليلة، قبل أن يقوم الأفغان بأي فعل. لذا نصّبوا مجموعة تتكون من حوالي 70 من الضباط والنبلاء والحراس وغيرهم ممن يثقون فيهم.

ولم ينم نادر تلك الليلة في خيمته كالمعتاد، بل نام مع تشوكي، ابنة محمد حسين خان قاجار، وكانت واحدة من نسائه المفضلات منذ بعض الوقت. وتقول إحدى الروايات إنه

كان مضطربا طوال ذلك اليوم بسبب حلم رآه، تكررت فيه صور كان قد رآها في حلم سابق قبل بضع سنوات من توليه منصب الشاه. حيث جاءته في حلمه القديم مجموعة من النبلاء، وأعطاه أحدهم سيفا، وقال: إنه عُهِدَ إليه بهذا السيف في عهد مملكة فارس. لكن في حلمه الجديد يرى نادر الرجلَ نفسه، وهو يقول: «خذ السيف من حزام هذا الشخص غير الكفء، فهو لا يستحق هذه المهمة». وضاعت محاولات نادر للإبقاء على السيف في الحلم سُدى. وفي صباح اليوم التالي، أخبر أحد وزرائه بهذا الأمر، وتباحثا في السفر إلى كالات، 10 لكن الوزير طمأنه، وأكد له أنه لا يوجد ما يستدعي الخوف.

عندما ذهب إلى تشوكي في المساء، كان قلقاً، غير مستقر. وبعد أن دخل خيمتها، خلع قبعته، ووضعها على الأرض، وكشف عن شعره الأبيض. وكان شعره يتناقض مع لحيته التي حافظ عليها مصبوغة بالسواد.11 ومع أنه كان يغالب النعاس، فإنه لم يخلع ملابسه، وإنما اضطجع للنوم في ثيابه. وطلب من تشوكي أن تسمح له أن يأخذ سِنَة من النوم، وأن توقظه إذا استغرق في نوم عميق.

وسرعان ما وصل المتآمرون إلى مدخل مجمع الحريم، لكن رفض معظمهم الدخول أبعدَ من ذلك، إلا أن صالح خان ومحمد خان قاجار عرفاني وواحداً آخر كان لديهم ما يكفي من العزم، فقاموا بدفع الآخرين جانباً والدخول، مما أسفر عن مقتل خَصِيّ زنجي حاول الوقوف في طريقهم.

استيقظت تشوكي على الضجيج، وأيقظت نادراً فيما دخل صالح خان خيمته. فقفز من السرير متوشحاً سيفه، موجهاً الشتائم في غضب، لكنه تعثر. وبينما هو ملقى على الأرض، بادره صالح خان بطعنة بسيفه، ضارباً ما بين العنق والكتف، قاطعاً ذراعه، ثم تخشب من الصدمة. ورغم أنه كان ينزف بغزارة، حاول نادر الوقوف، لكنه فشل. فطلب منهم الإبقاء على حياته، بيد أن محمد خان قاجار كان أكثر تصميماً من صالح خان، فاتجه صوب نادر بسيفه، وفصل رأسه عن جسده بضربة واحدة.12

عمت الفوضى بموت نادر، ونهب القتلة أجنحة النساء وخيام الشاه، وسرقوا كل ما

أمكنهم أن يجدوه، وقتلوا اثنين من وزراء نادر[1]. وكان قادة القتلة قد عزموا على إبقاء الأمر هادئا حتى صباح اليوم التالي، لكنهم لم يستطيعوا كبح جماح السلب والنهب. وفي الصباح، استيقظ الأفغان، وتحركوا بقضهم وقضيضهم، وعلى رأسهم أحمد خان، متجهين صوب المساكن الملكية، ليجدوا طريقهم مسدوداً بأكثر من ضعف عددهم من الحراس. ورفض الأفغان أن يصدقوا أن نادراً قد مات، واستطاعوا بعد معركة ضارية أن يشقوا طريقهم حتى وصلوا إلى خيمته، ليجدوه جثة ملقاة على الأرض، مضرجة بالدماء، وبجواره امرأة عجوز تبكي عند رأسه. فشق الأفغان طريقهم إلى خارج المعسكر، ثم ركضوا غير بعيد في إثر قافلة تحمل الكثير من الكنوز المنهوبة التي أرسلها محمد قولي خان إلى مشهد، فنهبها الأفغان، واستولوا على ماسة «كوه نور»، مع غيرها من الأشياء الثمينة، ثم عادوا أدراجهم إلى موطنهم.

وعلم أحمد خان عبدلي أن رفاق السلاح السابقين سيكون لديهم الكثير مما يصرفهم عن شؤون هرات وقندهار لبعض الوقت في المستقبل. لذا دعا زعماء القادة الأفغان بمجرد وصوله إلى قندهار، وأعلن نفسه أول شاه في أفغانستان، متخذاً لنفسه اسم «أحمد شاه دوراني». وقد نجح في تأسيس حكم موفق، وجعل من أفغانستان دولة مستقلة، رغم أن فتوحاته في وقت لاحق في شمال الهند كانت قصيرة الأجل.

ومن معسكره في فتح أباد، أرسل محمد قولي خان، الذي كان قد نأى بنفسه عن أي أذى خلال عملية الاغتيال والقتال الذي أعقبها، رأس نادر إلى علي قولي، ليبين له أن المهمة قد أنجزت. وقبل وصول البرهان القبيح، ذهبت هيئة من قوات بَختياري إلى كالات، لتأمين الكنوز والقبض على عائلة نادر. حاصر البختياريون القلعة. وبعد بضعة أيام، ترك أحد الأشخاص المحتمين بالقلعة سُلّمه تجاه أحد الأبراج، بعد أن نزل للحصول على الماء- وربما لم يكن ذلك من قبيل المصادفة- فدلف رجال علي قُلي من خلاله إلى

(1) ولا شك أن تشوكي ظلت على قيد الحياة بعد تلك الليلة الدامية، لأنه لولاها لما كان لدينا سرد مفصل عن تلك الليلة، لا يمكن أن يأتي إلا عن طريقها. ويروي بازان أن القتلة تركوا النساء اللائي كن في مقصورة الحريم فقط، وفضلوا أن يستولوا على الذهب والمجوهرات (ص 322).

داخل القلعة. لكن كان كل من نصر الله، وإمام قولي، وشاهرخ قد تمكن من النجاة على ظهور الخيل، فشقوا طريقهم بشراسة في اتجاه مَرْو. ولم يتركهم أعداؤهم، بل طاردوهم، وألقوا القبض على إمام قولي وشاهرخ على بُعد 30 ميلاً. بينما ركض نصر الله، بعد أن دفع واحداً من الرجال عن حصانه بضربة سيف، وشق طريقه إلى مَرْو. وهناك عرفه بعض جنود الحامية، فألقوا القبض عليه، وأعادوه إلى كالات. ومن هناك، أُرسِلَ مع إمام قولي وشاهرخ إلى مشهد، التي أعدم فيها اثنان من أكبر الأمراء سنا. وكان رضا قولي، ذلك الشاب الذهبي السابق، الفقير الأعمى، قد قُـتِلَ في كالات.

أما شاهرخ، الذي كان عمره آنذاك 13 عاما، فقد نجا، وبقي على قيد الحياة في الخفاء، لأنه كان ابنا للأميرة الصفوية. وقد اعتقد علي قولي أنه قد يكون مفيداً إذا واجه مصاعب. وعلى العموم، لقي كل أولاد نادر من الأطفال الذكور وأحفاده (20 أو أكثر) مصرعهم، حتى أصغر الأطفال. بل إن صبيين صغيرين يبلغ أحدهما من العمر ثلاث سنوات، ولا يزيد الآخر على 18 شهراً، واسمه «جنكيز» على اسم «جنكيز خان»، قتلا بالسم. وعلى أي حال، لم يتوقف القتل هناك. فقد أمر علي قولي ببطون الحوامل من الحريم فبُقرت، لقطع أي وشيجة بين نادر وذريته. وبمجرد انتهائه من ذلك، بعد أسبوعين من اغتيال نادر، أعلن نفسه شاهاً تحت لقب جديد هو: عادل شاه.13

لم تنته معاناة فارس بوفاة نادر، فقد شهد الجزء الأكبر من السنوات الخمسين التالية حرباً أهلية قسّمت فيها إمبراطوريته. حيث لم يستمر علي قولي شاهاً إلا ما يزيد قليلاً على السنة التي انصب اهتمامه فيها على متاعه الشخصي أكثر من تعزيز قبضته على السلطة. واجتاح الجيش خُراسان في تلك الأثناء، ومارس عادات الابتزاز العنيفة التي علّمه إياها سادته السابقون، وهو ما خلق مجاعة في جميع أنحاء مدينة مشهد.

وكان علي قولي قد أبقى على محمد قولي، الكشيكجي باشي، الذي خطط لمؤامرة اغتيال نادر في فتح أباد، قائدا لحرسه الخاص. لكن لما كان حكم الشاه الجديد غير محبوب، وبدأ يظهر الجوع بين الناس في مشهد، وضع محمد قولي مرة أخرى خطة لقتل سيده، بيد أن أحد الجواسيس حذر علي قولي هذه المرة، فألقى القبض عليه وسمل عينيه. وتقول

إحدى الروايات: إن محمد قولي دلف متوغلاً في مقصورة الحريم حيث تعيش الناجيات من نساء نادر معاً. وعندما رأينه وقعن عليه بما في أيديهن من مقصات حادة ومخارز صغيرة كن يستخدمنها في شغل الإبرة. لكنه لم يمت حتى تعبن من تعذيبه.14

وفي النهاية، قام شقيق علي قولي، واسمه إبراهيم، بخلعه، وسمل عينيه، وكلاهما نفذ فيه حكم الإعدام في وقت لاحق من جانب غيرهما من المتنافسين على السلطة. وهكذا استمرت الاضطرابات والعنف حتى قامت مجموعة من الضباط والنبلاء بتتويج شاهرخ في أكتوبر/تشرين الأول عام 1748، ليُعزل بعد ذلك وتسمل عيناه. ثم يُعاد لاحقا إلى العرش، ويُسمح له بالاستمرار شاهاً على مملكة ممزقة، تحت تأثير أحمد شاه دوراني، شاه أفغانستان، وخلفائه. واستمر شاهرخ على هذا النحو، دمية حزينة عمياء، حتى عام 1796. وفي أثناء ذلك، برز في القوقاز واحد آخر من الذين كانوا تحت حماية نادر، وهو ايريكل، ويقتطع لنفسه دولة مستقلة في جورجيا.

وفي غضون بضع سنوات، عاد العديد من عناصر الجيش المختلفة، ومعظم الناس الذين أعاد نادر توطينهم في خُراسان، إلى ديارهم. وكان من بين العائدين قبيلة زند الصغيرة، التي فرض أحد زعمائها، وهو كريم خان زند، هيمنته على بلاد فارس الغربية، وحكم من عام 1765 حتى 1779، وكان الجزء الأكبر من فترة حكمه سلمياً. وكان كريم ذكياً، فلم يُنصّب نفسه شاهاً، بل حكم من شيراز على أنه «وكيل». وبعد وفاته عام 1779، اندلعت حرب أهلية مرة أخرى، ساد القاجاريون في أستر أباد. وفي النهاية، أعلن آغا محمد، حفيد فتح علي خان قاجار الذي أعدمه طهماسب في عام 1726، نفسه شاهاً عام 1796، وأسس الأسرة القاجارية، التي سادت حتى عام 1925.

وخلافاً 1722، لم تحاول قوى أجنبية استغلال الفوضى في بلاد فارس لمصلحتها بعد وفاة نادر عام 1747، بل تركت القوى الداخلية تحسم الصراع على السيادة. وقد فاز القاجاريون في النهاية بهذا النضال، لتبدأ تحت حكم آغا محمد خان إعادة بناء فارس بحدودها التقليدية. وفي سبتمبر/أيلول 1795، تمكن آغا محمد من الانتصار على جورجيا مرة أخرى، لكن هذا النصر لم يدم طويلاً. فقد أثارت وحشيته هناك حفيظة الروس، فقام

جيش روسي بضمها إلى أراضيهم عام 1800. ثم خسرت الأسرة القاجارية في وقت لاحق كثيراً من أملاك فارس في منطقة القوقاز، في سلسلة من الحروب مع الروس، في أوائل القرن التاسع عشر. وفيما بعد، اضطر القاجاريون، تحت الضغط البريطاني، للتخلي عن جهودهم الرامية لاستعادة حيرات كذلك.

وقد بقيت روح نادر من وراء الأسرة القاجارية كالنفس اللوامة. فتقبل القاجاريون خسارة الأرض، رغم أنهم عضدوا المركزية وقاموا ببعض الإصلاحات، لكن كل ذلك لم يكن كافيا للحفاظ على جيش قوي حديث، أو لتحقيق مساعي المصلحين النشطاء التي ضاعت سُدى.15 ومن ثم، تقوقع القاجاريون خلف الحدود الطبيعية الهائلة لبلاد فارس، مرتدّين إلى ما يشبه الوضع السلبي لحكم متأخري الصفويين، وتخلوا عن الرغبة في المنافسة على المسرح العالمي، وآثروا عوضاً عن ذلك الحياة الهادئة. وهو ما سمح للقوى الاستعمارية بقضم سيادة بلاد فارس، حتى أضحت صلاحيات آخر شاهات القاجار محدودة للغاية، ناهيك عن مناطق النفوذ، التي أصبحت موجودة داخل البلاد نفسها، لكل من بريطانيا وروسيا.

زج نادر بالبلادَ في الحرب، وإذا كانت عائلته خبرت النجاح العسكري بقليل من الحكمة الإدارية (كما يعتقد بعض المعاصرين أنه كان لديهم سبب كي يأملوا في أن يتولى رضا قولي مقاليد الحكم)، فإن نمو هياكل الدولة وعملية الإصلاح والتحديث ترافقت مع التوسع العسكري، كما حدث في فرنسا وروسيا، وغيرهما من الدول الأوروبية في القرنين السابع عشر والثامن عشر. وقد تبع ذلك عدة أشياء مثل الهيمنة الفارسية في العالم الإسلامي، على المدى الطويل وربما زوال الشقاق الشيعي–السني والتكافوئ غير السهل للتنمية والتطور مقارنة بالغرب. وفي أوروبا، أُجْبرت الدولة الآخذة في الاتساع، والتي لا تزال في تنافس عسكري وثقافي مع جيرانها في القرن التاسع عشر، على قبول المزيد من التوسع للطبقات الاجتماعية، ما أدى إلى زيادة انتشار الازدهار الاقتصادي، وحفز التنمية الاقتصادية السريعة، وفي النهاية توسعت عملية التحول الديمقراطي. والحق أن بلاد فارس، بطبقة التجار والحرفيين القوية والراسخة فيها (التي استطاعت، بالتحالف

مع علماء الشيعة في نهاية الأمر إطلاق ثورة إصلاحية في الفترة 1905–1911)16 كانت في وضع أفضل نظرياً للانطلاق الاقتصادي والاجتماعي والسياسي من غيرها من بلدان المنطقة، فليس هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن التطورات التي حدثت في أوروبا، أو غيرها من التغيرات المماثلة، لم يكن من الممكن حدوثها هناك.

وربما يُظن أن هذه الادعاءات كبيرة، لكن نادراً كان قد حقق بحلول عام 1743 نجاحات مذهلة بالفعل. فقد أثبت تفوقه على إمبراطورية المغول، وكان قريباً من تحقيق الشيء نفسه مع السلطان العثماني، كما سيطر على أقوى جيش في آسيا، إن لم يكن في العالم أجمع. وكان الاستبداد العسكري، شئنا أم أبينا، هو المادة المعتادة لتشكيل التنمية الاقتصادية والسياسية والاجتماعية في هذه الفترة. ولو حالف النجاحُ نادراً وأسرَتَه، لربما ذُكِرَ اليوم باعتباره شخصية في التاريخ الإيراني تقارن بشخصية بطرس الأكبر في تاريخ روسيا، من حيث كونه ملكاً ديناميكياً، لا يرحم، استطاع أن يضع بلده على مسار جديد[1]. لكن شيئاً من هذا لم يحدث، لأنه بعد عام 1742 تعثر حكم نادر، وتحول إلى قمعي جداً وفشل. وهكذا لم تتحقق الرؤية العظيمة من حكمه أبدا، فضاعت الفرص، وسقطت البلاد مجدداً في الفوضى والسُّبات.

على العموم يجب الحكم على الحكام بالأساس من خلال ما حققوه في فترة حكمهم من نتائج فعلية وليس على أساس ما كان يمكن أن يحدث. ولم يكن ما حققه نادر من

---

(1) إذا عدنا مجددا إلى المقارنة بين نادر وبطرس الأكبر، نجد أن نادر لم يتبع سياسة تغريبية على مستوى الوعي الذاتي كتلك التي اتبعها بطرس، كما نجد أن اهتمامه كان أقل من بطرس فيما يخص التنمية الاقتصادية. ولا شك أن نظام نادر لو كان استطاع البقاء على الدرب، وتحمل الأزمات التي مر بها في الفترة 1741–1742، لتمكن من تحقيق تلك التنمية. ولا ينبغي أن ننسى أن بطرس توفر له مزيد من الوقت، وامتد حكمه من عام 1682 حتى عام 1725، أي 43 عاما، مقارنة بأحد عشر عاماً قضاها نادر في سدة السلطة (أو 15 عاما، إذا ما أضفنا فترة حكمه التي كان فيها «وكيلا»، بعد أن خلع طهماسب في عام 1732). ومما يؤكد أهمية عنصر الوقت في هذه القضية معرفتنا أن معظم إصلاحات بطرس الأكثر تقدمية جاءت في الفترة الأخيرة من عهده، بعد زيارته ألمانيا وهولندا وإنكلترا والنمسا في عام 1697/1698. وهناك أوجه شبه أخرى بين حياة الاثنين، لاسيما انشغال كل من الرجلين بالمسائل العسكرية، والمعاملة القاسية لأبنائهما، الذين توجد بحقهم مجرد شبهة الخيانة. فقد مات ابن بطرس الأكبر البكر، ألكسيس، تحت التعذيب، بعد أن سُجن في عام 1718.

إنجازات أمراً يسيراً، لذا لا عجب في أن يكتب السير جون مالكولم في أوائل القرن التاسع عشر: إن جيلين من أجيال الفرس اللاحقة تكلما باعتزاز عن مآثر نادر الجليلة، وبمزيد من الشفقة، لا الرعب، عن وحشيته في سنواته الأخيرة. فقد أحسوا بالامتنان له، رغم جرائمه التي ارتكبها، لإحيائه شعور العظمة القديمة بين الفرس واستعادته استقلال البلاد.17

ففي السنوات العشرين التي انقضت بين استيلائه على مشهد في نهاية عام 1726، وبين وفاته قبيل عام 1747، طرد نادر الأفغان، واستعاد حدود بلاد فارس، وأقام نظامه باعتباره قوة مهيمنة من دلهي إلى بغداد. وفي سبيل تحقيق ذلك، قطع نادر أكثر من 20 ألف ميل وخاض 20 معركة كبرى أو أكثر، كان النصر حليفه فيها جميعاً إلا في واحدة. وإذا ما أخذنا في الاعتبار نجاحاته السياسية، وتحوله من شخص مغمور تماماً إلى آخر مسيطر على كل هذه المنطقة الضخمة وهذه القوة العسكرية الهائلة، نجد أن هذا الإنجاز لم يكن له مثيل في التاريخ الفارسي، ولا يساويه إلا عدد قليل في تاريخ العالم. فقد فتحت نجاحاته الطريق واسعاً أمام المزيد من الطموحات والإمكانيات الأرحب، وكفلت انتصاراته بقاء إيران أمة قوية استطاعت تحمل آثار فترة حكمه. لكن عهد نادر في نهاية المطاف كان فاشلاً، بل كارثة على بلده، ليس من أجل المعاناة الرهيبة التي تعرض لها الملايين في حياته ووفاته المخزية فحسب، بل كذلك من أجل الفرص التي ضاعت بسبب انهيار نظامه، والمعاناة الناجمة عن هذا الانهيار في السنوات اللاحقة. ولعل الاضطرابات والمهانات الوطنية التي أعقبت وفاة نادر هي التي جعلت الذاكرة الشعبية لأجيال لاحقة تغير كلمات رضا قولي التي تلفّظ بها بعد أن أصيب بالعمى إلى: «ليست عيني هي التي اطفأتموها، بل عيون فارس».18

ملاحظات

مقدمة

1. أشار جيريمي بلاك إلى هذه النقطة في كتابه Jeremy Black, Warfare in the Eighteenth Century (London 1999), p. 38.

2. للتمعن في احتمالات ونتائج غزو نادر للهند انظر Subrahmanyam 2000 (ولاسيما الصفحة365 لمعرفة رد فعل شركة الهند الشرقية على غزو نادر لدلهي). انظر أيضاً الحاشية رقم 6 في الفصل 8.

3. انظر Byly, pp. 1, 13. وربما لعب دوراً في ذلك أيضاً وجود نوع من النفور من التاريخ الإيراني- «إن القرن الثامن عشر هو حقبة مروعة في التاريخ الإيراني... فقراءته مروّعة، وتحليله مروّع، والعيش فيه مروّع. لذا لمعالجة هذه الحقبة المروعة أقترح الالتزام بأكبر قدر ممكن من الإيجاز» (روجر ستيفنز. Roger Stevens, The Land of the Great Sophy, London 1971, p. 30). وقد يتفق البعض مع ستيفنز بعد قراءتهم قصة نادر، بيد أنه إذا كنا نريد أن نحاول أن نفهم التاريخ فإننا مضطرون لعرض صفحاته كلها بكل ما هو مظلم ومضيء فيها.

4. غير أنه ثمة استثناءات مشرّفة، ونخص بالذكر السير جون مالكولم الذي أنصف نادر في كتابه History of Persia من خلال تصحيحه لانتقادات Jonas Hanway حيث يقول «كثيرا ما بدا لي في أثناء وصفه للطغاة في الشرق أنه توجد لديه رغبة قوية في إرضاء تعلق جمهوره بالحرية وإشباع نفوره من الطغيان والسلطة الاستبدادية مهما كان شكلها. وقد فاقت هذه الرغبة هذه حرصه على إعطاء صورة واضحة وعادلة لتلك الشخصيات التي قام بتحليل تاريخها». (Malcolm, Two Letters, p. 530).

5. مازال لهذا الرأي وجود في بعض كتب التاريخ الحديثة، مثل Spear 1990, vol. 2,

.pp. 72-3

6. مالكولم، Malcolm, Two Letters, p. 531.

7. انظر مقالتي القادمة Basile Vatatzes and his History of Nader Shah.

8. ونخص بالذكر Parker 1988، إضافة إلى John A. Hall 1986, p. 140 وفي غيرها من المواضع المختلفة.

9. على سبيل المثال لم يكن برنارد لويس محقا في كتابه Bernard Lewis, What Went Wrong (London 2002) (لندن 2002) عندما كتب معلقا في الصفحتين 20—21: «انتهت الحروب بين تركيا وإيران في عام 1730 بانتصار الفرس الأقل حداثة» حيث لا يعكس قوله فهما للأحداث التي وقعت في أوائل القرن الثامن عشر في هذه المنطقة. فالحروب لم تنته في تلك الفترة كما أن القرب من الغرب لا يعني بالضرورة زيادة بالحداثة، لذا فالفرس لم يكونوا أقل حداثة.

تمهيد – الأوج

1. 11 Hanway, p. 174; Fraser, p. 178; Brosset, vol. II, Part II, p. 360 - رسالة من إيركل.

2. لقد سميّتُ إيران الحديثة باسم «بلاد فارس» في كتاباتي حول الأحداث التي سبقت القرن العشرين، غير أنني أطلق على بلاد فارس اسم إيران عندما أشير إلى العصر الحديث. وقد كان نظام الشاه البهلوي الأول، رضا شاه، النظام الذي أصر على استخدام الاسم إيران في الثلاثينيات من القرن الماضي (وهو الاسم الذي يستخدمه الإيرانيون دائما للإشارة إلى بلدهم ولغتهم). وكلمة فارس مشتقة من مقاطعة فارس في إيران التي جاء منها الملوك الفرس القدماء واللغة الفارسية.

3. Blake 1991, p. 68 .

4. Blake 1986, p. 171, JN, Vol. 2, p. 73 .

5. هناك العديد من الأوصاف لعرش الطاووس، منها ما جاء في كتاب جان باتيست تافيرنيه، Jean-Baptiste Travernier, Travels in India, trnns. V.Ball, Ed. W. Crooke (London 1925), Vol. 1, pp. 303-5. ويختلف الوصف الذي جاء في AAN لكنه يتفق معه بشأن حجم وكمية المجوهرات وأسماء أحجار الماس مثل الماسة التي تسمى قوة النور Kuh—e Nur (المجلد 2، الصفحة 739).

6. JN, Vol. 2, p. 74. .

7. Hanway p. 175; JS, p. 27; Fraser, pp. 179-80; Floor 1998, p. 307.

ثمة رواية تقول بأن سعدات خان توفي نتيجة للجرح الذي أصيب به قبل ذلك ببضعة أشهر (Lockhart 1938, p. 145n and p. 135n)، لكن يبدو من غير المعقول أن يرتحل رجل يحتضر بسبب إصابة قدمه بالغرغرينا على صهوة الجواد مع نادر إلى دلهي قبيل وفاته بفترة لا تتعدى بضع ساعات.

8. Sarkar, p. 60.

9. Fraser/Mirza Zaman, p. 120; Lockhart 1938, 145n; Hookham, p. 77 .

استُخدم اللقب «صاحب القِران» من قبل العديد من الحكام الآخرين بعد تيمور.

10. Abd ol-Karim Kashmiri (BW), fol. 83a.

11. Fraser, p. 179.

12. Sarkar, p. 7; Lockhart 1938, p. 122 .

رغم غزو الأجانب بلاد الفرس عدة مرات فقد انتشر أدب البلاط الفارسي وثقافته في جميع الأجزاء الشرقية من العالم الإسلامي، من اسطنبول، مروراً ببخارى، وانتهاء بدلهي وما ورائها. صدق من أسماها «إمبراطورية العقل».

13. قمت بتوحيد الألقاب في الاقتباس - Malcolm, History of Persia, Vol. 2, p. 85.

14. ARM, fol. 174a; JN, Vol. 2, p. 76.

15. ARM, fol. 174a; JS, pp. 27-8; Fraser, p. 181.

16. Fraser, pp. 181-2; Hazin, p. 298.

17. BW, fol. 81b. انظر أيضاً AAN, p. 298.

18. Fraser, p. 183..

19. ARM, fol. 174a; Fraser, p. 183 .

20. Malcolm, History, Vol. 2, p. 83.

21. BW, fol. 82a; Sarkar, p. 65; Sheikh Hazin, p. 299; JN. Vol. 2, pp. 77-8.

22. ARM, fol. 174a; BW, fol. 82a; Fraser, pp. 186-7

23. JN. Vol. 2, p. 79; Sarkar, pp. 66-7; Hanway, Vol. 4, p. 178

24. Hanway, Vol. 4, p. 178; ANN, p. 747 in Floor 1998, pp. 307-8. حيث جاء في رسالة لممثل شركة الهند الشرقية في دلهي أنه قد تم احتجاز النساء مدة أطول وأنهن «عانين من إرادة هؤلاء الجزارين»، ولكن الرسالة أُرسلتْ بعد وقت قصير من انتهاء المجزرة، وقد كان من الممكن إرسالها قبل سماع الممثل الهولندي عن إطلاق سراح النساء.

25. BW, fol. 82b; ARM, fol. 175a .

26. Lockhart 1938 – ص 148؛ وFloor 1998 – ص 307-8 307-308 - جاء في المصادر أسماء للعديد من النبلاء لكن ورد ذكر نظام المُلك أكثر من أي شخص آخر. ربما يكون قد رافقه وزير محمد شاه، قمر الدين خان.

28. Avery, p. 40; BW, fols. 83a-83b; ARM, fol. 174b.

28. يقرّ BW, fol. 83b; Floor 1998, p. 308 بأن القتل قد انتهى فور تلقي الأوامر بذلك.

29. Sarkar, p. 66, Lockhart 1938, p. 149 and 149n, Subrahmanyam, p. 362, Floor 1998, p. 307 .

30. Lockhart 1938, p. 147, Blake 1991, p. 162 .

31. ARM, fol. 174b.

32. Fraser, pp. 186-9.

33. Hanway, Vol. 4, pp. 184-6. يقول ميرزا زمان إن نظام قد دفع في نهاية المطاف مبلغ 15 مليون الذي طولب بدفعه– Fraser,pp. 192-3.

34. Hanway, Vol. 4, p. 186.

35. Fraser, p. 200n.

36. JN, Vol. 2, p. 81, Fraser, pp. 189-90; Riazul Islam 1982, pp. 77-8.

37. ARM, fol. 176a, Lockhart 1938, p. 152.

38. Fraser, pp. 201-2.

39– يقول كل من Fraser, pp. 220-1; Lockhart 1938, pp. 152 and 152n, BW, fol. 84b إن المبلغ كان 800 مليون. لكن البعض يرى أن المبلغ كان 1110 مليون (Subrah-manyam, p.362 نقلا عن دي فولتون). كما يشير تقرير لشركة الهند الشرقية إلى مبلغ مليون مليون. لذا يبدو أنه قد صدر الأمر لشخص ما بجعل الرقم غامضاً وغير معروف (Floor 1998, p. 308).

40. ARM, fol. 176b.

41. ARM, fol. 175b, JN, Vol. 2, p. 79, Fraser, p. 197

42. Malcolm, History, Vol. 2, pp. 46/47. من اقتباسات مالكولم من مخطوطات فارسية غير معروفة.

43. Fraser 198-9; Mohammad Bakhsh/Ashub, quoted by Lockhart 1938, p. 151.

44. يرى Subrahmanyam أن اللحظة التي التقى فيها محمد شاه بنادر للمرة الأولى قبيل دخول نادر لدلهي هي اللحظة التي قد يكون نادر قد قرر فيها ضم أراضي المغول. لكنني أعتقد أنه قد انتظر إلى أن وضع يده على دلهي وثرواتها قبل الوصول للجائزة الكبرى، لكن الاعتبارات الإستراتيجية هي نفسها تقريبا في كلتا الحالتين (Subrahman-yam, p.361).

45. JN, Vol. 2, pp. 81-82; Fraser, p. 207; Riazul Islam 1982, Vol. 2, pp. 79-83.

46. Fraser, p. 225.

47. Fraser, pp. 206-7, Sheykh Hazin, p. 301.

48. Fraser, p. 208, Brosset, p. 361.

49. Fraser, pp. 208-9.

50. Fraser, p. 221; BW, pp. 165-6 and, pp. 92-3; Lockhart 1938, p. 154n.

51. Fraser, pp. 209-10. وتؤكّد مذكرات جومبرون (19/30 سبتمبر 1739) أن نادراً قد أخذ كنوزاً هائلة من دلهي إلى كابل لكنه لم يأخذ أي عبد هندي.

52. Hanway, Vol. 4, p. 196.

53. قارن Stefan Zweig Ungeduld des Herzens ـ «إن تلهف القلب للخلاص بأسرع ما يمكن يهيج المشاعر المؤلمة التي تسببها رؤية تعاسة شخص آخر». وأشار Hanway في المجلد 1– ص 250 إلى أن نسبة الرجال إلى النساء في المخيم الفارسي كانت واحداً إلى عشرة.

54. BW, fol. 85a onward.

55. يُترجم النص الفارسي حرفيا إلى «زهرتي نفسها»– أي فرجها. وقد تعامل عبد الكريم الكشميري مع هذا الجزء من القصة على سبيل المزاح.

56. Lockhart 1938, p. 154 نقلاً عن Mohammad Bakhsh/Ashub.

الفصل الأول – سقوط الحكم الصفوي

1. أشار Lockhart 1938 (ص 18) إلى أن نادر ولد في سنة 1688. لكن آفري (Peter Avery, Nadir Shah and the Afsharid Legacy, in The Cambridge History of Iran, Vol. 7, p.3) يرى أن لوكهارت كان يعمل بالاعتماد على نسخة من كتاب JN (Jahangosha-ye Naderi) لميرزا مهدي خان الأسترابادي والتي كانت مضللة في هذه النقطة. وقد وجد آفري (Avery) أن أفضل نسخ هذه المخطوطة قد أوردت تاريخ 28 محرم

1110 الموافق لـ 6 أغسطس 1698، وقد اتفقت مع ذلك التاريخ نسخة موسكو لأحد أهم المصادر المعاصرة الأخرى والموثوق بها وهو محمد كاظم المروي. لكن إرنست تاكر ألقى ظلالاً من الشك على ذلك الموضوع في مقالته Explaining Nadir Shah: Kingship and Royal Legitimacy in Mohammad Kazim Mavi>s Tarikh-i alam-ara-yi Nadiri, in Iranian Studies 26: 11-12 (1993) مشيراً إلى أن طبعة الرياحي الأخيرة لكتاب محمد كاظم ترى أن الولادة قد تمت في تاريخ سابق. بيد أن الشك سيبقى، ولا يمكن حل هذا الشك إلا عن طريق دراسة المخطوطات الأصلية بصورة أكثر تعمقاً (كما حث تاكر على ذلك)، لكن على مؤيدي ولادة نادر في تاريخ سابق أن يعللوا سبب عدم وجود أي نشاط واضح لنادر في الفترة 1705—1715 والطريقة التي روى بها الميرزا مهدي قصة حياة نادر في سنواته الأولى (JN, pp. 3-4; Anvar edition, pp. 27-8؛ انظر أيضاً مقالتي المقبلة Basile Vatatzes ، وأيضاً الفصل 10 لمعرفة عمر نادر عند وفاته).

2. Vatatzes, p. 12.

3. JN, Vol. 1, p. 1.

4. أو ربما نذر قولي، التي ربما تعني «عبد النذر»، ما يشير إلى أن والده كان يتضرع إلى الله كي يرزق بابن فسماه بذلك الاسم شكرا لله (انظر Minorsky, Esquisse, pp. 3-4 و Avery, pp. 506). لكن توخياً للبساطة سميته نادر من البداية إلى النهاية. وقد استُمِدت تفاصيل هذه الفقرة أساسا من JN, vol. 1, pp. 2-3. وبما أن الميرزا مهدي هو المؤرخ الرسمي لنادر، فلابد أنه قد حصل على تفاصيل ولادته من نادر نفسه وأفراد الأسرة المقربين.

5. Cambridge History of Iran, vol. 7, pp. 580-1. وقد اتبعت العرف باستخدام مصطلح «التُركُمان (بضم الكاف)» Turcoman للقزلباش وغيرها من القبائل التركية في بلاد فارس، و«التُركْمان (بسكون الكاف)» Turkmen لقبائل السهوب التركية مثل اليوموت، والتكه، وسالور، وغيرهم، الذين كانوا يعيشون على الحدود الشمالية لخراسان. وهذه المجموعة الأخيرة من القبائل هم من المسلمين السنة الذين يشتركون فيما

بينهم بهوية ثقافية واحدة ومتميزة.

6. Vatatzes, p. 131؛ لمزيد من التفاصيل عن قدرته على القراءة والكتابة انظر Rostam ol- Hokama, p. 344.

7. Lambton, Landlord and Peasant, p. lxv (وهو النص الكلاسيكي لفهم الحياة الريفية الإيرانية)؛ وFloor, The Economy of Safavid Persia, pp. 2, 8; Tapper, The Tribes in 18th and 19th Century Iran in The Cambridge History of Iran, vol. 7. p. 507. وهذه الصورة للحياة القبلية مبسطة بالضرورة لأن مصطلح القبيلة» نفسه يخفي الكثير من التعقيدات بسبب وجود العديد من الكلمات المختلفة لهذا المصطلح في اللغة الفارسية بمعان متداخلة أو موازية. فالقبائل تنقسم إلى قبائل فرعية وعشائر وترتبط بعضها مع بعض من خلال اتحادات تصبح دائمة في بعض الأحيان. وقد تم توضيح المشاكل المعقدة لتفسير الحياة البدوية في مقدمة كتاب تابر Tapper, Frontier Nomads of Iran. ويقدّم Beck 1986, pp. 42-59 وصفاً جيداً للقضايا المرتبطة بذلك في وصفه لأصول القاشقاي؛ ويشرح Gommans 1995 التطور الاقتصادي للحياة القبلية في تلك الفترة.

8. Lambton Landlord and Peasant, pp. 160-1.

9. لاحظ رضا شعباني أنه رغم أن بعضهم قد فسّروا وحشية نادر اللاحقة بحق الشعب الإيراني بأنه لم يكن إيرانياً، إلا أنه في معظم النواحي بدا فارسياً بصورة كاملة (Reza Sha>bani 1986, pp. 116-22). ويؤيد هذا الرأي نقش الخاتم في فترة تتويجه الذي أطلق على نفسه فيه اسم «نادر الإيراني».

10. AAN, p. 7. تنسجم هذه القصة مع روايات أخرى مشابهة عن ألعاب آية الله الخميني في طفولته– انظر Baqer Moin, Khomeini (London 1999), p. 2 (لندن 1999)– ص 2، «حتى عندما كنتُ صغيراً كان والدي يريدني دائماً أن أكون الشاه في الألعاب التي كنت ألعبها».

11. Hanway, Vol. 4, pp. 3-4.

12. Cambridge History of Iran, Vol. 7, pages 7-8.

13. JN, Vol. 1, p. 3 .

14. Avery, p. 7 .

15. AAN, p 12, Avery, p. 9؛ وهناك رواية أخرى في Fraser, pp. 74-5.

16. Vatatzes/Legrand, Voyages, pp. 205-6 .

17. AAN, p. 12 .

18. رواية أروتين أفندي (Arutin Effendi) التي ذكرها إرنست تاكر (Ernest Tuck-er) في أطروحته غير المنشورة لنيل درجة الدكتوراه Religion and Politics in the Era of Nadir Shah: The Views of Six Contemporary Sources (Chicago 1992), p. 83 (شيكاغو 1992)– ص 83. ويروي Fraser (في الصفحتين 79–80) أن نادراً قد تعرض لسوء المعاملة من قبل حاشية الشاه سلطان حسين وحاشيته، رغم أن روايته مختلفة بعض الشيء.

19. ابن خلدون، المقدّمة. وقد تبنّى هول (Hall 1986) مؤخراً تحليل ابن خلدون من خلال الراحل الكبير إرنست غِلنر (Ernest Gellner) وجوس جومانز (Jos Gommans) (انظر قائمة المراجع). لكن تتسم فكرة الدورات في التاريخ الإسلامي، وخصوصا الفارسي، بأصداء ثقافية عميقة، ولاسيما في شاهنامه الفردوسي، كما قدمتها كاثرين بابايان (Kathryn Babayan) (Babayan 2002, pp. 21-32).

20. Ibn Khaldun, Muqaddimah, Vol. 1, p. 353-355. ويعتمد هذا الملخص لنموذج ابن خلدون على أحد فقراته الشهيرة، لكنه لا يفي تعقيداتها ودقتها حقهما.

21. كتب ابن خلدون أن الدورة تستغرق عادة ثلاثة أجيال، وهذا قد يكون صحيحاً بالنسبة للسلالات القديمة التي درسها، لكنها قصيرة للغاية بالنسبة للإمبراطوريات التي جاءت بعده والتي يعززها البيروقراطيون والجنود الموالين من العبيد الذين سُلِّح بعضهم بأسلحة نارية. لذا فإن تحديد أي عملية دورية يصبح أمراً غير مقنع في الفترات التي تحدث فيها تغيرات طويل الأمد وعميقة الجذور بتأثير التكنولوجيات وأنماط التجارة الجديدة.

22. انظر Babayan 2002 لمعرفة الأصول الثقافية المعقدة للقزلباش.

23. أي فارس والإمبراطورية العثمانية والإمبراطورية المغولية (Hodgson, The Venture of Islam, Vol. 3).

24. يمكن الاطلاع على تفاصيل حياة الأمراء في جناح الحريم في Krusinski, Vol. 1, pp. 65- 70. ويبذل كروسينيكي قصارى جهده ;كي لا يثير العواطف في رواياته، ما يجعل الحجة التي يطرحها بشأن التأثير الموهن لهذا النوع من الحياة الموهن بالنسبة للأمراء أكثر إقناعاً.

25. انظر Gommans 1995, p. 2, p. 6. وفي مواضع متفرقة.

26. Lambton 1977; Bayly 1989.

27. Mathee 1999, p. 241.

28. Mathee 1999 وGommans 1995 وFloor 2000 وDutch Trade. وقد استقيتُ أيضاً بعض المعلومات من مشاركات رودي ماتثي (Rudi Matthee) وإدموند هرزيغ (Edmund Herzig) وستيفن بليك (Stephen Blake) في مؤتمر كلية الدراسات الشرقية والأفريقية Iran and the World in the Safavid Age الذي عُقد في الفترة 4–7 سبتمبر 2002، إضافة إلى المشورة التي حصلتُ عليها من ويليم فلور (Willem Floor) بخصوص هذا الموجز المبسط للغاية للقضايا المطروحة.

29. Bayly 1989, p. 23; Floor 2000, p.2. لا يمكن تقديم سوى قديرات للأرقام، لكن فلور يقدّر عدد سكان بلاد فارس بنحو 9 ملايين في الفترة التي سبقت الغزو الأفغاني، لكن أطروحة بايلي أن الإمبراطوريات العثمانية والصفوية والمغولية كانت في القرن الثامن عشر مفرغة من السكان بسبب التغيرات الاقتصادية والاجتماعية التي لم يتمكنوا من التعامل معها قد تكون جذابة لكنها غير مقنعة كثيراً بالنسبة إلى الصفويين بالمقارنة مع الآخرين (ص 30). ويقدم فوران (Foran) حجة مماثلة تتسم بمزيد من العمق لكنه يعتمد اعتماداً كبيراً على المصادر غير الفارسية.

30. تم العمل بـ «تذكِرَة الملوك» (Tadhkirat al-muluk) من قبل مسؤولي البلاط بناء

على أوامر الأسياد الأفغان الجدد في عام 1726 لتسهيل عمليات الدولة ومختلف أجهزتها البيروقراطية (وربما عائدات الضرائب أيضاً)، ما يعطي شعوراً بتطور (ومرونة) النظام الصفوي مع سقوط نظام الحكم (V. Minorsky London 1943).

31. الكلمات مأخوذة عن مالكولم Malcolm, History of Persia, Vol. 1, p. 594. لكن عدداً من المصادر الفارسية وغيرها تروي نفس القصة– قارن AAN, p. 18 و-Krusinski, Vol. 1, pp. 62-64.

32. «... بمقدور رجال الدين الشيعة الآن المشاركة في لعبة السياسة» (Babayan 2002, p. 484-485؛ وأيضاً مقالتها المقبلة In Spirit We Are of Each Other>s Sorrow: Female Companionship in Seventeenth century Safavi Iran التي نقلتْ فيها أقوالا عن مير أبو طالب فندرِسكي وبحث رسول جعفريان)؛ وأيضاً Arjomand 1984, p. 158; Bayly 1989, p. 45; Lockhart 1958, p. 38. انظر أيضاً الملاحظة 61 أدناه هنا. في الواقع هناك أدلة على أن الشاه سلطان حسين قد واصل بعض الرعاية التقليدية للمتصوّفة (Morton 1993, p. 243). ويقرّ Arjomand, p. 158 بأنه لم يتم قمع المتصوفة بصورة كاملة.

33. Krusinski, Vol. 1, p. 75. وبالنسبة إلى معاصريه كان التأثير القوي للمرأة في الحكومة في حد ذاته علامة أخرى على انحطاط النظام الملكي. وقد قمت بمراجعة دور مريم بيجوم بعد التعليق الذي أدلى به أفسانه نجم أبادي في مؤتمر عقد في أكسفورد في سبتمبر 2004. ويوثق رودي ماتثي (Rudi Matthee) في كتابه Pursuit of Pleasure تقاليد الإفراط في شرب الخمر في البلاط الصفوي توثيقاً ممتازاً.

34. Rostam ol-Hokama, pp. 203-4, 290. ربما كان من المدهش أن كروسينسكي (Krusinski) (المجلد 1، الصفحتان 121–122) يؤكد هذه الممارسة في تزويج النساء للنبلاء العظماء الذين يضطرون لاعتبار أطفالهن ورثة لهم. ولم يتم على الإطلاق إبطال العمل بصورة كاملة بالزواج المؤقت (المعروف في أيامنا هذه بزواج المتعة) وهو ممارسة شيعية مثيرة للجدل تستخدم لإضفاء الشرعية على التسري.

على أوامر الأسياد الأفغان الجدد في عام 1726 لتسهيل عمليات الدولة ومختلف أجهزتها البيروقراطية (وربما عائدات الضرائب أيضاً)، ما يعطي شعوراً بتطور (ومرونة) النظام الصفوي مع سقوط نظام الحكم (V. Minorsky London 1943).

31. الكلمات مأخوذة عن مالكولم Malcolm, History of Persia, Vol. 1, p. 594. لكن عدداً من المصادر الفارسية وغيرها تروي نفس القصة– قارن AAN, p. 18 وKrusin-ski, Vol. 1, pp. 62-64.

32. «... بمقدور رجال الدين الشيعة الآن المشاركة في لعبة السياسة» (Babayan 2002, p. 484-485؛ وأيضاً مقالتها المقبلة In Spirit We Are of Each Other>s Sorrow: Fe-male Companionship in Seventeenth century Safavi Iran التي نقلتْ فيها أقوالا عن مير أبو طالب فندرِسكي وبحث رسول جعفريان)؛ وأيضاً Arjomand 1984, p. 158; Bayly 1989, p. 45; Lockhart 1958, p. 38. انظر أيضاً الملاحظة 61 أدناه هنا. في الواقع هناك أدلة على أن الشاه سلطان حسين قد واصل بعض الرعاية التقليدية للمتصوّفة (Morton 1993, p. 243). ويقرّ Arjomand, p. 158 بأنه لم يتم قمع المتصوفة بصورة كاملة.

33. Krusinski, Vol. 1, p. 75. وبالنسبة إلى معاصريه كان التأثير القوي للمرأة في الحكومة في حد ذاته علامة أخرى على انحطاط النظام الملكي. وقد قمت بمراجعة دور مريم بيجوم بعد التعليق الذي أدلى به أفسانه نجم أبادي في مؤتمر عقد في أكسفورد في سبتمبر 2004. ويوثق رودي ماتثي (Rudi Matthee) في كتابه Pursuit of Pleasure تقاليد الإفراط في شرب الخمر في البلاط الصفوي توثيقاً ممتازاً.

34. Rostam ol-Hokama, pp. 203-4, 290. ربما كان من المدهش أن كروسينسكي (Krusinski) (المجلد 1، الصفحتان 121–122) يؤكد هذه الممارسة في تزويج النساء للنبلاء العظماء الذين يضطرون لاعتبار أطفالهن ورثة لهم. ولم يتم على الإطلاق إبطال العمل بصورة كاملة بالزواج المؤقت (المعروف في أيامنا هذه بزواج المتعة) وهو ممارسة شيعية مثيرة للجدل تستخدم لإضفاء الشرعية على التسري.

35.على سبيل المثال Krusinski, Vol. 1, pp. 119-122؛ وكذلك Rostam ol-Hokama في الملاحظة الواردة أعلاه.

36.على سبيل المثال، في نوفمبر 1739 أشاد كاتب مذكرات جومبرون (Gombroon) بما يتمتع به نادر من «إحساس رائع وقدرة كبيرة على الحكم على الأمور» ما جعله يلغي التقليد الصفوي بالإبقاء على أطفال الملك في جناح الحريم. للاطلاع على تفضيل رجال الدين الفرس المعاصرين الزواج بزوجة واحدة ورفضهم التسري انظر Hanway, Vol. 1, p. 265. وهذه المسائل خلافية لكن من المهم إعطاء فكرة عن مختلف الآراء وطرق تفاعلها مع بعضها مع بعض من دون المبالغة في تفسيرها بسبب التحامل أو بعض الآراء النظرية. انظر Matthee 2005, pp. 3-4 ، وEdward Said ,Power, Politics and Culture (London 2005), pp. 113-115, p. 63, 365-366.

37. Floor 1998 p. 19, p24 .

38.Lockhart 1958, p. 42. نقلاً عن محمد خليل المرعشي. لم أستخدم ملاحظات المرعشي كثيراً لأنه كتبها بعد سنوات عديدة من تلك الأحداث، لكن هذه القصة هي حكاية حقيقية يتم تذكّرها دائماً.

39.أتذكر هنا سارتر (انظر L>Etre et le Neant, Paris, Gallimard 1943, pp. 154-156)، لكن رغم أن سارتر لم يجادل بهذه الطريقة إلا أنه ذهب إلى ما هو أبعد من ذلك في قوله إنه.بما أننا كائنات ترتكز حياتها على المصادفة فمن الوهم حتى أن نعتقد في أي لحظة أن لدينا هوية أو شخصية محددة.

40.JN, p. 4. ورغم أن AAN قد جاء بذلك قبله إلا أن التسلسل الزمني الخاص.بمحمد كاظم مشكوك فيه.

41.إن تأكيد هانواي (Hanway) بأن نادراً قد قتل بابا علي قبل أن يتزوج ابنته (المجلد 4– ص 5) يخلو من المصداقية لأنه لو كان ذلك صحيحا لما أصبح أبناء بابا علي في وقت لاحق من مساعدي نادر الأوفياء (انظر Lockhart 1938. p.21).

42. Lockhart 1958, p46-47 .

43. Krusinski, Vol. 1, p. 127 .

44. Krusinski, Vol. 1, p. 123 .

45. Chronicle of Sekhnia Cheikidze, in Brosset, Vol. 2, 2me Livraison, pp. 26-27.

46. Krusinski, Vol. 1, pp. 116-119 ؛ ويعطي Floor 2000, pp. 33-35 لمحة شاملة عن تدهور الوضع الأمني على الطرق.

47. Krusinski, Vol. 1, p. 152 (هناك خطأ في ترقيم الصفحات في هذه الطبعة من Krusinski حيث تتكرر أرقام الصفحات 149-152)؛ Avery, p. 12.

48. Krusinski vol. 1, p. 147-150 .

49. تشير بعض المصادر إلى أن «مير ويس» قد تمرد فعلا في هذه المرحلة وتم اعتقاله وإرساله إلى أصفهان، وقد أخذ Lockhart 1958, p. 58 بصحة هذا الرأي– لكن كروسينسكي Krusinski يخالفه (المجلد 1– ص 153–154، وص. 163) لأنه يُشك في أن يقبل رجل غير متسامح مثل جورجين بترك «المير ويس» على قيد الحياة في مثل هذه الظروف.

50. Krusinski vol. 1, p. 158 .

51. ZT fol. 203b; JN vol. 1, pp. ii-iii .

52. Krusinski vol. 1, p. 206 .

53. AAN, p. 20 .

54. AAN, p. 35 onwards; Avery, p.13.

55. ZT fol. 205a; JN vol. 1, p. vii .

56. ZT fol. 205a; JN vol. 1, pp. vi-vii; Cambridge History of Iran, vol. 6, p. 317; Floor, 1998, p. 40 .

57. ZT fol. 205a .

58. Krusinski, vol. 2, pp. 44-46. ولمزيد من المعلومات بشأن اضطهاد اليهود انظر

.Moreen 1990, pp. 14, 26-29

Arjomand 1984, p. 158-159; Algar 1977, pp. 289-290; Babayan 2002, .59 . pp. 484-485

EG Browne Persian Literature in Modern Times, Cambridge 1924, p. .60 404؛ نقلا عن «قِصاص العلماء» لمحمد بن سليمان من توناكابون الذي يبدو أنه وصف القصة بأنها كانت «شائعة كثيراً في القرن التاسع عشر» (انظر أيضاً Lockhart 1958, p. 73).

61. من أشهر المؤيدين لهذا الموقف المفكر الديني الإيراني المعاصر عبد الكريم سوروش الذي أشار إلى أنه في الوقت الذي تسمح فيه السياسة العلمانية للاعتقاد الديني الشعبي بالازدهار فإن إنفاذ القواعد الدينية من خلال إقامة دولة دينية يتسبب بنفور المجتمع وعلمنته. فالعلمانية في السياسة ربما تعكس «الإيمان بالحقائق الأساسية للدين مقروناً بالخوف من تلوثه وتدنيسه بالشواغل السياسية» (نقلاً عن Ali Ansari, Iran, Islam and Democracy, London 2000, p. 75). وقد أدلى آية الله حسين علي منتظري، الذي كان قد عينه آية الله خميني خليفة له وهو من أكثر الشخصيات تبجيلا الدينية في إيران اليوم، برأي مشابه وإن كان أكثر حذراً في مقابلة معه نُشرت في مجلة Mideast Mirror في 20 يناير 2000– ص 15؛ ثم نُشرت بعد ذلك في أماكن أخرى. ويرى Lambton 1977 أن طبقة رجال الدين ربما فقدت صدقيتها في القرن الثامن عشر بسبب ارتباطها بحكومة الشاه سلطان حسين الحكومة (ص 120).

. Von Hammer, vol. 14, p. 87.62

Lettre de Pere Bachoud, Lettres Edifiantes et Curieuses Ecrites des Mis-.63 sions Etrang2res; vol. IV, Paris 1780, pp. 113-124 . يعتبر النص أن طرد شاماخي قد تم في أغسطس 1722، لكن ذلك خطأ تحريري لأن الرسالة نفسها كانت قد كُتبت في سبتمبر 1721. ومن المعروف لدى الباحثين الآخرين أن إقالته قد تمت في سنة 1721؛ – .Lockhart 1958, pp. 46-51; Dickson, p. 504

64. Floor 1998, pp. 46-51.

65. تنعكس هذه الكراهية في موقف بعض المصادر المعادية لفتح علي خان في هذه الفترة ، ومن الأمثلة على ذلك Vatatzes, Persia, Book II.

66. ; Lockhart 1958, p. 121) ZT fol. 205b ;Clairac vol. 1, pp. 143-146).

67. Krusinski Vol. 1, pp. 99-101 وZT fol. 205a;. ومن اللافت اتفاق هذين الباحثين المعاصرين والموثوقين في هذين المقطعين على الخلل الذي ألمّ بالدولة الصفوية. ويتفق معاصرون آخرون مثل محمد كاظم (ص 20 مثلاً) وVatatzes (ص 14) مع هذا الرأي بصورة عامة. غير أن المؤرخ الأقرب إلى نادر، وهو الميرزا مهدي، كان رقيقاً نسبياً مع الشاه سلطان حسين فألقى باللائمة على مستشاريه غير الأكفاء والغزاة الأجانب المتربصين به (انظر رأي تاكر في Tucker 1992, pp. 141-142).

68. Floor 1998, pp. 57-60; ZT fol. 205b.

69. ZT fol. 207a; Lockhart 1958, pp. 134-136.

70. ZT fol. 205b .

71. Krusinski, vol. 2, p. 21 .

72. Lockhart 1958, pp. 137-142; ZT fol. 207a.

73. Floor 1998, p. 88, Krusinski vol. 2, p. 22 .

74. مدافع الزانبوراك المحمولة على الإبل موجودة منذ وقت طويل وقد استخدمها الأفغان بأعداد كبيرة مع التكتيك القتالي القديم. للاطلاع على المزيد عن الابتكارات العسكرية الأفغانية في القرن الثامن عشر انظر (Jos Gommans, Mughal Warfare London 2002).

75. انظر Matthee 1996 للاطلاع على حجة قوية بأن الدولة الصفوية لم تكن يوما «إمبراطورية مسلحة بأسلحة نارية» لأنها لم تعتمد بصورة كاملة النمط الجديد للحرب الذي يتم فيه تسليح جميع الجنود بالأسلحة النارية.

76. من أهم عيوب كتاب لوكهارت – Lockhart، Fall of the Safavi Dynasty

(التي لم يلحظها دكسون Dickson) إخفاقه غير المعهود في دعم تأكيده (ص 22، 27، 44، 130) بأن الجيش الصفوي كان في حالة انهيار خطير (حيث اختلق هذه النقص في مقالته اللاحقة– Lockhart 1959– رغم أن هانيدا رفض هذه المقالة في وقت لاحق معتبراً أنه قد عفا عليها الزمن Haneda, p. 506). وقد ذهب لوكهارت إلى أن الجيش كان في حالة سيئة بسبب التناقض بين العناصر القبلية «التقليدية» وعناصر «الحداثة»، غير أن الملوك الصفويين تمكنوا في وقت سابق من استخدام هذه العناصر المتباينة بنجاح، كما فعل نادر شاه لاحقا حيث حوّل الولاءات القبلية المتباينة لصالحه من خلال وضع رجال القبائل في وحدات منفصلة خاصة بهم وجعلها تتنافس بعضها مع بعض.

77. Krusinski, Vol. 1, pp. 100-1.

78. Sheikh Hazin, pp. 118-19.

79. Floor 1998, p.105; Krusinski, vol. 2, pp. 49-50; Clairac, vol. 1, pp. 276-7. ورغم أن Lockhart 1958 (ص 152–153) لم يشر إلى كروسينسكي في حاشيته كما هو واجب، فمن الواضح أنه استفاد كثيراً من التفاصيل التي أوردها. وقد أخطأ دكسون Dickson (ص 506)، الذي انتقد لوكهارت في هذه الصدد لوجود «ثغرات في عموميات غير موثقة بالكامل»، في انتقاده مثلما هي حاله في مواضع أخرى، وكان بإمكانه تجنب هذا الخطأ بسهولة من خلال تصفح كتاب كروسينسكي الذي كان أحد مصادره الرئيسية كما يتضح من بقية رواية لوكهارت.

80. Lockhart 1958, p. 118; Krusinski, Vol. 2, p. 75.

81. Floor 1998, p. 125 (أورد Lockhart 1958 التاريخ بصورة غير صحيحة في 6 مايو – ص 159).

82. ZT, fol. 210b; Krusinski, Vol. 2, p. 80.

83. Krusinski, vol.2, p. 90 يؤكد هذه الظروف المروعة والنقص في المؤن وأكل لحوم البشر.

84. Clairac Vol. 1, pp. 327-31.

85. Krusinski, Vol. 2, p. 95-6 .

86. Lockhart 1958, p 172 يؤكد نقلاً عن شاهد العيان جوزيف أبيسالايميان، الخطوط العامة لزيارة الشاه سلطان حسين لفرح أباد وتتويجه محمود.

87. ZT, fol. 207b.

88. هذه الإحصاءات مأخوذة من Floor 2000، p. 3.

الفصل الثاني- «طهماسب قولي خان»

1. ذلك عندما يكون الأمر محفوفا بالمشاكل، إذ لو توفي بابا علي في سنة 1716 على النحو المبين في الفصل 1 لتمكن نادر من الاستيلاء على كالات في وقت سابق. ومن الصعب تحليل التسلسل الزمني لهذه الأحداث في AAN بصورة مقبولة (قارن Avery, pp. 10-13).

2. AAN, pp. 15-16; Tucker 1993, p. 104 .

3. AAN, p. 41 .

4. AAN, p. 44; Avery, p. 18. يُقرّ فاتاتزيز بأن نادراً قد تحالف في البداية مع مالك محمود (ص 70-71).

5. وصفه مسؤولو شركة الهند الشرقية بهذا الشكل في وقت لاحق- Floor, Nader Shah.

6. BW, pp. 46-47 .

7. Vatatzes, pp. 74-75. وفقا لكتاب فاتاتزيز كان الحاكم زعيماً كردياً. وتؤكد رواية الميرزا مهدي (JN, vol. 1, pp. 8-9) قصة فاتاتزيز التي تقول بأنه عندما فشلت مؤامرة اغتيال مالك محمود قام نادر بقتل اثنين من حلفائه عندما كان في رحلة صيد، مما عجل في اندلاع حرب مفتوحة بين الخصمين. انظر مقالتي المقبلة Basile Vatatzes and his History of Nader Shah للحصول على مزيد من التفاصيل عن هذه القصة.

8. ZT, fol. 212a .

9. ZT, fol. 210b.

10. Lockhart 1958, pp. 103-123.

11. للتعرف على لمحة عامة عن الدبلوماسية في اسطنبول في هذه الفترة انظر Lavender Cassels, The Struggle for the Ottoman Empire, 1777-1740.

12. Vatatzes, pp. 52-53 and 57; Lockhart 1958, p. 188.

13. Lockhart 1958, p. 233.

14. Krusinski, Vol. 11, pp. 101-2.

15. ZT, fol. 208a.

16. ZT, fols. 210b and 211a.

17. ZT, fol. 209a; Krusinski, Vol. 11, p. 108.

18. Krusinski, Vol. 11, pp. 147-8.

19. Krusinski, vol. 2, p. 152. تعتبر رواية كروسينسكي الأكثر تفصيلا لهذا الحدث، ولكن محسن Mohsen (ص 209) يؤكد الوقائع الرئيسية.

20. Krusinski, vol. 2, p. 152 (يقول محسن إن محموداً قد أكل برازه عندما جن جنونه)، انظر أيضاً Abraham of Erevan, p. 51.

21. ZT, fob209a.

22. ZT, fols. 212a and 212b; Avramov, p. 93. (يقترح أفراموف أنه كان لدى نادر حوالي 5000 رجل)؛ Vatatzes, pp. 77-9. ويرى فاتاتزيز أن نادراً بالغ في عدد قواته من خلال تعيين أربعة قادة ألف رجل مع قادة تابعين لهم رغم أن عدد رجاله لا يتجاوز 2000—3000 رجل. ويمكن أن يفسر ذلك المبالغة في رقم أفراموف. وقد تم اقتباس وصف الاجتماع الذي تلا ذلك من فاتاتزيز الذي يعتبر أن ذلك الحدث جرى قرب سبظفر بدلاً من خابوشان.

23. ZT, fol. 211a.

24. Avramov, pp. 91-2.

25. ZT, fols. 212a and 212b .

26. Avramov, pp. 94 and 99; JN, Vol. 1, p. 39; ZT, 233a ; AAN, p. 66. لا يروي الميرزا مهدي قصة الرسالة التي قدمها أفراموف، لكن روايته منطقية أكثر بسبب ذلك العنصر الإضافي الذي ألمح إليه محسن أيضاً. وقد رأى كاظم أن نادراً متورّط بشكل مباشر في قتل الفتح علي خان، لكن رواية أفراموف على وجه الخصوص تعطي سبباً وجيهاً للاعتقاد بأن ذلك قد يكون غير صحيح. انظر أيضاً Avery, pp. 7-25; Lockhart 1958, pp. 309-10 . وكما هي العادة، عندما تلغي العوامل الأخرى بعضها بعضاً، يظهر أن أطروحة الميرزا مهدي مقنعة ومنطقية.

27. ZT, fol. 216a .

28. Fraser, p. 97n.

29. JN, Vol. 1, p. 40.

30. Avramov, PV. 96-7. يمكن الاطلاع على حُكم رجال البلاط في ص 97.

31. كان باسيل فاتاتزيز اليوناني أحد الرسل، انظر مقالتي المقبلة Basile Vatatzes and his History of Nader Shah. وتعتبر المشاركة الروسية في بلاد فارس في هذه الفترة جانباً هاماً من جوانب القصة، انظر Lockhart 1958, pp. 345-50.

32. Avramov, p. 88؛ حدث هذا التبادل بعد سقوط مدينة مشهد في يناير 1727.

33. JN, vol. 1, p. 40؛ يؤكد محسن Mohsen, fols. 212b, 216a خيانة مشهد.

34. JN, Vol. 1, pp. 47,50-1; Avramov, p. 95.

35. JN, Vol. 1, p. 42.

36. Vatatzes, p. 96.

37. Malcolm, History of Persia, Vol. 2, p. 106.

الفصل الثالث- الحرب مع الأفغان

1. JN, Vol. 1, p. 43. 2..

2. JN, Vol. 1, p. 44 .

3. Avramov, p. 99.

4. JN, Vol. 1, pp. 45-6

5. Floor 1999, p. 277 .

6.انظر Tucker 1992 في الملحق: Nadir>s Concepts of Political Legitimation؛ Layla Diba 1998, pp. 140-141; Diba 1987, pp. 88, 96. وتشير فكرة ارتداء القبعة وقت تتويج نادر عام 1736 (على النحو الذي رواه Abraham of Crete, p. 96) التي كانت تُعرف في ذلك الوقت بالطهمازي إلى أنها كانت تُستخدم في الفترة ما قبل خلع الشاه طهماسب في 1732.

7. AAN, p. 23 .

8. JN, Vol. 1, p. 47 .

9. JN, Vol. 1, p. 52 .

10. انظر Matthee 1996 لمناقشة هذه القضايا وخصوصاً ص 395.

11. JN, Vol. 1, p. 53 .

12. JN, Vol. 1, p. 55.

13. Avrarnov, p. 101؛ يؤكد فلور Floor في كتابه Nader Shah أن نادراً كان يسيطر على الخاتم الملكي قبيل إعادة احتلال طهماسب لأصفهان في نوفمبر 1729.

14. Avramov, pp. 101-2 .

15. Avramov, p. 102 .

16. JN, Vol. 1, p. 65; Avramov, p. 102.

17. Vatatzes, pp.131-2. يكتسب وصف التكتيك القتالي أهمية خاصة حيث

استخدمت قوات نادر هذا التكتيك لإيقاع خصومها المغول في فخ في معركة كارنال عام 1739. وقد لاحظ القس أبراهام Catholicos Abraham الذي رأى جيش نادر في المعسكر في 1735–1736 «قيام الفرسان والمشاة بتدريبات صارمة ومستمرة» (ص 118).

18. Vatatzes, p. 133 .

19. يصور فاتاتزيز جيش نادر هنا في 1728– 1729 بأنه مكون من الفرسان الذين يحملون أسلحة تقليدية والمشاة المسلحين بالبنادق. لكن يتضح من الوصف الذي قدمه القس أبراهام في وقت لاحق أنه بحلول عام 1736 بدأ الفرسان أيضاً يحملون البنادق (ص 118).

20. JN, Vol. 1, p. 70 .

21. JN, Vol. 1, p. 73 .

22. تصف العديد من رسائل نادر معاركه والانتصارات التي حققها، لكن رغم أنها مفيدة فإنها لا تخوض في أيه تفاصيل. ويقدم محمد كاظم تفاصيل أكثر من الميرزا مهدي حول معارك نادر لكن دقته في بعض الأحيان مشكوك فيها.

23. Hanway, Vol. 4, p. 253 .

24. Abraham of Crete, p. 118

25. Gommans 2002. وانظر أيضاً V. J. Parry, La maniere de combattre in Parry and Yapp 1975.

26. Hanway, vol. 4, p. 34, vol. 2, p. 253. للاستزادة في موضوع الأسلحة الثقيلة التي استخدمها الفرس والعثمانيين، انظر Elgood 1995, pp. 49, 120-121. وقد تم صنع البنادق في وقت مبكر ولكن بأعداد قليلة وربما بهدف الصيد (رغم أن المارانا في الهند قد استخدموا عدداً قليلا من القناصة المسلحين بالبنادق في المعارك– انظر Cooper 2003). وقد كانت معظم البنادق آنذاك ذات سبطانة غير محلزنة. وتسمية المشاة المسلحين بالبنادق في ذلك الوقت باسم «الرماة» تسمية غير صحيحة.

27. Parry and Yapp 1975, p. 18; Matthee 1996, p. 389 and passim. عندما وصل نادر إلى السلطة في عشرينيات القرن الثامن عشر، كانت الأسلحة النارية تزداد

انتشاراً بين اللزجيين في منطقة القوقاز (Bachoud, p. 118) ولكن الأكراد وأفشار خراسان لم يكونوا آنذاك معتادين على الأسلحة النارية حيث كانت أسلحتهم تقتصر على الرماح والسيوف (JN, vol. 1, p. 12 12). ويقوم جزء من أطروحة ماتثي (Matthee) على أن فارس الصفوية كانت متخلفة عن تركيا العثمانية وروسيا من حيث استخدام أعداد كبيرة من القوات المسلحة بالأسلحة النارية. وقد قام Murphey 2003 بتعديل الأفكار السابقة بشأن النزعة العسكرية العثمانية في الفترة الممتدة حتى 1700، إلا أن فكرته القائلة بوقوع ثورة عسكرية في السنوات 1420–1440 مع انتشار البارود والمؤكدة أنه لم يطرأ تغير يذكر على مدى السنوات الـ 300 التي تلت ذلك (ص 107–108 والملاحظات) هي أمر يبعث على الدهشة ولا يوحي بالثقة. فالثورة العسكرية مهما كان تاريخ وقوعها لم تكن ناتجة عن تغير تكنولوجي واحد وإنما هي نتيجة تفاعل معقد على مر الزمن بين عوامل كثيرة ومتنوّعة تكتيكية واستراتيجية وتكنولوجية وثقافية واجتماعية واقتصادية وحكومية. فقد لعبت التغيرات التقنية في طرق تحضير البارود الأسود أو آليات إطلاق النار دوراً صغيرا نسبياً حيث احتاج القادة إلى وقت طويل لإدراك إمكانيات الأسلحة والتقنيات الجديدة، لذا كانت التغيرات في طرق استخدام الأسلحة عموماً أكثر أهمية من التغيرات التي طرأت على الأسلحة ذاتها.

28. انظر Parker 1988 وParry and Yapp 1975, p. 24.

29. Krusinski, Vol. 2, p. 170 .

30. Lockhart 1958, p. 286. وكان موقف العثمانيين متسقاً أيضاً مع المعاهدة الروسية التركية بشأن التقسيم التي تعترف بطهماسب حاكماً شرعياً لبلاد فارس إذا وافق على التقسيم.

31. JN, Vol. 1, p. xxvi; ZT, fols. 209a-209b .

32. Clairac, Vol. 2, p. 331 .

33. Clairac, Vol. 2, pp. 333-340; von Hammer, Vol. 14, p. 153; JN, Vol. 1, p. xxvi; ZT, fol. 209b .

34. JN, Vol. 1, p. xxvi; ZT, fol. 209b.

35. أبرم أشرف أيضاً معاهدة مع الروس في ذلك الوقت. انظر Cambridge History of Iran, vol. 7, p. 322.

36. Krusinski, vol. 2, pp. 196-198; Lockhart 1958, pp. 298-299; Dickson, p. 511. أخذ دكسون فكرة أشرف المتعلقة بالتسلسل الهرمي للأعراق وقدم قائمة مماثلة لهذا التسلسل مع أدلة قليلة أو معدومة ساخراً مما كان يتصوره مواقف عنصرية للوكهارت.

37. أخذتُ هذه الفكرة من مساهمة من بيل بيمان في منتدى الخليج Gulf 2000 على الإنترنت والذي قدم مزيداً من الإيضاح لنظريته في كتابه الصادر سنة Language, 1986 Status and Power in Iran. وقد برزت المقاومة الشعبية للغزو الأجنبي كظاهرة في الفترة المغولية– انظر Jurgen Paul, L«invasion Mongole comme revelateur de la societe Iranienne (p. 46-47) in Denise Aigle (ed) L«Iran face a la domination Mongole Tehran 1997 . وقد كانت همدان أيضاً من المناطق البارزة في المقاومة آنذاك.

38. JN, Vol. 1, p. 75, Adle, p. 240.

39. Hanway, vol. 4, p. 27؛ وذهب (ANN)p. 108 إلى أن عدد الرجال كان 44 ألفا، لكن هذا الرقم يبدو كبيرا جدا إذ يقول شيخ خازن إن عدد الأفغان كان أكثر من ضعف عدد الفرس (ص 193)؛ في حين يقول Fraser إن عدد الأفغان كان 30 ألفا وعدد الفرس 16 ألفا (ص 95).

40. AAN, p. 110.

41. للاطلاع على التفاصيل الكلاسيكية بخصوص شمول الحرب التاريخ البشري انظر (Michael Howard, The Invention of Peace)London 2000 (ض 1 وفي مواضع متفرقة). ويمكن كذلك الاطلاع على المقدمة الرائعة للغاية لتيم بلامينج (Tim Blanning) (بخصوص جذور الحروب عموماً) في The Origins of the French Revolutionary

.(Wars (London 1986

42. Hanway, Vol. 4, p. 28 .

43. AAN, p. 111 .

44. JN, Vol. 1, p. 76; AAN, pp. 110-113; Hanway, Vol. 4, pp. 28-29; Sheikh Hazin, p. 193; Adle passim; Lockhart 1958, pp. 330-331.. يرى الميرزا مهدي أن وجود المدفعيين (الطبجية) الأوروبيين مع المدفعية الفارسية ليس بالأمر المستحيل (وقد حُذفت هذه الفكرة في ترجمة جونز) إذ قد يكون الروس هم من قدّمها للفرس (انظر Adle, p. 239; Lockhart 1938, p. 36n). لكن يبدو أنه من غير المحتمل أن تكون فرنسية.

45. Richard Holmes, Redcoat)London 2001), p. 254 : نقلاً عن Lt. George Gleig.

46. JN, vol. 1, p. 77؛ وأورد شيخ خازن سبب الخلاف في ص 193—194.

47. Sheikh Hazin, p. 194.

48. Sheikh Hazin, pp. 196-197.

49. قارن Hanway, Vol. 4, p. 30 .

50. AAN, pp. 113-115; JN, Vol. 1, p. 79-80 .

51. JN, vol. 1, p. 81؛ ويلاحظ محمد كاظم (ص 117) أيضاً أن نادراً قد استخدم الرايات والموسيقى لتشجيع رجاله في بداية هذه المعركة.

52. Ibn Khaldun Muqaddimah, Vol. 2, pp. 48-49 .

53. يرى Lockhart 1958, p. 333; Lockhart 1938, p. 38 أن أشرف قد استُدرج من مكمنه لكن سبب ذلك غير واضح، في حين أن الميرزا مهدي كان واضحاً وصريحاً عندما أكد أن الأفغان قد بقوا في خنادقهم (JN, vol. 1, p. 82)، وهذا يتسق مع مصادر أخرى.

54. JN, Vol. 1, pp. 81-83; AAN, pp. 116-118; Hazin, p. 197; Hanway, p. 31;.

GD, 24 Dec14 Jan; Floor Afghan Occupation, pp. 161-162 . هناك خلط بشأن تواريخ هذا التسلسل للأحداث. فقد كتب Lockhart 1958, p. 333 أنه جاء في مذكرات جومبرون (Gombroon) أن أشرف غادر أصفهان يوم 13 نوفمبر وهو القول المرجح في هذا الشأن (وقد كتب Lockhart في كتابه Nadir Shah بأن أشرف غادر أصفهان يوم 13 نوفمبر قبل المعركة بثلاثة أيام). لكن التاريخ المذكور في يوميات جومبرون هو في الواقع 15 نوفمبر (بعد التصحيح إلى التقويم الميلادي) وليس 13 نوفمبر، لذا هناك سبب وجيه للاعتقاد بأن يوميات جومبرون كانت مخطئة على أي حال. وتتفق يوميات شركة الهند الشرقية في أصفهان التي تهتم أكثر بالتواريخ مع الميرزا مهدي بأن أشرف غادر بعد ساعات قليلة من عودته إلى أصفهان عقب المعركة التي وقعت يوم 13 نوفمبر.

55.يتفق معظم الباحثين الثقات على هذا التاريخ بما في ذلك Gombroon Diary (المدخلات الخاصة بفترة 1 / 12 يناير).

56.Hanway, Vol. 4, p. 34؛ ويؤكد Mohammad Kazem هذه الواقعة (ص 119).

57.Hanway, Vol. 4, p. 35؛ ويقدم Mohammad Kazem رواية مماثلة (ص 120).

الفصل الرابع- الحرب مع العثمانيين

1. GD، 14/25 فبراير و16/5 يوليو؛ مستمدة من رسائل من ممثلي السلطة (EIC) في أصفهان.

2. Hanway, Vol. 4, p. 270 .

3. Floor, 1998, p. 262 and Nader Shah; GD, 24 December/4 January, 14/25 February and passim.

4. AAN, pp. 120-1. يعتقد هانواي خطأً أن نادر كان سيتزوج عمة طهماسب Hanway, vol. 4, p. 36. وقد ترددت إشاعات في وقت لاحق أن نادراً تزوج أخت طهماسب دون موافقته– GD، 30 أبريل/11 مايو 1730.

5. Sheikh Hazin, p. 198; JN, vol. 1, p. 86; Hanway, vol. 4, p. 36; Fraser,

pp. 99-100 – ص 198؛ JN.

6. Rostam ol-Hokama, vol. 1, p. 382.

7. إنني شاكر لكاثرين بابايان (Kathryn Babayan) لأنها أطلعتني على مقالتها: «In Spirit We Ate of Each Other>s Sorrow Female Companionship in Seventeenth–century Safavi Iran» قبل نشرها. وتقدم مقالتها سردا لقصيدة الهجاء (Aqa Jamal Khwansari Aqa«ed on-nisa, ed Mahmud Katira«I, Tehran 1970) وقصيدة الحج (Safarname-ye Manzum-e hajj, ed. Rasul Jafarian, Qom, 1995)

8. JN, Vol. 1, p. 88; ZT, fol. 215a. .

9. JN, Vol. 1, pp. 90-1- إشارة إلى القرآن الكريم، 8-80:34.

10. JN, Vol. 1, p. 90; Sheikh Hazin, pp. 199-200. إن طلب نادر المساعدة بمنع هروب الأفغان عن طريق البحر مسجل في يوميات جومبرون (Gombroon) في مدخلات 24 ديسمبر/4 يناير؛ وقد قدم إلى الهولنديين طلباً مماثلاً.

11. Sheikh Hazin, pp. 200-2.

12. JN, Vol. 1, pp. 102-3; Lockhart 1958, p. 338n .

13. JN, Vol. 1, p. 92; انظر؛ Riazul Islam 1970, p. 139 and 1982 (Vol. 2), pp. 37-8 للاطلاع على موجز للرسالة التي حملها المبعوث لإمبراطور المغول.

14. أورد JN, vol. 1, pp. 91-93 وصفاً لإقامة نادر في شيراز. وكالمعتاد ينبغي تصحيح التواريخ في ترجمة جونز لميرزا مهدي. وغالباً ما كان «حافظ» يُستخدم لقراءة الحظ بهذه الطريقة قبل زمن نادر، بيد أنه من السهل فتح الكتاب في المكان المناسب. وقد استُمِدَّت قصة مقدمي الالتماس من AAN, p. 126.

15. JN, vol. 1, p. 96؛ يقول الميرزا مهدي إنه تم تسليم الصك الرسمي للتنازل عن المقاطعات إلى نادر في بوروجرد. انظر Nader Shah Floor، للاطلاع على الشائعات المعاصرة (وربما المشوّهة) في أصفهان المتعلقة بنوايا نادر. وتُعتبر تقارير شركة الهند الشرقية مصدراً ممتازاً للمعلومات بخصوص ما حدث في أصفهان. لكن على المرء أن يحذر من

تحيز هذه التقارير ضد نادر (وخصوصا طلبه غير المفاجئ للمال من خلال التهديد) إذ لا يمكن الركون كثيراً إليها لمعرفة الأحداث التي تجري في أماكن بعيدة والتي من الأفضل الاعتماد فيها على محسن والميرزا مهدي ومحمد كاظم إذ عن أحدهم كان ينتقل مع نادر في معظم الأوقات.

16. Gardane>s Relation (Clairac, Vol. 3, pp. 105-9).

17. JN, Vol. 1, p. 95.

18. JN, Vol. 1, p. 98; AAN, p. 134; Tucker 1992, p. 210.

19. JN, Vol. 1, p. 99; Abraham of Erevan, p. 59.

20. JN, Vol. 1, pp. 104-6.

21. يناقش Olson 1975 أسباباً مختلفة لتمرد باترونا خليل.

22. JN, Vol. 1, p. 109.

23. JN, Vol. 1, p. 111.

24. Avery, p. 29; AAN, p. 161.

25. JN, Vol. 1, p. 114.

26. انظر Abraham of Crete, pp. 48-9; Floor, Nader Shah; Perry 1975 للاطلاع على مناقشة وافية لموضوع التهجير القسري.

27. JN, Vol. 1, p. 100.

28. JN, Vol. 1, p. 117.

29. JN, Vol. 1, p. 120.

30. JN, Vol. 1, p. 124.

31. JN, Vol. 1, p. 135; Abraham of Erevan, p. 64.

32. ZT, fol. 215b 1.

33. ZT, fol. 215a.

34. JN, Vol. 1, p. 138.

JN, Vol. 1, pp. 13940; ZT, fol. 215b; Hazin, p. 218; Home letter of 15/26.35 March 1732, in the Persia Factory Records, India Office Collection, British . Library, GI29116 Part 1, fol. 50, para 21; von Hammer, Vol. 14, pp. 253-4

. ZT, fol. 215b; Horne letter para 22; AAN, p. 224 .36

الفصل الخامس– الانقلاب

. JN, Vol. 1, p. 142 .1

.2 JN, Vol. 1, pp. 143-5. ربما قام الميرزا مهدي بصياغة المذكرة بنفسه بوصفه سكرتير نادر في هذا الوقت.

. Malcolm, Two Leffers, p. 533 .3

4. المصدر نفسه.

5. المصدر نفسه.

Fraser, pp. 227-8, 230-1.6. يورد Matthee 2005 (وخاصة في الصفحتين 48–49) شرحاً كاملاً لتقليد الأتراك المتعلق بالقتال مع شرب الخمر.

. Floor, Nader Shah .7

.JN, Vol. 1, pp. 140-1; Floor, Nader Shah .8

. Floor, Nader Shah .9

JN, Vol. 1, p. 151.10، رغم أن فلور (Nader Shah) يذكر أنه وصل في 26 أغسطس. انظر AAN, p. 185 بالنسبة لقصة طهماسب.

Fraser, p. 106.11 (حزمة الرسائل مذكورة في ص 105)؛ و Hanway, vol. 4, p. 72.

Floor, Nader Shah; JN, vol. 1, p. 152; ANN, pp. 231-3; Hanway, vol.12 4، p. 71; ZT, fols 215b, 223b; GD 17/28 september 1732. تختلف الروايات المتعلقة بتنحية طهماسب من حيث التفاصيل، فقد حسّن الميرزا مهدي من صورة نادر حيث ذكر الشرب لكنه عرض الحدث كما لو كان نادر قد استغل المناسبة لمحاولة إقناع طهماسب

بتغيير رأيه حول المعاهدة مع العثمانيين، مضيفاً أن نادراً لم يقرر أن يخلع الشاه إلا عندما اتضح له تعنته. أما المصادر الأخرى فترى أنه قد تم التخطيط مسبقا للانقلاب وأن نادراً تعمد إسكار طهماسب. لكن لا تتفق المصادر بشأن التاريخ الدقيق لوقوع تلك الأحداث ولا عن مدة حفلة الشرب (يقول محسن، الذي يمكن الوثوق به على وجه العموم، إن الحفل دام ثلاثة أيام كاملة)، لكن يمكن أن تكون قد وقعت في الأيام الأخيرة من أغسطس أو بداية سبتمبر 1732.

13. Arutin Effendi, quoted in Tucker 1992, p. 86.

14. جاء في JN (المجلد 1– ص 153) أن التاريخ هو 7 سبتمبر (17 ربيع الأول)؛ أما Floor فقال إنه 8 سبتمبر (Nader Shah).

15. Floor, Nader Shah; ZT, fol. 216b .

16. AAN, p. 234 .

17. GD 3/14 October 1732 .

18. Floor, Nader Shah .

19. Bazin, p. 317 .

20. Fraser, pp. 227-30. وقد كان كوكل Cockell الذي كتب هذا الوصف عن قوة لقاءاته مع نادر ورفاقه موظفاً في شركة الهند الشرقية مثل جيمس فريزر. وعندما نُشر كتاب Fraser بحلول 1742 كان نادر قد بدأ بشراء سفن من شركة الهند الشرقية، الأمر الذي قد يجعل الوصف الذي يورده كوكل وفريزر لنادر محابياً ومخالفاً لما هي عليه الحال.

21. Hanway, vol. 4, p. 268؛ لمعرفة المزيد عن سمعة نادر بشأن زهده الجنسي، انظر Malcolm, History, vol. 2, p. 85n.

22. Floor، Nader Shah؛ كانت هنالك شائعات يتم تداولها منذ ربيع 1730 بأن نادراً يريد أن يتنحى طهماسب من تلقاء نفسه وأن ينقل البلاط من أصفهان إلى قزوين (GD 30 April/11May).

23. Floor, Nader Shah .

24. AAN- ص 143–5 (انظر أيضاً Tucker 1992 – ص 211–212).

25. Vatatzes, p. 97 .

26. JN, Vol. 1, pp. 155-6 .

27. JN, Vol. 1, pp. 157-8 .

28. JN, Vol. 1, p. 162.. يقول الميرزا مهدي إن الملك الألماني هو من أرسل المهندس، لكن من المرجح أن الحكومة الروسية هي التي قدمت ذلك الألماني لأن بطرس الأكبر كان يشجع على هجرة أعداد كبيرة من الألمان ذوي المهارات في المهن التقنية إلى روسيا.

29. يقول الميرزا مهدي (المجلد 1، ص 163) إن العدد كان 30 ألف رجل، لكن هذا الرقم يبدو كبيراً ويتجاوز عدد رجال حامية بغداد الكاملة الذي أورده Hanway (المجلد 4– ص 81) والبالغ 10 آلاف.

30. JN, Vol. 1, p. 164 .

31. Abraham of Erevan, pp. 77-8 .

32. Floor، Nader Shah؛ ربما يكون التقدير الأكثر اعتدالاً الذي قدمته شركة الهند الشرقية الهولندية أفضل من الرقم 110 ألف الذي أورده Mirza Mahdi في كتابه Durreye Naderi (الذي قدمه Lockhart 1938, p. 71). وقد جاء الرقم الذي نقل سابقاً لمجموع عدد السكان في المخيم الفارسي من فلور أيضاً. ويؤكد كل من Emin (ص 5) وMohsen (fol. 216b)) معاناة سكان بغداد.

33. Hanway, Vol. 4, pp. 834 .

34. رواية شاهد العيان جين نيكوديم Jean Nicodeme في von Hammer, pp. 517-18.

35. تشير مصادر شركة الهند الشرقية الهولندية إلى أن محمد خان بلوش غادر مع 4 آلاف حصان و12 ألف من المشاة (Floor 1983, p. 80).

36. Von Hammer, p. 521.

37. Von Hammer, pp. 522-3.. يدعي الميرزا مهدي يدعي أن العثمانيين قد حاربوا انطلاقاً من الاستحكامات حول معسكرهم، لكن رواية نيكوديم أكثر قبولا. وبحسب

روايات شهود عيان من الجانب العثماني التي قدمها Clairac (المجلد 3– ص 288–299 و307–311) وروايات Hanway (المجلد 4– ص 85) فقد كان لدى توبال عثمان خيار خوض معركة دفاعية على طول خط مسيل الماء الذي شكله المجرى القديم لنهر دجلة، لكنه بدلاً من ذلك تقدم أكثر لمهاجمة الفرس. ويكتنف ما يحدث فعلاً في المعارك على مر التاريخ غموض يزيد كثيراً عنه في أي نوع آخر من الأحداث التاريخية. لذا فالشروح والتفسيرات التي تبذل جهداً كبيراً في إزالة الشعور بعدم الوضوح قد تعطي صورة أقل دقة.

38. JN, Vol. 1, p. 169 .

39. Fraser, p. 234 .

40. رواية شاهد العيان جين نيكوديم في von Hammer, p. 524؛ وكذلك تقرير توبال عثمان– Clairac, vol. 3, pp. 307-11. ويقول محسن إنه قد قُتل 23 ألف من الفرس (ص.216b).

41. Hanway, Vol. 4, p. 91 .

الفصل السادس– نادر شاه

1. Hanway, pp. 934; JN, Vol. 1, p. 170 .

2. JN, Vol. 1, pp. 171-2 .

3. Floor, Nader Shah .

4. Floor, Nader Shah

5. Cambridge History of Iran, Vol. 7, p. 303 .

6. انظر Floor 1983. جاء في تقارير شركة الهند الشرقية الهولندية الغاضبة في أصفهان أنه كان من غير المرجح أن ينضم الأصفهانيون إلى التمرّد لأنهم «أكثر ذكاء من النساء وجبناء للغاية، ولا يستطيعون إلا ابتلاع الأرز وارتداء الملابس الجميلة لإرضاء نسائهم المومسات» (المصدر نفسه– ص 82). ويبدو أن ممثل شركة الهند الشرقية الهولندية فان

ليبسيج قد سمح أحياناً لشعوره بالإحباط بأن يجعله يستشيط غضبا. فرغم أن لديه العديد من الأصدقاء في أصفهان وخصوصاً بين التجار (انظر Floor، Dutch Trade in Af-sharid Persia) فإنه لا يحب البيروقراطيين الذين عليه أن يتعامل معهم.

.7 JN, Vol. 1, p. 173; also Floor, Nader Shah .

.8 Fraser, p. 231. يذكر فريزر في هذا الصدد أن والدة نادر كانت على قيد الحياة في عام 1737، لكنه لم يقل مباشرة إن الحادث قد وقع في تلك السنة. لذا من المنطقي أن يكون ذلك قد حدث قبل تتويج نادر.

.9 JN, Vol. 1, p. 181; Hanway, Vol. 4, p. 99؛ ورسالة نادر إلى الكونت هيس هومبورغ (قائد القوات الروسية في القوقاز في ذلك الوقت) في الوثائق الحكومية 91/16.

.10 PRO State Papers 91/16; Emin, p. 6 يؤكدان أن أحمد باشا كان على وشك الاستسلام.

.11 JN, Vol. 1, p. 183 .

.12 JN, vol. 1, pp. 186-7؛ وGD 3/14 February 1734 (بالاعتماد على رسالة من طهماسب خان جالاير الذي كان موجوداً)؛ وFraser, pp. 112-13; Hanway, vol. 4, p. 111 (تستند رواية هانواي إلى رواية فريزر إلى حد كبير). وتشير سجلات شركة الهند الشرقية الهولندية إلى أنه لم تحدث أي معركة على الإطلاق (Floor 1983, pp. 84, 85) لكن هذه الرواية تتفق مع ما روته المصادر الأخرى عن هروب المتمردين، لذا لم يخض المتمردون أي قتال.

.13 JN, vol. 1, p. 193; Floor 1983, pp. 90-91; GD 8/19 may 1734. ويقول فريزر إنه قد شنق نفسه في السجن (ص 113).

.14 Floor, Nader Shah .

.15 JN, p. 191; ؛ وLockhart 1938, p. 81(نقلا عن رسالة من Geekie – ممثل شركة «دوتش إيست إنديا» في أصفهان)؛ وFloor – ص 45.

.16 The Koran, Penguin Classics, trans. N. J. Dawood (1990), p. 236 .

17. Abdollah Mostowfi, The Social and Administrative History of the Qajar Era, 2nd edition, Vol. 1, pp. 13-14. أنا ممتن جدا لبيتر أفري لهذه القصة وترجمته لها.

18. Malcolm, History of Persia, Vol. 2, pp. 290-1.

19. JN, Vol. 1, pp. 1934; Floor, Nader Shah; Lockhart 1938, p. 83 and 83; Cambridge History of Iran, Vol. 7, p. 324 (للاطلاع على المباحثات مع الروس).

20. JN, vol. 1, p.195. أبلغت سانت بطرسبورغ باعتقال نادر لشاماخي وحصاره للمدينة، فقامت الحكومة الروسية بدورها بإعلام ممثلي الحكومات الأخرى. فقامت البعثة البريطانية بتمرير هذه المعلومات إلى لندن يوم 24 ديسمبر 1734 (حيث تم إرسالها من روندو إلى هارينغتون، مكتب السجلات العامة، الوثيقة الحكومية رقم 91، المجلد 17- ص 183). ومن ثم تم تمرير ترجمة لرواية نادر لمعركة باغفارد في وقت لاحق إلى لندن عبر الطريق نفسه (انظر أدناه).

21. JN, Vol. 1, pp. 196-7.

22. Lockhart 1938, p. 86.

23. JN, Vol. 1, pp. 202-3: ربما عدل الميرزا مهدي أعداد القتلى لصالح الفرس.

24. انظر رواية نادر في State Papers 91/18 fols. 237-8; JN, vol. 1, p. 211; Abraham of Crete (CAC), p. 28238.

25. CAC, p. 30.

26. CAC, p. 32.

27. CAC, p. 102.

28. CAC, pp. 34-5.

29. JN, Vol. 1, p. 211.؛ الأرقام العثمانية مأخوذة عن قصة نادر في State Papers 91/18 fols. 237-8.

30. CAC, p. 35.

31. CAC, p. 38 .

32. CAC, pp. 3741؛ لمعرفة عدد الإصابات في الجانب العثماني انظر State Papers 91/18 fols. 237-8; JN, Vol. 1, pp. 213-14؛ كان تقدير هانواي لقتلى الأتراك أقل من 20 ألفاً لكنه لم يكن موجوداً هناك (المجلد 4– ص 120). وقد كان عدد القتلى الذي أعطاه ضباط نادر لشركة الهند الشرقية الهولندية 30 ألفا (Floor، Nader Shah).

33. Public Records Office, State Papers 91/18, fol. 238. الاقتباسات السابقة أيضاً تتبع هذه الرسالة.

34. CAC, p. 118 .

35. JN, Vol. 1, p. 221 .

36. JN, Vol. 1, p. 224.– قبل أن يغادر خان التتار قبلان جيراي، عيّن أحمد خان حاكما لدربند وسورخاي حاكما لشروان (JN, vol. 1, p. 222)؛ لكن لم تكن للزجيين سلطة في كلا المنطقتين حتى قبل أن يبدأ نادر حملته عليهم.

37. JN, Vol. 2, p. 2 .

38. ZT, fol. 217b; Lockhart 1938, pp. 96ff .

39. CAC, p. 77، .

40. CAC, pp. 56-7 and 57n; JN, Vol. 2, pp. 2-3; ZT, fol. 217b. أفاد الميرزا مهدي بوجود 100 ألف مندوب في قورولتاي، لكن رواية محسن عن 20 ألفاً منطقية أكثر.

41. Morgan, The Mongols, pp. 61-2 .

42. CAC, p. 60 .

43. CAC, p. 62-3 .

44. CAC, p. 64 .

45. Fraser, pp. 228, 229 and 233; Floor, Nader Shah. يذكّر إصدار عدة أوامر مختلفة شفهية ومكتوبة في وقت واحد (كما ذكر Fraser نقلا عن سلطة كوكل (Cockell) بقيصر ونابليون.

46. CAC, pp. 130-3 .

47. Avery, pp. 34-5; AAN, p. 446-7 .

48. CAC, pp. 70-2 .

49. Floor, Nader Shah .

50. تتفق المصادر على نطاق واسع على رسالة نادر (JN, Vol. 2, pp. 34; AAN, p. 453; Fraser, p. 115). ويغفل القس أبراهام (ص 88–89) ذكر الأمراء الصفويين (وقيام الملا باشي بقتل أتباعه الذين ربما كانوا يشعرون بالحساسية تجاهه) لكنه يعطي فكرة أكثر تفصيلا عن طريقة إجراء المناقشات وتوقيتها. وقد اتبعت فيما يلي رواية القس بصورة رئيسية.

51. Floor, Nader Shah.

52. AAN, p. 455. يشير الرياحي، وهو محرر كتاب محمد كاظم، في إحدى الحواشي إلى أنه قد يكون هناك بعض الشك في أن أبو الحسن هو الاسم الصحيح. وبحسب رواية Fraser (ص 118) فقد اتخذ الملا باشي موقفاً مبدئياً ضد ابتكارات نادر الدينية في مرحلة لاحقة ودفع ثمن ذلك، لكن رواية محمد كاظم موثوقة أكثر.

53. قمت بصياغة شروط نادر الثلاثة استناداً إلى روايات CAC (ص 90–91)، وJN (المجلد 2– ص 5) التي تتفق مع الخطوط الرئيسية.

54. CAC, p. 92؛ يعطي محسن Mohsen وصفاً مماثلا لهذه الآراء (fol. 217b).

55. CAC, p. 92 .

56. CAC, p. 144 .

57. نص المقترحات الخمسة مأخوذ من Lockhart, , p. 101. وترجمة الميرزا مهدي (JN, vol, 2, p. 6) مع بعض التعديلات. وتؤكد مصادر من الجانب العثماني جوهر المقترحات التي قدمت لاحقاً إلى الحكومة العثمانية في اسطنبول– انظر Tucker 1996, 24.

58. CAC, p. 110. أما ما تبقى من رواية القس أبراهام فقد أدلى بها كاهن آخر حل مكانه.

59. CAC, pp. 110-11 .

60. CAC, pp. 112-15.

61. Sheikh Hazin, p. 272. للاطلاع على الشائعات انظر Vatatzes, p. 237; Hanway, vol. 4, p. 123 (كلاهما يصدقانها).

62. رغم أن Lockhart 1938 (ص 279n) يذكر قصة مفادها أن رجل دين، سيد مرتضى، من فترة البويهيين قد اقترح على الخليفة حلاً لمشكلة الانقسام في الإسلام تصبح الشيعة بموجبه مذهباً خامسا يطلق عليه اسم المذهب الجعفري، إلا أنه لا يوجد أي مؤشر على أن نادر أو أحد مستشاريه كانوا على علم بهذه القصة أو أن الفكرة كانت بخصوص عملة موحدة. وتشير سجلات شركة الهند الشرقية الهولندية إلى أن نادراً بدأ القيام ببعض التدابير المعادية للشيعة في وقت مبكر من ربيع عام 1734 حيث يبدو أنه قد حظر مراسم الاحتفال بعاشوراء في أصفهان (Floor، Nader Shah).

63. Darling, p. 3; Tucker 1993, pp. 109-10؛ انظر أيضاً Lambton 1980. هذا الموضوع في رواية الميرزا مهدي يتسم بالقوة من بين روايات الباحثين المعاصرين.

64. مصدر ذلك هو الوثيقة التي ورد ذكرها في «نادر نامة» لمحمد حسين قدوسي التي استند إليها Tucker 1992, pp. 26-27.

65. Tucker 1994, pp. 174-175. ويرتكز تفسيري الخاص لمغزى اقتراح المذهب الجعفري كثيراً إلى تحليل تاكر الدقيق. ويقول محمد كاظم إن الناس واصلوا سراً أداء شعائر التعزية أو إعادة إحياء واقعة الاستشهاد في كربلاء رغم الحظر الذي فرضه نادر عليهم (ص 982). وانظر أيضاً بحث Algar (1977) لأهمية هذه التطورات على التشيع.

66. CAC, pp. 143-4; Bazin, pp. 285-6; Floor, Nader Shah. يبدو أن معظم نقوش العملات والأختام في الجزء الأول من عهد نادر كانت تتجنب استخدام لقب نادر شاه مباشرة. وتشير سجلات شركة الهند الشرقية الهولندية إلى أن اللقب ولي النعمة قد استخدم حتى نهاية حملة تركستان في 1740 (انظر أدناه)، إلا أن المصادر الفارسية لا تؤيد ذلك. وثمة العديد من الأمثلة على استخدام لقب «شاه» في وقت سابق حيث يقول شيخ خازن صراحة إن نادر سمى نفسه بهذا اللقب في موغان (ص 270). وربما يكون نادر قد

امتنع عن استخدام هذا اللقب رسمياً إلا أنه كان يستخدمه عادة خارج البلاط والدوائر الإدارية.

67. Krusinski, Vol. 1, p. 106.

68. Lambton 1977, pp. 123-7. انظر أيضاً الفصل 7 أدناه، الملاحظة 13.

69. Hanway, Vol. 1, p. 271.

70. JN, Vol. 2, p. 14.

71. Hanway, Vol. 4, p. 276.

72. Bazin, p. 318.

73.—Rambaud, Histoire de la Russie (Paris 1900), p. 442 (تعتبر إشارة Lockhart 1938, p. 281n غير صحيحة).

74. رضا شعباني نقلاً عن Tucker 1994, p. 165.

75. محمد مهدي بن محمد رضا؛ وقد نقل عنه Lockhart 1938, p. 281. من المستحيل معرفة ما إذا كانت مثل هذه القصص صحيحة تماماً، لكن من خلال الأفكار ذات المصداقية التي تبادلها المعاصرون لهذه الأحداث فإنه يمكن أن تخبرنا هذه القصص أشياء مهمة عن المواضيع التي تتحدث عنها.

76. Hanway, Vol. 4, pp. 218-19.. قال نابليون وهو في أوج أوهام جنون العظمة شيئاً مشابهاً – انظر مذكرات Mme de Remusat التي نقل عنها ديفيد تشاندلر في كتابه Campaigns of Napoleon (London 1998), p. 248. وتؤكد سجلات شركة الهند الشرقية الهولندية قصة ترجمة الأناجيل (Floor، Nader Shah).

77. Bazin, p. 318.

78. Tucker 1994, pp. 176-7; Moreen 1990, p. 52.

79. بعض المصادر التي تصور تشكك نادر الديني بصورة صارخة هي مصادر غربية (Bazin و Malcolm و Hanway وشركة الهند الشرقية الهولندية)، الأمر الذي يمكن أن يجعل هذه المعلومات موضع شك، لكن الرواة الفرس بطبيعة الحال يترددون في التحدث

16. Floor, Nader Shah .

17. المصدر نفسه.

18. JN, Vol. 2, p. 33; AAN, p. 536 .

19. Floor, Nader Shah .

20. JN, Vol. 2, pp. 3940; Floor, Nader Shah .

21. JN, Vol. 2, p. 40. تحدد ترجمة جونز لميرزا مهدي تاريخ هذا الهجوم والعدد الإجمالي للقوات الفارسية على نحو خاطئ.

22. JN, Vol. 2, pp. 42-3; AAN, p. 544 .

23. AAN, p. 542 .

24. JN, Vol. 2, p. 44; Floor, Nader Shah; AAN, pp. 544-8. يشير Lockhart, Nader Shah, p. 119 إلى أن الاعتداء النهائي قد حدث يوم 23 مارس (2 ذي الحجة)، لكن يبدو أن الميرزا مهدي يقول إن الاستعدادات قد جرت في ذلك اليوم، أما الاعتداء فقد تم في اليوم التالي. في حين أن سجلات شركة الهند الهولندية (Floor) تؤكد أن الهجوم الناجح قد جرى في 24 مارس (3 ذي الحجة). ويؤكد Anand Ram، مثل AAN، أن قندهار قد سقطت عن طريق الخيانة (رغم أنه يقول إنه ثمة خائن قد فتح البوابة أمام الفرس بالفعل – ARM, fol. 163a).

25. JN, Vol. 2, p. 44; AAN, p. 549 .

26. JN, Vol. 2, p. 45 .

27. AAN, p. 550 .

28. JN, Vol. 2, pp. 46-8; Bazin, p. 287; Floor, Nader Shah .

29. يلخص Riazul Islam, vol. 2, pp. 49-50 الرسالة التي حملها سفير نادر سفير، ويورد المراسلات التي تمت في وقت سابق وحث فيها نادر على اتخاذ إجراء ضد هؤلاء الأفغان الهاربين.

30. JN, Vol. 2, pp. 50-1 .

31. اثنان من أكثر المصادر موثوقية هما JS (ص 2) و Fraser (ص 129)، رغم أن الأول يحبذ بقوة خان دوران والعصبة الهندوستانية المنشقة وبالتالي فقد كان معاديا لنظام الملك. ولا يوجد ذكر للخطابات في المصادر الرئيسية الفارسي، لذا من الممكن أن تكون القصة كلها ملفقة من قبل العصبة الهندوستانية المنشقة لتشويه سمعة منافسيها. لكن Chandra (ص 249) يعتقد أن القصة معقولة، كما أن Tucker (1998) يشرح أيضاً بعض تعقيدات سياسة البلاط المغولي وظروف المؤلفين الذين كتبوا لتعظيم مصالح الحاشية الرئيسية.

32. Chandra, pp. 266-7; Gommans Mughal Warfare, pp. 68-9; Subrahrnan-yam, p. 350; Alam, pp. 303-7 and passim.

33. هذا يشكل بالضرورة لمحة عامة مبالغ في تبسيطها للقضايا المعقدة والمثيرة للجدل. للاطلاع على معلومات عن دولة الهند في ذلك الوقت انظر Chandra و Subrahman-yam و Sarkar و Alam و Bayly و Spear

34. Floor, Nader Shah.

35. ARM fols. 164a-164b (يورد Lockhart Nadir Shah, p. 125n الورقة 163b بصورة خاطئة).

36. ARM fols. 163b-164a; Hanway, Vol. 4, p. 151. قد يبدو من غير المحتمل أن يلحق ارتداد مدفع واحد مثل هذا الضرر لكن يمكن أن يكون الهيكل قد ضعف بسبب انفجار العديد من الشحنات المتفجرة، كما أنه من المرجح أن التحصينات كانت في حالة متردية، وقد يكون البرج عبارة عن دعامة للجدار. وقد كان لدى المغول ميل للمدافع الضخمة ذات الارتداد القوي. لمعرفة العقوبة التي أنزلت بالجنود انظر Fraser, p. 151.

37. JN, Vol. 2, pp. 52-5؛ رسالة أوردها Fraser, pp. 138-39 وبحثها Riazul Is-lam 1982, vol. 2, pp. 60-2 (1982.

38. JN, Vol. 2, p. 57.

39. AAN, pp. 584-585; Lockhart Nadir Shah, p. 164؛ ويبدو أن The Cam-bridge History of Iran, vol. 7, p. 42 قد أخطأ في هذه النقطة.

40. AAN, p. 603 .

41. انظر على سبيل المثال Bratishchev, pp. 475, 479.

42. JN, Vol. 2, p. 59; AAN, pp. 624-5. يشك Lockhart, p. 168 في أن محمد كاظم كان يعرف التعليمات الخاصة التي قدمها نادر لابنه، لكن من المرجح أن يكون قد أبلغ مستشاري أبنائه بفحوى هذه التعليمات.

43. Bratishchev, p. 483 .

44. Lockhart Nadir Shah, p. 169; JN vo12, pp. 85-6 .

45. JN, Vol. 2, p. 61; Sheikh Hazin, p. 290; Fraser, pp. 134-6; Floor 1998,. p. 208. ذكر فريزر أن عدد قوة سلاح الفرسان التي هاجمت نادر كان 10 آلاف. انظر Bellamy 1990 للاطلاع على تحليل لهذا الصدام يقدمه الجنرال الروسي كيشميشيف- «... تحفة فنية في تاريخ الحرب» (ص 214).

46. JN, Vol. pp. 61-2; AAN, p. 676.

47. ARM fols. 167b-168a; Sheikh Hazin, pp. 29-34; JS, p. 2, JN, Vol. 2/. pp. 63-64 .

48. ARM fols. 168b-169a .

49. جاء رقم 300 ألف من الميرزا مهدي، ويتوافق مع تقرير شركة الهند الشرقية الهولندية في دلهي في منتصف ديسمبر (Floor 1998، p. 205n). ويشير ميرزا زمان (Mirza Za-man) إلى أن عدد القوات المقاتلة قد بلغ 200 ألفا (Fraser، p. 153). وحدد ARM عدد الفرسان بأكثر من 50 ألف فارس لكن يمكن أن يكون هناك عدد كبير إضافي من الجنود الراجلين. ويشير Sarkar (ص 38) إلى أنه قد يكون هناك ما يصل إلى مليون شخص في المخيم. ومع أن 200 ألف من القوات المقاتلة ومليون كعدد إجمالي هائل لكنه معقول. وتشير تقديرات شركة الهند الشرقية الهولندية إلى عدد فيلة المعركة المدربة قد بلغ 500 (بالمقارنة مع الدواب التي تستخدم لنقل الأسلحة والأمتعة) وأن عدد المدافع 1200، وهذه الأرقام أرقام معقولة.

50. JN, Vol. 2, pp. 65-7 .

51. JS, p. 7; Tieffenthaler, p. 49; Sarkar, pp. 40-2.: بيان الظروف في المخيم هو من Floor 1998, p. 306.

52. ساركر، نقلاً عن غلام حسين.

53. تم الاستناد إلى دي فولتون (De Voulton) لوصف سلاح الفرسان الفرس الخفيف، وقد نقله عنه Subrahmanyam (ص 358) و Lockhart (ص 1926 234)، وتم الاستناد أيضاً إلى رسالة من شركة بيير ساينز (Pere Saignes) التي يبدو أنها مأخوذة عن نفس المصدر. وهناك بعض الاختلافات بين هذه الروايات المتعددة، وخاصة في رواية كل من Subrah-manyam و Pere Saignes (بيير ساينز) اللذين ذكرا أن البنادق هي من نوع بنادق الفتيل. في حين أن Lockhart يقول إنها من نوع الزند ذي صوانة. وربما يكون النص الفرنسي أدق لأن الفارس يفضل دائما البندقية ذات الزند المصوّن على بندقية الفتيل المرهقة. ولكن في تلك الفترة كان يتم تخصيص الأسلحة الأكثر تكلفة بقوات النخبة مثل فرسان غلام وقوات الجزايرجي التابعة لنادر. ومن المعقول أن يكون فرسان المناوشات الخفيفة قد تم تسليحهم ببنادق الفتيل الأرخص ثمنا (انظر Gommans 2001, p. 376). ويصف دي فولتون العباءة بأنها ثوب من القماش شبيهة بالعباءة الطويلة التي كان الفرسان النمساويون يرتدونها في تلك الفترة (وأحيانا تكون ذات قلنسوة يتم وضعها على الأكتاف) وقد تطورت لاحقا لتتحول إلى المعاطف التي يرتديها الفرسان الأوربيون. وعلاوة على ذلك تضيف شركة ساينز درعاً للفرسان إلى وصفها وتشير إلى أن لون الرداء كان أخضر أو أصفر أو أحمر. ونحن نعلم من الأوصاف الأخرى والأدلة المصورة أنه كان لدى نادر أيضاً فرسان ذوو دروع ثقيلة (وخصوصا في Abraham of Crete, p. 118).

54. JN، Vol. 2، pp. 66–8; p، Tieffenthaler. 49.

55. JN, Vol. 2, p. 68. الخطاب من Brosset, vol. 2, 2me Livraison, p. 358.

56. Fraser, pp. 154-55; Hanway, vol. 4, p. 164. يكرر هانواي إلى حد كبير تقديرات ميرزا زمان، كما ذكر فريزر، لكنه يضيف بعض التفاصيل. ويقدر البعض عديد

الجيش الفارسي بأرقام أقل إذ يقول Floor 1998 إن العدد كان 50 ألفا (ص 307)، في حين أن رواية De Voulton تقدّر في المحفوظات الفرنسية (Subrahmanyam 2000, p. 358) أن عدد الفرسان بلغ 80 ألفاً، أما المشاة فعددهم 20 ألفا، وبإضافة التابعين الذين يلحقون بالعسكر ليتكسبوا منهم فإن العدد يصبح معقولاً. لكن النسخة البرتغالية التي ترجمها Lockhart 1926 (ص 230) ذكرت أن المجموع الكلي بلغ 60 ألفا وعدد القوات المقاتلة لا يزيد عن نصف ذلك الرقم. ومن المرجح أن الفارق بين الرقمين قد نتج عن الترجمة وإعادة الترجمة إلى النص البرتغالي. وهذه هي الرواية التي تشير إلى الأوروبيين حيث قد يكون De Voulton ذكر الإنجليز ليزيد من تحامل القراء الفرنسيين على نادر، ص57.

57. استقيتُ روايتي للمعركة من JN, vol. 2, pp. 68-72; Fraser, pp. 155-9; ARM fols. 169b-170b; JS, pp. 9-23; Hanway, vol. 4, pp. 165-7; BW, fols. 76a-79a; Brosset, vol. 2, 2me Livraison, pp. 358-60; Tieffenthaler, pp. 49-51; Sarkar, 42-52; Lockhart, Nadir Shah, pp. 135-40 وقد كان سرد معظم الرواة الرئيسيين للأحداث متشابهاً لكنهم اختلفوا في بعض التفاصيل المهمة مما أدى إلى بعض الالتباس. فتفسيري للأحداث يختلف عن تفسير لوكهارت لأنه لم يكن هناك من المصادر الرئيسية المعاصرة للمعركة إلا جنديان فقط كشاهدي عيان موجودين في ساحة المعركة هما الأمير الجورجي إيركل ونادر نفسه (يلخص مالكولم في Two Letters؛ و Riazul Islam 1982, vol. 2, p. 746 الرسالة نفسها لكن دون إعطاء تفاصيل للمعركة). أما بقية المؤرخين فقد حصلوا على معلوماتهم المتعلقة بالمعركة من جهات أخرى. وقد قادتني قراءتي لهاتين الروايتين بتمعن إلى جانب رواية تيفنثالر (الذي يعطي مزيداً من التفاصيل بخصوص مواقع مختلف فئات القوات ويجعل موقع المخيم الفارسي إلى الشرق أكثر، وهو أمر هام) وروايتي عبد الكريم الكشميري وميرزا مهدي إلى إعادة النظر في تفسير الأحداث السابقة حيث لا يتعارض التفسير الجديد بصورة كبيرة مع الروايات الأخرى المعاصرة (مثل Anand Ram – Siddiqi – Harcharan Das – Hanway – Fraser) التي تتسم بالأهمية لمعرفة الوقائع الفردية. وقد أكد العديد من الكتّاب أن مرتضى ميرزا كان

يوجه أوامره من قلب الجيش الفارسي. ويتفق إيركل وتيفنشالر على أن سعدات خان قد قام بهجومه في تلك المنطقة وأن خان دوران قد هاجم باتجاه كونجبورا (وهذا أمر معقول لأن نادر قد وضّع نفسه مع أفضل قواته في المنطقة التي كان يتجه إليها الجزء الأكبر من جنود العدو). ويقول إيركل الذي كان في قلب الجيش الفارسي مع مرتضى ميرزا إن سعدات خان قد تابع القتال بعد هزيمة خان دوران. وهذا أمر وارد جدا بالنظر إلى ثقل حجم النيران الموجهة نحو رجال خان دوران. وقد قمتُ بتتبع رواية Anand Ram (وهي معتمدة من قبل غلام حسين الطباطبائي حسب Sarkar) وخصوصا افتراضه بأن سعدات خان قد غادر المخيم الهندي من دون التشاور مع القادة الآخرين. وقمتُ بإهمال ما قاله هانواي (وكرره كل من لوكهارت وساركر) بأن نادراً قد استخدم مواد مشتعلة تتدلى بين الجمال لإخافة أفيال المغول مثلما فعل تيمور إذ لم يؤيد أي مصدر آخر تلك الفكرة كما أن هانواي لم يكن هناك، وهي تبدو إلى حد كبير كما لو كانت أسطورة شعر بعض قدامى المحاربين أنه من المسلي قصها أمام ذلك الإنجليزي الساذج.

58. BW, fol. 77b .

59. ARM fol. 169b .

60. JS, p. 11 .

61. Malcolm Two Letters, p. 543 .

62. JN, Vol. 2, p. 70; Brosset, Vol. 2, 2me Livraison, p. 359 .

63. JS, p. 12 .

64. Fraser, p. 68. تورد المصادر المغولية الأخرى قصة مماثلة – قارن Tucker 1998، p. 216. وانظر أيضاً JS, p. 19.

65. Fraser, p. 158n .

66. BW, fols. 78a-78b .

67. AAN, pp. 14, 729 - شكّك Lockhart, Nadir Shah, p 140n. في أنه قد تمت إعادة تسمية مرتضى في هذه المناسبة حيث قال إنه لا توجد أية رواية أخرى أعطته ذلك

الاسم سابقا. لكن القس أبراهام كان يسميه مرتضى قولي (على سبيل المثال في الصفحتين 84،114) رغم أنه كان في البداية يخلط بينه وبين ابن أخ نادر، علي قولي (ص 78). وهذا التقدير للإصابات في صفوف الهنود مأخوذ من دي فولتون (Lockhart 1926, p. 230) (وقد قدّر نادر نفسه أرقاماً أكبر، ربما على سبيل المبالغة، وقال إنه قد تم أسر عدد أكبر). أما عدد الخسائر بين الفرس فهو مستمد من Fraser, p. 168؛ كما أن Fraser يذكر في ص 158 أرقاماً أكبر لكن ربما كان فيها مبالغة.

68. Sarkar, pp. 51-2 .

69. Tieffenthaler, p. 50 .

70. BW, fol. 77b.

71. للتعرف على حالة الحرب لدى المغول في القرن الثامن عشر انظر Gommans 2001, pp. 366-373. وانظر أيضاً اقتباسات من دي فولتون (De Voulton) في Subrahmanyam, p. 358.

72. Tieffenthaler, p. 52; Sarkar, pp. 56-62; Mohammad Bakhsh (»Ashub«) in Elliot and Dowson, Vol. 8, pp. 233-34 .

73. قدم الفرنسي دي فولتون رواية للاجتماع مع نظام حيث كان مع الوفد المرافق لنظام. ولهذه القصة أشكال عديدة، فهناك ترجمة لوكهارت للنسخة البرتغالية (Lockhart 1926). وهناك نسخة في المحفوظات الوطنية الفرنسية مأخوذة من سجلات الشركة الفرنسية الاستعمارية (والتي نقل عنها Subrahmanyam الكثير)، ونسخة في Hanway (المجلد 4- ص 168-169). ورغم أن لدى Lockhart و Subrahmanyam شكوك حول دي فولتون إلا أن تفاصيل المناقشات التي أوردها تتفق مع العديد من المصادر الأخرى في خطوطها العريضة. وبما أن دي فولتون معني بمصالح نظام فإنه لم يشر إلى المراسلات السابقة بين نادر ونظام. انظر أيضاً رواية J Sarkar, pp. 56-60 التي تستند إلى حد كبير إلى هارتشاران داس. وأورد Hanway (المجلد 4- ص 171n) أن مبلغ الإتاوة الذي تم الاتفاق عليه كان 200 مليون، في حين أن تيفنثالر قال إن الرقم 20 مليوناً، أما ساركار فيرى

أن المبلغ هو 5 ملايين.

74. Lockhart 1926, p. 233; BW, fol. 80a; JN, Vol. 2, p. 72.

75. Lockhart Nadir Shah, p. 142, citing Harcharan Das; JS, p. 24.

76. JS, p. 26.

77. ARM fol. 173a; Fraser, p. 175, Sarkar, pp. 62-3.

78. JS, p. 26; ARM fol. 173b؛ الاقتباس من Fraser, p. 218.

79. ARM 172b; JN, Vol. 2, p. 73; BW fols. 80b-81a.

الفصل الثامن– خراب فارس

1. BW, pp. 8-10.

2. GD, 5/16 February 1740; Floor, Dutch Trade.

3. انظر Subrahmanyam 2000. لمزيد من المعلومات حول إصلاحات العملة انظر يوميات GD, 5/16 February 1740.

4. Lockhart 1926, p. 237.

5. Fraser, pp. 211-12.

6. يتفق كل من سرد Chandra (ص 237) و Riazul Islam 1970, p. 185 على أهمية أثر الغزو الفارسي.

7. Fraser, pp. 215-16.

8. JN, Vol. 2, p. 83; BW, p. 2.

9. JN, Vol. 2, p. 83; ARM fols. 179a-180b; BW, pp. 3-5; Hanway Vol. 4, pp. 201-2; Floor Nader Shah; GD 22 Feb/5 March 1740; Malcolm, Vol. 2, p. 86. يختلف JN و ARM حول توقيت وصول نادر إلى تشيناب، لكنهما يتفقان على تاريخ انتهاء العبور.

10. BW, pp. 10-11.

11. JN, Vol. 2, pp. 84-8; Hanway, Vol. 4, pp. 200-1 .

12. BW, pp. 15-16; JN, Vol. 2, pp. 88-9. يرى Lockhart 1938, p. 159 مثل BW أنه قد فُقدت ربع غنائم الهند مع هذه الإبل، لكن الميرزا مهدي يقول إن الكنوز كانت في طريقها إلى هرات.

13. JN, Vol. 2, pp. 90-2; ARM fols. 182b-183a; BW, p. 21 .

14. جاء نص الرسالة التي تطلب من الحاكم الدعم في ARM, fol. 181a. وفي Riazul Islam 1982, vol. 2, pp. 87-9.

15. Floor 1987, pp. 46-7؛ ومدخلات يوميات جومبرون لشهري أكتوبر ونوفمبر 1739، وLockhart 1936, p. 11.

16. ARM fol. 184a; BW, pp. 21-2 .

17. JN, Vol. 2, pp. 94-6.– نظرا إلى أن الميرزا مهدي هو مؤرخ بلاط نادر فهو يتجاهل أو يغطي على معظم الأحداث المأساوية التي لحقت بنادر، وأظن أنه قد ألمح بشكل غير مباشر إلى الكوارث التي ستأتي بعد هذه الواقعة الوردية.

18. JN, Vol. 2, p. 97.

19. GD, entries for November 1739; Lockhart 1938, p. 176 .

20. GD 23 December 1739/3 January 1740; Bratishchev, pp. 471- . وقد أوردت تقارير شركة الهند الشرقية الهولندية موضوع قطع الرؤوس نقلاً عن طبيب رضا قولي الهولندي (Floor، Nader Shah).

21. يشير سجل شركة «الهند الشرقية الهولندية إلى وجود فجوة بين تاريخي 23 يونيو، وهو تاريخ وصول نبأ النصر في كارنال إلى أصفهان، و12 ديسمبر، وهو تاريخ وصول الرسول من بيشاور (Floor، Nader Shah). وتشير يوميات جومبرون أيضاً إلى انتشار شائعات حول وفاة نادر في أكتوبر ونوفمبر 1739.

22. يرى AAN, pp. 766-777 أن جرائم القتل قد حدثت قبل فترة وجيزة معرفة رضا قولي بخبر نصر نادر في كارنال. ويعتقد لوكهارت أنه قد حدث انقطاع طويل في

الاتصالات، ما يعني أن رضا قولي لم يكن يعلم بخبر كارنال حتى أواخر فبراير أو مطلع مارس 1740 (رغم أن لوكهارت أعرب عن دهشته من تأخر وصول الأنباء إلى مشهد كل هذا الوقت الطويل– ص 178). وقد يكون براتيشتشيف (Bratishchev) قد ضلل لوكهارت بقوله إن عمليات القتل قد وقعت في النصف الأول من عام 1740 (ص 467). غير أن التسلسل الزمني لدى براتيشتشيف يعاني من التشوش لأنه هو أيضاً يربط بين جرائم القتل وتأخر الاتصالات في ربيع عام 1739، لكنه أشار صراحة إلى أن هذا التوقف لم يدم سوى ثلاثة أشهر بدءاً من غزو نادر للاهور، الأمر الذي يرجح أن يكون في سنة 1740، وهو التاريخ الذي ورد في نص براتيشتشيف، خطأ تحريرياً بسيطاً، وبالتالي فإنه ينبغي أن يكون «النصف الأول من عام 1739». وتدعم الأدلة المكتشفة حديثا من محفوظات شركة الهند الشرقية الهولندية فكرة وقوع جرائم القتل في مايو أو يونيو 1739. ويقول الرواة إن خبر النصر في كارنال قد وصل إلى أصفهان في 23 يونيو 1739. وفي 30 يونيو أفاد الهولنديون عن انتشار شائعة مفادها بأن طهماسب قد فر (وفراره جزء من قصة من جرائم القتل في Hanway, vol. 4, p. 209)، وأن طهماسب قد قُتل يوم 3 يوليو، وقالوا في 1 أغسطس 1739 إن محمد حسين خان هو القاتل (Floor، Nader Shah والمراسلات مع ويليام فلور). ويقول Sheikh Hazin, pp. 301-2 إنه تم إعدام طهماسب يوم 7 صفر 1152 (16 مايو 1739)، وهو اليوم نفسه الذي غادر فيه نادر دلهي. وتشير الرواية التاريخية لواكهوشت (Wakhusht Chronicle) أيضاً إلى أن تاريخ عمليات القتل يعود إلى 1739 وليس 1740 (Brosset, vol. 2, 2me Livraison, p. 404). وهناك فجوة في مذكرات جومبرون من يوليو 1738 إلى أغسطس 1739.

23. AAN, pp. 766-771. إن رأي براتيشتشيف (ص 468) بأن رضا قولي قتل فاطمة بيجوم هو رأي أقل قبولا.

24. JN, pp. 99-100; BW, pp. 26-7; AAN, pp. 626,654-6.

25. Bratishchev, p. 480.

26. AAN, p. 785; BW, p. 29; Bratishchev, pp. 478-9.

27. JN, Vol. 2, p. 83, p p 101-3; AAN, pp. 788-93; BW, pp. 34-9. لم يسجل الميرزا مهدي (Mirza Mahdi) وBW وقوع أي معركة في قراكول، في حين أن محمد كاظم يصفها بشيء من التفصيل، ويستند لوكهارت إلى روايته (Nadir Shah, pp. 187-8). لكن المؤرخين الثلاثة كانوا مع الجيش في هذه الفترة والميرزا مهدي هو عادة موثوق أكثر، لذا من الممكن أنه قد حدث نوع من المناوشات. وثمة اختلافات أخرى بين تغطية المؤرخين لحملة تركستان (وخصوصا من حيث تحركات الأمراء). لكنني أميل إلى اعتماد رواية الميرزا مهدي وعبد الكريم الكشميري.

28. BW, p. 44 .

29. BW, pp. 165-6 and, pp. 92-3 .

30. AAN, pp. 800-1; Lockhart 1938, pp. 189-90. بقدر ما هو معروف بقي رضا قولي من دون زواج بعد انتحار فاطمة بيجوم. لكن شجرة العائلة التي وضعها لوكهارت اعتماداً على رواية محمد كاظم (Nadir Shah, p. 291) تشير إلى أنه قد ولد له ثلاثة أبناء آخرين بعد وفاتها. لذا قد يكون هناك زواج آخر غير مسجل أو أنهم من أبناء الجواري.

31. JN, Vol. 2, pp. 107-8; BW, pp. 50-1؛ يرى BW أن المعركة كانت حامية الوطيس وأن الفرس كانوا منهكين من العطش والتردد حتى جلب لهم نادر الماء وأعاد حشدهم.

32. JN, Vol. 2, pp. 108-9 ؛ وFloor Nader Shah(بشأن تقي خان). يقول براتيشتشيف (ص 479) إن رضا قولي ترك نادر في شاهارجو لأنه كان مريضاً، لكن ذلك يبدو مستبعداً.

33. BW, pp. 57-60؛ قال AAN إنه قد وقعت معركة في فتناك بين ديفي بويون وحزاراسب، لكن مرة أخرى لم يذكر ذلك لا الميرزا مهدي ولا BW.

34. JN, Vol. 2, pp. 109-12; Floor, Nader Shah (يرتكز سجل شركة الهند الشرقية الهولندية إلى إعلان النصر الذي أرسله نادر إلى رضا قُلي)؛ وHanway, vol. 4, p. 206 (الاقتباس من هانواي).

35. JN, Vol. 2, pp. 113-14; Hanway, Vol. 4, p. 207.

36. Floor, Dutch Trade; Bazin, p. 294; Hanway, Vol. 1, p. 245.

37. Malcolm History of Persia, Vol. 2, p. 103n - انظر أيضاً كتاب Lambton Landlord and Peasant, p. 132 (Lambton 1977. وللاطلاع على نظام الأمن على الطرق في ظل حكم الصفويين، انظر Floor 2000, pp. 33-5.

38. Floor, Nader Shah.

39. BW, pp. 51-2.

40. BW, pp. 71-2.

41. Hanway, Vol. 4, pp. 3 4.

42. يقول Hanway, vol. 4, p. 245 إن مشهد كانت تُعتبر العاصمة بحلول عام 1744، لكن يبدو أنه لا يوجد أي مؤرخ لديه علم بأي مرسوم في هذا الصدد أو يعلم في أي تاريخ أصبحت مشهد هي العاصمة.

43. BW, p. 74; AAN, p. 827. للاطلاع على أمثلة أخرى حول تردده ورفضه بناء قصر له في قزوين، انظر Floor، Nader Shah والملاحظة 49 أدناه.

44. JN, Vol. 2, p. 115; BW, pp. 75-6; Sheikh Hazin, p. 272; Hanway, Vol. 4, p 270. ولعل هانواي (Hanway) المؤرخ الوحيد الذي يقول إنه قد حدثت إعدامات في هذه المناسبة.

45. GD, 7/18 May 1734. 46.

46. Lockhart 1936, p. 12 ، نقلا عن مذكرات جومبرون؛ Bazin, p. 319.

47. بالنسبة للفقرات السابقة انظر: Lockhart 1938, pp. 182-4, 212-16؛ وانظر Lockhart 1936 وFloor 1987, pp. 43-49 (رغم أنه يبدو أن هناك خطأ مطبعيا في مقالة Floor حول تاريخ المعركة البحرية في يناير 1739). وتوفر هذه الروايات تفصيلا أكثر للأحداث.

48. AAN, p. 832.

49. Bratischev, p. 480 .

50. JN, Vol. 2, p. 118 .

51. Vatatzes, p. 277. Cf. Bratishchev, pp. 474-77; especially, p. 475. في رواية فاتاتزيز أدت هذه الخيانة بصورة مباشرة إلى كف بصر رضا قولي عندما كان نادر في منطقة القوقاز. لكن رغم عدم دقة فاتاتزيز في تسلسل الأحداث إلا أن روايته قريبة مما كان يمكن لرضا قولي (وغيره) أن يقوله في ذلك الوقت. ويوافق محمد كاظم (ص 837) على أنه قد تم تحذير نادر بخصوص رضا قولي قبل محاولة الاغتيال في سواد كوه.

52. AAN, pp. 8334; BW, pp. 80-1 .

53. JN, Vol. 2, pp. 120-2 .

54. Hanway, Vol. 1, p. 249 .

55. AAN, pp. 8345; JN, Vol. 2, pp. 122-3; BW, pp. 85-6; Hanway, Vol. 4, p. 210; Bratishchev, pp. 483-6 .

56. Bratishchev, p. 487; JN, Vol. 2, p. 123 .

57. Lockhart 1938, p. 200 (نقلاً عن سولوفييف).

58. Bazin, p. 319 .

59. BW, pp. 163,165-6 .

60. JN, Vol. 2, pp. 123-5 .

61. JN, Vol. 2, p. 125 .

62. JN, Vol. 2, p. 126; Bazin, p. 290; Hanway, Vol. 4, p. 224 .

63. Hanway, Vol. 1, pp. 126-7 and, Vol. 4, pp. 225-6: Lockhart 1938, pp. 204-6.

64. JN, Vol. 2, pp. 127-8 .

65. JN, Vol. 2, pp. 129-32 .

66. JN, Vol. 2, pp. 133-5; Lockhart 1938, pp. 206-7 .

67. AAN, pp. 835-7; Bratishchev, p. 490. لقد تتبعتُ رواية محمد كاظم في معظم النواحي.

68. Hanway, Vol. 4, p. 210n.

69. Bratishchev, pp. 495-6.

70. قمت بتجميع ما يلي من AAN, pp. 851-3؛ وBratishchev, pp. 497-503؛ و Hanway, vol. 4, pp. 210-11. وقد أغفل الميرزا مهدي ذكر عمى رضا ق،لي في سرده الرئيسي الذي كتبه في أثناء حياة نادر، إلا أنه لم يكتب صراحة عن حادثة العمى إلا في الفصل الأخير من كتابه بعد وفاة نادر.

71. Hanway, Vol. 4, pp. 211,211n.

72. يقول بازين إن نادراً أمر بخنق 50 من حاشيته الذين وقفوا جانباً عندما أصيب رضا قولي بالعمى لأنهم لم يقدموا أنفسهم مكانه (ص 294)، لكن يبدو أن بازين قد بالغ في إظهار رعب نادر في عدد من النقاط لأن عمليات القتل هذه لم يذكرها أي من المؤرخين الآخرين.

الفصل التاسع– أبراج من الجماجم

1. AAN,p.853. 2. JN, Vol.

2. 2, p. 127.

3. Hanway, Vol. 1, p. 300.

4. JN, Vol. 2, p. 187.

5. Viktor E Frankl, M h for Meaning (New York 1959), p. 126.

6. Emin, p. 266.

7. JN, Vol. 2, p. 139; Lockhart, Nadir Shah, pp. 209-11.

8. JN, Vol. 2, pp. 140-1. من المحتمل أن تكون الهدايا التي قدمها محمد شاه هي الهدايا التي أعرب نادر عن شكره عليها في الرسالة التي سجلها Riazul Islam 1982,

.vol 2, p. 108

9. AAN, pp. 887-8; Hanway, Vol. 1, p. 253 .

10. Christopher Duffy, The Army of Frederick the Great Newton Abbot.

.1974

بلغ عديد الجيش النمساوي 177500 جندي في عام 1756 في حين أن عدد أفراد الجيش البروسي كان 143 ألفا.

11. (Emin, pp. 7-8 (for Hamadan); Lockhart, Nadir Shah, p. 197 (Mashhad.

تشير يوميات جومبرون للفترة 30/19 سبتمبر 1739 إلى وجود تأثير مماثل. انظر أيضاً Floor، Dutch Trade. ويبدو أن أصفهان لم تشارك في إحياء الاقتصاد حيث وصلت التجارة إلى مستوى متدني للغاية جعل شركة الهند الشرقية الهولندية تقرر في مارس 1740 إغلاق مصنعها، كما احتاجت كرمان إلى أكثر من نصف عقد من الزمن للتعافي من النهب والفساد في 1736. ووفقا لسجلات شركة الهند الشرقية الهولندية فقد بلغت أسعار الفائدة الشهرية 2٪ شهرياً في أصفهان في مارس 1738 (Floor، Nader Shah)، وهذه النسبة ليست منخفضة إلا أنها قد ارتفعت في مطلع عام 1747إلى رقم مدمر هو 15٪ في الشهر كحد أدنى في بندر عباس (Lockhart, Nadir Shah, p. 286) لأن ابتزاز الشاه كان شديداً ولا يمكن التنبؤ به لدرجة أنه لا يمكن أن يتحمل خطر إفلاس المقترضين قبل سداد ديونهم إلا القليل من المقرضين. لمعرفة المزيد عن المعاناة والحرمان اللذين سادا ابتداء عام من 1743 والأعوام التي تلت ذلك انظر Hanway, vol. 1, pp. 223, 233-4, 242-3; Lerch, p. 417؛ وLambton, Landlord and Peasant, p. 133(نقلاً عن تاريخ الكرمليين)؛ وFloor, Dutch Trade; Emin, p. 8. ولا يدعم لوكهارت الادعاء بأنه قد حصل فعلا إعفاء من الضرائب لمدة ثلاث سنوات (Nadir Shah, p. 238؛ وكرر Lambton 1977, p. 128 هذا الرأي لكن لم يثبت صحة المرجع الذي استشهدتْ به هناك)؛ ورغم أن الإعفاء قد انتهى في ربيع عام 1742 إلا أنه يتضح من روايات نائبي ابنه أن المسؤولين في العديد من الأماكن قد واصلوا جبي الضرائب قبل ذلك التاريخ.

12. Floor, Dutch Trade.

13. AAN, p. 914 .

14. Hanway, Vol. 4, p. 275؛ ويورد Malcolm, History of Persia, vol. 2, p. 107 القصة نفسها. قارن أيضاً مع التبرير الذاتي لنادر الوارد في الفصل 6 (الملاحظة 4).

15. انظر الفصل 6، الملاحظة 66؛ وأيضاً كتاب Lockhart, Nadir Shah, p. 159 للاطلاع على أحد الأمثلة من حملة نادر في الهند على حالة استفاد فيها من اللون الأحمر في بث الرعب بالفعل بالطريقة المرجوة.

16. JN, Vol. 2, pp. 142-3 .

17. JN, Vol. 2, pp. 144-5; AAN, pp. 899-905؛ للاطلاع على الأحداث في اسطنبول، انظر Olson, pp. 154-.

18. لحصار الموصل استندتُ إلى رواية JN, vol. 2, pp. 145-6; Olson 1975, pp. 174-5, 186-7; Lockhart, Nadir Shah, pp. 229-32. وتختلف التواريخ التي أوردها Olson قليلاً في نقطة واحدة أو اثنتين عن تلك التي قدمها الميرزا مهدي؛ وقد استندتُ إلى رواية هذا الأخير.

19. ذكر الفرنسيون بعد رحيل نادر من دلهي عام 1739 اعتماداً على مصادر فارسية أن نادراً كان يعتزم محاصرة اسطنبول وإخضاع الأتراك العثمانيين (Subrahmanyam, p. 356).

20. Olson 1975, pp. 174-5, 186-7. وقد بالغ Olson إلى حد ما في إظهار أهمية الحصار المفروض على مدينة الموصل وتجنب تقريباً ذكر هزيمة العثمانيين في معركة باغاوارد الثانية.

انظر أيضاً Lockhart, Nadir Shah, p. 231.

21. JN, Vol. 2, p. 155 .

22. عندما كتبتُ هذا كنت أفكر في عبارة جون ونكلر (John Winkler) بخصوص ضحك المرأة في اليونان الكلاسيكية («The Laughter of the Oppressed», in The

Constraints of Desire, London and New York, 1990)، لكنني عندما رجعتُ للنص وجدتُ أن ونكلر نفسه قد رجع إلى أبحاث كيفن صفا– أصفهاني في مجال الإيماء والتورية في أوساط النساء في إيران الحديثة.

23. Abdollah al-Suwaydi نقلا عن Tucker 1994, p. 171.

24. Abdollah al-Suwaydi نقلا عن Lockhart Nadir Shah, p. 272.

25. Tucker 1994, pp. 173-5.. وتبع روايتي عن مجلس النجف تحليل تاكر.

26. ويليام أسبنويل، الممثل الدبلوماسي البريطاني في اسطنبول؛ المشار إليه في Olson 1975, p. 186.

27. JN, Vol. 2, p. 161.

28. Hanway, vol. 4, p. 268؛ للاطلاع على موقفه من زوجته وأطفاله انظر Bratish-chev, p. 483.

29. استقي وصف مخيم نادر من كتاب Hanway, vol. 1, pp. 243-251 ومخطط Bazin (ص 242). وقد ذكر Bazin أن عدد الكشكجيين كان 3 آلاف؛ وأشار Hanway إلى أنهم 4 آلاف وقال القس أبراهام إنهم كانوا 6 آلاف (ص 79). وربما قد حدث تغير وتذبذب في الأرقام مع مرور الوقت.

30. Hanway, Vol. 1, pp. 251-3.

31. Hanway, Vol. 1, pp. 265-76.

32. JN, Vol. 2, pp. 157-9,164.

33. Hanway, Vol. 1, pp. 1924,296-303; JN, pp. 161-2.

34. JN, Vol. 2, p. 162.

35. Lockhart 1936, pp. 12-14; Floor 1987, pp. 51-3.

36. Floor, Nader Shah; Bazin, pp. 196-7; JN, Vol. 2, p. 160-1.

37. JN, Vol. 2, p. 161; Hanway, Vol. 2,p. 243; Floor, Nader Shah; Lockhart, Nadir Shah, p. 242.

38. Hanway, Vol. 4, p. 243.

39. Hanway, Vol. 4, p. 243; Bazin, p. 197; JN, Vol. 2, p. 161; Lockhart, Nadir Shah, pp. 242-3.

40. JN, Vol. 2, p. 164.

41. JN, Vol. 2, pp. 165-7. استندتُ إلى رواية الميرزا مهدي لبيان سير هذه الأحداث وتسلسلها الزمني. وقد استند لوكهارت إلى فون هامر عندما اعتبر أن نادراً قد وصل إلى قارس في وقت سابق، لكننا إذا اعتمدنا تاريخا لاحقا فإن ذلك يناسب سير الأحداث بشكل أفضل. ولا يرى الميرزا مهدي أن نادراً قد انسحب من قارس عمداً للهجوم على اللزجيين وإنما يقول بطريقته الحاذقة وغير المباشرة بأنه لم يكن أحد آنذاك يعرف تماماً ما كان الشاه ينوي القيام به بمن فيهم نادر.

42. JN, Vol. 2, pp. 167-8.

43. JN, Vol. 2, pp. 169-71; AAN, p. 1057. إن رواية Bazin للزيجات مشوه، ويبدو أنه قد أرخها بتاريخ 1743 (ص 293). وربما يكون محرره قد أخطأ بتواريخه أو أساء فهمها لأنه بعد بضع صفحات يقفز من سبتمبر 1744 إلى ديسمبر 1746 (ص 299—302).

44. 11 رجب؛ يبدو أن Lockhart، Nadir Shah، p 205. قد خلط بين تواريخ الميرزا مهدي، ما جعله يحدد التاريخ على أنه 11 أغسطس. لكن فاتاتزيز يؤكد أن 9 أغسطس 1745 هو التاريخ الصحيح (ص 284).

45. AAN, pp. 1058, 1072. يُشك فيما لو كان لدى محمد كاظم فكرة واضحة عما يعنيه ذلك إذ ربما كان يقول شيئاً أخبره إياه أحد ضباط نادر. وثمة صدى لذلك في سرد فاتاتزيز الذي يبدو أنه في أحد المواضع كان يصف الجهود التي بذلها الجنود العثمانيون لجعل تشكيلاتهم خطية إذ قال: «بعض التشكيلات مقوسة، وبعضها الآخر ملتوية، وبعضها مستقيمة» (ص 283).

46. فاتاتزيز (ص 282—383) هو المصدر القائل بأن الفرسان من كلا الجانبين بقوا بعيدين عن بعضهم عن بعض في البداية، فأكد أن الفرسان الفارسيين كانوا متفوقين وأن الفرسان

العثمانيين كانوا يخشون من الهجوم عليهم (تقول إحدى المصادر التي قدمها شعباني أيضاً إن العثمانيين كانوا يفتقرون إلى الإرادة لقتال الفرسان– شعباني,Sha«bani 1977 pp. 34-7). وعلى نقيض ذلك، تشير المصادر العثمانية إلى اقتراب قواتها لضرب الفرس (Cambridge History of Iran, vol. 7, p. 309).

47. Vatatzes, pp. 2834; Hanway, p. 252 .

48. JN, Vol. 2, p. 172: Sha«bani 1977, pp. 34-7 .

49. Vatatzes, p. 284 .

50. JN, Vol. 2, pp. 1714; Hanway, Vol. 4, pp. 252-3; AAN, pp. 1071-2; von Hammer, Vol. XV, pp. 96-7; Vatatzes, pp. 280-5; Sha«bani 1977, pp. 34-7; Lockhart, Nadir Shah, p. 250. لقد استخدمتُ رواية فاتاتزيز لأنه يتميز بالتفاصيل الحية بدلاً من الهيكل العام للأحداث.

51. AAN, p. 1072 .

52. Von Hammer, Vol. XV, p. 98 .

53. JN, Vol. 2, p. 176 .

54. Emin, p. 12 (إن تسلسل الأزمنة لدى أمين في أصفهان خاطئ لكن هذه هي المرة الوحيدة التي يتقاطع فيها خط سيره مع خط سير نادر).

55. Hanway, Vol. 4, p. 272؛ وقد استقيتُ الاقتباس التالي حول الضرب من AAN, p. 1084.

56. AAN, pp. 1084-8 .

57. AAN, pp. 1183-5 .

58. JN, Vol. 2, p. 178 .

59. JN, Vol. 2, pp. 1804; von Hammer, Vol. XV, pp. 117-8 .

60. JN, Vol. 2, p. 179 .

.Bazin, pp. 300-1 .61

.Bazin, pp. 300-2; JN, Vol. 2, p. 189; Emin, p. 12 .62

الفصل العاشر – العودة إلى المبتدأ

(Bazin, p. 304 (physical description, pp. 315-16 .1

JN, Vol. 2, pp. 179, 189; Hanway, Vol. 4, pp. 259-60; Vatatzes, pp. .2 295-7

JN, Vol. 2, p. 186 (including Nowruz quote); Hanway, Vol. 4, p. 259; .3 .Lockhart 1938, p. 259; Bazin, p. 307 .

Bazin,pp.307-10 .4

.5 انظر Lambton 1980 وDarling 2002 على وجه الخصوص.

.JN, Vol. 2, pp. 186,188 .6

.Golestane, p. 13 .7

.Bazin, pp. 310-11; JN, Vol. 2, p. 190 .8

.Vatatzes, pp. 297-8 .9

.10 يقول Bazin إن نادراً أبقى على الحصان مسرجاً في مقصورة الحريم عدة أيام كي يتمكن من الهروب في حالات الطوارئ. ويقول Bazin وGolestane إنه قد فر أو حتى ترك المخيم لكن تم إقناعه بالعودة. ويبدو أنه ببساطة لم يكن نادر عاقلاً تماماً في ذلك الوقت، لذا فإن هذا السلوك ممكن، لكن القصص التي تتناول محاولة هروبه هي من سمات الروايات المثيرة في تلك الفترة.

.Bazin, p. 315 .11

Golestane, pp. 15-19; Bazin, pp. 314-15; BW, pp. 166-7; Hanway, .12 .pp. 261-2; JN, Vol. 2, p. 190; Vatatzes, pp. 297-301; Lerch, pp. 4434 أورد جوليستان وبازين أكثر الروايات تفصيلاً عن مقتل نادر. فبحسب بازين كان نادر يناهز

من العمر 65 أو 66 عندما توفي. لكن من الواضح أن مرضه قد جعله يبدو هرما، وحتى من يتمتع ببعض الخبرة الطبية قد يقلل من تأثير ذلك. وقد بالغ السويدي في بيان مظهره المسن إلى ما هو أبعد من ذلك إذ قال إن عمره كان يبدو 80 عاماً عندما رآه في أواخر عام 1743 (انظر الفصل 7). وعلى نقيض ذلك، يعتقد عبد الكريم الكشميري الذي كان صديقاً حميماً لطبيب نادر علوي خان (الذي كان يتمتع بخبرة طبية تفوق بازين بكثير) إن عمره كان لا يتعدى 50 عاما عندما مات رغم علمه أن بعض الناس يعتبرون تاريخ ميلاده 1687 أو 1691. وأكد أن تاريخ ميلاد نادر لم يكن معروفا لأنه لا أحد لديه مخطط برجه الفلكي (ص 170). وقدّر الفارس جاردان (في كتاب Clairac, vol. 3, p. 105) عمره بأربعين عاما تقريباً في سنة 1730. ولكن شركة الهند الشرقية الهولندية ذكرت في قصة تعود إلى عام 1736 (مع بعض الشكوك) أن عمر نادر كان «يزيد على 60 عاماً وأنه كان مريضاً وعلى وشك التقاعد (Floor، Nader Shah). وهذه الرواية التي يمكن الاستنتاج منها أن تاريخ تولده 1676 أو قبل ذلك (وهو تاريخ مستحيل) تجعل المرء يفكر بالنظرية القائلة بأن مروجي الإشاعات ممن يكنون له العداوة قد بالغوا في إظهار كبر سنه وعجزه من أجل إضعاف الثقة في حكمه. ومن الممكن أن يكون الكتاب الغربيون مثل هانواي قد صدقوا هذه الأقوال واعتبروا أن تاريخ ميلاد نادر أسبق مما هو عليه في الواقع، ما أدى إلى انتشار اعتقاد خاطئ بخصوص تاريخ مولده. انظر أيضاً الملاحظة الأولى في الفصل 1.

13. JN, Vol. 2, pp. 191-2; Bazin, pp. 328-30; Golestane, pp. 22-5.

14. Bazin, pp. 331-2.

15. Keddie, Qajar Iran, pp. 37,87,89.

16. Keddie, Qajar Iran, p. 91

17. Malcolm, History, Vol. 2, pp. 107-8.

18. Malcolm, History, Vol. 2, p. 97; and Lockhart 1938, p. 209. للاطلاع على صيغة أكثر معاصرة وقبولا لكلمات رضا قولي التي نقلها محمد كاظم، انظر الفصل 7.

مراجع مختارة

تشمل بعض النقاط الواردة أدناه تعليقات موجزة، لكن إذا أردت الوصول إلى مناقشة مستفيضة لعدد من أهم المصادر الحديثة، انظر Tucker (1992 و1993 و1998) وملاحق كتاب Lockhart - The Fall of the Safavi Dynasty and Nadir Shah.

Abd ol-Karim Kashmiri Bayan-e-Waqe« (BW), trans. H. G. Pritchard, BM MS Add 30782, fols. 64112; also trans. Francis Gladwin The Memoirs of Khojeh Abdul-Kurreem, Calcutta 1788 (ترجم بريتشارد النصف الأول من النص، وجلادوين النصف الثاني؛ وتمت الإشارة إلى مراجع الترجمة السابقة عن طريق أرقام الإحالة (Folio Numbers)، وتمت الإشارة إلى السابق بأرقام الصفحات)

Original Persian text BM MS Add 8909; modem edition ed. K. B. Nasim, Lahore 1970

Abraham of Erevan History of the Wars (1721-1738), ed. and trans. G. A. Boumoutian, Costa Mesa 1999

Abraham of Crete The Chronicle of Abraham of Crete (CAC), ed. and trans. G. A. Bournoutian, Costa Mesa 1999

Abo »1-Hasan ibn Amin Golestane Mojmal ol-tavarikh, published as Mujmil et-Tarikh-e Badnaderije, Leiden 1891 (Modem edition ed. Mudarris Rezavi, Tehran 1965)

Adle, Chahryar, »La bataille de Mehmandust (1142/1729)«, in Studia Iranica 2, Fascicle 2, 1973, pp. 235-41

Alam, Muzaffar, The Crisis of Empire in Mughal North India: Awadh and the Punjab, 170748, Delhi 1986

Algar, Hamid, »Shi«ism and Iran in the Eighteenth Century«, in Studies in 18th« Century Islamic History, ed. Thomas Naff and Roger Owen, Carbondale and Edwardsville 1977, pp. 288-302

Anand Ram Mokhles, »Tadhkere« (ARM), trans. Lt. Perkins, BM MS Add 30780, fols. 162a-184a; printed in Eliot and Dowson, The History of India as told by its own Historians, London 1867, Vol. VIII, pp. 76-98

Ajomand, Said Amir, The Shadow of God and the Hidden Imam, Chicago 1984

Arunova, M. R., and K. Z. Ashrafyan, Gosudarstuo Nadir-Shaka Afshara, Moscow 1958

Astarabadi, Mirza Mohammad Mahdi, (Tarikh-e) Jahangosha-ye Naderi (JN), translated into French by Sir William Jones as the Histoire de Nader Chah, London 1770; original Persian text ed. Abdollah Anvar, Tehran 1377 (1998))- تحتوي ترجمة جونز (Jones) على العديد من الأخطاء، خاصة فيما يتصل بالتواريخ والأسماء، لكنها نسخة متوفرة لأولئك الذين لا يستطيعون فهم اللغة الفارسية التي كتبت بها هذه النسخة عن هذا العهد التاريخي الهام من حياة نادر شاه وعصره. وهناك بعض التناقضات والاختلافات بين ترجمة جونز والنسخ الفارسية الحديثة تعكس أوجه الاختلاف بين المخطوطات الفارسية الأصلية، وليس عدم دقة في ترجمة جونز. وقد كان الميرزا مهدي المؤرخ الرسمي لنادر، ولذلك تجنّب كتابة أي شيء حساس بالنسبة لنادر في عمله. وهناك أيضاً مؤشرات على أنه في الوقت الذي تم فيه الانتهاء من العمل (بعد وفاة نادر بحوالي عقد من الزمن)، أراد الميرزا مهدي تفادي الإساءة إلى بعض الشخصيات البارزة من قبيلة قاجار. مع ذلك، فإن رواية الميرزا مهدي المفصلة تعتبر أفضل وأهم مصدر عن حياة نادر شاه، وحتى في المواضع التي تثير الشك في دقتها، تظل الرواية المصدر الأكثر دقة.

Axworthy, Michael, (Basile Vatatzes and his History of Nader Shah) (article, forthcoming)

Babayan, Kathryn, Mystics, Monarchs and Messiahs: Cultural Landscapes of Early Modern Iran, Cambridge (Massachusetts) 2002

Babayan, Kathryn, ««In Spirit We Ate of Each Other«s Sorrow»: Female Companionship in Seventeenth-Century Safavi Iran« (article, forthcoming)

Bachoud, Pere Louis, »Lettre du Ere Bachoud, Missionaire de la Compagnie de Jesus en Perse, Ecrite de Chamakie le 25 Septembre 1721«, in Lettres Edifiantes et Curieuses Ecrites des Missions Etrang2res, Paris 1780, Vol. IV, pp. 113-124

Bayly, C. A., Imperial Meridian: The British Empire and the World 1780-1830, Longman 1989

Bazin, P&re Louis, »M6moires sur les demieres ann6es du regne de Thamas Kouli-Kan et sa mort tragique, contenus dans un lettre du Frere Bazin« (1751), in Lettres Ed@ntes et Curieuses Ecrites des Missions Etrangt?res, Paris 1780, vol. IV, pp. 277-321 (a second letter by Bazin follows, pagc 322-64)

Beck، Lois The Qashqa«i of Iran، Yale 1986

Bellamy، Christopher، The Evolution of Modern Land Warfare: Theory an Practice، London 1990

Blake، Stephen P.، Shahjahanabad: The Sovereign City in Mughal India، 1739 –1639; Cambridge 1991

Bratishchev, V., Nachricht von denen traurigen Begebenheiten, die sich zwischen dem Persischen Schache Nadir und dessen Sohne Resa Kuli Mirsa

in den Jahren 1741 und 1742 zugetragen haben, in G. F. Mueller. Sammlung Russischer Geschichte, St Petersburg 1763, pp. 459-503

Brosset, M.-F. (ed.), Histoire de la Giorgie, St Petersburg 1856-1857, Vol. 2, Parts 1 and 2, (contains inter alia the chronicles of Vakhusht and Sekhnia Chkheidze)

de Bruyn, Comelis, Voyages, Amsterdam 1718

Cambridge History of Iran, Cambridge 1961-1991, Vols. 6 and 7 (various editors)- particularly the account by Peter Avery in Vol. 7 of Nader Shah«s reign (pp. 3-51)

Cassels, Lavender, The Struggle for the Ottoman Empire, 1717-1740, London 1966

Chandra, Satish, Parties and Politics at the Mughal Court 1707-1740, second edition, Delhi 1972

Clairac, Louis Andre de la Mamye, Histoire de Perse, Paris 1750

Cooper, Randolf G. S., The Maratha Campaigns and the Contest for India, Cambridge 2003

Curzon، Lord G. N.، Persia and the Persian Question، Lonon 1966

Darling, Linda T., ««Do Justice, Do Justice, for That Is Paradise»: Middle Eastern Advice for Indian Muslim Rulers«, in Comparative Studies of South Asia, Africa and the Middle East, Vol. XXII, Nos. 1 and 2(2002), pp. 3-19

Diba, Layla S., »Visual and Written Sources: Dating Eighteenth-Century Silks«, in Carol Bier (ed.), Woven from the Soul, Spun from the Heart, Washington 1987, pp. 84-96

Diba, Layla S., Royal Persian Paintings, London and Brooklyn 1998

Dickson, Martin B., »The Fall of the Safavi Dynasty«, in the Journal of the American Oriental Society, vol. 82 (1962), pp. 503-17. — هجوم دكسون على لوكهارت في هذه المقالة هو قاصر وغير معتدل، بصرف النظر عن وجود أخطاء جوهرية في الجزء الخاص بوكهارت. كما أن الأجزاء الأكثر أهمية من المقال تقدم الأساس وقد توصف بأنها مجرد ازدراءات موسعة (انظر الفصل الثالث، الملحوظة رقم 36). وانتقد دكسون لوكهارت (من ص 515 وما بعدها) لأنه تجاهل التطورات الاجتماعية والاقتصادية وغيرها من التطورات من أجل تقديم رواية سياسية صرف. يمكنك المقارنة بين مقدمة دكسون لرسالة الدكتوراه الخاصة به بعنوان (Shah Tahmasb and the Uz-beks)، والتي يصف فيها أبعاد الدراسة بقوله: «هناك قيود تم اتباعها في الدراسة تتمثل في التركيز على الجانب السياسي لهذه العلاقات. وآمل أن يساعد ظهور الخلفية الضرورية هنا في إكساب الدراسات الثقافية والاقتصادية والمؤسسية اللاحقة المزيد من الأهمية» (ص 1). وقد لفت مارشال جي هودجسون إلى فشل دكسون في النشر (Venture of Islam, vol. 3, p. 29n): وقد كانت إنجازات لوكهارت على مستوى الطباعة كبيرة جداً مقارنة بالسابق. ومنذ وفاة دكسون، أثبتت مطبوعات وكتابات طلابه إنجازه الكبير كمعلم.

Elgood, Robert, Firearms of the Islamic World, London 1995

Emin, Joseph, The Life and Adventures of Joseph Emin, ed. Amy Apcar, Calcutta 1918

Ferdowsi, The Tragedy of Sohrab and Rostam, trans. Jerome W Clinton, Washington 1987, revised edition 1996

Floor, Willem, »The Revolt of Shaikh Ahmad Madani in Laristan and the Garmsirat (1733—1730)«، in Studia Iranica، 1983) 12)، pp. 93—63

Floor, Willem, »The Iranian Navy in the Gulf during the Eighteenth Century«, in Iranian Studies, 20 (1987), pp. 31-53

Floor, Willem, The Afghan Occupation of Safavid Persia 1721-1729, Paris 1998

Floor, Willem, »New Facts on Nadir Shah«s Campaign in India«, in Iran and Iranian Studies: Essays in Honour of Iraj Afshar, ed. Kambiz Eslami, Princeton 1998, pp. 198-219

Floor, Willem, The Persian Textile Indust y, Paris 1999

Floor, Willem, The Economy of Safavid Persia, Wiesbaden 2000

–(تصدر قريبا) –Floor, Willem, Nuder Shah: God«s Wrath and Punishment

استنادا إلى إصدار سابق نشر بالفارسية في طهران عام 1989). هذا الإصدار لا يُقدر بثمن شأنه شأن الكثير من الدراسات السابقة لويليم فلور، كونه يحمل اقتباسات موسعة عن مواد أصلية تابعة لشركة دوتش إيست إنديا. وفضلا عن تقديم معلومات وتواريخ دقيقة لعدد من الأحداث الهامة، فإن هذه الدراسة تنقل الكثير من الشائعات والروايات الدارجة أيضاً (من التحذير بين الحين والآخر من أن الزمن كفيل بإثبات صحة هذه الروايات) التي تعطي بعدا إضافيا لمجموعة من المصادر الحديثة المتوفرة.

Floor. Willem, <Dutch Trade in Afsharid Persia (1730-1753)> (article, forthcoming)

Foran, John, <The Long Fall of the Safavid Dynasty: Moving Beyond the Standard Views>, in The International Journal of Middle East Studies, No. 24 (1992), pp. 281-304

Fraser, James, The History of Nadir Shah, London 1742. I his irr?-.?-r: +I--- work includes a translation of Mirza Zaman«s journal k« .--:- .=- =-- : of Nader Shah«s invasion of India (Mirza Zaman was an ex.-e-...<~sr to those events), and some eyewitness impressions by the British 5251 India Company«s representative in Isfahan، Cockell.

Gellner، Ernest، »The Tribal Society and its Enemies«, in The Conflict of TT?; and State in Iran and Afghanistan, ed. R. Tapper, London 1983, pp. 436-48

Gombroon diary (GD)— سجلات شركة الهند الشرقية الهولندية في بندر عباس، بناء على رسائل من تجار في أصفهان وكرمان وغيرها من الأماكن— محفوظة في قسم «المقتنيات المكتبية الهندية بالمكتبة البريطانية»— classmark GI291 vols. 3-6 and 16

Gommans, Jos, Rise of the Indo-Afghan Empire 1710-1780, Leiden 1995

Gomrnans, Jos, »Indian Warfare and Afghan Innovation During the Eighteenth Century«, in J. L. Gommans and D. H. A. Kolff (eds.), Wavfare and Weapon y in South Asia 1000-1800, India 2001, pp. 365-95

Gommans, Jos, Mughal Warfare, London 2002

Hall, John A., Powers and Liberties, Harmondsworth 1986

von Hammer-Purgstall, J., Histoire de 1«Empire Oftoman (French translation by J. J. Hellert), Paris 1835-1843

Haneda, M., »Army I11- Safavid«, in Encyclopaedia Iranica, ed. Ehsan Yarshater, London and New York 1987, Vol. 11, pp. 503-06

جونز هانواي: كتاب An Historical Account of the British Trade over the Caspian Sea، يُضاف إليه كتاب The Revolutions of Persia during the present Century، with the particular History of the great Usurper Nadir Kouli (المجلد الرابع)، لندن 1753. ويعتبر هانواي مصدراً جيدا لهذه الفترة حيث كان شاهد عيان في فارس في أوائل أربعينيات القرن الثامن عشر. بيد أنه يجب توخي الحذر في استخدام هذه المواد بسبب الجزء المتبقي من روايته الذي يركز بغزارة على كليراك وفريزر وغيرهم. وهو أحيانا ما يستخدم لهجة هجومية متعالية في الحديث عن الفرس، وتعرض لانتقادات من مالكولم (انظر المقدمة، ملاحظة رقم 4)

Harcharan Das, Chahar Guldhar Shuja«i, partly translated by Mun Sadasukh Lal, BM MS Add 30782, fols. 113-205

Hodgson, Marshall G. S., The Venture of Islam, Chicago 1974 (especially

1 3: The Gunpowder Empires and Modern Times)

Hookham, Hilda, Tamburlaine the Conqueror, London 1962

Islam, Riazul, Indo-Persian Relations, Tehran 1970

Islam, Riazul, A Calendar of Documents on Indo-Persian Relations, Tehran and Karachi 197911982

Keddie, Nikki R., Qajar Iran and the Rise of Reza Khan 1796-1925, Costa Mesa 1999

Krusinski, Fr Judasz Tadeusz, The History of the late Revolutions of Persia, London 1740; facsimile edition, New York 1973

Lambton, Ann K. S., Landlord and Peasant in Persia, London 1991

Lambton, Ann K. S., »The Tribal Resurgence and the Decline of the Bureaucracy in the Eighteenth Century«, in Thomas Naff and Roger Owen (eds.), Studies in lgth Century Islamic History, Carbondale and Edwardsville 1977, pp. 108-29.- هذا المقال الهام يستخدم «رستم الحكم» على وجه الخصوص أفضل استخدام، ورغم أن البعض شكك مؤخراً في الدراسة الأساسية للمبتون، فإنها لا تزال دراسة متأنية يُعتد بها.

Lambton, Ann K. S., Theory and Practice in Medieval Persian Government, London 1980

Lerch, Johann Jacob, »Nachricht von der zweiten Reise nach Persien von 2745 bis 1747, in Biisching«s Magazin, Vol. 10, Halle 1776

Lockhart, Laurence, »De Voulton«s Noticia«, in Bulletin of the School of Oriental Studies, Vol. 4, Part 2 (1926), pp. 23345

Lockhart, Laurence, »The Navy of Nadir Shah«, in Proceedings of the Iran Society, Vol. 1, Part 1, London 1936, pp. 3-18

Lockhart, Laurence, Nadir Shah, London 1938

Lockhart, Laurence, The Fall of the Safavi Dynasty and the Afghan Occupation of Persia, Cambridge 1958 — لا يزال هذا الكتاب، بسبب جميع الأخطاء التي حددها مارتن دكسون (انظر ديكسون 1962)، أفضل دليل متكامل يقع في مجلد واحد باللغة الإنجليزية على وقائع هذه الأحداث، شأنه شأن كتابه (Nadir Shah) الذي يصف الفترة اللاحقة؛ رغم أنه مكتوب بلغة قديمة. وقد وقع لوكهارت في الإحالات التي استخدمها، مثله مثل كثير من الباحثين، غير أنه كان دقيقاً في التمييز بين مصادره، ودائما ما كان يعطي أولوية متقدمة لروايات المعاصرين وشهود العيان. وستبقى ملاحق السير الموسعة للكتابين على جانب كبير من الأهمية بالنسبة للطلاب الجادين في دراسة هذه الفترة لسنوات عدة قادمة.

Lockhart, Laurence, »The Persian Army in the Safavid Period«, in Der Islam. 34 (1959), pp. 89-98

Malcolm, Sir John, »Translations of Two Letters of Nadir Shah, with Introductory Observations in a Letter to the President«, in Asiatick Researches, 1808, Vol. 10, pp. 526-47

Malcolm, Sir John, History of Persia, London 1815

Marvi Yazdi, Mohammad Kazem, Alam Ara-ye Naderi (3 vols.) (AAN) ed. Moharnmad ArninRiyahi, Tehran (Third edition) 137411995 — يعتبر تاريخ نادر في كتابات محمد كاظم محبطا وقصصيا ويفتقد إلى التواريخ وإلى الدقة، لكنه يعطي الكثير من التفاصيل والقصص الحية التي قلما تتوافر في أي رواية أخرى. فقد كان تقليدياً ورغم أنه محب للنجاحات العسكرية التي حققها نادر، لم يكن راضيا عن الطريقة التي استولى بها نادر على العرش، ورأى أن المتاعب والنوازل التي لحقت بنادر فيما بعد كانت عقاباً إلهياً له على صنيعه.

Matthee, Rudi, <Unwalled Cities and Restless Nomads: Fireanns &-I Artillery in Safavid Iran«, in Charles Melville (ed.), Safavtd Persia: T-- History and Politics of an Islamic Society, London 1996, pp. 389416

Matthee, Rudi, The Politics of Trade in Safavid Iran; Cambridge 1999

Matthee, Rudi, The Pursuit of Pleasure: Drugs and Stimulants in Iranian History 1500-1900, Princeton 2005

Miklukho-Maklai, N. D.,«Zapiski S Avramovaob Iranekakistoricheski-ilstochnzk«, in Uchenye Zapiski Lmingradskogo gosudarstvmnogo universiteta. Serira vostokovedcheskikh nauk, Part 3 (128), Leningrad 1952, pp. 88-103

Minasian, Caro A., (ed. and trans.), The Chronicle of Petros Grlanents, Lisbon 1959

Minorsky, V., »Esquisse d«une Histoire de Nadir-chah«, in Publications de la Socittt des Etudes Iraniennes et de 1«Art Persan, No. 10, Paris 1934, pp. 1-46

Minorsky, V. (ed. and trans.), Tadhkirat al-Muluk, Cambridge 1943

Mohsen, Mohammad, Zobdat ot-Tavarikh (ZT); Browne MS. G. 15 (13), .(Cambridge (modern edition ed. Behruz Gudarzi, Tehran 137511996 – كان محسن أحد موظفي جباية الضرائب لدى نادر. وقد قام نادر بوضع هذا التاريخ لابنه رضا قولي، وتمت كتابته عامي 1741 – 1742. ويعتبر محسن مصدرا هاما، ولاسيما بالنسبة لعرش الشاه سلطان حسين وابنه طهماسب، لكن روايته تنتهي في عام 1736. وخلافاً للميرزا مهدي، الذي كان مهذبا نسبيا مع أسلاف نادر، فقد كان محسن أصفهانياً، وكان حاضراً في حصار أصفهان وكان بالطبع أكثر انتقاداً.

Mohsen Siddiqi, Mohammad, Jowhar-e Samsam (JS), trans. A. R. Fuller

BM MS Add 30784

Moreen, Vera B. (ed.), Iranian Jewry During the Afghan Invasion Stuttgart 1990

Morgan, David, The Mongols, Oxford 1990

Morton, A. H., »The chub-i tariq and Qizilbash ritual in Safavid Persia«, in J. Calmard (ed.), Etudes Safavides, Paris and Tehran 1993

Murphey, Rhoads, Ottoman Warfare 1500-1700, London 2003 Olson, Robert W., The Siege of Mosul and Ottoman-Persian Relations 1718- 1743, Indiana/Bloomington 1975

Parker, Geoffrey, The Military Revolution, Cambridge 1988

Parry, V. J., and M. E. Yapp (eds.), War, Technology and Society in the Middle East, London 1975

Perry, J. R., »The Last Safavids«, in Iran IX (1971)

Perry, J. R., »Forced Migration in Iran During the Seventeenth and Eighteenth centuries«, in Iranian Studies, Vol. 8, Part 4 (1975), pp. 199-215

Perry, J. R., Karim Khan Zand, Chicago 1979

Perry, J. R., »Army IV- Afshar and Zand«, in Ehsan Yarshater (ed.), Encyclopaedia Iranica London and New York 1987, Vol. 11, pp. 506-8 Quddusi, Mohammad Hosein, Nadernama, Mashhad 1960

Rostam ol-Hokama, trans. and ed. Birgitt Hoffmann, in Persische Geschichte 1694-1835 erlebt, erinnert und erfunden- das Rustam at-Tawarikh in deutscker Bearbeitung (2 vols.), Bamberg 1986.- إذا كان محمد كاظم يمثل مصدر إلهام للتاريخ بصورة غير دقيقة (مثلما قال السير جيه ساركر في إحدى كتاباته)، فإن رستم

الحكماء يقدم وقائع التاريخ كما هي أثناء وقوعها. هذا الكتاب يكشف عالما متكاملا من الشائعات والقصص البذيئة، والحكايات الشائعة، والتي لم يكن لنا أن نعرفها ما لم ترد فيه. ومن خلال هذا الكتاب، نستطيع أن نخمن الخلفية القائمة وراء بعض النقاط التي ليس لدينا فهم كامل لها وجوانب سوء الفهم في كتابات المؤلفين الغربيين المعاصرين، والنقاط التي صمتت عنها الكتابات الفارسية الأكثر تشددا.

Saignes, PPre, <Lettre du Pere Saignes de Chandernagore, 10 Fevrier 1740>, in Lettres Edifiantes et Curieuses Ecrites des Missions Etrang6res; vol. IV, Paris 1780

Sarkar, J. N., Nadir Shah in India, Calcutta 1973- (طبعة معادة نُشرت للمرة الأولى عام 1925، وهي إصدار منقح عن سلسلة من المحاضرات التي ألقاها السير جيه ساركر في جامعة باتنا عام 1922) خلاصة هامة للمصادر الهندية والفارسية، لكنها تغفل عددا من المصادر الأخرى، لاسيما رسالة إيركل الثاني (Erekle IIs)، ورواية نادر نفسه عن معركة كارنال (في مرجع Malcolm، Letters 2) وعند Tieffenthaler

Sekhnia Chkheidze Chronique, in M.-F. Brosset (ed.), Histoire de la Giorgie, Vol. 2,2me Livraison, St Petersburg 1856-1857

Sefatgol, Mansur, »The Question of Awqaf Under the Afsharids«, in Rika Gyselen and Maria Szuppe (eds.), Studia Iranica: Cakiers vol. 21 IMateriaux pour I«Histoire Econornique du Monde Iranien, Paris 1999, pp. 209-29

Sha«bani, Reza, Tarikh-e Ejtema«i-ye Iran dar »asr-e Afshariye, Tehran 1986

Sha«bani, Reza (ed.), Hadis-e Nadershahi, Tehran 1977

Spear, Percival, Histo y of India (2 vols.), London 1990

Subrahmanyam, S., »Un Grand Dirangement: Dreaming an Indo-Persian Empire in South Asia, 1740-1800«, in Journal of Early Modern History, Lei-

den 2000, Vol. IV, pp. 337-79

Tapper, R., Frontier Nomads of Iran, Cambridge 1997 Taylor, James S., Jonas Hanway: Founder of the Marine Society, London and Berkeley 1985

Tieffenthaler, Father J., »Beschreibung des Feldzuges Thamas Kulikhan«, in J. Bernoulli (ed.), Historisch-Geographische Beschreibung von Hindustan, Berlin 1785-1787, Vol. 2, Part 2, p. 49f.

Tucker, Ernest, Religion and Politics in the Era of Nadir Shah: The Views of Six Contempora y Sources (unpublished Doctoral dissertation, University of Chicago, 1992)

Tucker, Ernest, »Explaining Nadir Shah: Kingship and Royal Legitimacy in Mohammad Kazim Marvi«s Tarikh-i alam-ara-yi Nadiri«, in Iranian Studies, Vol. 26,l-2 (1993), pp. 95-117

Tucker, Ernest, »Nadir Shah and the Ja«fari Madhhab Reconsidered«, in Iranian Studies vol. 27,14 (1994), pp. 163-79

Tucker, Ernest, »The Peace Negotiations of 1736: A Conceptual Turning Point in Ottoman-Iranian Relations«, in Turkish Studies Association Bulletin, 2011 (Spring 1996), pp. 16-37

Tucker, Ernest, »1739: History, Self and Other in Afsharid Iran and Mughal India«, in Iranian Studies, Vol. 31, No. 2 (Spring 1998), pp. 207-17

Vatatzes Basile, Voyages de Basile Vatace en Europe et en Asie, ed. E Legrand, Paris 1886

Vatatzes, Basile, Persica: Histoire de Chah-Nadir, ed. N Iorga, Bucharest 1939.– تاريخ فاتاتزيز الذي ظن الناس أنه قد ضاع، والذي لم تتم الاستفادة منه بالشكل الكافي نظرا لصعوبة وغموض اللغة اليونانية التي كُتب بها. وحسب معلوماتي، فإن

كتابي هذا يعتبر أول عمل عن حياة نادر يستخدم مادة فاتاتزيز، وما قمت به لا يعدو مجرد بداية في هذا الإطار. ويشتمل كتاب فاتاتزيز على الكثير من التكرار وعدم الدقة ويعتبر أيضاً غير جدير بالثقة، لكنه كان شاهد عيان لبعض الأحداث وسمع مباشرة من عدد من شهود العيان الآخرين. يمكن استخدام عمل فاتاتزيز بعناية وحرص لأنه يحتوي على معلومات قيمة ومفيدة انظر مقالي التالي، أعلاه:

Zeller, R., and E. F. Rohrer (eds.), Orientalische Sammlung Henri Moser-

.Charloffenfels, Bern 1955

